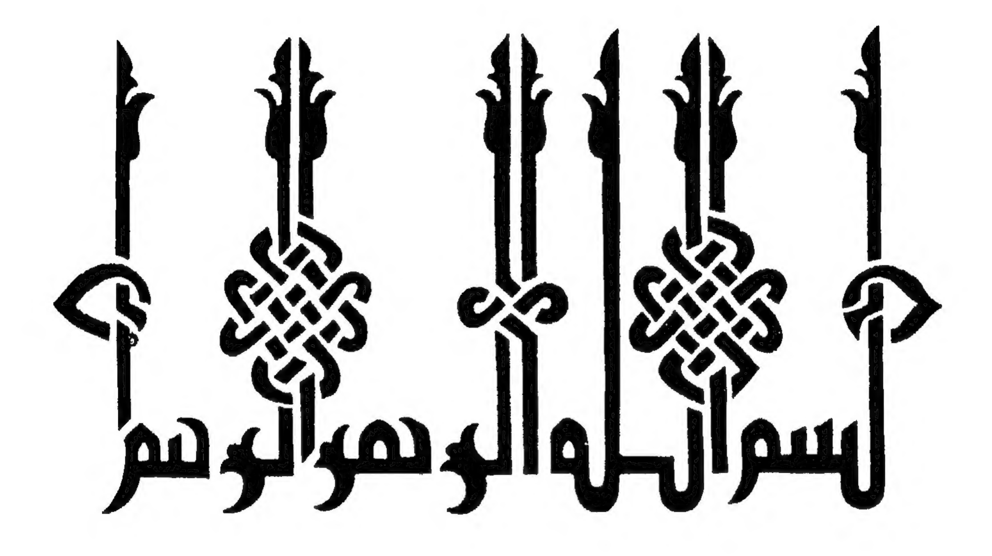
نظرات
في
التاريخ الإسلامي

تأليف
ابراهيم الأبياري

الناشرون
دار الكتب الاسلامية
دار الكتاب المصرى — القاهرة
دار الكتاب اللبنانى — بيروت

نظرات
في
التاريخ الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الاولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

دار الكتاب المصرى
القاهرة ج.م.ع
٣٢ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)
TELEX: 21581
ATT:134 K.T.M CAIRO
دار الكتاب اللبنانى
بيروت - لبنان

الإهـــداء

إلى روح أخى
عبد المنعم

الذى تلقيته وليدا فكانت الىّ تسميته ، واحتضنته ناشئا فكانت علىّ تنشئته ، وعاش فى كنفى شابا فتعهدته ورعيته ، وامتد بنا العمر فصحبنى وصحبته ، لذا كان حزنى عليه عظيما حين فقدته ،،

إبراهيم الأبيارى

ربيع الثانى ١٤٠١ هـ

فبراير ١٩٨١

إلى الذين يَعُونَ العظات ، أسوق هذه العظات

إبراهيم الأبيارى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة

لابد للتأريخ العام من تأريخ خاص ، يقع على مكان العظة فيستخلصها ، إذ نحن مع التاريخ العام نكاد لا نعى تلك العظات التى تنطوى مع سرد الأحداث التاريخية طيا ، وتضل فى ثناياها فتخفى ، وتغيب على القارىء كلها .

لذا عكفت على التاريخ العام أستخلص منه تلك العظات بعد أن أمهد لها بلمحات مجزئة من السرد التاريخى ، فالعظات التاريخية لا تساق مجردة عن هذا السرد التاريخى المهيىء ، ولا عن تلك الأحداث الملابسة ، وإلا كانت أقرب الى الأقاصيص المجردة ، وما إلى هذا قصدت ، وإنما قصدت أن أجعل من التاريخ العام وعاء لهذه العظات ، فأسوقها مزيجا من هذا وذاك ، مع قصد فى السرد التاريخى ، وإسهاب فى عرض العظة .

وقد بدأت من حيث بدأ الإسلام يظل الجزيرة العربية ، أسبق هذا البدء قليلا بكلمة موجزة عما كان قبل هذا البدء من أحداث كان لها أثرها فى حياة المسلمين بعد الإسلام .

وقد مضيت فى هذا الكتاب أؤرخ لحياة المسلمين حقبة بعد حقبة :
فجعلت من حياة العرب قبل الإسلام إلى مغيب الدولة الأمومية حقبة .
وجعلت مما لقى الهاشميون على أيدى الأمويين من عسف وجور حقبة .
وجعلت من تجمع كلمة الهاشميين التى مهدت لظهور الدولة العباسية حقبة .
وجعلت من الحديث على قيام الدولة الفاطمية حقبة .
وجعلت من الحديث على قيام الدولة الإخشيدية حقبة .

وجعلت من الحديث على قيام الدولة الأيوبية حقبة .
ثم جعلت من الحديث على عهد الأمراء الأتراك بمصر حقبة .

والحديث عن هذه الحقب السبع وإن بدأ عاما غير أنه ما لبث أن أصبح خاصا بمصر ، مع قيام الدولة الفاطمية ، لأن هذا التاريخ العام كان تمهيداً لهذا التاريخ الخاص .

وحين خرجت من هذا العموم إلى ذلك الخصوص .. كنت أملى عن نظرة أنا بها موصول ، تاركا لغيرى أن يملوا عن مثل عن تلك النظرة الخاصة كل فيما يخصه ، حين تحوّل التاريخ الإسلامى من العمومية إلى الخصوصية .

وأنا بعد هذا الانتهاء من التأريخ لعهد الأمراء الأتراك بمصر .. أكون قد أعددت الجزء الأول من كتابى هذا الذى يؤرخ لجزء من الوطن الإسلامى ، وسوف آخذ إن شاء الله فى تقديم الجزء الثانى منه الذى سوف يشمل :

١ - عهد الجراكسة بمصر .
٢ - ثم عهد العثمانيين بمصر .
٣ - ثم عهد الأسرة العلوية بمصر .

وبهذا أكون قد أرّخت لمصر الإسلامية منذ أن لفّها الإسلام بردائه ، قريبا من أربعة عشر قرنا ، تزيد قليلا ، وأكون قد مهّدت بهذا التاريخ الإسلامى الخاص بكلمة عن التاريخ الإسلامى العام ، الذى كان له أثره لاشك فى كل جزء من الوطن العربى .

ولقد كنت قدّمت جملة من حقب هذا الجزء فى كتيّبات مستقلة تحمل عناوين فرعية ، وهأنذا قد ضممتها هنا مع غيرها مما لم ينشر قبل بهذا العنوان العام .

،، والله خير معين ،،

إبراهيم الأبيارى

الحقبة الأولى :

العرب قبل الإسلام

- ١ -

جلس « عبد مناف » ذات مساء ، بين نفر من عشيرته وصحبه ، كما كان يجلس إليهم كل ليلة ، ولكنه كان مشغولا عنهم هذه المرة بشىء ملأ عليه رأسه ؛ فبدا بينهم واجماً مفكرا ، ولم يعودوا يسمعون منه حديث كل ليلة ، عن القوافل الغادية والرائحة ، وماتصادف فى طريقها من أحداث ، وماتجىء به من أخبار ! ... وكم حاولوا أن يحركوه للكلام ، فلم يظفروا منه إلا بإيماءة بالرأس أو إشارة باليد ! ...

وتحدث غير واحد منهم ولكنهم لم يجدوا القوم يصغون إليهم ؛ إصغاءهم لـ« عبد مناف » ؛ لأنهم لم يجدوا عندهم مايجدونه عند « عبد مناف » من حلاوة حديث ، وعذوبة صوت ، ولطف نادرة ، وقوة تأثير ! ...

ويسود المجلس صمت رهيب ، لايقطعه إلا همس هذا الرسول الذى أخذ يغدو ويروح ، فى الفينة بعد الفينة ، يحمل إلى « عبد مناف » رسالة يصبها فى أذنه همسا و« عبد مناف » يهش مرة ، ويقطِّب أخرى ، ولا يقول شيئاً !...

ويبلغ القمر وسط السماء ، وتنكشف تلك السحب الرقيقة عن قرصه المستدير ، فيغمر ضوءه الأرضَ ، ويمسح على وجوه القوم بنوره ، فإذا هى ناعسة الأطراف ، قد أسلمها الصمت إلى النوم ، فغطت فيه غطيطا ، ويلتفت « عبد مناف » إلى من حوله ليستقرىء الوجوه وجها وجها ، ثم ينهض من مكانه خفيفا ، قد ضم إليه أطراف عباءته حتى لايسمع لها حفيف ، ويخطو على تلك الرمال اللينة خفيفا كذلك ، حتى يبلغ بناء لم

يكن منه غير بعيد فيشخص إليه ببصره ، ويتمسح بأركانه ، ولسانه لا ينفك عن الكلام ، وتطول وقفة « عبد مناف » على هذه الحال ، ويوجس خيفة ، فيعود أدراجه الى حيث كان !...

وفيما هو يدخل على القوم مجلسهم خفيفا كما خرج منه ، إذا بعض العيون التى خالها حين تركها قد جمد بها النعاس ، قد حركتها اليقظة ، وإذا واحد من القوم يقول له :

أين كنت يا« عبد مناف » ؟...

وتعقد الحيرة لسان « عبد مناف » فيصمت ، ولا يكاد يمضى فى الصمت طويلا ، حتى ينبرى خبيث من القوم ، لم تكن قد غمضت له عين ، ولكنه كان يطبق جفنيه إخلادا للراحة ، فيجيب عن « عبد مناف » :

وهل كان إلا عند البيت يلوذُ به ويدعو ربه ؟!...

ويستيقظ القوم على هذا الحوار ، بين الفزع والبشرى ، وهم يرددون :

هل وضعت « عَاتِكة » ؟...

– ٢ –

كانت « عَاتِكَة بنتُ مُرَّةَ » زوجَ « عبد مناف » ، وكانت تلك الليلة ليلة مخاضها ، وقد حملت من قبل وولدت ، لم تحس رهقا ولا عسرا ... ولكنها كانت مضيقة هذه المرة بحملها ، تشكو ألماً مؤلما ، وتحس ثقلا مثقلا ، حتى إذا ما بلغ الحمل مبلغه لزمت فراشها ، لا تتحول عنه ، وهى التُى كانت تغدو وتروح ، ويفاجئها المَخَاض فى غَدْوة لها أو روحة فتستقبلُه هادئة مطمئنة !...

وقد فزِع لفزعها هذه المرة « عبدُ مناف » وأهمَّه شىء أوجس منه خيفة ، وكان مشغول الفكر بها ، حتى كانت تلك الليلة ، التى جلس فيها للقوم

صامتا مطرقا ، لم يملك أن يجلس قريبا منها ، فيروعه شيء لايقوى له ، ولابعيدا عنها فيفوته شيء مما يجب عليه ؛ فجلس بين بين ، وأخذ رسوله يغدو بينه وبينها ، في الحين بعد الحين ، ينبئه بما تعاني ؛ يغلو مرة ليصف هول ماتقاسي ، وييسر أخرى ليهون على سيده ، ويُسرّي عنه !... و« عبد مناف » يعبَس ويبَش ، وهو يكاد يرى الأمر ابن لحظة أو لحظتين ؛ كما تعود عنها من قبل ، فلما طال به الصبر ووجد غفلة من القوم هم يسعى إلى الكعبة ، يدعو ويبتهل ، وعاد كما بدأ يطمع ألا يحس به القوم حتى لايظنوا به هلعا ولاجزعا ، وهو الجلْد الشجاع ، حتى كان أمر القوم معه ماكان !...

ومن قبل كان هؤلاء القوم يجتمعون حول « عبد مناف » ، وفي رَحبة داره إلى الهَزِيع الأول من الليل ثم ينصرفون ، ولكنهم جاءوه داره في هذه الليلة لغير مايجيئون له كل ليلة ... جاءوه ليشاركوه ماسيصنع القدر بامرأته على حين قد أرسلوا بنسائهم يُحِطْن بزوجه ؛ يعنَّها على أمرها ، ويقمن بشأنها . ومن أجل هذا حركوه للكلام ليسمعوه فيشغلوه عن أمره ، وجلسوا إليه فأطالوا حتى غلبهم النوم فناموا ، فما كان لهم أن يبرَحوا حتى ينتهي « عبد مناف » إلى شيء ، واستيقظوا على ذلك الحوار وشاركوا فيه ، وهم يأملون أن يكون الأمر انتهى إلى غايته المحمودة ، فينصرفوا مودعين مهنئين ، ولكنهم كم كان جزعهم حين علموا أن الأمر لم يَعْدُ ضيق « عبد مناف » بشأنه وذهابه إلى الكعبة ، ثم عودته عنها . فعادوا إلى نومهم ، وعاد « عبد مناف » إلى مجلسه بينهم مفكرا مطرقا ، ولكنهم آثروا هذه المرة أن يرسلوا جنوبهم في المضاجع ، غير أنهم قبل أن يفعلوا مازالوا بـ« عبد مناف » حتى أوَى إلى مَضجَع !...

وينسَخ ضوء ضوءا ، ويميل قرص القمر إلى المغيب ليطل قرص الشمس من مطلعه ، ونفحة الصبح الندية تُغرى هؤلاء المكدودين بنوم عميق ، لاتستثن منهم « عبد مناف » فقد تقلب فى مضجعه ماتقلب ، ثم استسلم للنوم على كره منه ، ولكنه كان يقظان نائما ، تفزعه خفيف الحركات ، وينتفض لضعيف الأصوات ، يحسب مع كل حركة نبأ ، ويخال مع كل صوت خبرا ، وماكاد يضع رأسه ويغمض عينيه حتى حركه إلى النهوض عبده « سعد » .

ونهض « عبد مناف » نهوض الفزع ، يثيرها حركة فيما حوله ، وماكان يملكه أن يفعل غيرها ، وهو الذى نام على هاجسة امتلأت بها نفسه ، فتحرك بحركته جميع من حوله ، وإنَّ آذانهم لمتفتحة ، وإنَّ عيونهم لشاخصة ، وإن قلوبهم لواجفة !...

ومايكاد « عبد مناف » تقع عيناه على « سعد » حتى يطمئن فى مجلسه قليلا ويثوب إلى وعيه فما لقى « سعدا » من قبلها إلا على بشرى ، ولاوجهه إلا إلى حيث يلقى النجح ويؤوب بالخير ، لذا اطمأن « عبد مناف » بعد فزع ، وهدأ بعد اضطراب ، ومد إليه عنقه ؛ وكأنه يستعجله الحديث . حين لم يجد لسانه يطاوعه على السؤال !...

والقوم سكون فى مجالسهم ما بين معتدل فى جلسته ، ومضطجع على هيئته ومتكىء على وسادته ؛ فقد أذهلهم مجىء « سعد » عن أن يستووا جميعا فى مقاعدهم ، ولبثوا على حالهم التى بعثوا عليها مشدوهين ؛ ينتظرون أن ينطق البشير ! ...

وينظر « سعد » إلى « عبد مناف » فيطيل النظر ثم يرنو إلى القوم يقلب بينهم طرفه ، ثم يرده إليه على دمعة أطبق عليها جفنه ، يجهد فى أن يحبسها فغلبته وانحدرت على خده . وعندها رد « عبد مناف » إليه عنقه

وأطرق برأسه ... وعندها استوى المضطّجع واعتدل المتّكىء ... وتنفرج شفتا « سعد » عن ابتسامة خفيفة ، وتشرق أساريره ببشر لا يكاد يبدو حتى يعمّ وجهَه كلَّه ، فينقلب إطراق القوم إلى حركة وهمس ، ويشرئب إليه « عبد مناف » بعنقه ، ويجد منه لسانا مطاوعا على السؤال فيقول : ما وراءك يا « سعد » ؟ ...

وينصت القوم يتسمعون حيُنما سمعوا سؤال « عبد مناف » ، ويخرج « سعد » عن صمته فيقول : لقد ولدت سيدتى « عاتكة » ! ...

ويطمئن « عبد مناف » فى مجلسه ، وإن العرق ليكاد يسيل به وجهه ، وإن القوم ليكادون يخرجون عن صمتهم ، ويتحركون فى مجالسهم ، ولكنهم يرتدُّون إلى حيث كانوا حين يستمعون إلى « عبد مناف » يسأل « سعداً » :

وكيف إذاً عاتكة » ؟ ...

ويجيب « سعد » : على خير حال يامولاى ! ...

ويطرق « عبد مناف » إطراقة المطمئن ، وإن الفرح ليكاد يهزه ويهزُّ القوم معه فيخرجون إلى الضجيج ! ...

ولكن « عبد مناف » يردّهم إلى وقارهم ، حين يستمعون إليه يسأل «سعداً » :

تُرى ما يكون الوَليد ؟ ...

ويكاد يُخرج هذا السؤال « سعداً » عن وعيه ، وينسى به نفسه ، وأنه بين يدى مولاه ، ويقول :

اثنان يا « عبدَ مناف » ! ...

ولا يكاد يتمها حتى يحبس لسانه ، ويذكرَ أنه خاطب مولاه بغير ما يجب ، فيعودَ إلى الحديث غير ملتفت إلى همس القومِ وتساؤلهم ، ويقول :

ذكران اثنان يا مولاى ! ...

ويضطرب القوم فى أماكنهم ، ويضطرب معهم «عبد مناف» والقوم لا يدرون من حوله : أفرِح هو أم مُبتئِس ! ...

ويمضى العبد فى حديثه ولكن فى ثقة جادة يشوبها شىء من التفكير ، لا يلبث معها « عبد مناف » – والقوم من حوله – أن يظنوا فيما سيقول شرا ! ...

ويقول العبد :

ادْع طبيب الحى يا مولاى ! ...

ويكاد ينهض « عبد مناف » ، ويكاد ينهض القوم ، ولسان «عبد مناف » يقول :

ماذا تطوى عنى يا « سعد » ؟ ...

ويُجيبه « سعد » :

لقد وُلد الولدان وأحدهما متصل بالآخر ! ...

ويجد « عبد مناف » الأمر أهون من أن يحزن ، وأقلَّ من أن يعجَلَ له . فيعتدلُ فى مجلسه .

ولكن العبد لا يتركه حتى يتجة إليه ويقول :

إن علاجَ الأمر الآن خيرٌ من علاجه بعد ساعة ... هكذا تقول القابلة ! ...

وينهض « عبد مناف » نهوضَ المتثاقل قد اطمأن أكثر الاطمئنان ، فلم يعد شاردَ اللُّب كما كان منذ قليل ، ولم يعد بادىَ التجهمِّ كما رآه الناس منذ لحظة ! ...

ويكاد يدرك هذا فى وجهه بعضُ المقرّبين إليه ، ويريد أن يردّ إليه القدر الباقى من اطمئنانه ، فيقول له :

عليك بـ « جابر » ؛ فكم جربنا على يديه شيئا هكذا ! ...

وينصرف « عبد مناف » ، وينصرف معه نفر قليل ، ويشمّر سائر القوم للرحيل ، هذا يدعو بفرسه ، وذاك براحلته ، ويخرج غيرُهما من الحالّين قريبا مشاة يتحدثون ، ولم يكن حديثهم إلا فيما رزق الله «عبد مناف » ، من توأمين ، وفيما عانت الزوجة من عنَت ، وفيما تعرّض له « عبد مناف » من امتحان ، وفيما نالوا هم معه من جَهد ! ...

– ٤ –

ولدت « عاتكة » اثنين فى بطن ، هما « عبد شمس » و« هاشم » ، ولم يكن اتصال أحدهما بالآخر كما جرى على لسان « سعد » مولاه ، وكما فهمه « عبد مناف » نفسه ، وكما فهمه عنه النفر الذين مع « عبد مناف » اتصالا يخشى معه الضر على الوليدين إن فصل ما بينهما ، ولا اتصالا يستعصى انفصاله لا يعيش به الوليدان ، ولكنه كان شيئا أهون من ذلك وأيسر ، فلم يكن فى غير كعب اتصل بكعب بلحمة رقيقة ، لم يَهُلْ الطبيب الفاصل أَمْرُها ، ولا استعصت عليه ! ...

ولكنه على الرغم من ذلك فقد أسال مبضعه قطرات من دم ، رآها الأب والأم شيئاً يسيرا ، واستقبلها الأقربون فى شيء من الهدوء والراحة ، فهى لم تؤذ كعب « عبد شمس » ولا آذت كعب « هاشم » ، وهى لم تترك فى هذا الكعب ولا ذاك أثرا ملحوظا ... اللهم إلا ندبة خفيفة هنا ، وندبة أخرى مثلها هناك ، سوف تزولان مع الأيام ! ...

هكذاحسب الأبوان وقدّر غيرهما ، ولكن العرّافين والكهّان كان لهم مع تلك القطرَات من الدم شأن آخر ، استمع إليه الأبوان ، فهالهما ماسمعا ونُقل إلى الناس فأفظعوه ، ورَجوْا منه السلامة ! ...

ياله من خطب لو صح ، ويا ويلَ الأعقاب من حيَّيْهما لو تحقق ! ...

فما أقبحَ الشرَّ يثور بين الأحياء على بعد ما بينهما ! ... وما أشدَّ قبحه إن هو ثار بين الحيين المتجاوريْن ! ... وما أبلغَ هذا القبحَ ، وأبعدَ أثرَه إن هو كان بين أبناء الإخوة والأعيان [1] ! ...

لقد حدس العرافون والكهان أن هذا الدم الذى سال نذير شر مستطير ، يصلَى به أبناؤهما . لاتهدأ ثائرته ولا يخبو أُوَارُه . وسوف يعيشون على حرب متصلة لا تعرف الهوادَةَ ولا الرفق ، يموت فيها من يموت ، ويحيا بعدها من يحيا ، ولكن على البغضاء المباعدة والشحناء المنفّرة ، لا يلتئم لهم شمل ، ولا تجتمع لهم كلمة ! ...

وأمسك هذ الخبر الأبوان على حيطة يصدقانه حينا ويدفعانه حينا آخر ، يجرُّهما حنان الآباء إلى أن يأبيا على العرافين والكهان ماحدّسوا ، ويردهما إلى التصديق بماقالوا مايعرفان لهم من حَدْس صادق وبصر ثاقب !...

ثم مابالهما لايأخذان الوليدين بشىء من الرعاية ، وينشّئانهما على مزيد من الألفة والمحبة ؟!...

وهكذا استقر رأى الوالدين ، وأعدا لهذا الأمر عدته ، يصرفان محبتهما بين الأخوين على قدر مقسوم ، حتى لايخصا واحدا منهما بشىء ، وحتى لايحركا الغيرة فى قلب الآخر !...

وشب الوليدان لايكادان يتميزان فى لون من ألوان الحياة : إن سعى أبوهما فى السوق سعى بهما معاً ، وإن ارتحل كانا فى رحله ... وأخذت عينه تلحظهما مع عين الأم يتحسسان أمريهما ، فلا يفوتهما شىء مما قد

---

(١) الأعيان : من ولدوا لأب وأم .

يحدث بين الصغار من نُفْرة إلا قوماه ، ولارأياهما على ألفة إلاّ ثبتاها فى قلبيهما تثبيتا !...

وحرص الوالدان الحرص كله على أن يكتما عنهما ماصاحب مولديهما ، وتحرجا التحرج كله أن يذكرا لهما شيئاً مما كان ، حتى لايتركا فى نفسيهما أثرا قد يحولهما إلى غيرِ مايريدان !...

ولكن الخبر كان قد شاع وملأ الأسماع ، وأصبح حديثَ الناس كلهم . فلم يكن « عبد مناف » من أغمار الناس ، كما لم يكن بيته من البيوتات الدنيا . بل كان « عبد مناف » فى محل النباهة والرياسة ، وكان بيته ملحوظا مرموقا . ومازال الناس فى القديم – ولايزالون فى الحديث – تشغلهم أمور السادة أكثر مما تشغلهم أمورهم ، ويتجهون بقلوبهم وأفئدتهم إلى تلك البيوتات الرفيعة ، يحصون عليها ويقصون لها ، وهل كان التاريخ أو يكون إلا حديث هؤلاء الأفراد البارزين النابهين وحديث بيوتاتهم ، وماكان لها أو عليها ؟!...

وهكذا عَلم « عبد شمس » و « هاشم » – حين شبا وعقلا – من الناس مالم يعلماه من أبويهما وقر فى قلبيهما شىء تجهّما له أول الأمر واستكبراه ، وكادا ينكرانه ، ولكنهما كانا بشرا من هؤلاء البشر ، الذين يعيشون معهم ، والذين كانوا يؤمنون بما يجرى على ألسنة العرافين والكُهان إيمانا لايخالجه شك !...

ويعلم أبواهما أن الأمرَ انتهى إليهما ، فيعودان إليهما بالتشكيك فيه مرة ، وبالتسفيه أخرى علهما يبلغان من نفسيهما مابلغته نبوءة العرافين والكهان ، وهما حين يفعلان ذلك يحذرانهما مغبة الشر وعاقبة النفرة !...

فيستمع إليهما الوليدان ، وإن أحدهما لينظر إلى الآخر بعين ملؤها الحنان والرأفة ، وإن قلبيهما ليكادان ينبضان بما امتلأ به من محبة ووداد !...

وكان إذا خلا أحدهما بالآخر أحسن فى البر به وأسرف ، يريد أن يغلب العرافين والكهان على ماتنبآ به . كما كان إذا مس أحدهما ضر فزع له الآخر وأسرف ؛ ليترك العرافين والكهان على إيمان بأن ماذهبا إليه كان وهما من الأوهام ، وحدْسا من التحديس ...

وماعلم « عبد مناف » كما لم تعلم زوجه ، وما علم « عبد شمس » كما لم يعلم « هاشم » أن نبوءة العرافين والكهان لم تكن فيهما ، وإنما فى حييهما من بعدهما ، وأن الشر كل الشر سيكون بين أبناء هذين الحيين يصطلون به ، ويصطلى الناس معهم به !...

– ٥ –

ويموت « عبد مناف » فتجتمع كلمة قريش على أن تولى « هاشما » من بعده الرياسة والسقاية والرفادة !...

« وعبد شمس » إلى جواره يرى ويسمع فيهش لها أولا ، ويراها لم تفُتْه حين ظفر بها أخوه .

ولكنه قد أبعد عن شيء من متاع الحياة ، وشيء آخر من تقدير الناس ؛ فلم يعد مقصد الجميع كما أصبح أخوه مقصدهم ، ولم يعد صاحب الكلمة فيهم وأخوه يملكها ، واختفى اسمه .. على حين لمع اسمُ أخيه ... أليس هذا لأن الناس رأوا أخاه أهلا لأمر لم يروه له فى قليل ولاكثير ؟... ومافضله أخوه بشيء لم تعل سنه فيرثها عن حق ، ولاهو دون أخيه ثراء فيترك له هذا الأمر عن اطمئنان !...

ويعود إلى نفسه يحدثها ويستمع إليها ، ويغلبه الإخاء المغروس فى قلبه ، فيرى أن الأمر أمرُ الناس ، لايملك أخوه فيه شيئا ، وها هم قد اختاروه ، وماكان له أن يرد عليهم اختيارهم !...

ولكن الحياة تغلبه على هذا الإخاء ، فيرى أن أخاه ملوم بعض اللوم ...

أنَّى له وهو يعلم أنه وإياه ندان متكافئان ، لم يرد على الناس اختيارهم له وحده دون أخيه ، ويجعلهم يختارونهما معا ؟!... ثم ماله لم يلفتهم إلى أخيه بكلمة تهون على قلبه ، ويستشعر بها « عبد شمس » أن « هاشما » لم ينسه حين خصه قومُهما بميراث هو لهما شركة !...

وما نظن الناس تركوا « عبد شمس » دون أن يزكوا هذا فى نفسه ويزيدوه ، ومانظن « عبد شمس » إلا استمع اليهم يدفعهم عما يقولونه مرة ، ويقبله مرة !...

ويقبل « هاشم » على ماولى من أمر الناس فيحسن فيما ولى ، يطعم زوار بيت الله ماأقاموا زمن الحج ، فلا يترك جائعا ، ويسقيهم فلا يُخلف ظامئا ، وهو فيما بين هذا وذاك يتعهدهم بلطفه ، ويؤنسهم برعايته ، فتمتلىء القلوب بمحبته ، وتجتمع الأفئدة على إجلاله ... ويعود الناس من الحج فلا يذكرون إلا ماكان من « هاشم » إليهم فيتحدثون به .

ويشمر « هاشم » وينهض بتجارة « قريش » فيردهم إلى يسر بعد عسر ، ويسنّ لهم رحلتى الشتاء والصيف ، هذه إلى الحبشة وتلك إلى الشام ، ويكتسب لهم آفاقا جديدة يعطون فيها ويأخذون ، بعد أن كانت آفاقهم محدودة ، وأسواقهم محصورة يصيبهم فيها العسر ، وينالهم معها القحط ؛ فيعانون الكثير من الشقاء والبؤس !...

وكان « عبد شمس » من وراء هذا كله يلحظه ويسمع به ، فيؤذيه مايلحظ ويسوءه مايسمع ، وماكره أخاه أولا ، ولكنه كره أن يخمل اسمه ، وماحسد أخاه بادىء ذى بدء ، ولكن آذاه أن يضعه القدر عن غير سبب يؤمن به .

وأخيرا وجد « عبد شمس » نفسَه مسلوبا ، والسالب له أخوه ، ووجد نفسه متخلفا ، ولم يقعد به عما يجب له إلا سبق أخيه ، وهكذا أصبحت

دنياه ودنيا اخيه شيئين متناقضين ؛ إن ابيضت دنيا « هاشم » اسودت لها دنيا « عبد شمس » ، وكانت دنياهما من قبل أن يموت « عبد مناف » دنيا واحدة إن اختلفت عليهما جمعاها ، وإن فات أحدهما منها شيء رده عليه الآخر ، وإن رغب أحدهما فيما فى يد أخيه نزل له راضياً لاكارها !...

هكذا كانا حين كانت دنياهما من دنيا أبيهما ، وجاههما من جاهه ، ليس لهما فى الحياة شيء إلا أنهما وَلَدا « عبد مناف » يوزع الناس بينهما تقديرهم وإعزازهم ، لا يخالفون فى ذلك سنة الأب معهما ، اللهم إلا فى شيء نادر ، كان يجيء عفوا ، ويذهب عفوا ، ولا يترك أثرا ! ...

وما كان يسيرًا أن تبقى لهما دنياهما بعد « عبد مناف » كما كانت قبل موته واحدة ، فلقد فرقها الناس عليهم حين اختاروا « هاشما » لما اختاروه له ، وما كان الناس بمستطيعين أن يختاروا لدنياهم اثنين ، فما اجتمع الناس إلا على سيد واحد ، ولكن شيئا واحداً كان يستطيع أن يحفظ لهذين الأخوين دنياهما الأولى ألفةً ومحبة ووُداً وعطفا ؛ هو أن يعيش « عبد شمس » لغير ما يعيش الناس له ، فيبصر الدنيا تقبل على أخيه فلا يضيره شيء ...

وما نظن « عبد شمس » كان عن ذلك عاجزا، ولكنه كلِّف شيئا فوق طاقته ، فقد رأى الدنيا تفِر منه إلى أخيه ، وهو لا شك قد صبر ما وسعه الصبر أولا ، حتى رآها لم تعوِّضه شيئا ، فحزن وابتأس ! ...

ولو أن « هاشما » سبقه فى السن لهان على « عبد شمس » أن يقدم للأمر الأكبرَ سنا وأن يرضى ، ولكنهما نزلا إلى الحياة معا وعرفاها معا ، وسوّى أبواهما بينهما فيها معا ، ثم سوى الناس بينهما فيها معا ، فإذا موت « عبد مناف » يقلب هذا كله رأسا على عَقِب ، ويواجه به « عبد شمس » شيئا جديدا لم يكن يعرفه ولم ينشأ له ! ...

ويموت « هاشم » فلا ترد الأمور إلى أخيه « عبد شمس » ، ويليها من بعده ابنه « عبد المطلب » ثم يموت « عبد شمس » ويخلف من بعده أميّة ؛ ليرى العز الذى حُرِمَه أبوه فنغص عليه حياته ، ينتقل إلى ابن عمه « عبد المطلب » فينغص عليه هو الآخر حياته .

ويلى « عبد المطلب » أمر « قريش » ، فلا ينى جاهدًا فى أن يزيد على ما ثبت أبوه له ووطد قاصدا ، وهو بها يزيد فى حقد « أميّة » عليه وضيقه به غير قاصد ، ويطعم الطعام فيرتضيه الناس ويحبونه ، ويحفرُ الله « زمزمَ » بيديه فيعلو صيتُه ! ...

ويسوق « أبرهة » جيوشه لهدم الكعبة فيخرج إليه « عبد المطلب » يكلمه فيما جاء له عساه يرتد عنهم ، ويرقب الناس سعى سيدهم وينتظرون ، فلا يطول بهم الانتظار حتى يروا جيوش «أَبْرَهَةَ » قد حصدها الموت حصدا بتدبير السماء فيرون فيه السيد الميمون ، فيزدادون به تعلقا وحبا ! ...

وهكذا كتب لهذا « البيت الهاشمى » أن يمضى قُدما غيرَ متخلف ، كما كتب لهذا البيت « العَبْشَمِى » أن يعثر به الجَد ؛ فلا يصيب هذا السبق ، وأن تَبِيتَ قلوب العبشميين على حقد ينمو مع الزمن ، وقلوب الهاشميين على حذر وحيطة .

وما إن بعث اللهُ نبيَّه من هذا الفرع النابه فرع « هاشم » حتى كان أشدَّ الناس عداوةً له وعنادا عليه « بنو أميةَ بنِ عبد شمس »

وما عاداه هؤلاء على رسالته ، فالظنُّ أنهم لم يفتحوا لها أذنا ولا قلبا ، بل قد رأوها أول ما رأوا مجدا جديدا يضاف إلى « بنى هاشم » يثبت لهم فى الأرض ، وتعلو به أكعبهم ، ورأوا إن هم أسلموا لـ « محمد » ، فقد

أسلموا له كل شىء ، وصاروا له تبعا ، لا يمتازون عن غيرهم من الناس ، وهم الذين يعيشون على بقية من عزة ، إن لم يكتب لها المساواة مع عزة الهاشميين اليوم ، فعسى أن يكتب لها فى المستقبل الغلبةُ والفوْق ، والحياة صراع ، فما تخسَره اليوم قد تكسِبه غدا ! ...

إذن فهم قد رأوا الإسلام لـ « محمد » تسليم له بكل شىء ، ونزول منهم عن كل شىء ، لا رجعة لهم فى هذا أو ذاك ، فقاوموه أشد المقاومة ، وعارضوه كل المعارضة ، عبأوا له ما يستطيعون من قوة ، وكشفوا عن ذات نفوسهم ، وجاهروا بعداوتهم ، وأمعنوا فيها ، وكادوا أن ينسوا ما يربطهم بالهاشميين من قَرابة قريبة ، وجمعوا لـ « محمد » وأصحابه جموعهم ، يريدون النَّيْل منهم ، ولكنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ، فلم يكن الأمر أمر « محمد » وصحبِه ، ولكنه أمر الله أراده ، واصطفى له « محمدا » ، ولو أن الأمر إلى « محمد » وتلك الفئةِ القليلةِ التى آمنت به بادىء ذى بدء ؛ ما استطاعوا أن يقفوا لقريش بَقضها وقضيضها ، ولذابوا أمام تلك الجموع الكافرة فى عشية وضحاها .

ويهجر الرسولُ « مكة » على أُهْبةمن « قريش » ، واستعدادٍ لمنعه ، ويقبل عليه الناس فيؤمنون ، وتدين العشائر بدينه ، و« قريش » تدبِّر له وتكيد ، ويلتقى بهم الرسول فى حرب إثر حرب ، وغزوة بعد غزوة ، ثم يدخل عليهم « مكة » فاتحا ، فإذا من بقى من سادة « قريش » صاغرون ، لا يملكون إلا أن يسلموا لابن عمهم بعد ما أسلموا ما فى أيديهم من حَول ، وبعد أن ضاعت عليهم وسائلُهم وأصبحوا نفرا يطلبون الأمن فيُمنحونه ، بعد أن كانوا جميعا يطلب منهم الأمن فيأبَوْنه .

ولكن الإسلام الذى دخل على الأُمويين أولاد « عبد شمس » قلوبهم ، فاستل منها الكبائر التى عاشوا عليها جاهليَتهم ؛ لم يستطع أن يستل منها حقدَهم على « الهاشميين » أولادِ عُمومتهم ، فاجتمعوا معهم على الإسلام

دينا ، واختلفوا وإياهم على الرياسة دُنيا ، وما أَحبوا أن يغلبوا على الحياة وهم مسلمون ، بعد أن غلبوا عليها وهم كفار ، وأخذوا يتحينون لها الفرص ، ويُهيئون لها الوسائل .

– ٧ –

ويقبض الله إليه رسوله ، وما كان « محمد » رسولَ الله إلى الهاشميين ولا رسولَه إلى الأمويين ، ولكنه كان رسول الله إلى الناس كافة ، يرى الناسُ أنفسهم فى رسالته سَواسيةً ، لا فضلَ لأحد على غيره إلا بالتقوى ، وأنهم مُطالَبون إلى أن يجتمعوا فيختاروا من بينهم أقواهم على النهوض بالعبء بعد الرسول ، وتوجيه دفة الأمور إلى برِّ الأمن ، والمضىّ بالدعوة قدُما حتى تعمَّ الأرض وتُطبق الآفاق ! ...

هكذا أراد الله ، وهكذا قضى « محمد » حياته ، وهكذا أراد المسلمون بعد « محمد » ليجمعوا الساسة قاطبة على كلمة التوحيد ، ويردوهم إلى شِرعة الله التى تطهر بها قلوبُهم ، وتخلص عليها أعمالهم ، وتكفل لهم دنيا مرموقة ، وآخرةً مغبوطة ! ...

ويجتمع المسلمون فى « السقيفة » يتبادلون الرأى ويقلِّبون وجُوهه ، ويجرى بينهم ما يجرى بين المشيرين ، ويختلفون كما يختلف المُتخيِّرون ، يُدلى كل بما يرى أنه الخير ، ويشير كل بما يحسَب أنه الرأى ! ...

ولقد كان فيما رأوه وأشاروا به ما كاد يردهم إلى قبليّتهم ؛ فهم لم يبعدوا عن حياة القبائل كثيرا ، وهم كانوا يرَوْن فى عز القبيلة وعلو كعبها رِبْقةً فى أعناقهم ، لم يستطيعوا أن يتحللوا منها فى تلك الفترة القصيرة التى عاشها الرسول بينهم ، ولكنْ بينهم سادة لم تؤهِّلهم القبائل ، ولكن أهّلهم الإسلام ، وقدمتهم سابقتُهم فيه ، وزكّاهم جهادُهم له ، وما جاء الإسلام

إلا ليأخذَ بيد هؤلاء إلى مصافِّ القادة والزعماء ، كانوا من كانوا ، من أشراف القبائل أو من دَهماء الناس ، فربَّ سيد بالأمس لا نفع عنده اليوم ، ورب رجلٍ من عُرض الطريق أبْلى بلاءه وجَهد جهده ؛ فأصبح الخيرُ كلُّه عندَه ! ...

وأراد الأنصار أن ينتزعوها من القرشيين بما أدَّوا ونصروا ، وبما لهم من كثرة كثيرة ، وسيادة فى المدينة قديمة ، ولكن « أبا بكر » شمَّر لها وهو رجلها سبقا إلى الإسلام ، وجهادا فى سبيله ؛ فانتزعها من الأنصار ، وكان خليفةَ المسلمين بعد رسول الله ...

ولكن شيئاً منع الهاشميين أن يبايعوا لأبى بكر ستة أشهر نظن أن جانبا منه قديم يعود بهم إلى الوراء أيام كان الأمرُ إليهم ؛ وأن جانبا منه حديث يتصل بهذا الجانب القديم ، وهو أن نبىَّ الله منهم ، وحَسْبهُم هذا شرفا على غيرهم ؛ وأن جانبا ثالثا منه - وهو الأخير - لا يجعل هذا الأمر يعدوهم ، ويخرج من « على بن أبى طالب » - وهو من هو - إلى غيره من الناس .

وكان « على » قد امتنع على « أبى بكر » مع « الهاشميين » أشهرَهم الستة ، ووراء « على بن أبى طالب » الهاشميون ، وهم عشيرته الأقربون ، ثم وراءه الأمويون .

وتسألنى : ألم تكن الفرصة مواتية لينحازوا إلى جانب « أبى بكر » فيضيعوا الدنيا - كما رأوها - على بنى أعمامهم ! ...

ولكنك ، أُنسيت أنهم كانوا أعمق رأيا ؟ ... فهم رأوها إن ضاعت على بنى أعمامهم فقد ضاعت عليهم وخرجت من أيديهم جميعا ، وفقدوا إجماع الناس . إن لم يكن على هذا البيت فذاك ... وخير للأمويين ألا يخسروا الدنيا كلَّها بل أن يخسَروا بعضها ؛ فهى ما بقيت فى أيدى الهاشميين فهم منها على موصولة وإن بَعُدتْ ، وهى إن خرجت من أيدى الهاشميين إلى

أيدى غيرهم فقد فاتت هذين البيتين اللذين كتبت لهما الرياسةَ جملة وتلقّفها الناس يديرونها بينهم على غرار جديد ونمَط آخر، سيكون معه الأمويون والهاشميون نَاساً من الناس ! ...

ويخلو « أبو بكر » بـ « على » يُكلِّمه وقتا، يَخلُص منه « على » وقد بايع لـ « أبى بكر » ويَقبل الهاشميون، عليه يبايعون ! ...

وكأنّى بالإسلام أراد للناس أن تكون الدنيا لهم يختارون لأمرهم من يشاءون إن رأوه له خيرا، ويردون عن أمرهم من يشاءون إن ظنوه له غير أهل، ثم كأنى بهؤلاء أرادوا أن تكون الدنيا لبيت من البيوت من دون الناس جميعا، لا يلى أمرَ الناس إلا واحدٌ منهم غير خارج عنه ! ...

ولو أن « أباسفيانَ بن حربِ بن أمَيَّةَ » وجدها له ما تخلَّف عن أن يدعوَ لنفسه ويردَّها إلى « بنى أمية » بعد أن ينتزعَها من « بنى هاشم »، ولكنه كان حريصا على ألا تفوتَ « بنى عبد مناف » يستوى فى ذلك « الهاشميون » و « الأمويون » إن أصابها طرف فهى للطرف الثانى بعد حين ! ...

فما وَلِيها « أبو بكر » – والمسلمون عليه مجمعون أوشَبُهُ مجمعين – حتى نستمعَ إليه يقول :

ما لنا ولـ « أبى بكر » ؟ ... إنما هى لـ « بنى عبد مناف » ! ...

وما كان بمستطيع أن ينكر على « أبى بكر » مكانَته ولكنه كان يخاف أن تخرجَ منهم إلى الناس شورَى لا يُؤْثِرون بها بيتا على بيت، ولا يخصون بها فردا على فرد فلا تعودُ إليهم ! ...

وأكبر الظن أن الذى قعد بعلى ستة أشهر، لا يبايع خلالها لـ « أبى بكر » تثبيطُ « بنى عبد مناف » له جملةً عن أن يفعلَها، وكأنى بـ « أبى

سفيان » على رأس هؤلاء جميعا يحرك لها القلوب ، ويثير فيها جاهليتها الأولى ؛ ولقد كان غيره حين فعلوا يُؤْثرون الخير للمسلمين ، ويحسَبون أن « عليا » بها أولى ولها أجدَى ، ولكن « أبا سفيان » كان يريد أن يؤْثِر بها قومَه على أنها دنيا وجاه ، وكان عزيزاً عليه أن تُفلت هذه الدنيا وهذا الجاه من أيدى « بنى عبد مناف » ؛ فلقد ثارت لخروجها عنهم نفسه ثورة تدلك على أنه رآها ملكا لا دينا ، وما أحْرصه على أن يكون الملك فيهم ، ويكونَ الدينُ للناس ! ... ولقد عز عليه أن يرى هذا الملكَ يخرج إلى « أبى بكر » ويضيع عليهم .

وما كان « أبو بكر » غيرَ جدير بها من بين منِ اخْتيروا ، ولكن خلافته كانت نذيرا بهذا الذى يخافه « أبو سفيان » . ويسمعه الناس يقول حين ولى « أبو بكر » وانتهى الأمر إليه :

والله إنى لأرى عَجاجة لا يُطفئها إلا دم ، يا آل « عبد مناف » ! ... فيم « أبو بكر » من أموركم ؟ ! ...

فهو يحرك لها « بنى عبد مناف » حتى لا تخرج من أيديهم إلى الناس ؛ كما أرادها الإسلام شُورى لا يختصُّ بها بيت لا تخرج عنه .

ثم يرى نفسه أضعفَ من أن يُزَكِّىَ لها نفسَه ، فيؤهل لها غيرَه من أهله ممن يراهم لا يردّهم الناس ولا يرفضونهم ، بل هم يؤثرونهم لسابقتهم فى الإسلام ، وجهادهم فيه ، ثم لقرابتهم مِن رسوله . وما أرادهم لها « أبو سفيان » إيثاراً لهم ، وما دعا لهم مخلصا للواجب والحق ، ولكنه كان مخلصا لذات نفسهِ ؛ ولهذا المطمَع الذى لم يُردْ أن يفوتَ قومَه .

ويراه الناس يلتفت إلى قومه ، فلا يجد من بينهم من لا يدفعه الناس عنها ، ولا يأبونها عليه إلا « عليا » و « العباس » ، ويجد « عليا » ألصقَ الناس وآثرَ الجميع عندهم ، وأن الناس إليه أميل ، وبه ألصق ، وعليه

أحرص ، فيقدّمه لها ناسيا أو متناسيا أن الناس قد أجمعوا أمرَهم على « أبى بكر » وقضوْا فيها برأى بعد أن طال بهم اللّجاج وخَشُوا الفتنة ... وما تعنى « أبا سفيان » الفتنةُ ، وأن يختلف الناس بعضهم على بعض ، وأن ينقضُوا اليوم ما أبرموا بالأمس ، ولكنه يعنيه أن يسترد ما فات ، وأن ينتزعها ممن غلبهم عليها ، فإذا هو يلتفت إلى « على » ويقول له :

ابْسُطْ إلىّ يدك « أبا حسنَ » حتى أبايعك ! ...

ولم يكن « على » ينظر إلى الأمر كما ينظر إليه « أبو سفيان » ؛ فقد كان « على » حين تخلّف عن البيعة يرى أنها لهِ ؛ لأنه المسلم ذو السابقة فى الإسلام ، الذى جاهد فى سبيله وأبلى ، لا لأنه من هذا البيت أو ذاك ! ...

وكأنه قد أحس من « أبى سفيان » نُكرا ، وما كان « على » ليرضى النُّكر ، وأحس من « أبى سفيان » بُعدا عن رُوح الإسلام ، وليس مثل « على » ممن يَبعُد عن روح الإسلام ؛ وأحس من « أبى سفيانَ » أنه يريد أن يثيرها فتنة ، وغير « على » يعمل للفتنة ويؤرِّث لها ؛ وأحس من « أبى سفيان » تجرُّداً من التضحية التى ملأ الإسلام قلوب المسلمين بها ، وكان أملأ قلب بها قلبُ « على » ، فأنكر على « أبى سفيانَ » ما دعاه إليه ، وكانت معه الدنيا والعز والجاه ! ...

فإذا « على » غاضب أشد الغضب لما فاه به « أبو سفيان » ودعاه إليه ، وإذا « على » ناقم أشد النقمة على « أبى سفيان » لما أثاره وجهر به ، وإذا « على » يدرك كل الإدراك ماقصد إليه « أبو سفيان » وأراد أن يحركّه له فيرد عليه دعوته ويقول :

إنك والله ماأردتَ بهذا إلا الفتنة .. وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا ، لاحاجة لنا فى نصيحتك !...

وقد ضرب « على » بهذا المثل الأعلى فى نسيان الذات والتجرد عن الأنانية ، وأنه كان المسلم المتدين الذى يرى للمسلمين قبل أن يرى لنفسه وأهل بيته !...

- ٨ -

ويحملها « أبو بكر » عاما وبعض عام ، ويليها من بعده « عمر » ، ولم يكن « أبو بكر » ولا « عمر » من « هاشم » ولا « عبد شمس » ، فانقمعت بهما العصبية ، ونسى بولايتيهما الناس ماعاشوا عليه بالأمس القريب ، وعلموا أن الدنيا لهم يصرفونها كيف شاءوا ، وليست لبيت من البيوت يصرفهم كيف شاء . ورد المستغلون المستأثرون إلى قليل من النسيان ، وأخذوا من الحياة وأعطوا ؛ كما يأخذ الناس ويعطون : لهم مالهم ، وعليهم ماعليهم . ورزق المستضعفون المستذلون شيئا من الثقة والاطمئنان ، وعلموا أن الإسلام ماجاء إلا لينهض بهم إلى مستوى غيرهم ، ويسوى بينهم وبين مَنْ عَدُّوهُمْ لهم سادة ، وعدّوا أنفسهم لهم تبعا ، واتسعت لهم الحياة بعد أن ضاقت عليهم ، وأخذوا منها بحظ غيرهم !...

ومايكاد « عمر » يمضى حتى يختار الناس عليهم « عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس » من بين نفر سماهم لهم « عمر » !...

وأكاد أشك أن العصبية القبلية الأولى لعبت هنا دورها ، وماأتهم « عثمان » أنه كان دون أصحابه المسلمين ، وماأتهم « عثمان » أنه كان لها غير أهل ، بل لقد كان « عثمان » الباذل فى سبيل الله مااستطاع الباذلون إلى ذلك سبيلا ، المجاهد فى إعلاء كلمة الله ما وسع المجاهدين أن يفعلوا ، الناصح للمسلمين حين يعز النصح ، الناظر فى أمر المسلمين على خير ماينظر الناظرون !...

ولكنى أرى أن الأمر لم يَمضِ لهذا كله ، وإنما هذا كله كان مما مكن

للأمويين أن يجدوا فيه حجتهم . وقد وجدوا مثلها بالأمس حين أرادوها لـ« على » ولكن الأمر فاتهم ، وقد شمروا لها اليوم فطاوعتهم وسائلهُم ، وخلصوا إلى مايريدون !...

وهكذا رُد الأمر إلى الأمويين ولم يُرد إلى الهاشميين ، وقبله الناس على أنه لن يغير من سنتهم التى بدءوا بها ، واستقبله الأمويون على أنه تغيير لسنة الناس التى أرادوا أن يعيشوا عليها ، وأراد الناس عثمان لهم كما كان أبو بكر وعمر ، وأراد الأمويون عثمان على أنه منهم ، وفرق بين أن يعيش « عثمان » للناس كافة وأن يعيش للأمويين خاصة ؛ فهو فى الأولى سوف يُعطى الناس على أقدارهم لافرق بين عربى وأموىّ ، وهو فى الثانية سوف يختص الأمويين ؛ يراهم أنهم عصبته دونَ الناس ، وأن بهم امتناعه . وقد وجد « عثمان » حجته فى إدناء ذوى القربى ، وجدها فيما يوصى به الإسلام من إكرامهم ، ووجدها فيما تفتقر إليه شئون الخلافة من أن يكون إلى جانب الخليفة نفر غير متهمين ، وقد رآهم فى ذوى قرباه .

ووجد الناس عليهم حجتهم فى أن الإسلام أدنى من القرابة صلة ، وأن الأمر أمر المسلمين ، لاأمر بيت من البيوت ، وأن المسلمين كلهم فى أمر الإسلام سواء ، وأنهم ليسوا دون ذوى قرباه إخلاصاً فى النصح ؛ لأن الأمر لهم جميعا ، لو صفا صفا لهم جميعا ، ولو تكدّر تكدّر عليهم جميعا !...

وتثور العصبية الأولى من مرقدها ، وتنقبض أيدى الأمويين على أزمَّة الحياة ، فلا يريدون أن تنفتح عنها !...

وإن أغضب هذا الناس فقد أثار له « بنى هاشم » ؛ فهم قد نزلوا عن الحياة لتكون الحياة للناس ولهم ، ولم ينزلوا عنها لتكون لبنى أمية ، وهم أولى بها منهم ، وأحق بها عنهم !...

ومايكاد يمضى « عثمانُ » مقتولا حتى يلتفت إليها « الهاشميون »

يجعلونها لـ« على » ومايكاد يتولاها « على » حتى يلقاه الأمويون بالكيد والتجريح ، ومانظروا فى ذلك لأمر المسلمين ، ولكنهم نظروا إلى هذه الدنيا التى ماكادوا ينتزعونها من أيدى الناس حتى أراد « الهاشميون » أن ينتزعوها من أيديهم ، كأن لم يكْفهمْ تلك الحقبة الطويلة التى استأثروا فيها بالدنيا دونهم ، من موت « عبد مناف » الى أن قبض الله اليه رسوله .

وكان « على » يحس مايهدف إليه الأمويون حين آل الأمر إلى « عثمان » ، فحرص على أن يفوته عليهم ، ويقضى على تلك العصبية فى نفوسهم ، ويجعل الأمر أمر خلافة ، والناس أصحابها ، لاأمر سيادة إلى بيت وهو ربها !...

وحرص « علىٌ » وآلهُ ألا يأتوا من الأمر مايحمله « الأمويون » على أن « الهاشميين » ينفسونها على « عثمان » والأمويين معه ، أو أنهم برمون بـ« عثمان » لأنه أموى !...

فلقد سيق « الوليد بن عقبة » إلى « عثمان » - وهو أخوه - وكان واليا على « الكوفة » مشهودا عليه بشربه الخمر ، ويقول « عثمان » لـ« على » :

قم فاضربْه الحدَّ !...

ويحس « الحسن بن على » أن من الخير لأبيه ألا يفعل ، فما أسرع « الأمويين » أن يتأولوها على الهاشميين ، ويروها لهم كيدا وانتقاما !... فيقول « الحسن » لأبيه :

مالك ولهذا ؟... يكفيك غيرُك !...

ويرتد « على » عن أن يفعل وماهو إلا حد من حدود الله يُقام ، ولكنه كان الحريص مع ابنه وآله على ألا يظن بهم الأمويون الظنون ، فيثبتوا على عصبيتهم ، ويمعنوا فيها ، ويؤصلوا لها ، فيفوت على المسلمين ماقد بدءوا فيه ، ويعود الأمر كما بدأ عصبية أولى لاخير فى ظلها !...

ولكن الأمويين لم يكونوا يعيشون للحياة التى عاش لها« على » ، فما يكاد « على » يمضى فى ولايته قليلا حتى ألّبوا عليه جمهور المسلمين ، وإنهم ليكادون يتهمونه بالتفريط فى دم « عثمان » ، ويتكلم متكلموهم فيكثرون ، ويخطب خطباؤهم فيغلون !...

ويظهر على رأس الأمويين « معاوية بن أبى سفيان » ويجمع حوله الجموع ، يراه نفر من المسلمين – غير الأمويين – على شىء من الثورة لـ« عثمان » فيتركون « عليا » إليه ، ويرى « عليا » نفر من المسلمين – غير الهاشميين – على حق ، فيتركون « معاوية » إليه ، وينقسم المسلمون : قسم مع « معاوية » ينصرونه للذى دعابه ، وإنما هم ينصرون دعوة جاهلية أموية ، وقسم مع « على يؤيدونه ، وهم يؤيدون معه « الهاشميين » غير قاصدين .

وفى الحق لقد كان « بنو أمية » أشد تعصبا لأمويتهم وأعظم حرصا على رد الأمر إليهم ، على حين كان الهاشميون قد ناموا شيئا ما عن هاشميتهم ، ولانوا شيئاً ما عن عصبيتهم . دخل الإسلام عليهم فلَقِنوا عنه المساواة بين الناس ، ودخل الأمويون على الإسلام فأرادوه وسيلة ؛ ليمكنوا لأنفسهم فى الأرض !...

ولعل ذلك الحرمان الذى ذاقه الأمويون ، وتلك السيادة التى نعم بها الهاشميون ، كان لهما أثرهما ، فجمع ذلك الحرمان قلوب الأمويين على نقمة وهيأها للغُنم ، وصرفت تلك السيادة قلوب الهاشميين عن الحياة قانعة بما نالت هنيئة بما انتهت إليه !...

فواجه « الأمويون » الأمور مواجهة الموتور ، يتلمس الأسباب ، ويتصيد الفرص ، وواجهها الهاشميون مواجهة الساعى إلى إحقاق حق وإبطال باطل !...

لذا فقد حرص الأمويون على أن يُثيروها فتنة ، فطفِقوا يُذْكُون نارها كلما أوشكت أن تَخْمُدَ ! ...

وحرص « الهاشميون » على أن يجلوها أمنا وطمأنينة ، فشمَّروا للحُجة ، يريدون أن يردُّوا بها الناسَ إلى مَقْنَع !...

وكان بعيداً أن يلتقى « على » و « معاوية » على راى ، اللهم إلا إذا نزل « على » عما يلى من أمر المسلمين ، وما يرضاها هو لنفسه ، وما كان يرضاها له مسلم ، وماتمسك بها على أنها هاشمية يكسِب بها حقا للهاشميين ، ولكنه رآها شأنا من شئون المسلمين هو به أولاهم !...

أو إلا إذا نزل « معاوية » عن رأيه ، وهل أثاره « معاوية » إلا ليمضى فيه : ولو كان شيئا من الحق لخوّفته الفتنة بين المسلمين أن يركب رأسَه ، ولكنها كانت سيادة نشدها « عبد شمس » فقصر عنها ، وسعى إليها « أمية » ففاتته ، وأرادها « أبو سفيانَ » فلم يجد نفسه لها ، وأدركها « معاوية » فوجد الفرصة مواتية ، والسبيل شبه مُعدّة ، فعضَّ عليها بالنواجذ ، ولم يشأ أن يتزحزح عنها ، وكان داهية عنيدا ، فأرادها ملكاً أو موتا !...

وهكذا عادت الأمور أدراجها ، وأراد بنو عبد شمسٍ ، أن يكسبوا فى ظل الإسلام ماخسروه فى ظل الجاهلية !...

وكما اضطرب الأمر على « عثمان » اضطرب على « على » ، وإن كان الهاشميون قد اتهموا فيها هناك ظنا ، فقد أثارها « الأمويون » هنا عمداً وقصدا !...

وتضيق الأمة بأمر الفتنة ذرعاً ، فيتحرك مفكّروها ، ويحسّون الشر يكاد يودى بالحياة الاجتماعية ، ولا حيلة لهم بدفعه ، ويستشعرون اليأس فى رد هؤلاء السادة إلى وفاق ، وعناهم أن يعيش الناس مسلمين عقيدةً وقلباً وروحاً ، فإذا هم يرون هؤلاء السادة يستبدلون بإسلام الناس جاهلية ، مع العصبية والنفرة والشقاق !...

وقديما لم يكن الناس يعرفون الحياة إلا كما يعرفها السادة ، فعرَّفهم الإسلام أن لهم أن يعرفوها هم وإن خالف رأيهم رأى السادة ، وقديما كان الناس يتركون الحياة للسادة ، فبصّرهم الإسلام بأن الحياة لهم كما هى للسادة .

فلم نكن نعهد الناس فى القديم - وقد آمنوا أن الدنيا ليستْ لهم - يُلقون بالاً للأحداث المحيطة بهم ، يتعرّفون شرها فيدمغونه ، وخيرها فيستزيدونه ، ولكنهم كانوا أهملَ من أن يجتمعوا لهذا ، وأجبن من أن ينظروا فيما يصيبهم من شر الحياة وخيرها !...

فما إن أظلهم الإسلام وأشعرهم المساواة ، فنسوا بعبودية حرية ، حتى كان منهم الرائى لأمته حين يجد الجد ، المشغولُ بأحداثها حين يلمُّ بها الخطْب !...

ويغلو نفر من الناس فيستحيل تدبيرهم للأمر ثورة عليه ، ويتبدلُ صبرُهم له ضيقا وحَرجًا ، ورفقُهم طيشا ونَزَقا ؛ فيبيّتون أمرهم على قتل « على » ومعاوية » و « عمرو بن العاص . وكانوا ثلاثة خرجوا لثلاثتهم ، فلم ينالوا من حياة هؤلاء إلا حياةَ « على » ونجا منها « معاوية » و «عمرو » !...

عندها وثب « معاوية » إلى الحكم وثبة جاهلية ، فيها عنف وفيها شدة . وما ملك « معاوية ، ولكن ملك « بنو أمية ، وما أُبعد عنها « على » ولكن أُبعد « بنو هاشم » .

وعاش الحيّان : يُسِرُّها « بنو هاشم » لبنى أمية حرباً ، بعد أن فقدوا السيادة والجاه !... ويُعلِنُها « بنو أمية » لـ « بنى هاشم » نِقمة وإبادة ، بعد أن أخذوا من الدنيا بنواصيها .

وقد رآه « الأمويون » ملكاً لا تثبت قواعده إلا بالإرهاب فلبسُوا له ثوبه ، ورأوه لا يخلُص لهم إلا بالقضاء على منافسيهم ، فأسرفوا فى القتل .

ورآه « الهاشميون » أمراً لا يستطيعون أن يتجمعوا له علانية ، فاجتمعوا له سراً ، ورأوها دعوة لا يملكون أن يجهروا بها فى الأوساط ، فاختاروا لها الوسطاء يحملونها إلى الأقطار ، وينقلونها إلى الأشياع والموالين ! ...

ومَلك « بنو أمية » أبدانَ خُصومهم ، فبسطوا أيديهم عليهم بالعذاب ، وملك « بنو هاشم » نفوس أشياعهم يملئونها صبرا ، وقلوبَهم يزيدونها بهم إيمانا ، وعقولهم يُثَّبتونها على الرأى لهم ! ...

ونكّل « بنو أمية » ببنى عمومتهم قتلاً وسجنا وتشريدا ، فشهدت « كربلاءُ » مصرع « الحسين » وآله ، وشهدت الكوفة ، مصرع « يزيدَ بنَ علىّ بنِ الحسينِ » كما شهدت « خراسانُ » مصرع ابنه « يحيي » ! ...

وانتهزها « بنو هاشم » فرصة للتشهير بـ « بنى أمية » ، والتشنيع عليهم .

وبذل « بنو أميةَ » المال يشترون به القلوب ، فتلقّاه الطامعون فى الحياة ، وردَّه عليهم الزاهدون فيها ! ...

وعدَّها عليهم « بنو هاشم » منكرةً ، لا يستقيم بها أمر الناس إلا إذا اعطوا وسوف يَشغبون إذا مُنعوا وما هكذا هيأ الإسلام الناس ! ...

وما أراد « بنو أمية » أن يبنوا أمة على ما أراد أن يبنيها عليه الإسلام ، ولكنهم أرادوا أن يثبتوا ملكا على ما أرادوا هم للناس ! ...

وقد عز عليهم أن يكون المُلك للناس يشاوَرُون فيه ، فغلبوا الناس عليه وأصبح الملك لهم من دونهم ، يَلُونَه عن غير رأيهم .

وما ملك « بنو أمية » أمرَ الناس بالرأى والمشورة ، ولاردّوهم إليهم بالرأى والمشورة ، ولكنهم ملكوا أمرهم بالسَّوْط والسيف ، وردوهم إليهم بالإرهاب والترغيب ، فعاش الناس بين خائف متربص ، لا يأمن « بنو أمية » وثْبته بهم ، إن فتّ الدهر فى عضدهم ، وبين طامع لا يقنع ، إن وجد مَزيدا من خير عند غيرِهم انقلب عليهم .

عرف هذا وذاك « الهاشميون » فجدُّوا فى الدعوة سِرا ! ...

اجتمع إليهم الخائفون المتربصون والطامعون المتقلبون على خِيفة وحَذر ؛ فالخائفون لا يأمنون بطشَ بنى أمية بهم ، والطامعون يخشوْنهم على أرزاقهم ، وهكذا أصبح للهاشميين فى « الكوفة » مهدٌ ، وبـ « خراسان » آخر ، يبثَّان الدعوة سراً ! ...

ويجدّ « بنو أمية » فى إثر الداعين والمستجيبين ، يتعقبونهم فى كل واد ، يُنكِّلون بهم فُرادى وجماعات ! ...

ولكنَّ نفراً ممن استجابوا لـ « بنى هاشم » كانوا يحيون لما رأَوْه واعتقدوه ، فهان عليهم ما كانوا يلقونه فى سبيل الرأى والعقيدة ، ولم يردَّهم عنهما إرهاب ولا ترغيب ؛ ...

وما إن يلى أمرَ « بنى أمية » هشامُ بن عبد الملك » حتى يكون الداعيةُ الداهيةُ « أبو مسلم الخراسانىُّ » قد لف حوله الناس ، وعبَّأ منهم الجيوش .

وعندها يَلقى « الهاشميون » « الأمويين » جهَاراً ؛ يخرج منهم جيشٌ لجيش ، فيكتب لهم النِصر مرة ، والخذلانُ أخرى ، ويستعصى على الأمويين الأمر فيبيتون منه على وَجَل وأُهبة ! ...

ولكن لا تنس أن الأمويين كانوا ملوكا على الأرض ، تُجمع الدنيا لهم وتُجبى ، فكانوا أقوى على جَمْع الجيوش ، وأقدرَ على البذل والإنفاق ! ...

وكان « الهاشميون » رعية تُعدُّ عليهم أرزاقُهم ، فلم يقوَوْا لما قوىَ له خصومهم ، ولكنهم لم يَهنوا ولم يستكينوا ، وبذلوا ما يملكون مما أمدهم به مُوالٍ ومشايع !...

– ١٠ –

وهكذا مضت الأيام تجيء بخليفة من « الأمويين » وتذهب بآخر ، يلى أحدُهم أمرَ الخلافة ، فيراها نعيما يَسعَد به قبل أن يراها كدّا وَعناء لإسعاد الناس ؛ ويذوقُ طعمها حُلوة هنيئة ، فيَجِدُ على من ينفِسُونَها عليه ، فيمد يُسراه يقبض على هذا النعيم ، لا يبيحه للناس الا بِقَدَر ، ويبسط يُمناه بالعذاب على مَنْ تحدثه نفسُه بانتزاع المُلْكُ منه

وكان من بنى أمية ، أنفسهم من يُطمعه هذا النعيم ، ويغريه هذا الترف ، وتفتحت لهذا وذاك عيونهم ، واشتهته نفوسهم ، فنالوا من عذاب « الخلفاء الأمويين » ما نال الهاشميون ، ودبّ دبيب الانقسام فى صفوف سادة « بنى أُمية » ، يعانونها حربا قد انتظمت وسائلُها ، وتمكنت أسبابها ، واستفحل شرها ، يثيرهًا عليهم « الهاشميون » فى غير هَوَادة ولا رحمة !...

مَكايد يُحكم خيوطَها بنو أبيهم ، وفتن كقَطِع الليل ، يرزؤهم بها من تخلفوا منهم عن الخلافة وهم فيها طامعون !...

فتشعّبت على « الأمويين » المسالك ، فلم يعرفوا أيها يسلكون ، واختلطت عليهم الأمور فلم يهتدوا ... وضاعوا بين تلك الحروب القائمة ، والمكايد المتصلة والفتن المعطّلة ، وشُغلوا بهذا كله عن أمر الأمة ، لا يلتفتون اليه إلا فى القليل ، وهم إن ملكوا هدأة من الوقت التفتوا فيها إلى ملاذّهم فأسرفوا ، وحظّهم من نعيم الحياة فأمعنوا فيه ، فكان لهم بهذا الإسراف فى الملاذّ ، وذلك الإمعانِ فى نعيم الحياة سقطات ، عدّها عليهم المسلمون نُكرا وبُعدا عن الجادّة ، ولم يكن الزمنَ قد أمتدّ بالمسلمين

كثيرا ، فينسُوا ما كان عليه السلف الصالح من نظر فى أمر المسلمين ، وبُعد عما يؤخذ عليهم من كل مَعيبٍ مُستكره .

وهكذا دخل على حياة الأمويين شر جديد ، ما كاد يسكن نفوسَ المسلمين وتمتلىء به ، حتى كانت دنيا المسلمين كلُّها ناقمةً عليهم ، بَرِمةً بهم ، تود لو استُبْدِل بهم من هو خير منهم ، وأرعى لشئون الأمة ، وألزمُ لحدود الإسلام ! ...

والمفيد من هذا كله ليسوا « الأمويين » الذين أبعدوا عن الخلافة وحرموا من هذا الملك حظهم ؛ فقد باءوا كلهم بكراهية الناس لهم ، ولم تعدُ لهم تلك الرهبةُ التى أذَلّت الناس لهم ، كما لم تكن لهم أيدٍ مبسوطة بالعطاء ، تُرغِّب الطامعين فيهم ؛ فقد قبضوها عن الناس ؛ ليبسطوها مرة فى الحرب وما تتطلبه ، وأخرى فيما يحقق لهم نصيبَهم من الحياة ! ...

وإنما كان المفيدُ من هذا كلِّه « الهاشميين » الذين كانوا يتربَّصُون بهم الدوائر ، وسَرعان ما تلقفوها مُشمِّرين عن سواعد الجد ، يحاربون ما أمكنتهم الحرب ، ويشهِّرون بهم ما وسعهم التشهير ! ...

ويُكتب لهذه الدولة أن يلى أمرَها « الوليدُ بنُ يزيدَ » ، فيجد الداعون مجال القول فيه ذا سعة ، والفرصة مواتية ، فتنبسط الألسنة فيه بالقول ، وينقل الناقلون فيزيدون ولا ينقصون ، ويسمع السامعون فيصدِّقون ولا يُكذِّبون ؛ إذ النفوس أسمع للشر ، وأكره للتمحيص ؛ فيضطرب على الخليفة أمره ويمضى مقتولا ، ويصبح أمر هذه الدولة إلى زوال ، وإن امتد بها الزمن أعواما قليلة ، حمل فيها العبء خلفاء ثلاثة ، هم « يزيد » و « إبراهيم » و « مروان » ؛ فلقد كانوا أضعف من أن يرأبوا ما انصدع ، أو أن يقيموا ما وقع ، وكانت أيامهم أشبه بفهقة مصباح نفد زيتُه ! ...

وفى الحق لقد اجتمعت أسباب فناء هذه الدولة فى ساحة الوليد ،

وتعاورت فى مدته ، وكان هو مُعِينًا عليها بما شُهر به من مُجون ، ومُعاناً عليه بما آل اليه الأمر من قوة خصمه ، وقلة ناصره ، وفساد أمره .

من أجل ذلك كان الحديث عن « الوليد بن يزيد » هو الحديث عن الدولة الأموية ؛ فالدول حين تذكر إنما يُذكر من بناها وكان إليه قيامها ، لا تكاد تُذكر معه الأسباب السابقة على ذلك ، إلا عند البحث والتحقيق ؛ وهى حين تغيب وتنهار فإنما وِزْرُ هذا كلِّه على من عاصر هذا المغيبَ وذلك الانهيار ، ولا يكاد يلتفت إلى الدواعى المفضية إلى هذا إلا عند الإنصاف والتحرى ! ...

وقد رأيتَ معى كيف كان مرد هذا الشر بين الحيَّين ؛ « حيٍّ بنى هاشم » و « حى بنى أمية » ، وكيف مضى هذا الشر مع الأيام والأعوام ، يشتد ولا يفتر ، تَهيجُهُ الأحداث ، ويُورى زَنْدَه الطمع ، وتؤصل له الغَلبَةُ على الحياة والاستئثار بها ! ...

وقبل الحديث عن « الوليد » يكون الحديث عن أبيه « يزيد » ، لا عن عهده كله ، ولكن عن جانب من جوانبه يتصل بابنه « الوليد » اتصالاً وثيقا ! ...

– ١١ –

استقبل « يزيد بن عبد الملك » الخلافة . و « يزيدُ بنُ المهلَّب » خارجٌ عليه ، قد غلبَ على « البصرة » وجمع حوله الجموع . وما سلمت هذه الدولة العربية من خروج عليها تُصاب به فى فترات متلاحقة ، لم يُغمد لسادتها فيها سيف . وما انفكوا يعبِّئون الجيوشَ ، ويبعثون البعوث ، فما انقضت فتنة « المرتدين » حتى خرج العرب يصِلون ما انقطع من حروب يؤمِّنون بها أطرافهم ، ويمكِّنون لرسالتهم ، وما كاد الأمرُ يُصبح مُلكا واسعاً يعُوزه الاطمئنان والاستقرار ، حتى انقلب الناس بعضُهم على بعض ؛ ما بين طامع ، وحاقد ، وناقم ! ...

ولو أنه كُتب للعرب أن ينسَوا جاهليتهم التى أراد الإسلام أن ينسيهم إياها . فأفلح حقبةً قصيرة لم تَعْدُ أيام الرسول وأيام الخليفتيْن ، ثم عادت كما كانت وإن اختلفت صورتها ؛ لو أنهم كتب لهم هذا لمكنّوا لأنفسهم فى الأرض ، أكثر مما مَكنّوا ، ولعاش الزمن لهم أعمارا بعد أعمار ! ...

ولكنه خلافٌ أبى الله إلا أنْ يبدأ فى « مكة » بين قبيلتين . ثم إذا هو يعم أرضَ المسلمين ، ويخطو بخَطْوهم إلى الأرض التى فتحوها ، وإذا الخلافُ الأولُ يدفع إلى خلافات أُخرى ، وإذا الشر يؤكّد الشر ، وإذا المسلمون يصْلَوْن من هذا كلّه ضُرًّا كثيرا .

غير أن المسلمين بعدَ هذا الخلاف كانوا أمةً ناشئة لم تُرْسِ للحكم الدنيوىّ أُسُسَه الثابتة ولا دستورَه القائم ، وما عاناه المسلمون عاناه غير المسلمين ، ولكن أمر المسلمين كان إلى عروة وُثقى من الدين ، لو أُعينتْ بهذا النظام الدنيوى الثابت لعَبَرُوا الحياة أصفى ما يكونون نفوسا ، وأوْفَى ما يكونون إخوة ، ولمرُّوا دون أن يملئو الحياة بهذا الصَّخَب المبيد وتلك الشَّحناء المُبيرة ! ...

ولقد فزع « يزيد بن عبد الملك » لخروج « ابن المهلّب » عليه ، كما فزع غيره من قبله لخروج من خرج عليهم ، فجمع إليه أخاه « مسلمةَ بنَ عبد الملك » و « العباسَ بنَ الوليد بن عبد الملكِ » يبادلهما الرأى ! ...

ولم يكن ابنه « الوليد » عندها قد جاوز الحاديةَ عشرةَ ، لا يُعتد له برأى ، ولا يشارك فى أمر ، ولا يُعتمد عليه فى قليل أو كثير ، مما تثيره تلك الفتنة ! ...

وعلى قدر ما كان أولاد الخلفاء رضاً وأمْنا لآبائهم ، كانوا قذى فى أعين أقربائهم ، ممن يُحجَبون بهم ، ولئن تمنى « يزيدُ » أن يَلِد ، فلكم تمنى أدنى الناس إليه قرابة – من أُخُوّة وعُمُومة – أن يخرج من الدنيا كما دخل

إليها فَرْداً لا يُعقِب ، ولئن رجا « يزيدَ » ألا يترك الدنيا قبل أن يشبَّ ابنهُ ، فلكم رجا إخوته وعمومته أن يتركها و « الوليدُ » حَدَثٌ يدفعونه عن الخلافة ، ويُفَوِّتونها عليه ! ...

وكما شغل هذا عقولَ المحيطين بـ « يزيد » شغل عقولا قبلَها وبعدها ، كان لأصحابها مثل موقفهم من مثل « يزيد » ولو أنه كان شيئا لم يستأثر به السادة ، يصرِّفونه بينهم كما شاءوا وشاءت لهم أهواؤهم ، وأشركوا فيه الأمة أو ردُّوه لها ، تختار عليها القوَّام بينها عدلا وصلاحا ، وإحقاقا للحق ، وإبطالا للباطل . لو أن هذا كله كان – أو شيئا من هذا كان – لأنصف السادة أنفسهم ، ولحقنوا مع دمائهم دماء الشعب ، التى هُرِيقتْ باطلا فى غير نفع ، ولحفظوا على تلك الأمة وِحدتها ، فلم تُفرَّق أيدى سَبَا ، ولكنها الأثرة ، كم ضيعت على الشرق ولم تمكِّن لشعوبه من الأخذ بأساليب الحكم ! ...

وفوتت عليه الشورى ، التى لو عرفتها شعوبه لألِفتْها ، وتأصلت فيها أسبابها ، ولَقنَتْها درساً ، وحذقتها تجربة ، ولكانت بها اليوم أقربَ الشعوب إلى المدنية ، وأدناها من الحضارة ، وأقواها على صَدْع الدهر ، وآمنها على حياة .

وهكذا ما كاد يخلو « مسلمة » و « العباس » بـ « يزيد » حتى نازعتهما نفساهما إلى هذا الكرسى ، يريدان أن يفوِّتاه على « الوليد » بعد أن غلبهما عليه « يزيد » . وما اجتمع « مسلمة » و « العباس » على شىء ، وكيف تجمع هذه الفرقةُ السائدة والأطماعُ المتفرقة اثنين من السادة على رأى ؟ ! ...

وما أرادها « العباس » لنفسه ، ولا هكذا أرادها « مسلمة ، ولكن كليهما رغب جاهداً أن يحوِّلها عن « الوليد » إلى غيره : شفاءً لما يجد فى نفسه من حقد ، وما تنطوى عليه من مَوْجدة ، قد لا ينطق بذاك ، ولا يكشِف

عن هذه ، ولكن تلك الحياة - التى لم تقم على نظام فيه مَقْنَع ، وبه رضا - كفيلة بأن تطبع الأنفس على حقدٍ ، وتطويها على موجدة ، حتى على الأدنين منها صلة ، وأمسّهم بها رحما . تدفع تلك الأنفس إلى ذلك دفعا ، على رضاً منها أو تأبٍّ . ويلتمس « العباس » للأمر حيلة ، وهو يحسَب أنه يشير ، وما علم أنه يملى عن تلك النفس الحاقدة الواجدة ، فيأخذ فى تخويف « يزيدَ » أهلَ « العراق » ، وما هم عليه من غدر وإرْجاف ، وأنهم ربما أشاعوا - والحرب قائمة مستعرة ، والجيوش ملتحمة - موتَ الخليفة (يعنى « يزيد ») وولى عهده كما يُرى حدث صغير ، لا يسد مَسَدَّه ، ولا يجتمع الناس حوله ، فيثير هذا من الفُرقة والوهَن ما يثير ، وينفض عنا الناس ويجتمعون إلى عدونا . ولو أن وراء أمير المؤمنين معهوداً إليه أعلى سنًّا ، وأحصف رأيا ، وأقوى على الأمر وأمكن ؛ لم يستطع هؤلاء أن يُشيعوا ويُرجفوا ولبقيت الأمة على وحدة .

وما كان أحذَق « العباس » حين لم يدْعُ لنفسه ؛ لينأى بها عن مزالق التُّهمَة ! ... وإنما هو قد دعا « يزيد » ليعهد لـ « عبد العزيز بن الوليد » ... وما كان أفهمَه لنفس « يزيدَ » حين علم أن الخوفَ من « ابن المهلب » قد ملك عليه لُبَّه ! ... وأن حرصه على الملك لا يعْدِلُه حرص ، يهون فى سبيله عليه أن يحوِّل ولاية العهد عن ابنه إلى غيره ، على حب منه لابنه ، وكره منه لغيره ! ...

ويذكر « يزيدُ » خوفه من « ابن المهلب ، فيكاد يأخذ برأى « العباس » ، ثم يذكر حبه لابنه ، وما سيجنيه بالذى سيأخذ به من رأى « العباس » ؛ فيكاد يرجع عنه ، ولكنه لم يستطع أن يرد على « العباس » رأيه ولا أن يقبله منه ؛ فهو فى حيرة حريص على ألا يُنزع منه ملكه ، ينتزعه منه « ابن المهلب » ، وحريص على ألا تفوت ولاية العهد ابنه يتلقفها منه « عبد العزيز بن الوليد » فيمهل « العباسَ » إلى الغد ! ...

وإن الذى حرَّك « العباس » حرَّك « مسلمة » ، وقد رأى « العباس » راحته مما هو فيه أن يرى العهد يخرج من « الوليد » إلى « عبد العزيز » ، ورأى « مسلمةُ » راحته فى شىء آخر . ولكنه لم يستطع أن يقول و « العباس » حاضر . ورأى « يزيد » يمهله إلى غد ، وبين اليوم وغد فُسحة سوف يجد من ساعاتها ساعة سانحة ، يخلو فيها إلى « يزيدَ » يعرض عليه ما يرى ، ويرتاح له ! ...

ويخرج « العباس » عن « يزيد » ويخرج معه « مسلمة » حتى إذا ما أصبح الصبحُ خفَّ « مسلمة » إلى « يزيدَ » قبل أن يقضىَ فى هذا الأمر برأى ، فلا يملكُ أن يحوله عنه ، ويخلو « مسلمة » بـ « يزيدَ » خَلْوَةً لا يزحمهما فيها مزاحم ، ويأخذ معه فى الحديث ويعطى ، يريد أن يؤنسه به ، حتى إذا ما تفتح قلب « يزيد » له بدره يسأله :

أيما أحب إليك يا أمير المؤمنين : أوَلَد « عبد الملك » أم ولدَ « الوليد ابنِ عبد الملك » ؟ ...

وينطلق لسان « يزيدَ » فى غير تردد ولا تلبُّث :

بل ولد « عبد الملك » ! ...

ويجده « مسلمة » عندما أحب ، فيمضى إلى ما يريد أن ينتهى إليه ، فيقول له :

فأخوك أحق بالخلافة أم ابن أخيك ؟ ! ...

ويحس « يزيد » أن الأمر ليس حول قَدر أقاربه منه قُربا أو بعدا ، بل هو حول خلافةٍ تبقى فى عقِبه أو تخرج عنه ، وأن الذى سيدعوه إليه « مسلمة » اليوم لن يكون بعيدا عما دعاه إليه العباسُ « أمس » . بل لقد عرضه « العباس » رأيا يقبل أو يرد ، وساقه « مسلمة » شيئاً مقضيا فيه ، وليس له إلا أن يختار ، وأن هذا الخيار بين اثنين ليس منهما ولده ! ...

وتتحرك فى نفس « يزيد » عاطفة الأبوة ، ويحمس لها فلا ينزلق إلى حيث أراد أن ينزلق به « مسلمةُ » ويقول له :

إذا لم تكن فى ولدى فأحقٌّ بها من بعده ابنُ أخى ! ...

ولكن « مسلمةَ » لم يكن يغيبُ عنه أن « يزيد » لن يتزحزحَ عن العهد لابنه فى يسر ، وأنه سوف يصارعه على اثنتين : إحداهما تحويلُه عما أراد عليه « العباس » بالأمس ، وقد أفلح ، وثانيتهما تحويله عما يريده لابنه ، وهذه قد وفرها عليه « العباس » بالأمس ، فما باله لا يذكرْ « يزيدَ » فيقول له :

فابنك لم يبلُغ مبلغَ الرجال ؟ ! ...

ويجد « مسلمة » فى صمت « يزيد » ، مايجعله يحسب أنه قد انتهى إلى إقناعه ، فيفْجؤه بمن يريد العهد له فيقول :

اعهد ياأمير المؤمنين لأخيك « هشام » !...

وماصَمت « يزيدُ » صمت المستجيب لما يُطلب منه ، ولكنه صَمت صمْت الحزين على أمر سيُغلب عليه ، يحفزهُ إليه كلام يَراح فيه لريح النصح ، ولكنه لايستمرىء طعمَه ، ويدفعُه إليه خوف من أن يسلب حظا ، ويرده عنه خوف من أن يفوت عليه حظ مثلُه . ومايكاد يسمع اسم « هشام » ولايسمع اسم ابنه حتى يرى أنه مخدوع إن فَعَل !...

ويقرأ هذا كله فى وجهه « مسلمةُ » ، ويرى أن كلمة واحدة يزيدُها على ماقال سوف تشيعُ الطمأنينة فى نفس « يزيد » وترده إليه ، فيقول له :

ثم لابنك بعد « هشام » !...

فيهَش لها « يزيد » قليلا ثم لايلبث أن يتجهم ، ومابالعسير أن يفرِّط الآباء فى حقوق الأبناء ، وماجمع جامعهم إلا لعقبه ، ومأشد حسرته على ماجمع إن رآه يخرج لغير صُلبه !...

ولكن فتنةَ « ابنِ المهلَّب » أسرع من أن ينتظر بها أياما أخَر ، وإن هذه الأيام لن تشب بـ« الوليد » إلى مبلغ الرجال ، ثم لن تزيد الفتنة إلا اضطرابا ، ولاالخصمَ إلا تمكينا فى الأرض !...

فيالها من حيرة بلبلت من « يزيد » الفكر !... ومأعجزَ ذوى الأفكارِ المبلبلة من أن يقضوا فيما يعرض لهم !... ثم مأمْيلَهم إلى تلمُّس المخرَج حتى لايتورطوا فى غيرما يريدون !...

وذكر « يزيد » ماقاله لـ« العباس » بالأمس ، فأعفى به نفسه من إجابة ضارة ، فما له لايقوله لـ« مسلمةَ » اليومَ ليعفى نَفسه من تلك الإجابة ؟!... وماذكر هذا حتى قال لـ« مسلمة » : أَنْظِرْنى إلى غد !!...

– ١٢ –

ومن وراء قلب الأب قلب أم لم تقْسُ عليه الأحداث ، فيميل قليلا إلى التفريط ، ولم تفرُغ لصاحبه الألسنة تموه عليه وتضلله باسم النصيحة ، فهو لم يشارك فى دنيا الرجال الثقيلة بأعبائها التى تتنازع قلوبهم وتشغلها بها ، بل خلا كله لوليدها ، تراه دنياها التى لادنيا لها بعدها ، وهى لم تكد تحس بما يُحاك لابنها بليل ، حتى جن جنونها ولم تهدأ لها نفس !...

ولكن ماذا تَملك الأم فى أمر كاد الأب أن يقضى فيه برأى ولم يَرجعْ إليها فيه ؛ كأنه ليس يعنيها منه قليل ولا كثير !...

ولكن مابالُها تسكت عن هذا الأمر ، وتترك هذا المغلوبَ على أمرهِ « يزيدَ » – فريسةً فى أيدى المتآمرين عليه ، يعبثون بعقله كما تشاء لهم

أهواؤهم ؟... ومابالُها لاتقتحم نفسها فيه : تشير عليه ، وتبصره بالعواقب ؟... فما أحوج المُضيقَ إلى المعين الصادق !... يأخذ بيده إلى الجادّة ، ويبصره بالطريق السويّ . ومارَكن « يزيد » إلى نصح هؤلاء إلا حين لم يجد غيره ، ولو أنه رزق إلى جانبهم من يشير بغير ماأشاروا لبان له مع رأيهم رأى ، وملك أن يميز ويختار ، ولكنه كان فيما هو آخذ فيه ، وجانح إليه . كالمضطر لايجد بين يديه غير طريق واحدةٍ ، ولو كُشف له عن غيرها لتلبث قليلا قبل أن يمضى !...

وماعليها ألا يدعوها « يزيد » إلى هذا الأمر يشاورها فيه ، فخلافة المسلمين له وحده ، وماعليها إذا أشارت عليه فيه ، فهو وإن كان فى شأن من شئون الخلافة إلا أن لها بعضه ، ثم ماعليها بعد هذا وذاك أن تَعين « يزيد » بالرأى ؛ فهى شريكته فى حياة ستصيب معه من خيرها وشرها !...

وما إن اقتنعت « أم الحجاج » زوج « يزيدَ » بهذا كله حتى خلت به تبادله الرأى ، وكانت امرأة كيسة لبقة ، أعرف بكبرياء الرجال ، ومايمس عزتهم ، فلانت معه تحاوره وتداوره ، تلمح ولاتصرح ، وتكنى ولاتوضح !... ولم يكن « يزيد » ذا غفلة ، وكان يحب ابنه ، وكان هذا الحب يهيىء ذهنه ، فيلقن عن الذين يلمحون فى خفة وسرعة

وسرعان ماالتقى « يزيد » بـ« أم الحجاج » وفهم عنها ، وسرعان ماعدلت « أم الحجاج » عن التلميح إلى التصريح ، وذكرته ما كِيد به لأولياء العهود من قبل وهوّلت !...

ومايكاد يزيدُ يجنح إلى ماتقول به « أم الحجاج » ، ويتقبله بقلبه حتى يدخل عليه « مسلمة » فيحيى الخوف فى نفس « يزيد » بعد ماكاد حبه لابنه يذهب به ، ويطغى عليه ، وإذا هو قد نسى « أم الحجاج » وماقالت ، واستمع لـ« مسلمة » بنفس خائفة !...

وترى « أم الحجاج » أن المعركة لايزال حبلها بيدها ، وأن عليها أن تمعن فى أسلوبها الذى أوشكت أن تصل به ، فهذا قلب « يزيد » شطران بين الحب والخوف : لها شَطره الأول ، ولـ« مسلمة » شطره الثانى ، والكاسب منهما من مكن لشطره ، وجعل « يزيد » ينسى أحدَهما بالآخر !...

وعلى هذا اعتزمت «أم الحجاج » ، ولهذا دبرت ، تريد أن تغلب حيلتُها حيلة « مسلمة » وتخرج بـ« يزيد » ، وقد نسى خوفه بحبه .

- ١٣ -

ولقد كان لرجل من أهل المدينة جارية مولَّدة ، أدّبها فأحسن تأديبها ، وخرّجها فأجمل تخريجها ، وشبت : طريفة جميلة ، حسنة الغناء ، رتيبة الأداء ، طيبة الصوت ، ضاربة بالعود !...

ورآها « يزيد » وهو ولى عهد « سليمان » فتعلق بها قلبه ، ورغبت فيها نفسه ، وطمع فى أن يشتريها لنفسه ، فأخذ يساوم عليها مولاها فيُغلى ، و« يزيد » يستجيب ، حتى كان مادفعه « يزيد » ثمنا لها شيئا هال الخليفة « سليمان بن عبه الملك » ، فأقسم ليحْجُرن عليه !...

وفَرِق « يزيد » لقسم « سليمان » ، وخافه أن يفعل ، فعاد فى شرائه ، وعاد الرجل فى بيعه ، وخرجت الجارية من ملك سيدها الجديد ، ورجعت إلى ملك سيدها القديم !...

وهكذا بدأ « يزيد » حياته رجل حب وخوف ، لايغريه الحب بقدر مايبعده الخوف ، وإذا دخل عليه الخوف من باب خرج الحب من الباب الآخر !...

ويموت « سليمان بن عبد الملك » ويموت بموته الخوف منه ، وتصبح

مقاليد الأمور فى يد « يزيد » لافى يد أمير عليه يملك أن يخوفه ، فيعاود حب الجارية « يزيد » ويمسى ويصبح عليه !...

« وتحس أم الحجاج » منه ذلك وتراه لايزال يعيش على ذكرى أيام له سلفت مع تلك الجارية ، وأنه يُذكَّر باسمها فيخف ويطرب ، ويستحلف باسمها فيبر بيمينه ويلين لمستحلفه !...

إذن فما أحوج « أم الحجاج » – على مافى النساء من غيرة – إلى تلك الجارية ، تستعين بها على قلب « يزيد » !... وأنّى لها بها ، تملكها إلى جانبها لتوقظ شطر الحب من قلب يزيد أقوى مايكون وأحيا ، فلا ينكمش أمام سلطان الخوف ولا ينهزم دونه !...

وماعليها فى ذلك من حرج ، فلقد عرفت الأمراء وفى حوزتهم القيان المغنيات ، ومابها أن تغار فذلك حب لايسمو إلى حب الزوج لزوجه ، ومالها لاتسرع هى إلى البحث عنها قبل أن يسبقها « يزيد » إليها . والفرق بين الأولى والثانية كبير . فهى حين تضع يدها عليها وتهديها إلى « يزيد » تكون قد كسبتها صديقة ، تعينها على أمر ابنها ، وهى فى الثانية تكون قد فقدت أملاً فى عون على قلة الأعوان فى القصر ، ثم هى لاتأمن أن تكون الجارية عليها مع خُصُومها . ثم هى سوف تملك بها يدا على « يزيد » ، قد تقوى بها مع الجارية عليه .

وتدخل « أم الحجاج » على « يزيد » ذات مساء ، وسلاحُ النصر فى يدها ، تياهةً مُدِلَّةً ، لاتحدث « يزيد » عن « الوليد » تصريحاً أو تلميحا ، ولكنَّها تبعدُ به بعيداً ، فتحدثه عن تلك الجارية التى كان لها معه حديث قديم ، يثور فى نفسه الحينَ بعد الحين !...

ويعجب « يزيد » لأم الحجاج : كيف تخوض فيما يؤذيها ، ويود لو أمسكت عنه ، ولكنه حديث يلذ « يزيد » ومايحب أن ينتهى !...

ويُقبل « يزيد » على الحديث أولَ الأمر فى تردد وإباء ، وهى تدفعه إليه دفعا ، حتى إنه يشعر أنه يستمع إلى صديق يجهد فى أن يرد إليه مافاته ، ويعينَه على مايجب ، لا إلى زوج من شأنها أن تسد على زوجها الطريق ، حين ترى فيها اتجاها إلى مثلها !...

ويجد « يزيد » الجد من « أم الحجاج » فيقبل عليها جادا ويشكو لها مايعانى من فقد تلك الجارية ، صريحاً فى غير مواربة ، شأنَ كل محب إن أحس الثقة بمحدثه !...

ولعل « أم الحجاج » أرادت بهذا التشويق أن تمهد لصنيعها وتستوثق من أثره فى نفس « يزيد » فلما رأته أجل مما قدرت ، واطمأنت إلى أنها به مدركة ماتبغى ؛ – كشفت عن سِتر مَضْروب فإذا الجارية من خلفه !...

ومايكاد « يزيد » يراها حتى يستخفه مرآها ، وينسى بوجودها وجود زوجه ، ومايجرؤ الرجالُ على أن يعلنوا عن مثلها لزوجاتهم ، وماهم إن ملكوا الجرأة فى القول أن يؤيدوها بالجرأة فى الفعل ، وماهم حين يملكون الجرأة قولاً وفعلا يملكون القوة على أن يؤثروا على زوجاتهم غيرهن وهن شاهدات !...

ولكن يزيدَ قد أنِسَ « بأم الحجاج » بعد هذا الحديث القصير أنسا كثيراً : ولم يعد ذلك الزوج الذى تملأ الوحشة نفسه من زوجته فيخشاها على مثلها !...

ثم ألم تسع هى إلى تلك الجارية جادّة ، بعد أن أعياه هو السعى ، ثم ألم تشترها بمالها ، وماكان ثمنها بالشىء القليل ، ثم ألمْ تدخل عليه بها وكانت تستطيع أن تدسها عليه ، ثم ألم تسبق هذا بحديث صريح ، كانت فيه به رحيمة ؟!...

أو ليس هذا كله كفيلاً بأن يجعل « يزيد » ينسى مايذكره الرجال

ومايحرصون عليه ، إرضاء لزوجاتهم ، وهاهو ذا قد نسيه كله ، ولم يذكر شيئا منه . ولكن « يزيد » قد نسى بنسيان هذا الذى يذكره الرجال إرضاءً لزوجاتهم ، شيئاً آخر هو العلة التى دفعت « أم الحجاج » إلى ماصنعت !...

ولعله لم يحاول أن يذكر ؛ فقد يصل به الذكر إلى مايعكر عليه صفو ماهو فيه ، فآثر العافية على غيرها !...

أو لعله قد عد هذا من « أم الحجاج » رفقاً بحاله التى كانت تراه عليها شقياً مهموما ، فنزلت عن بعض حقها ؛ لتراه سعيداً باشًا . ولكن الشيء اليقين أن « يزيد » لم يربط بين هذا وبين ولاية العهد لابنه « الوليد » فما كادت « حبَّابة » – تلك الجارية التى أحبها وظفر بها على يد « أم الحجاج » – تفاتحه فيها ، حتى تنبه قليلا ، وعرف ماقصدت إليه « أم الحجاج » بما صنعت !...

– ١٤ –

ولقد يعز على الرجل أن يرى الصنيع على وجه ، ثم تكشف له الأيام عن غير ماقدر ، عندها ينقلب أثره فى نفسه ، ولايعود يذكره صنيعا بل حيلة وخدعة !

و« يزيد » الذى جعل يتلمس من الخير علة لما صنعت « أم الحجاج » حين كان يجهل ، بدأ يتلمس من الشر علة لما صنعت « أم الحجاج » حين علم !...

فلقد رأى « أم الحجاج » قد أسفت حين نزلت عن كبريائها فسعت إلى « حبابة » واشترتها .

ورآها غير غيورة حين أباحت لنفسها الحديث معه فى شأنها ، ورآها كادت تنسى أنها زوجة حين قدمت عليه . بـ« حبابة » !...

ظن « يزيد » هذا كله بأم الحجاج .. وله أن يظن ، فغضب لكبريائها الذى أهدرته ، وحزن لغيرتها التى فترت ، وشق عليه أن يراها نسيت ماتعيش له !...

وماأسعد الرجل حين يصبح على كبرياء زوجه ، ويمسى على غيرتها ، ويروح ويغدو بين الإصباح والإمساء على تلك الصلة الوثيقة ، التى تربط مابينهما على غير شطط فى الكبرياء ، ولا إسراف فى الغيرة ، ولاإمعانٍ فى استغلال تلك الصلة !...

ثم ماأشقاه مصبحا بزوج قد هانت على نفسها ، ومن هان على نفسه هان على الناس ، وممسيا بها لاتتحرك غيرة عليه !... وهل الحب إلا غَيرة تملأ القلوبَ يقظة ؟... ، وما أحن الرجل إلى أن يلمس فى شريكته هذه اليقظة له ؛ وإلا عد نفسه منسيا !... ومن ظن الناس قد نسوه ، فسرعان مايحمل نفسه على نسيانهم ، يروح ويغدو بين الإصباح والإمساء على غير صلة يأنس بروابطها ، عندها لايجدُ فى البيت ملاذه الذى يسكن إليه ، ومن لم يسكن إلى شىء جانَبه وطار عنه !...

من أجل ذلك كله لم يسمع « يزيد » لأم الحجاج ، والأمر يعنيه ، فهو متصل بابنه الذى يحبه ، ولم تكبر « أم الحجاج » فى عينه ، فيصيخ إليها كما كان يُصيخُ بالأمس !...

ولم تفلح « أم الحجاج » فى أن تغلب خوف « يزيد » بل مكنت له حين جعلته يفقد الثقة بها !...

وسرعان مانسيتْ « حبابة » ماأرادته عليه « أم الحجاج » وفرغت هى لحب « يزيد » .

وسَرعان مافتر « يزيدُ » عن ولاية العهد لابنه ونشط لحب « حبابة » .

وسرعان ماوجد خصومه منه هذا الفُتور . فحملوه على أن يعْهد لهشامٍ ، ويجعل العهد بعد « هشام » لابنه « الوليد » !...

– ١٥ –

لم تفقد « أم الحجاج » عهداً كان لابنها ثم تخلف عنه فحسب ، ولكنها فقدت معه « يزيد » نفسه .

فقد خالت أنها باعت « يزيد » لحبابة ساعة من نهار وأخرى من ليل ، فإذا هى قد باعته لها اليوم كله !...

وقد خالت أن لها من « يزيد » – على أيسر ماتقدر – حبه الظاهر ، ولحبابة حبَّه الباطن ؛ فإذا هى ليس لها من حب « يزيد » شىء !...

وقد خالت أن فى « يزيد » بقيةً من حياء تمنعه من أن تشيع له فى هذا الهوى شائعة تبلغها ، فإذا هو لا عهد له بهذا الحياء ، لايدين بقليل منه أو كثير !...

وقد خالت أنها نزلت له عن بعض حقها حينا ؛ فإذا هى قد خسِرت بين يديْه حقها كلَّه إلى الأبد .

ولم تخسر « أم الحجاج » وحدها « يزيد » بل خسره معها المسلمون جميعاً ، وإذا « يزيد لايذكر « أم الحجاج » ، ولايذكر « الوليد » ، ولا يذكر المسلمين !...

تطلبه « أم الحجاج » لبعض شأنها فإذا هو محتجب مع « حبابة » ، لايجد من بين أيامه يوماً يأنس فيه بزوجه ، وتأنس هى به !...

ويَسعى « الوليد » ليحظى منه بما يحظى به الأبناءُ من الآباء ؛ فإذا بينه وبينه حُجُب ، ويؤم المسلمون بابَه ليقضى بينهم فى حق ، أو يشهد

صلاة جامعة ، فإذا هو مشغول عنهم ، لايرونه ولايراهم ؛ فلقد عبث يزيدُ ماشاء أن يعبث ؛ عبث المحروم أمكنه العبث منه ، فتلقفه على لهفة وظمأ .

وخلا « يزيد » بـ« حبابة » ، لايرى وجها غيرها ، اللهم إلا وجه خادم يقوم بين أيديهما ، أو وجه مشاركٍ لهما من قَيْنَةٍ أو شاعر ، لايمل ذلك ولايريمُ عنه !...

وقبضت « حبابةُ » على « يزيد » بكلتا يديها ، تخشى ماصنعت الأيام من قبل ، حين طوح بها « سليمانُ بن عبد الملك » بعيدة عن « يزيد » !...

وكلما هم « يزيدُ » أن يخرج للناس قليلا ردته « حبابة » عن ذلك فى حيلة ودهاء ؛ فطوراً تغرى به الشعراء يزينون له المجون - وهو ذو القلب الغزل المطاوع - فيقعدُ عن الخروج وقد تهيأ له ، وطورا تخوفه الناس ومايكيدون - وهو الوجل الحذر - فلا يبرحُ مكانه !...

وليس غريباً أن يغرق « يزيد » فى اللهو ، ولكن الغريب أن ينسى به واجبه فى الحياة ، وليس بالواجب الهين فيستهان به ، ولابالواجب الخاص فلا يضار بالإهمال فيه غيرهُ ؛ ولكنه عبء من أثقل الأعباء ، رب تفريط فيه حقير جر ضُرًّا عظيماً ، ثم هو واجب عامّ يَعْنى أمةً بأسرها وشعبا بأكمله !...

وماكان « يزيدُ » بالرجل الغافل يغيب عنه شيء من هذا ، ولم تكن « حبابةُ » بالحمقاء لاتدرى ماستجر إليه « يزيدَ » !...

ثم ألمْ تصبح الدنيا ليزيد ؟... لا سلطان لأحد عليه ؟... فما باله يقبل عليها إقبالَ الخائفِ العَجِل ، الذى يَخشى أن تفوته الفرصة ؟...

ثم أليس غير هذا بحبابة أجدر إن أرادت ألا تمكّن منها الألسنة ، وقد لايستمع « يزيد » للقائلين يوماً ، ولكنه لابد ملق إليهم مع الأيام بالاً .

ولكن « يزيد » كان ملكا من الملوك ، لايعرف التوسط فى الأمور ، يأخذ من الدنيا بأحد طرفيها ، فإما جدا لاهوادة فيه .. وإما لهواً لاإفاقة منه . وإنما يعرف القصد من الناس غير ملوكهم ، يودون لو عبروا الحياة لاعليهم ولالهم ، لايقووْن على أن يميلوا مَيْلةً تبعُد بهم عن الجادّة .

وكان « يزيد » ملكاً من الملوك المستبدين ، نصف عقله غرور ، ونصف جبروته طيش ، ونصف رأية نَزَق ، ولقد أراد أن يمسك من الحياة بطرفها الجاد فمدت إليه طرفها العابث فتعلق به .

ورأى الحياة الجادّة يزحمه فيها الطامعون ويكدرها عليه الكائدون ، ويعوزه فيها الناصحون ، فتلبث دونها حائرا .

ورأى الحياة العابثة يعينه عليها سلطان ، ويغريه بها أهل ، وسوف لايحمل فيها جهدا ، فركن إليها !...

ولقد نسى « يزيد » بما فيه من غرور أن فى العبث هلاكه ، ونسى « يزيد » بما فيه من طيش أن الناس دون أن يحاسبوه ، ونسى « يزيد » بما فيه من نزق أن الدنيا له .

ولعل الذين أرادوا أن يخرجوا بالعهد عن ابنه أعانوه على الغواية ، ومدوا له فى أسباب العَبث ؛ ليخرجوا بالملك عنه بعد أن أخروا ابنه عن ولاية العهد .

ولكن الزمن لم يمتد بيزيد ؛ ليشهد هذا المصير المقدور ، فإذا الموت يخطف منه « حبابة » أصحَّ ماتكون فيلحق هو بها بعد أيام أعجز مايكون عن أن يصبر على فراقها ، فأراح بموته خصومه من أن يثوروا به ،

فلقد خلا « يزيد » يوما بحبابة وأقام حجابه دونه ودون الناس ، لا يقصدون إليه ، وأمر خاصته ألا يشغلوه بشيء كبر أو صغر . يطمع فى ألا يعكر عليه يومه معكر .

وفات « يزيد » فى هذه كما فاته فى غيرها أن وراء مايقدر غيباً لايقع عليه علمه فيحتاط له .

وجلس « يزيد » للهوه بعد ماأفسح لنفسه فيه ، يأخذ منه بأوفى حظ وأكبره . ويفيق خاطره إفاقة يستشعر معها أن فى أعقاب كل صفو كدرا . ويكاد يدفع هذا عن خاطره فإذا هو يملؤه عليه ، وإذا هو يهجس به ، وإذا هذا الهاجس يستحيل حقيقة فى قلبه تنغص عليه ماهو غارق فيه من لذة ، وإذا اليوم لايكاد يمضى منه غير قليل حتى تَشْرَقُ « حبابةُ » بحبَّةٍ من رُمانٍ تلفظُ معها أنفاسها .

لقد ظن « يزيد » ماشاء من ظنون ، وخال ماخال من أخيلة ، ولكنه لم يكن يظن أو يخال أن شبح الموت مقيم حيث أقام هو و« حبابة » .

ولقد هجس خاطر « يزيد » بما هجس ، ولكنه لم يكن يهجس بأن الموت سيختطف « حبابة » من يديه .

ولقد قدر « يزيد » ماقدر ، ولكنه لم يقدر أن حبَّةً من رمان - مهما بلغت - تقضى على هذا الجسم الفارع ، وتذهب بتلك الروح المرحة !...

وكما أحب « يزيد » « حبابة » حبا شديدا ، فقد حزن عليها حزنا شديدا ، وكما ترك عالمه لها حية ، فقد أراد أن يتركه لها ميتة

ولقد كانت حبابة جسماً وروحا ، فها هى ذى جسم قد أفلت منه روحه .

وما بمقدور « يزيد » أن يكون له على الروح سلطان ، ولكن بمقدوره أن يجعل على الجسم هذا السلطان .

إذن فهو لن يخلى بين الناس وبين جسمها ، يحملونه إلى حيث يغيبونه فى التراب .

وهكذا فعل « يزيد » فأقام على جسم « حبابة » أياما يتحسّه ويشمه ويبكيها ، ويحاول الناس جاهدين أن يدفعوه عن ذلك ، فلا يقدرون ، أو أن يحملوها فلا يملكون !..

وينتن الجسم فتضيق به الأنوف و« يزيد » به طيب النفس غير ضيق . ولكن الناس يفلحون على حين غفلة من « يزيد » ، فيحملون جسم « حبابة » ويغيبونه فى التراب ، ويجن جنون « يزيد » فيصيح باسمها فى جنبات القصر وفى ردهاته . ويغشى مجالسها منه وكأنه يبحث عنها ، والناس يعزونه عنها ، فلا يجدون للعزاء من نفسه صدى ، ويتركونه للأيام عله ينسى ، فإذا هو بعد أيام يسعى إلى قبرها ينبشه ليخرج جثتها منه ، ولكن الناس لا يمكنونه ويعودون به إلى القصر مولها مفزعا كأن به مسّا من جنون .

وما هى إلا أيام قلائل حتى يمضى « يزيد » كما مضت « حبابة » ولكن على غير مطعوم يشرق به ، فما نظن « يزيد » طعم شيئا بعد موتها ،

هذه صورة إن صحت عن « يزيد » ولم تكن من تزيدات خصومه ، تدلك على شذوذ فى الطبع يخرج بصاحبه إلى شذوذ فى العقل !...

وهكذا عاش « يزيد » شاذا فى خوفه حين خاف واستمع إلى مُخَوِّفيه ، شاذا فى حبه حين التقى بحبابة لم يستطيع أن يقصد فيه ولا يسرف !...

ولقد عاش يزيد مغلوباً على كل شىء ، غلب على حبه لزوجه بحبه لحبابة ، فنسى زوجه وعاش لحبابة .

ثم غلب على أن يقضى فى ولاية العهد بما يرى ، فأخذ برأى خصومه ، وتخلّى عن رأيه ولكنّ شيئا واحدا لم يُغلب عليه هو جاهليته الأولى - أعنى تلك العصبية التى حملها الأمويون للهاشميين - فقد ذكر له المشيرون عليه خلال الفتنة التى أثارها « ابنُ الملهب » حين خرج عليه . أن الأحداث تحدث مع الفتن ، وقد يكون من أحداثها أن يمضى الخليفة ويودع الحياة . وفى مضاء الخليفة دون أن يكون من ورائه ولى عهد ؛ كسب للثائرين يفتٌّ فى عضدُ الدولة الأموية فيرثها الهاشميون ، وبهذا حملوه على أن يبايع « لهشام » ويجعل العهد من بعده لابنه .

وهم حين ذكروا له هذا قد أثاروا فى نفسه تلك العَصَبِيَّة الأولى التى حملها الأمويون للهاشميين . والتى حين ذُكر بها « يزيد » انصاع لها ، وباع حقا كان لابنه خالصاً من دون الناس لمن لا حق له فيه ، وهو « هشام » ، على حب من « يزيد » لابنه ، وإيثار له .

وما كان موت « يزيد » مع الفتنة شيئا محققا ، ولكنه خاف مع المشيرين أن يذهب الخلاف على هذا الأمر بريح الدولة الأموية ، وتصبح فى يد الهاشميين ، ففعل ما فعل إيثارا لتلك العصبية على عاطفة الأبوة .

ولكنّ الفتنةَ مضت بسلام ، وقُتل « ابن المهلب » ولم يمت « يزيد » فإذا عاطفة الأبوة تثور فى نفسه ، وإذا هو يرى ابنه الوليد يوماً بين يديه وقد أيفع وشب فيندم على ما فرط فى حقه ، ويحسها لاذعة من ألم ، ويدرك أنه عجل وكان جديراً به أن يتريث ، وأنه أساء لابنه وكان حقه أن يحسن إليه .

عندها يود لو استبدل بعهد عهدا ، ومحا من ديوان الخلافة ما خطه بيمينه . ولكن أنّى له أن يفعل ، وقد سبق القول ، وما هو بقول سُوقه ولكنها كلمة خليفة ، غير أنه قد يبطل الرأىُ الرأىَ والأمورُ بالحيلة تدار .

ولو غير « يزيد » ممن يملكون أن يواجهوا الشدائد بعزم ، ولو غير « يزيد » ممن لم تسؤ سيرتهم فيجد من الناس أنصارا يغلب بهم خصومه ، لخلع « هشاما » عن ولاية العهد ، وجعلها لابنه ، وهو لاشك إن فعل واجدٌ عذره ، فلقد فعلها على أنه ميت والفتنة قائمة وابنه صغير، وها هى ذى الفتنة قد نامت والابن كَبُرَ ويزيد لم يمت . ولكنه كان قد انتهى إلى هذه الحال من العبث المفرط ، والمجون السافر ، والتفريط فى شئون الخلافة فلم يعد يقوى على شيء مما يريد إن هَمَّ به ، لهذا لجأ « يزيد » إلى الحيلة يعالج بها ما فرط منه !...

ثم هو حب أبوى غالب إن لم يملك صاحبه القوة على أن يغير فلا أقل من أن يحتال للأمر يبلغ بالحيلة ما تعجز عنه قوته .

لقد فكر يزيد ثم فكر ، وإذا هو آخر الأمر يرسل إلى « هشام » يغريه بخلع نفسه على أن يُطعمه على ذلك ولاية الجزيرة ويجعلها له لقمة سائغة .

ولا يجد « يزيد » من نفسه القوة على أن يواجه بها « هشاما » فيختار لذلك رجلا من رجاله ظنه أمينا على رسالته ، فأرسل بها « خالدا القسرى » ؛ ليفاوض عليها « هشاما » .

ويمضى « خالد » إلى « هشام » وفى نفسه غير ما حمل عن مولاه ، فهو لم يحظ عند « يزيد » بكثير، ولعله إن ظفر بحظوة « هشام » والمستقبل له ، سوف يضمن ما فاته من متاع الدنيا

وما آذاك مثل رسول لا يَصدقك النية ، ويبدو وكأنه لك وهو حرب عليك . وما بالكريم أن يخالف عما حُمّل ، ولا بالشجاع أن يقضى غير ما أجاب إليه ، ولكنه الطمع يغرى بالباطل ، ويسوقُ إلى النُّكر وهكذا كان خالد رسولا من هؤلاء الرسل الذين تغلبهم أطماعهم وينسَوْن فى سبيلها أخلاقهم !...

ولقد أتى « خالد » « هشاما » وما كاد يطالعه برغبة « يزيد » حتى أجاب إليها ، غير وان ولا متخلف . فلقد ظن « هشام » أن « يزيد » قد يملك غيرها إن هو لم يجبه ، فرضى بقليل مكفول عن كثير قد لا ينال منه شيئا . ثم هو إن أبى على « يزيد » ما يريد .. فقد يدخل نفسه فى فتنه لا يدرى لمن تكون فيها الغلبة . ثم لعله نظر للأمر نظرة « يزيد » إليه ، حين خاف على الأمويين سوء العاقبة ؛ لهذا كله أو بعضه قبل « هشام » ما أنهاه إليه « خالد » .

ولكن « خالداً » رأى فى إجابة « هشام » مالا يحب ، ورأى الأمل الذى بناه وهو فى طريقه إليه كاد ينهار بين يديه !...

وكأن خالداً أراد أولاً أن يخبر ما عند « هشام ، فإن وجده على إباء أعانه عليه ، وكان فيها مشكورا ، وإن وجده على غير ذلك بصّره ومنّاه ، وكان أجره أجرَيْن : الأول لصرفه عما عزم عليه ، والثانى لنصحه . وكم يحلو لهؤلاء المثيرين أن يجدوا الملوك أغرارا طامعين فينفذوا إلى نفوسهم !...

وكانت الثانية من « هشام » فالتفت إليه « خالد » التفاتة الناصح الشفيق ، وأخذ يشير عليه . ونحن نترك لك « خالدا » يحدثك حديثه مع « هشام » !...

ويقول « خالد » : لقد أتيت هشاما فذكرت له ذلك - يعنى ما حمّله إياه « يزيد » إلى « هشام » - فأسرع فى الإجابة .

فيقول له « خالد » : أيها الإنسان ، إن استشرتنى وعاهدتنى على أن تكتم علىّ .. أشرت عليك .

فيقول « هشام » : قد استشرتك ولك عهد الله أن أكتم عليك . فيقول له « خالد » : إنما هى أيام قلائل حتى تصبح الجزيرة أحد أعمالك

فيقول له « هشام » : فكيف بالسلامة من « يزيد » !...

فيقول له « خالد : تلكَ عليّ » .

فيقول له « هشام » : افعل مابدالك فإنها يد مشكورة لك .

☆ ☆ ☆

هذا مادار بين « خالد » و« هشام » . وأنت ترى أن « هشاما » لم يشأ أن يأبى على « يزيد » ماأراد ، ولو أن « خالدا » كان الأمين فعاد بها إلى « يزيد » لانتهى الأمر ، ووصل « يزيد » بحيلته إلى ماأراد . وماندرى لعل تلك إن صحت لجرى التاريخ بغير ماجرى به ، ولسجلت صفحاته على غير ماسجلت ، ولكنه قدر لابد أن يبلغ غايته .

وعاد خالد إلى « يزيد » فوجده أظمأ مايكون إلى سماع كلمة يشفى بها نفسه ، ويبرد غليله . وماكاد يؤذن « يزيد » بمقدمه حتى خف إليه يستمع منه . وماكاد يستقر بخالد المقام حتى عاجله يسأله عما كان وهو يظنه قد عاد من « هشام » بما يحب . ولكنه ماكاد يرى عبوسه حتى يدرك أن غير ماتوقع كان . و« يزيد » لَهِف إلى أن يسمع ، و« خالد » حريص على أن يقول . ويغلب حرص « خالد » لهفة « يزيد » فيبدؤه قبل أن يسأله ، وهو يظهر الضيق بهشام ، والخوف منه فيقول :

ياأمير المؤمنين ، إنى أَتَيْتُ رجلا صعبا !...

ومايكاد يسمعها « يزيد » حتى يَوْجل ويلين ، ويحس ذلك منه خالد ، وهو الذى يعلم كيف يُخَوف « يزيد » فيمضى فى حديثه ويقول :

فأنشدك الله أن توقع العداوة والشر بينكم ، ويجد الناس السبيل إلى الطعن فيكم والاختلاف عليكم .

ومايكاد « خالد » ينتهى إلى هذه حتى يكون « يزيد » قد انتهى إلى العدول عما بدأ فيه ورضى بما كان .

وهكذا كان « يزيد » أمويّا من الأمويين الأوَل على الرغم مما مال إليه من مجون طائش ، كان أمويا يحرص على أن تكون الكلمة فى قومه ، ويخاف أن ينتزعها منهم خصومهم الهاشميون !...

عرف منه ذلك المحيطون به فكانوا كلما هموا أن يسلبوه شيئاً أو يزحزحوه عن أمر خوفوه زوال هذا الجاه وانقشاع ذلك السلطان عن الأمويين !...

وكان « يزيد » يخاف فيسرف فى الخوف ، فيخال من الشيء الصغير شرا مستطيرا ، مامس ذلك سلطانَ بنى أمية أو قارب أن يمسه .

وهكذا استمع « يزيد » إلى « مسلمة » فولى « هشاما » العهد ولم يكن بالطاعن فى السن يخشى أن يختطفه الموت ، إذ كان عندها فى الثلاثين أو جاوزها بقليل ، ولكنه ذكر بالخطر يتهدد بنى أمية فخال ماذكر به واقعاً بعد حين قريب فأمضى ماطلب منه .

ثم استمع إلى « خالد » ولم يحاول غيرها فى أمر كان فيه الأب الناظر فى شأن ابنه ، لأنه ذكّر بالخطر يتهدد بنى أمية فنسى ابنه وفزع لهذا الخطر وسكت عما أراد .

وكأنى بيزيد قد استسلم آخر المطاف ، وأغلق عن هذا الأمر فكره وقبض دونه يديه خوفا أولاً ، ثم راضياً ثانيا حين فرغ لـ« حبابة » ، إلا أنه عاش إلى أن مات وفى نفسه هَمّ ، حتى لقد رأى ابنه « الوليد » يوما يخطر بين يديه - فتى فى الخامسة عشرة أو ينقص عنها أو يزيد قليلا ، فتوة وبأساً وأدباً وظرفا ، فتنقبض بالألم نفسه ، ولكنه لايملك شيئا ، وتكاد

تدمع عيناه ، وإذا هو ينبس : الله بينى وبين من جعل « هشاما » بينى وبينك يابنى .

وهكذا أصبح لايملك « يزيد » غير أن يشكو إلى الله ، ولعل إفلاسه فى الحياه - رأيا وحيلة - دفعه إلى أن يعوض ذلك الجانب المفقود فى جانب آخر ، فما إن فتح له باب اللهو والهوى - وهو عليه معان وعنه غير مدفوع - حتى اقتحمه لايلوى على شيئ ولايلتفت إلى ماوراءه ، حتى مضى على هذا النحو الذى مر بك !...

- ١٦ -

و« يزيد » الذى فرط فى حق ابنه « الوليد » فلم يحفظه له وقدم عليه غيره فيه ، هو الذى أهمل فى تنشئته ورعايته صغيرا ، فقد أسلمه عندما بلغ سن التلقى إلى مؤدّب لاتعرف له سيرة صالحة ، هو « عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيبانى » فخرَّجه عابثا وزاده على العبث جرأة عليه وتركاً للاستحياء منه . وكان قد روّاه الشعر وأطلق لسانه به ، فأذاع عن فعله بقوله ، وسجل به ماأتى وغير ماأتى .. فالشعر أحلاه خيال مسرف يصف غير واقع ويغير فى الواقع . ولو أن « الوليد » لم يرزق هذا اللسان الشاعر لعاش على سُنّة مستورة ، ولقال عنه الناس ولم يقل هو عن نفسه ، وهو حين يقول الناس عنه يصدقون ويكذبون ، ولكنه حين يقول هو عن نفسه فبالصدقِ يقول ، والناس لذلك ناقلون . وهكذا فضح « الوليد » لسانُه ، وعرف الناس بنفسه بما عُرف عنه من شُبَه ، ماجناً مستهترا لايرده حياء ولا يضبطه تعفُّف ، وهو الذى سيكون بعد قليل أو قصير خليفة للمسلمين .

ولم يعرف « عبد الصمد » أنه ينشىء خليفة قريب عهد بأيام الإسلام الأولى ، والناس لازالوا أمسك بالتعاليم وأرعى للحرم ، ومامثل « عبد الصمد » من كان يجهل هذا ، ولكنه كان من هؤلاء النفر الذين لانَ إسلامهم ، وفترت تقواهم ، وطاب لهم الجهر بالمعصية ، ولذّ لهم أن ينفثوا

سومهم ويجمعوا الناس على رأيهم . إذن فلقد عَمد « عبد الصمد » إلى هذه التنشئة الفاسدة ينشىء عليها « الوليد » وهو يحسب أنه محرره من أسر التقليد ، وهو الذى أغراه بها وهو يظن أنه قد أنصفه .

والملوك إذا اتصلت أرجلهم بمزلقة الفساد فلا مقيل لهم ، وإذا ذاقو طعم الشر استعصى عليهم أن يستمرئوا غيره ، والفرق بينهم وبين عامة الناس فى ذلك أن الفساد يعين عليه جاه الحياة وفى يد الملوك مفاتيحه ، وأن الشر يعوزه سلطان يحمى صاحبه ، وماأقدر الملوك عليه وأعجز الناس عنه ، ومانازع الناس الملوك إلا حين رأوا فيهم الفاسد الشرير ، وماجعل الناس لهم مع الملوك رأيا إلا ليحدّوا من هذا الفساد وذلك الشر .

وهكذا رزىء الوليد بذلك المؤدب ليُرزأ المسلمون « بالوليد » ، وماأختاره « الوليد » له ولكن الذى اختاره له أبوه « يزيد » . ولاندرى أجاءت تلك عن معرفة ورضا من « يزيد » له – وكان يزيد يرتاح لمثلها ولذلك رضيها لابنه – أم هو الرأى أشير به عليه فقبله دون تمحيص ؟ ولكن زندقة « عبد الصمد » المؤدّب لم تكن سرّا يغيب عن مثل « يزيد » ومامثلها تخفى عليه وهو الخليفة .

وهكذا كان « يزيد » لا تكاد تعذره فى واحدة إلاورَّط نفسه فى غيرها مما لا يقبل عذرا . ألم يعش عمره خالعا عذار الحياء . ولو أنه كان الشاعر القائل لشاع عنه ضعف ما كان ، ولكنه لم يرزق ذلك اللسان الذى رزقه ابنه « الوليد » ، وعلى الرغم من هذا .. فلقد مضى بأفحش مما مضى به ابنه كما سترى بعد ، وليت هذا الاختيار كان وحده السيئة التى آذى بها « يزيد » ابنه « الوليد » فى تنشئته ، ولكنه أضاف إليه أخرى أشد وأقوى ، فما كانت سيرة « يزيد » المفضوحة لتخفى أولا على « الوليد » وقد شاعت بين الناس ، وما كانت لتمر تحت بصر « الوليد » عفوا دون أن تترك فى نفسه أثرا أى أثر ، وقد تكون القدوة أبلغ وأبقى ، بل ما أضعف الكلمات

الناصحة عن أن تحرك لها قلبا إن لم يؤيدها فعل، ثم ما أصدف الناس عنها إن جاء الفعل على خلافها .

أبوة كلها تفريط ، تلك كانت أبوة « يزيد » ، باع فيها الأب حق الإبن وجلب بذلك عليه شرا عنّاه فى الحياة عناء لا حد له ، ونشّأه على غير صالحة فهوّن من شأنه بين الناس وأعان عليه بذلك خصومه .

والعجيب أن « يزيد » الذى خاف الشرّ يصيب سلطان الأمويين كان يهيىء لهذا الشر ويمكن له . ولكنه رآه فى الأولى شرا يدفعه عنه عقله فأباه ، وأحسه فى الثانية لذة يدفعه إليها ميله فأتاها ، كان فى الأولى رأيا يدار ، يقوم على الحُجة ، ولم يكن يملك زمامها فأخذ بما يقال له . ولكنه كان فى الثانية هوى لا عقل له ولذة ذات أذن صماء فلم يستجب « يزيد » مع هذه وتلك لمشير أو نذير .

– ١٧ –

ولقد جاء « يزيد » إلى الدنيا وأبوه بعيد عن الملك ، فلقد كان عندها عمه « الوليد بن يزيد » على عرش بنى أمية ودرج « الوليد بن يزيد » يشب وينمو عهدَ « الوليد بن عبد الملك » ثم عهدَ أخيه « سليمان بن عبد الملك » .

وشهد « الوليد بن يزيد » فيما شهد كيف همّ « الوليد بن عبد الملك » بخلع أخيه « سليمان » والبيعة لابنه عبد العزيز ، لولا أن حال الموت بينه وبين ما هم به . ثم شهد كيف نقم بعدها « سليمان » على من أعانو عليه عند أخيه فسفك دماءهم ونكّل بهم .

وشهد « سليمان » حين أراد أن يبايع لابنه وهو صغير وكاد أن يمضيها ويفرض على الناس ما أراد لولا أن قيل له : إنما يحفظ الخليفة فى قبره إذا استخلف على الناس الرجل الصالح . وكانت فيه بقية من ورع وخشية فرجع عما عزم عليه .

فعرف « الوليد بن يزيد » أن المُلْكَ للملوك قد استبدوا به من دون الناس ، لا يعرفون معه رأياً ولا مشورةً إلا إذا ضاقت بهم السبل وضلت عنهم المصادر ، عندها يسمعون .

وهم باستئثارهم لم يخلقوا الناس على النصح وإنما يحملونهم على الرياء ، ولم يبسطوا لهم الأنس فيدفعوهم إلى الصراحة ، ولم يؤمنوهم الغوائل فيردوهم إلى الإفصاح .

وما أشار عليهم إلا ذو غرضٍ يدورَ معهم كما يدُورون ، والملوك قلّما يستمعون لناصح إلا إذا ملك نفوسَهُم فملأها خوفاً قبل أن يملأها نُصحاً

ويعرف « الوليد بن يزيد » أن العهودَ بين الملوك المستبدين لا غناء فيها ، يتحلّلون منها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وما رزقوا عليها من قوة ، وأن الدنيا لهم من دونِ الناس يأخذون منها ولا يعطُون .

ويعرف أن الرعية تعيش بمعزل عن هذا كله تمر به أو يمر بها ، فلا تأبه له إلا ساعة من نهار لبيعة أو خلع ، ثم لا تلبث أن تذهب بهذا وذاك شؤون حياتهم الغالبة والخوف من أن تنالهم يد باطشة بلون من ألوان العذاب .

يعِى هذا كله « الوليد بن يزيد » مع ما وعيه من مكر الذين مكروابه ، فيعرف أن الحياة للغالب يبسط فيها يده بحق أو بغير حق ، وينضاف إلى السوء في نفسه سوء آخر ، ويُرزق مع الجرأةِ على المحارم .. الجرأة على الحقوق !...

وما نشَّأ « الوليد » نفسه ولكن نشّأه أبوه ، كما نشّأته الأحداث من حوله .

فشبّ لاهيا حريصا على أن يجمع أسباب اللهو كلّها بين يديه ، فأسرف

فى التجمل بالجواهر ، يغيرها فى اليوم مرات ، حتى يبدو مرموقا ملحوظا ، وتأنق فى فاخر اللباس ، يتخير منها الرائق الموشَّى .

ولكنه كان مع هذا وذاك فتًى من أشد الفتيان ، حتى ضُرب به المثل فى البطش والفتك .

غير أن هذه الشجاعة وتلك الفتوةَ لم تُنسياه أن يُمعن فى التجمُّل ، فيحمل فى رقبته ما تحمله الغوانى من العقود ، وأن يَظهر بين الناس بعضَ الأحيان فى غير ما يظهر به الجاد المهيب ، فِعلَ المستهتر يحلُو له الفعلُ فلا يردُّه عنه حياءٌ ، وتحفزِه إليه جرأةٌ على الباطل .

وليس هذا بغريب على ناشىء تلقفته يد المربى « عبد الصمد » ، وهو ما هو .. زندقه وفسادَ دين ، ومد ببصره حينَ لَقِن وفهِم فرأى أباه قد بسط ذراعيْه للَّهو ، وخلّف الجد وراءه ، فشب مملوءَ السمع والبصر بما أخذه عن مربيه . وأبصره فى أبيه ، لم يشب على غيرهما من صالحة فينطبعَ على خير يَقْوَى به على شر .

ولئن فقد « الوليد » أباه صغيرا ، فهو لم يفتأ ملازماً لمربيه كبيرا ، ولقد قُدر له أن يجمع شمله بشمل آخرين ممن كانت لهم طيبات فى الحياة ، ولكن ذلك جاء بعد ما ذاقَ « الوليد » طعم المُجون واستمرأه

— ١٨ —

وحين مات « يزيدُ » كان « هشامُ » بعيدا عن « دمشق » ، فيأتيه الرسول يحمل إليه النبأ . وما نظنه حزن له بقدر ما فرح به ، وهكذا الدنيا تُنِسى فى إقبالها ما جرَّعت فى إدبارها . بل لعل « هِشَاما » لم يرَ فيما أصابتْ به الدنيا « يزيدَ » ما يبكيه ؛ فقد أخلت له السبيل إلى ما هو طامع فيه . بل ما نشك أنه كان يرجو هذا ويطلبه ؛ ليضعَ رجله على العرش

الذى ظل يرقبُه ، بل نكادُ نؤمن أنه لو أُتيحتْ له فى الخلاص من « يزيد » وسيلةٌ ما قَصر أن يحتالَ لها بألف حيلة .

ولم يكن هذا مما يعيب « هشاماً » ولا غيرَه ، ممن يرقبون الملك بموت مالكه ، ولكنه عيب النظام الذى يقسّم الناس بين طبقة حاسدةٍ وأخرى محسودة . بين طبقة مالكة لا يخرج الأمرُ من يدها إلا بخلع أو موت ، وأخرى مترقبة تعمل لهذا الخلع وتتعجَّل هذا الموت ، ولو أن الملك كان موقوتا لحرص الملوك على أن يكون وقتهم فيه تعميراً وإصلاحاً ، ولو أنه كان اختياراً لحرص المتقدمون له على أن يكون صفحتهم إليه نقية طاهرة ! ...

ولقد بدأ المُلك فى الإسلام مشورةً واختيارا ، اختار الناس له « أبا بكر » بعد أن تشاوروا وألحّوا فى المشورة ، فكان الحَكم المرضى ، ورضى المسلمون بـ « عمرَ » بعد أن قدمه له « أبو بكر » فكان الحكَمَ العدل ، ورشح له « عمرُ » نفرا يختارون ، وكاد أن يرسى بذلك قاعدة الشورى فى الحكم ، لولا ما كان من تعصب الأمويين ، وظنهم أن فى اختيار « عثمانَ » ترجيحا لكفتهم ، فتيقظت فيهم جاهليتُهم الأولى التى شغبوا بها على « علىّ » . وما كاد « على » يُقتل حتى ردُّوها كما بدأتْ مُلكا عضُوضا مستبدا ، يرثه سادتهم ، ولا رأى فيه للمسلمين . وانمحت من قاموس الحُكم كلمةُ الشورى ، وعاش المسلمون رعيةً مغلوبة على أمرِها تستبدُّ بها ملوكُها ولم تذُقْ حلاوة الشورى وقتاً ما ، طال أو قصُر ، ولم تشارك فى الحياة إلا بمقدار ما يشارك به الخادم سيده ، فلم تنشأ على الوعى ، ولم تنعم بالرأى ، وكانت الدنيا بينهم وبين الملوك قسمة غير عادلة ، لهم خيرُها وعليها شرها ، وما طابت الدنيا حين طابت إلا للملوك ، ولا أظلمت الدنيا حين أظلمت إلا على الرعية .

وما غلوْنا حين قلنا إن « هشاما » لو ملك أن يخلص من « يزيد »

لفعل ، فلقد كان « هشامٌ » رجلا فظا غليظ القلب ، ظلوما بخيلا ، حسودًا بذيء اللّسان ! ...

ولعل الزمنَ الذى أرخى « للوليد » فألانه ، قد قسا على « هشام » فأجحده ، ولقد كانت الدنيا « للوليد » لولا أن أبعده عنها أبوه - فاسترخى ولم يكد - ولكنها كانت بعيدة عن « هشام » فتطلع لها وجدٌ ، وكان الجاه فى يد « الوليد » فبسط فيه يده ، وكان عزيزا على « هشام » فكلما اجتمع له منه شيء قبض عليه ، وبدا الطريق معبَّدا أمام « الوليد » فألطف من نفسه ورققها ، وبدا وعرًا أمام « هشام » فكان غليظاً ليقوى عليه ، وأسمحت الدنيا « للوليد » حين وُلد على فراش ملك ، فلم يضطر إلى أن يظلم أحدا على حقه ، وضنت على « هشام » حين حجبه إخوته بأولادهم عن الملك فاضطر أن يظلم الناس على حقوقهم ليظفر بحقه ! ...

وخلق « هشام » محروماً فحسد ، ومُقْصى إقصاء لم يكن له معه أمل فساء لذلك طبعُه ، ومن ساء طبعُه نفّس عنه لسان يتكلم ويجرح ! ...

ولكن شيئا آخر غير هذه كلها أساء إلى « هشام » ، لم يلقنه عن الظروف التى أحاطت به ولكنه لقنه عن أُمه وجرى فى مَجرى الدم منه . ولعل هذا الشيء الآخر هو الذى نشَّأ « هشاما » على هذه الصفات وزادتْه الظروف المحيطة به فيها إمعاناً وغُلُوا .

فلقد كانت أم « هشام » « عائشة المخزومية » محمَّقة يصدر عنها ما يصدر عن الحمقى وتفعل فعلَهم . هى عاقلة أو شبه عاقلة ، مالزمت الصمت ، وجنحت إلى السكون ، فإن نطقت أثارَتْ الضحك فى نفس من لا يرحُمها ، والأَسَى فى قلب من يعنيه أمرُها ، وإن تحركتْ جاءت بالهزل المُثير المبكى .

ولقد بنى بها « عبد الملك » أبو « هشام » جاهلاً بها ، أو لعل شيئا من جَمالها أغْراه بها ، فنسى لها هذا الذى كان يظنُّه يسيرا ثم رآه كبيرا .

وكم أوصَاها أهلُها ألا تتكلم إلا نَزْراً ، وألا تتحرك كُثْرا ، وأنَّى لمن لم يملكْ عقلا أن يستجيب لهذا أو ذاك ، فلو ملكَتْ أن تفعل لملكتْ أن تسمعَ .

فكانت المسكينة إذا خلتْ إلى نفسها خالت الوسائد بين يديها دوابًّا ، تصفها صفا ، ثم تغيّر بينها وتبدّل . تركب هذه مرة ثم تنزل عنها إلى أخرى . تنقم على هذه مرة فتزجرها أشد الزجر ، وتسوطها بسوط فى يدها آلم السوط ، وترتاح إلى أخرى فتربْت عليها ؛ وكأنها تدللها ، وتلقى بالطعام بين يديها ، فإذا ما وجدتْه هو هو لم تمسّه الوسادة بفيها فتلتهمه .. ركلتها برجلها . فتطرحها على الأرض ، وقد تمزقها تمزيقاً .

وكانت المسكينةُ تصنع من الكُندر تماثيلَ مختلفة : فهذه جارية ، وهذا عبد ، وذاك رجل ، وتلك امرأة ، ثم تجلس بين تلك الحاشية تأمر وتنهى ، والويل لمن يتخلف عن أمرٍ لها أو نَهْى . وهل تملك هذه كلها إلا أن تتخلّف . هنا تثورُ ثائرتُها فإذا هذه التماثيل كلها التى استوتْ تماثيل قد عادت قطعا مختلطة لا تتميز منها شيئا ما .

ولقد ضاق بها « عبد الملك » ضيقا نسى معه جمالها فطلقها ، ومضت هى إلى أهلها تحمل فى بطنها جَنينا ، لم تمض عليه أشهر حتى وضعته بعيدا عن أبيه ، ويبلغ « عبد الملك » نبأ الوليد فيسميه « المنصور » وتأبى زوجُه « عائشة » إلا أن تسميه باسم أبيها – وكان أبوها يدعى «هشاما » – فتغلب إرادتها إرادة « عبد الملك » . ولعله أراد أن يَرفق بعقلها فلا يكلفُه ما يبلبله ، فارتضى هذا الاسم الذى خلعته الأم على ابنيهما . واطرح الاسم الذى أراده هو . ونشأ الوليد لا يعرفه الناس إلا باسم « هشام » .

وما من شك فى أن الوليد « هشاما » عاش فى كنف أمه طفلا وشابا تغذوه وترعاه ، وما من شك فى أنه ورث عنها شيئا من طبعها ، ولقد لطف القدر به ، فلم يورِّثه كلَّ ما فى طبع الأم مما مرَّ بك ! ...

إذنْ فلقد خلقت الأم « هشاما » كما خلقته الظروف المحيطة به ، أو قُل : لقد هيأت الأم جوانب الغِلظة والفظاظة من نفس « هشام » ، وما إن شبَّ حتى تلقفت نفسه ما يوائمُها مما فى الحياة من غلظة وفظاظة ، فزكَّى المكسوبُ الموروث ، وكان « هشام » هذا الرجل العنيف على الناس بمكسوبه وموروثه حتى أصبح فى أفعاله وما يأتى أشبة شىء بأُمه لا بأبيه ، على اختلاف فى الأسلوب .

يُقبل عليه يوما صديق له ، ويعلم « هشامٌ » أن الحظَّ أتاه ، فوضعت أعنزه ولم تضع أعنزه هو ، وتأسى نفس « هشام » لها ، وما فيها شىء تأسى له النفوس ، إنما هى أيام تسبق بها الخوامل ، ولكن « هشاما » عجول يضيره أن يسبق الخير إلى الناس دونه ، ثم إن « هشاما » حقود يؤلم نفسه أن يرى النعمة على غيره ولا يراها عليه ، وما هو بمستطيع أن يرضى عجلته فيُتيح لأعنزه أن تضع قبل وقتها المقدور ، ولا أن يطفىء حقده فيذهب بما وضعت أعنز صديقه ، ولكن لا بد لمن يحمل نفسا كنفس « هشام » أن يشتفى على صورة ما ، ومحال لمن يحمل نفسا كنفس « هشام » أن يبيت إلا على لون من الرضا . تُرى أى شىء يشفى نفس « هشام » ويرضيها فى موقفه هذا ؟ لقد التفت إلى صاحبه وهو يقول له :

هيا بنا نخرج إلى أعنزك نُصِب من ألبانها .

وما بـ « هشام » حاجة إلى تلك الألبان ، ولكن أنَّى له أن يتركها خالصة لصاحبها . وما إن أصاب « هشام » من تلك الألبان حتى هدأت نفسه بعض الشىء وعاد راضيا .

ويدخل عليه يوما وهو فى ساحة قصره مولى له بطائرين غريبين ، لم يجد قصرا أولى من قصر الخليفة بضمهما ، وهو يرجو عليهما جائزة ما تعوّض عليه ما بذل فى سبيلهما ، ومزيدا من مال « هشام » ويطيب لـ « هشام » أن يأمر المولى بإطلاق الطائرين ، والمَوْلى لا تطاوعه يداه ، ولا

تسمح نفسه ، فهو يعلم أنهما إن أطلقا فلن يقعا فى يديه مرة أخرى ، وهو يعلم أنه خاسرٌ ماله وما يطمع فيه . ولكنه لا يجد بدا من أن يطيعَ الخليفة على كره منه ، فيرسلهما وهو يصيح فى وجه الأمير :

جائزتى يا أمير المؤمنين ! ...

ويلتفت إليه « هشام » متَعجبا ، وكأنه ينكر على المولى ما سأله إياه من جائزة على طائرين ، وهل لبخيل مثل « هشام » أن يجود فى مثلها ؟!... فيقول « هشام » للمولى :

وما جائزةُ طائريْن ؟ ...

ويدرك المولى أن ما قدره قد فاته ، وأنه لن يبلغ ما تمناه ، فيقول لـ « هشام » :

أى شيء أيها الأمير ! ... والقليل عند البخيل كالكثير ، فلو جرت يده بالنزْر جرت بغيره . ويلح المولى فى الطلب ، ولا يجد « هشام » بدا من أن يجيبَ ، وما به أن يقول : لا .

ترى أى جواب أعده هشام ؟ ... إنها الحيلة التى يرزقها البخلاء ، خالون فيها مقنعا لنفوسهم وإن لم يقنع بها السائلون ، وما أدرى هل هم حين يأتونها يؤمنون بها حيلةً يَخدعون بها الناس ، أم حقيقةً يتلقاها الناس راضين بها قانعين ؟ ! ...

وتَهدى الحيلة « هشاما » إلى أن يقول للرجل :

خذ أحدهما . ويلتاث الأمر على المولى ، ويعدو فى إثر الطائرَين ، وتثور ثائرة البخل فى نفس « هشام » ويخشى أن تمكن الفرصة الرجل من أحد الطائرين وقد خال أنهما له ، فيلتفت إلى الرجل مغضباً ويسأله عما يفعلُ فيقولُ له :

إنى أختار أحدهما

ويُجن جنونُ « هشام » ويقول له :

ويلك ! أتختار خيرهما وتترك لى شرَّهما ... لا ... لا ... دعهما ! ... ويأمر له بدراهم قليلة ! ...

تلك صورة قصيرة لعب « هشام » فيها دور البطولة الهازلة ، ولم يكن يصدر فيها إلا عن طبع موروث ، وكأنه فيما فعل لم يبعد كثيرا عن دور أُمه وهى تلاعب الدُّمى ، تحسبها حقائق ماثلة بين يديها ، ويغريه فيها بخل يهون به ويورطه فيما لا يليق ! ...

وهذا البخل المُلِح على « هشام » هو الذى جعله يوما يردُّ « محمدَ بنَ يزيدَ بنِ عبدِ الله بنِ عمرَ بنِ الخطابِ » وقد وفد عليه يطلب صلته فلم يَرْعَ « هشام » له هذا النسب الموصول بكبير من كبار الدولة الإسلامية ، ثم لم يكن كريما معه فى رده عليه ، بل كان قاسيا كل القسوة ، ولو أنه وصله بالقليل واعتذر عن الكثير لكان مجملا ، ثم لو أنه لم يصله بالقليل وأسمح له فى اللقاء وهوّن عليه فى الرفض لكان منصفا ، ثم إنه لو تناسى صلته بجده العظيم « عمر بن الخطاب » ولم يفصح عنها ولم يصرِّحْ بأنها لا تَشفَع عنده فى بر حفيد من أحفاده ، لكان غير معاتَب على رفْضه .

ولكنه لم يصله بهذا القليلِ فيقال جاد بالموجود ، ولم يسمح له فى اللقاء ، فيقال كريم بسط وجهَه حين عجزَ عن بسط يده ، ولم يتجاهلْ صلتّه بجده فيقال لم يعرفه فلم يقدره ! ...

وهكذا دلّى البخل « هشاما » إلى غير ما يليقُ ، وكلّفه كلَّ مَشين . وما كان البخل وحدَه بل إليه ضيق العَطن الذى جره إلى قلة الحيلة ، وجرته هذه إلى لون من الحمق .

وما أكثرَ ما كان يغلب الحمقُ « هشاما » فى بعض ما كان يأتيه مع الناس ! ... فقد أُتى يوما بشيخ يضرب على الطنبور ، وما مثل هذا مما يغيظ ويحنق ، ثم هو إن غاظ وأحنق فلا يورط فى غير معقول أو معيب . ولكن « هشاما » ما اغتاظ وحنق ، إلا جره الغيظ والحنق إلى غير المعقول والمعيب ؛ فقد أمر بأن يكسرَ الطنبور على رأس الشيخ حتى أبكاه .

وهكذا كان « هشام » فى بخله وعنفه ، وكان « الوليد بن يزيد » إلى جانبه جوادا سمحاً ، فنفر خُلق من خُلق وعادى طبع طبعا . هذا إلى أن « هشاما » كان غاصبا والوليد مغصوبا ، وكان « هشام » واترا و « الوليد » مَوْتورا ، وإذا الأيام تُباعد بين هذين الرجلين ولا تقرب بينهما ، وإذا « هشام » يجد حوله من يغريه بالوليد فيمعن ، وإذا « الوليد » يجد حوله من يذكره بحقه فيشمر له ، ويذكر « هشام » أن « الوليد » ولى عهده فيطمع فى إقصائه بعد ما أقصاه أبوه ، ويذكر « هشام » أن له ابنا اسمه « أبو شاكر » يحب أن يجعله ولى عهده . فيود لو غيّر وبدّل .

وما لـ « هشام » لا يفعلها وقد فعلها أخ له من قبل ؟ ! وما بال « هشام » لا يحتال لها وقد احتال لها من سلف ، ثم ما أحراه أن يقسو إن لم تُغن الحيلة .

وكما أغرى « يزيد » أخاه « هشاما » من قبل بالجاه والنشب ، فقد أغرى « هشام » « الوليد » بالجاه والنشب ، ولكن « يزيد » كان فى طبعه الخوف فلم يشجع على أن يقسو ، ولم يكن فى طبع « هشام » أن يخاف فما أجرأه على أن يقسوَ ، وكان « يزيد » ممن رقق الهوى قلبه فلم يملك أن يهيج ، وكان « هشام » ممن لم يلِن الهوى قلبه فكان ثورة مشتعلة .

وكان « الوليد » يطمعه فى الانتصاف من عمه عنفه الذى بغّضة إلى الناس ، وكان « الوليد » لا يزال يجد فى الناس من يراه مظلوما ، فطمع أن يقوى بهؤلاء على التمسك بحقه ، وكان يستمع إلى نفر استخلصهم ،

فكانوا له جندا وأعوانا على « هشام » وكان « الوليد » فوق هذا كله شجاعا جريئا ، فلم يخف « هشاما » على نفسه ، وباداه العداوة .

إلا أن « الوليد » قبل أن يبادى عمه بشىء داوره مرة ، فلم يفلح ، ورقّ له أخرى فلم يلن ومضى « هشام » يدس له حينا ويكاشفه حينا ، ويغرى به نفرا من الناس ومن ذوى قرباه !..

وأصبحت الحال بين « الوليد » وبين « هشام » صريحة غيرّ مستورة ، وكاد « هشام » يعلن خلع « الوليد » من ولاية العهد ليجعلها لابنه ، ولكنه كان فى هذه حريصا على أن يُلبس صُنعه لباس الحق فلا يقال فيه إنه غادر ، وإن كان بالغادر .

وما أدرى لِمَ يخاف الناس الغدر ويأتونه ؟ ولم كانوا حريصين على الشرف ولا يحملون منه إلا اسمه ؟ ... إنها بقية من خوف فى عقاب الله إن كانوا مؤمنين ، وبقية من خوف فى حساب الناس إن كانوا يقيمون للناس من حولهم وزنا ، وبقية من خلق يحرصون على أن يعيشوا عليه ويُعرفوا به إن كانوا من الذين يَرعوْن المُثل ويَدينُون بها !

وما نشك فى أن « هشاما » كان يرى هذا كلَّه ، فلقد كان مؤمنا يخاف اللهَ فيما يفعل ، ولقد كان يعرِف ما للرأى العام حوَله من خطر ، وفيهم بقية من السلف الصالح يعدُّون على الخلفاء سقطاتهم . ولقد كان « هشام » من بيت لم يَسُد إلا برعاية تلك المُثل والأخذ بها .

ولكنه كان إلى جانب هذا كله رجلا من الرجال الذين تغلبهم الدنيا بأطماعها ، فتزلزلُ تلك الأطماعُ هذه المعانىَ فى نفوسهم ؛ لهذا كان فى أمره الذى همّ به مع « الوليد » مترددا غير مقدام ، يحاول أن يمضى فيه فترده عنه بقية من ورع ، ثم بقية من خوف الناس ، ثم بقية من تلك المثل التى دان بها !...

وكان هو الآخر من حوله حاشية تزين له ما يريد وتجعله الحق . وما أميل الناسَ حين يهمُّون بالظلم إلى من يجمّله لهم ، وأبعدهم عمن يصدفون عنه !... وما أكثرَ من يلتفون بالملوك لا يشيرون عليهم إلا بما يجدون هواءهم فيه . ولقد وجد « هشام » من تلك الكثرة الضّالة المحيطة به ما جعله ينسى تلك المعانىَ الطيبة ، ويأخذ فى غيرها ليصل إلى ما يريد !...

☆ ☆ ☆

وما نقول إن « الوليد » كان خيراً كلَّه ، ولكنه كان من « هشام » بمنزلة الابن : على « هشام » تقويمُه ، وما نظن « هشاما » لو فكر فى أن يأخذ « الوليد » بالتقويم أن يستعصى عليه . ولكنه راح يعد عليه هناته وهفواته ، ويزيد فيها ، بل ربما كانَ نَهْجُه هذا مع « الوليد » مما أغْرى « الوليدَ » بالاسترسال فيما كان فيه !...

ولقد كان « هشام » يملك أكثر مما يملك « الوليد » ؛ فلقد كان ملكاً يقول فيردد الناس ما يقول إن صدقا وإن كذبا ، وكان « الوليد » دون هذا : إن سمع الناس له يوما لا يستمعون له يوما آخر ، ولقد كان « هشام » يملك حاشية طامعة تعينه ، وكان « الوليد » ليس حوله إلا نفر قليل لا يقوى بهم على شيء مما أتيح لهشام !...

ولقد أخذ على « هشام » تنقصه للوليد بعضُ أقاربه ، مثل « مسلمة بن عبد الملك » فكثيرا ما عاتبه وكفه فما انكفَّ . فلقد كانت خلافةَ يريدها لابنه ، وهذه سبيلها !...

وفى الحق لقد أفسد « هشام » على « الوليد » حياته ، ودفعه إلى النكر دفعا بتشهيره إيّاه ، فكان بعد أبيه عونا للأيام عليه ، ولو أنه أراد تقويمه كما قلنا ، فغيرَ هذا كان أولى به .

كما كان « الوليد » عونا لهشام على نفسه ، فلو أنه كف نفسه عما عابوه به ، وظهر للناس فى غير هذا المظهر الذى أخذوه عليه ، لرد على « هشام » مكره ، ولكنه كان شاباً ظلمه أبوه حين ترك له هذه القدوة السيئة ، وظلمه مربيه حين لم ينشِّئه التنشئة الصالحة ، وظلمه شعرُه حين انطلق لسانه به ، يقول فيه ما يفعل وما لا يفعل ، والشعر أحلاه أكذبه ، وما عرف « الوليد » أن كل ما يقوله مُحاسب عليه ، وأن الناس لا ينظرُون إليه شاعرا ، وإنما ينظرون إليه خليفةً مقبلا !...

ويجد « هشام » الفرصة فيما شاع عن « الوليد » من فعل ، قد يكون حقا وقد يكون غير حق ، فيما تردّد على الألسنة من شعر قد يكون له وقد يكون مدسُوساً عليه ، فيقطع عنه رزقه ، ويضيّق عليه ويبعد عنه من التفَّ به ، ويعذبهم ويؤذيهم ، ويظن « هشام » أنه بهذا مستطيعٌ أن يحملَ « الوليد » على خلع نفسه فيدعوه إليه يفاوضه فيها فيأبى . فيأخذ « هشام » فى المبايعة لابنه ، فيجيبه قوم ، ويردُّها عليه قوم . فيزداد حنقه على « الوليد » ، ويظن أن إخفاقَه فيما همَّ به مَردُّه إلى أنه لم يبلغ من التشهير « بالوليد » المبلغَ الذى يحمل الناسَ على تركه ، والالتفافِ حول ابنه ، فيمضى فى التشهيريه، ويكاد يَتَّهم « الوليد » فى إسلامه ، وما بعد هذه إن أفلح فيها حجة له على الناس .

وما كان « هشام » – وهو يفعل – يدرى أنه ينال من « بنى أمية » أجمع ، ويُضعف ثقة الناس بهم ، وينفرُ الناسَ عنهم ، لا سيَّما والدعوةً الهاشمية على الأبواب تكيد لهم جميعا ، وتتلمس هذه الدسائس وغيرها لتوهين عرشهم ونقض أمرهم ، ولكنه المُلك يبغيه لابنه ، وما يبالى بعدها ماذا يكون !...

ويستكين « الوليد » قليلا حين يجد عمه « هشاما » قد شمر لحربه هذه الحرب التى لا رحمةَ فيها . يبْعد عنه من أتباعه من أراد إبعادهم ، ويخلد

« الوليد » إلى هذه الوَحدة على مضَض منه ، وهو يظن أنه يرُضى بذلك « هشاما » ويكتب إليه يسترضيه ويرده عن شدته به !...

ولو أن « هشاما » كان يريد « الوليد » على التقوى والخير لقبل هذا منه وضمه إليه ، راعيا له ومؤدبا ، ولكنه كان يريد شيئا غير هذا ، وقد رأى فى هذا الأسلوب الجديد الذى أخذ به « الوليد » تفويتا للغرض الذى بيّته وأراده !...

ومن أجل هذا الغرض .. أصم « هشام » أذنيه وكأنه لم يسمع من « الوليد » شيئا ، ومن أجل هذا الغرض .. لم يكفّ « هشام » عن إيذاء « الوليد » ، ولم يلن له . ومن أجل هذا الغرض .. لم يطلق « هشام » يده للوليد بالمال الذى كان يجريه إليه .. ليمعن فى التضييق عليه .

ويجد « الوليد » نفسه بين يدى عمٍّ لا يريد به الخير ، وبين يدى خليفة لايريد إلا أن يظفرَ بالمُلْك لابنه ويحرمَه منه ، وبين يدى رجل وثق به أبوه « يزيد » فضيّع ثقتَه به ، كما يجد نفسه أمام حق له يُراد سلْبُه منه .

ولم يكن « الوليد غير إنسان يثور مع الظُّلم ولا يبيت على ضيم ، فما باله لا يعلنها على « هشام » حربا كما أعلنها هو عليه حربا ؟ ... وما بالُه لايطلق لسانه فى « هشام » وقد أطلقه هو فيه ؟ ... وما باله لا يلفت الناس إلى ما يدبر « هشام » من باطل ، وقد أراد « هشام » أن يصوره للناس حقا ؟!...

وقد كادت الحجة أن تكون للوليد على « هشام » ، وكاد « الوليد » أن يغلب « هشاما » على أمره ، ولكن « الوليد » كان مغموزا فى خُلقه ، والناس إن نسُوا كلَّ شيء .. فلن يَنسوا لخليفة مسلم تلك الهنَاتِ الخلقية ، وكان « الوليد » شاعرا يُفصح شعرهُ بالمجون ، وما على هذه يريد المسلمون خليفتهم !...

لهذا كان « الوليد » قوياً ضعيفاً ، ولهذا كان « الوليد » مؤيَّدا غير مؤيد ، يعرفه الناس صاحب حق ويعرفونه ليس جديرا بهذا الحق ؛ ويعرفون « هشاما » مصيبا فى إبعاد « الوليد » ، ويعرفونه غَير مصيب فى الافتيات على حقوق الوليد !...

وهكذا كان « هشام » حين غرسَ هذه البَلْبَلة فى نفوس الناس مِعْوَل هدم لتلك الدولة الأموية التى ينتمى إليها ، ولقد جعل الناس يخرجون من الإجماع عليهم ، إلى التفكير فى الاستبدال بهم . ولو أن « هشاما » ضم إليه « الوليد » يرعاه لكان أمويّا حقّا يُمكّن للأمويين ، ولو أنه نسى ابنَه وذكر سوء مايفعل ، لوفر على الناس هذه الوسوسة ، وضمنهم حول بنى أمية كما تسلَّمهم .

والشى الذى لامِرْية فيه .. أن هذا الخلاف بين الخليفة وولى العهد لم يشغلهما وحدهما ، وحفنةٌ من هنا وحفنة من هناك ، بل شغل الأمة كلَّها فشاركت فيه بالرأى ، إذ كان الأمر يَمسُّ أخطرَ ركن فى حياة الناس ، وهو الخليفةُ والإمام ، وهما ماهما تقديساً وإجلالا ، فانطوت نفوس الناس على غيظ ، وكادت تلفظ مابقىَ لبنى أمية من تقدير فى الصدور ، واجتمع الناس يسمعون لدعاة « بنى هاشم » . والتف حبلُهم بحبلهم . وكان ذلك إيذانا بثورة عاجلة تقتلع هذا المُلكَ من أساسه وتُودِى بأصحابه !...

— ١٩ —

ويفيق « هشام » على نُذر الهاشمية تشتد وتقوى ، فينشط لمقاومتها بما جبل عليه من عنف وقسوة . وماينال العنف كما لاتنال القسوة إلا من أجساد الناس ، وماهذه ولاتلك ببالغة قلوبَهم ، ولا صارفة الناس عما يدينون به . ومابالرعية أن تُساسَ بغير الرأى ، يملك عليها قلوبها وتسيغه عقولها ، ومايزيدها الأذى إلا حِفاظاً وقوة . وإن بدا زاجراً ورادعا ، ولكن

« هشاما » كان قد فقدَ الصوت حين ملَك السَّوْطَ ، وغاب عنه الخطاب حين مَدَّ يده بالعذاب .

يعلم « هشام » أن عاملا من عماله أعطى « زيدَ بنَ علىٍّ بنِ الحسين » مالا كثيرا ، وأن مالاً يصل إلى يد « زيد بن على » فيه تمكين لخصمه وإعزاز له ، فيبسط على عامله عذابَه ويبسط مثل هذا العذاب على « زيد » .

ويثبت « زيد بن على » لهشام وأتباعه فى شيعته ، وإذا هى الحرب تنشب بين هؤلاء وهؤلاء ، ولم يكن « زيد » فى شيعَته قوةً كبيرةً وكان « هشام » عليها أقوى برجاله وماله ، فيُغلب فيها « زيد » ، وينتصر فيها « هشام » ، ويقتل فيها « زيد » وينجو منها « هشام » .

ولكن قتل « زيد » كان فيه حياة لفكرته ، كما كانت حياة « هشام » بعدها زوالا لدولته ، فلقد أيقظ قتل « زيد » النفوس المتعلقة به وغير المتعلقة به ، كما صرف قتل « زيد » قلوب الناس عن « هشام » ، وعدُّوها له من منكراته !...

ويأبى القدر إلا أن يَكتُب للشيعة بمقتل « زيد » نصرا آخر ، ويوهن به من سلطان الأمويين ركناً ، فيغرى الأمَويين بجثمان « زيد » يحملونه على حمار ، ويدخلون به الكوفة ، ليغيظوا أهلها ويرهبوهم ، وهم يعلمون أن قلوبَهم مع « بنى هاشم » ، فيغتاظ لها الكوفيون ، ولكنهم لايرهبون ، ويحنقون لها ولايخافون . ومانَعلَم الناس إن طابت نفوسهم للقصاص تطيب للإسراف فيه ، ومانعهد القلوبَ وإن قست وغلُظت إلاّ ترِق للمغْلوب يُستباح منه مباح .

ويرى « الأمويون » إخوان « هشام » أنهم لم يبلغوا بحَمل جثمان « زيد » على حمار مأرادوا ، ويخالون أنهم لم يُشعِروا الناس برهبتهم ، ولم

يدُلُّوهم على قسوتهم ، فإذا هم يحرقون جثمان « زيد » فيستحيل رمادا ، ويقف واحد منهم على مرأى من الناس ومسمع ، وقد بسط يديه فى هذا الرماد ، يذريه فى الهواء ويقذف بنصفه فى الزرع ونصفه فى الماء وهو يقول :

والله ياأهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه فى طعامكم وتشربُونَه فى مائِكم !...

ولقد طعِمه أهل الكوفة فى طعامهم كما أراد ، وشربوه فى مائهم ، وخالط منهم اللحم والدم ، فاشتدت به أجسامهم بنية ، ونفوسهم حمية ، وكانوا حين خرجوا على الأمويين أقوى الناس عليهم يدا ، وأعمر القلوب بما دانوا به إيماناً .

ولو أتيح للمنتقم أن يعفّى أثرَ النقمة بنعمة ، وللغاضب أن يعقَب على مكروه غضبه بمحمود رضاه ، لكسب المنتقمُ ضعفَ مايبغى ، ولضمن الغاضبُ الناسَ على مايُحب . ولكنها النفوسُ حين يطيشُ سهمُها ويفلت زمامُها فلاتُردّ عن غيها إلا وقد أفرغت مابها ، ولم تعد تملك شيئا ، وقطعت مابينها وبين الناس قطعاً لاأمل فى وصله !...

هكذا فعل « هشام » وفعل معه الأمويون ؛ فلقد نالوا من الشيعة والناس معهم كل النيل ، فلم يأبه الشيعة والناسُ معهم لما ينتظرهم بعدّها ؛ وقطعوا مابينهم وبين الشيعة والناس ، فلم يبق رجاء فى صلح أو وفاق .

لهذا أفلح « الأمويون » فى تنفير النفوس من الأمويين وجمعها حول الهاشميين ، ولقد طيَّروا حديث التنكيل بـ« زيد » إلى كل بلد ، وتلقفه دعاة الشيعة ينشرونه ويعظمون فيه حتى ملأ على الناس أذهانَهم ، وشغل منهم نفوسهم ؛ فحمى الناس للمقتول ، وقال فى ذلك شعراؤهم وأصبح مقتلُ « زيدٍ » أدباً يُروَى ويسير !...

والحوادث إذا دخلت الأدب كُتِب لها مالم يُكتب لغيرِها ، وفرقٌ بين حادثةٍ تُخلق لتعيشَ ، تُصَب فى الأسماع ، وتجرى بها الألسنة ، وتتحرك لها النفوس ؛ وأخرى لاتلبثُ أن تقعَ عليها العينُ ثم تطوىَ ولا يذكرها الذاكرون إلاَّ إذَا ذُكِّروا بها .

ومادخل الأدبَ .. زاده الأدبُ تهويلا ليهول ، وإغراقا ليثير ، وإسرافا ليَجل ، والناس عبيدٌ مايُشبع البطنَ أو النفس ، وهم على شِبع النفس أبقَى وبه أحْيا .

ويمضى « هشام » بعد عشرين عاما ويتركها « للوليد » بعد أن لم يفلح فى صرفه عنها ، وجعلها لابنه ، ولكنه يتركها ثقيلة مرزئة ، وهو بحملها ضعيف !...

فلقد تركها له والهاشميون قد نشطوا له ، وتحركوا بعنفهم عليه ، ولقد تركها له والناس مبعدون عن الأمويين حين بلبل رأيهم وجرأهم على « الوليد » وليس إلا أموياً خليفة !...

ولقد تركها له بعد أن جرّأه على الإمعان فى الباطل بتشهيره به ، ولم يجرئه على الحق ، بتشجيعه له وكتمانه عليه !...

ولقد تركها له والناس بين هاشمى متوثب ؛ لينال حقه ، وغير هاشمى غاضب لما مس الخلافة .

ولم يكن « الوليد » ليقوى لشىء من هذا كله . ولو أنه استقبلها بصيت طيبٍ غير مطعون عليه ولامقول فيه ، لظننت به القوة على غيرها ، ولكنه فقدَ كلَّ شىء حين فقد الصيت الطيب ؛ فلم يعُدْ بعده يصلحُ لشىء ، ولا يستقيم له شىء !...

وهكذا استقبل « الوليد » الخلافة خاسراً ، وتلقفها مضيعة ، ولم يكن هو جاهداً لإصلاح شىء ، ولا للعودة عما عاش فيه من قبل من مجون ،

فمضى يُقصِّر فى أجَل تلك الدولة ولايطيل ، وانتهزها فرصةً يشبع فيها رغبته ، ويصبُّ على خصومه نقمته .

— ٢٠ —

ويصبح « الوليد » ذات صباح ضيق النفس ، لايعلم لذلك سببا ، مهموما ومابات على شىء أهمه ، قلقاً وكل ماحوله يوحى بالاطمئنان ، فيدعو إليه كاتبه « المنذر » ، ويحس « المنذر » أن فى دعوة « الوليد » له فى مثل هذا الوقت المبكر مايريب ، فيخف إليه ضيق النفس هو الآخر مهموما قلقا ، ومايكاد يلقاه « الوليد » حتى يقول له :

يا« أبا الزبير » ! — وكانت تلك كنية « المنذر » — ماأظن ليلة أتَتْ علىَّ مذ عقلتُ أطولَ من هذه الليلة !...

ومايكاد المنذرُ يأخذُ فى سؤاله عما إنتابه فيها حتى يقطع عليه « الوليد » ما أخذ فيه ويقول :

لقد تمثّلت لى همومى جملة ، وأخذتُ أستذكر ماصنع بى « هشام » طيلة هذه المدة ، وكيف أولعَ بى يؤذينى ويشهِّر بى ؟!...

ويرتد إلى « المنذر » اطمئنانُه قليلا ، وقد كان يظن ماأفزع « الوليد » خطبا ، ويقبل عليه يُسَرّى عنه ، ولكن « الوليد » يجد الكلام لايُغنى فطالما سمع مثله ، فيلتفت إلى « المنذر » وهو يزفر زفرةً حارة ويقول :

اركب بنا نخرج إلى الصحراء لعلنا نجد فى فضاء الله مايُفضى إلى نفوسنا بالسعة بعد الضيق .

ويركب « الوليد » ويركب معه « المنذر » وهما مطرقان لايتكلمان ، ويطول بهما السير كما يطول الصمت ، وإذا هما بعد سير طويل قد بلغا

كَثِيباً من الرمل يُغريهما بالوقوف عنده ، فينزلان عن جَوَادَيْهما ، ويرقيان هذا الكثيب يُشرفان على ماحولهما ، ثم خرج « الوليد » عن صمته وعاد شاكيا .

وفيما هما على تلك الحال إذا هما يبصران رهجا يعلُو في الجوّ ، وهو يقبل إليهما رويداً رويداً ، وإذا من تحتِه فارس يثيره بوقع حوافر جواده ، ومايكاد يتبينه « الوليد » حتى يمسكَ يد « المنذر » وهو يقول :

إن هذا الرسول قد أقبل بموت سريع أو بملك عاجل .

ويلتفت إليه « المنذر » مطمئنا وهو يقول :

لن يسوءَكَ الله ياأميرَ المؤمنين ، بل سيسرُّك ويبقيك .

ويسكت « الوليد » ولايتكلم سكوت المتبلد لم تعد النُّذُر تُفَزِّعه ، ولاالمُلِمَّات تحركه . وإذا هذا الرهج المثار قد استقر أمامهما ، وإذا هو ينكشف عن فارسين مايكادان ينتهيان إلى « الوليد » حتى يترجلا مسرعين ، ويكاد « المنذر » يفزع لمرآهما أولَ الأمر ، ولكنه ماتكاد تقع عيناه على وجهيهما وقد طفحا بشرا ، وعلى أيديهما وهى تلوح فرحاً ، حتى يطمئن ويخطو إليهما وينسى مولاه إلى جانبه .

ويتركه الفارسان ويفوتانه إلى « الوليد » وكان بود « المنذر » لو تلقف منهما ماجاءا به . ومايكادان يبلغان « الوليد » حتى يسلما عليه بالخلافة !...

ويجم لها « الوليد » ولايكادُ يصدقها .

ويدرك هذا منه أحدُ الرسولين ، فيكرر عليه السلام بالخلافة . ولايجد « الوليد » بُدًّا من أن يخرج من صمته ، ويلتفت إلى هذا الرسول وهو يقول :

أمات « هشام » ؟!...

ويجيبه الرسول :

نعم ... مات « هشام » !...

ويطمئن « الوليد » ، ويفرح لها « المنذر » ويكاد يخرجه الفرح إلى مالا يليق ، ولكنه يلتفت إلى مولاه فيجده قد قرَّ للموقف واحتشم ، فيقرّ هو الآخر ويحتشم ، ويمضى « الوَليد » فى حديثه مع الرسول يسأله ويجيبه ليطمئن ، وهو الذى جرب الخداع من قبلُ ، وهو الذى كيد له فى أكثر من موقف ، ومن يدرى لعل « هشاماً » أراد بهذه أن يثيره لشىء قد يكون فيه حتفُه ، وماله يمكن « هشاما » من رقبته ، وفى استطاعته أن ينجو بها ، ويفوت على « هشام » كيده إن صح أن هناك كيدا !...

لهذا الذى قر فى نفس « الوليد » وعوّدته الأيام السالفة مثله .. أخذ يلح فى السؤال على الرسولين ... ولقد كان الرسول أحد الذين يعلم « الوليد » ولاءهم له ، وكان هذا الولاء كفيلا بأن يرد « الوليد » إلى مقنع ، ولكنه قد علم أن الرجال تشترى وتباع كما تباع السلع ، والسبق فى ذلك للمُغْلى فى العطاء ، أو لمن يلوح بالرجاء ، وقد أصبح « الوليد » لا يملك أن يعطى بل له أن يُغلى ، ثم هو لم يعد الرجل يؤمل عنده ويرجى ، فما أولاه أن يساوره الشك ، وأن يحول هذا الشك يقينا !...

لهذا وجم الوليد لتلك البشرى أول الأمر ، ولم يهش ، وظن « المنذر » صاحبه منه ذلك وقارَ الملك المقبل واحتشام الجاه المتوقع !...

وجمد « الوليد » فى مكانه قليلا وهو مطرق ، وهذا النفر من حوله سكون يعجبون كيف لم تثر تلك البشرى نفساً ظامئة إليها ، وأخذ ينظر بعضهم إلى بعض ولا يتكلمون .

ويرفع « الوليد » رأسه ويرنو ببصره إلى ذلك الرسول فيطيل النظر

إليه ، وفى رأسه مافعل « خالد » بين أبيه وبين « هشام » حين مضى إلى « هشام » يفاوضه علٰى خلع نفسه ، ففاوضه على تثبيت نفسه ، وعاد إلى « يزيد » يخوفه ، وكان قد مضى إلى « هشام » يحذره .

ويكاد الرسول يفهم مايدور بنفس « الوليد » فيضرب بيده إلى جواب معه يخرج منه ورقة مطوية كان عليه أن يسلمها « للوليد » أولاً ، لولا تلك الأسئلة التى أخذ فيها « الوليد » فشغلته عن أن يفعل !...

ويلتفت إليه « الوليد » وكأنه يسأله عن خبر تلك الورقة ، فيخطو بها إليه الرسول خطوة وهو يقول :

إنها كتاب مولاك « سالم بن عبد الرحمن » . ويتقبل « الوليد » كتاب « سالم » فى وقار كذاك الوقار الذى تُتَقبل به البشرى ويمينه تفض ختمه . و « المنذر » إلى جانبه أشوق مايكون إلى أن يمد إلى الكتاب بصره ، يعلم مافيه ولكن الحياء يمنعه !

ويكاد الكتاب يلقى فى نفس « الوليد » اطمئنانها ، وتكاد شفتاه تنفرجان بابتسامة ، ولكنه لايلبث أن يخفيها ويعود إلى الكتاب يتفحصه ويقلبه بين يديه .

ويرى الرسول أن جزاء البشرى الذى يرقبه يكاد يضيعه عليه « الوليد » بشكه ، فيقبل عليه هاشا ، يحدثه كيف مات « هشام » وكيف أن رجال « الوليد » الذين كانوا حول « هشام » مدسوسين عليه ماكادوا يرون « هشاما » يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى وضعوا أيديهم على خزائن المال يمنعون منها أهل « هشام » ومواليه أن ينالوا منها شيئا ، ولقد منعوا هشاما نفسه أن ينال هو الآخر منها شيئا ، حتى إن « هشاما وهو على فراش الموت أفاق إفاقة فطلب فيها جزءا فمنعوه إياه ، ووجد من حوله لايعينونه على ماطلب فأخذ يتحسر ويقول : أترانا كنا خُزَّانا « للوليد » ؟!...

ويأنس « الوليد » بحديث الرسول ، ويصيخ إليه ، وقد استحال شكه كله يقينا . فيشجع الرسول ويمضى فى حديثه حتى يبلغ آخره و« الوليد » لا يقطعه عليه ، فما أتوق نفسه إلى هذا الخبر الذى يرقبه حقبة طويلة ، ثم ماأظمأها إلى مايردها إلى راحة بعد عناء ، ثم ماأحرصَها على أن ترى خلاصها من محنتها على أى لون كان ذلك الخلاص !...

وهكذا يستحيل الموت الذى يثير الشجن إلى شىء يبعث الرضا به ، ويتحول الأقرباء الذين يعزّون على مثله إلى أعداء يهنأون به ، ولكنها الهنات تقطع الأواصر ما بين الأقرباء .

ويقبل « الوليد » على الرسول يستزيده وكأن نفسه المتعطشة إلى التشفى لم تقنع . ويجد الرسول فى جعبته مزيدا فيمضى يحدث الوليد بأن أهل هشام لم يجدوا له وعاء يسخنون فيه الماء لغسله فاستعاروه له ، وأنهم لم يمكنوا من أن يحصلوا على كفن له من الخزائن فيكفنه غالب مولاه .

ويراح « الوليد » وكأنه قد ألقى عن عاتقه عبء ثقيل ، وتأخذه النشوة فيخرج عن جموده وتخرج النشوة بمن حوله فيهللون لها ويفرحون ، وكأن الخبر ليس نعى عم ولا موت خليفة ، وكأنهم يستمعون إلى فقد خارج على الدولة كائد لها ، وليس أمويا من الناهضين بها العاملين لها ، ولكنها الحياة تلفت عن الخير إلى الشر ، وتجمع القلوب على التمكين للغرض الخاص لا الغرض العام ! ...

— ٢١ —

واستقبل « الوليد » هذا المُلك بالنفس التى استقبله بها « هشام » ناقما على كل من تربطهم بهشامٍ صِلة ، كما كان « هشام » ناقما على كل من يلوذ بالوليد ، بل لقد كان « الوليد » فى هذه أشد وأقسى ؛ فلقد كان « هشام » أمام حفْنة غير كثيرة ، قليل منهم أخلصوا للوليد ورجوْه ، وقليل

منهم أخذوا على « هشام » عنفه وقسوته ، وكان غيرهم كارهين لهشام برمين بما آلت إليه الحال ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ الخارجين على « هشام » فلم يبلغهم بأذاه . ولكن « الوليد » وجد كثرة بين يديه ممن أعانوا « هشاما » والتفوا حوله ، فأسرف فى التنكيل بهم وتعذيبهم ، وكان « هشام » على غِلَظِ كبده يردُّه عن الإمعان فى العذاب خوف من أن يجور فلم يشتطَّ ، ولكنَّ الوليدَ كان قد خرج به حب التشفى عن أن يخاف الجَوْر ، أو يخشى الظُّلم بل رأى هذا أو ذاك حقا له ، يفعله غيرَ معيبٍ ولا مؤاخَذ ، وكانت من حوله قلوبٌ متعطِّشة مثله إلى الانتقام ، فأعانوه عليه ، ولم يجدْ إلى جانبِه ناصحاً يردُّه إلى الرفق والأناة .

فلقد سيق إليه « إبراهيم بن هشام » ورأى « إبراهيم » الشرَّ من « الوليد » فعاذ بقبر « يزيد » ، وكاد « الوليد » يرق له ، وحسب « إبراهيم » أنه قد نجا ، فإذا أحد موالى « الوليد » يَلفِتُه إلى الثأر ، وينشطه إلى الانتقام وهو يقول له :

إن الله لم يجعل قبر أبيك معاذاً للظالمين ، وما يكاد « الوليد » يسمعها منه حتى ينسى أنه سينكل بقريب ، ويذكر أنه أمام خصم وعدو ، فيمضى فيه أمره ، ويرسلُ « إبراهيم » مع أخيه « محمدٍ » إلى من ينكل بهما تنيكلاً شديدا ، وإذا هما يُضربان ضرباً مبرِّحا ، حتى لم يبق فيهما موضعٌ لضرب . وإذا « محمد بنُ هشام » قد وقع على الأرض مغشيا عليه ، لا تملك رجلاه أن تقيماه ، وإذا أخوه « إبراهيم » يتحامَل لينظر فى وجهْ أخيه فتخونه رجلاه ، ويقع على أخيه ، وإذا الضاربون يحاولون أن يقيماهما للعذاب ، فيجدونهما جثتين هامدتين لا حياة فيهما ! ...

وما يكاد « الوليد » يفرغ من أمر « إبراهيم » و « محمد » حتى يرسل فى طلب أخ لهما ثالث ، هو « سليمان بن هشام » فيوكل به من يضْربه مائة سوْط ، ثم يحلق رأسه ولحيّته ويُشهره فى الأسواق ، حتى إذا ما شفى نفسه نفاه إلى بلد بعيد ؛ يعيش بقيةَ عمره محبوساً ! ...

وهكذا استقبل « الوليد » الخلافة موتورا على ظمأ للثأر ، ومن حوله خاصَّته ، ليس فيهم إلا من أوذى فى ماله أو بدنه فأذكوُها فى صدر « الوليد » نارا كلما خمَدتْ أضرموها .

ولو بغير هؤلاء انتصح « الوليد » فأخذ بالعفو وجنح إلى السلم ، لا ستصفى النفوس ، وكسب ولم يخسَر ، وزاد فى ناصره ونقص من ناصر خصمه ! ...

وما نسى « الوليد » « خالدا القَسْرى » وما أسلَف فى حقه ، فأرسل فى طلبه ، وكان قد هرَب من وجهه ، ويقبل الحرس بخالد على « الوليد » وهو يحاول أن يبرر ما أتى بمعسول القول ، فلا يمهله « الوليد » ويأمر به إلى من يبسط عليه العذاب ، « والوليد » يسمع إلى صراخه وكأنه يستمع إلى صوت يَلذُّ به ويطرب .

ولم يكن «خالد القَسْرى » فرداً يُقتل ، فلا يثور لمقتله أحد ، ولكن كان من ورائه قبيل كبير كانوا أكثر جند الشام ! ...

وهكذا لم يُرزَق « الوليد » الرشاد حين وَلِىَ ، وخلق له فى كل ركن عدوا ؛ ولقد كان فى وسعه أن يضُم الأمويين على محبته ، ولكنَّه أسرف فى التنكيل بهم ، حتى إنه قد عدا طوره وما كاد ينتهى من أولاد « هشام » حتى التفت للأمويين جملة وكان جلهم مع « هشام » فأعد لكل واحد منهم قيدا وكتب عليه اسمه حتى لايفوته منهم واحد .

ثم راح يتتبع عمال «هشام » وليس منهم رجل إلا وله عشيرة ينتمى إليها ، فقتل منهم من قتل ، وآذى منهم من آذى ونكّل بمن نكل .

وإن لم يملك هؤلاء وهؤلاء أن يبعثوها على « الوليد » حرباً تعصف به ؛ فقد ملكوا ما ملك « هشام » من قبل ، فأطلقوا فيه ألسنتَهم بالتجريح . ولم يتحدَّثوا عن ظلمه وعنفه مثل ما تحدثوا عن مجونه وفسقه ، فهم مع

الأولى قد لا يُبرِّأون ولكنهم مع الثانية يصدِّقون ، وقد يجدون الناس فى الأولى .. ينصفون « الوليد » ولا ينصفونهم ، ويرون فيما يأتيه « الوليد » قِبَلهم فعل المنصف لنفسه الآخذ بحقه ، ولكنهم واجدون فى الثانية .. الناس معهم على ما يشيعون عن « الوليد » يؤيدهم ماضيه ويسندُهم حاضرُه . فما نظن « الوليد » بَعُد عما كان يتهم به ولا تخلى عنه .

ولقد أخطأ « الوليد » حين قسا على أهله أولاً ، ونسى أنهم ما باعوا أنفسهم لهشام صافية وكرهاً له ، ولكنهم رأوا « هِشاما » الخليفة والدنيا له ، ورأوا « الوليد » ولى عهده ، والدنيا تكاد تبعدُعنه ، فاشتروا الحياة العاجلة بهذا الولاء الذى أظهروه لهشام . والبغض الذى أعلنوه للوليد ، ولو أن « الوليد » صبر لهم قليلاً لرآهم له كما كانوا لهشام ، ولاشتروا منه دنياهم كما اشتروْها من « هشام » .

وكذلك أخطأ « الوليد » حين تتبع الولاة يكيلُ لهم العذاب كيلا « فألّب عليه بذلك عشائر وقبائل . والولاةُ عمال مأجورون ، وقليل منهم من يقوم فيما وُلىَ عليه بما يرى ويؤمن .

ومانشك فى أن نفراً منهم أساءَ إلى « الوليد » مأموراً ، وما نشكُّ فى أن « الوليد » كان على الحق فى تأديبهم ، ولكن الذى لم نكن نحب أن نرى « الوليد » يفعله .. هو أن يشتط فى عقابهم ، ويخرج بهذا العقاب عن طور التأديب إلى طور الانتقام والتنكيل . فما نريد أن تخلو الحياةُ من ثواب يثاب به المحسن ؛ ليمضى فى إحسانه ، ويشجع على الإحسان غيره ، كما لا نريد أن تخلوَ الحياة من عقاب للمسىء حتى لا يجرؤ الناسُ على الإساءة ويُمعن المسىء فيها .

ولكنا نريد أن يكون الأمر قصاصا عدلا ، لا شطَطَ فيه ولا إسراف ؛ فيستحيل الغرض من الثواب والعقاب إلى غيره ، فالإفراط فى الثواب إفساد

للضمائر ، وإغراء بالباطل ، والإسراف فى العذاب إثارة للأحقاد وإضرام للفتن ، وفى كليهما إضعاف للدول ، وتقويض لأركانها ، فكما لا تعيش دولة فسدت ضمائر الناس فيها ، وشاع الباطل بينها ، كذلك لاقرار لدولة انطوت نفوس الناس فيها على حقد كامن ، وتعرضت لثوْرَات متلاحقة !...

ولقد ظل « الوليد » حين ظن أن أموال العباد وأبدانهم إن كانت حلا لهشام أخذها بغير حقها ، فلا يجوز أن تكون حلا له هو يأخذ منها كيف شاء على جرائرَ لا تُبيح هذا الظلم للناس !...

ولقد رأى له نفر من صديقه المعتدلين غير ما رأى هو ، وكادوا يرسمون له الحياة قصدا فى غير إسراف ، وخيرا يجذب القلوب إليه ، وصفحا يستل الضغائن من الصدور ، وسماحة تجمع كلمة الأمّة حوله ، وبذْلاً بعد بُخْل « هشام » ينعش النفوس ويحيى الآمال » والأمم أحوج ما تكون إلى أن يَشيع فيها الأمنُ لتمضى ، والاطمئنان لتقرَّ ، والرفق ليأخذَ بعضهم به بعضاً .

نعم . لم يعدم الوليد من بين الناس من ملك أن يشير بالرأى يبغى به الخير للوليد أولاً ولبنى أمية ثانيا ، ثم لعله يكون للناس ثالثا ، وكان على رأس هؤلاء الناصحين المخلصى النصيحة رجل من البيت الأموى أدرك ما يضار به الأمويون أنفسَهم ، وأن « الوليد » وهو ينتقم لنفسه ينتقم من نفسه ، وأن يده التى بسطها بالعذاب على أهل بيته تحفر لرمسه ، وأن تلك « الدولة الأموية » التى ما نالت هذا الملك إلا بحزم الآباء توشك أن تفقده بتفريط الأبناء !...

وكان هذا الرجل الذى أيقظته النذر هو « مروان بن محمد » فتهيأ للوفود على « الوليد » يبصره ويحذره . ولقد كان رفيقاً بالوليد وهو يحاوره . لم ينكر ما فعل « هشام » به ولكنه رجاه أن ينسى بنعمة الله التى صيرَّها إليه ما سلف من إساءة « هشام » به ، وذكر له أن السيئة لا تمحو الحسنه ، وإنما تمحو الحسنات السيئات ، وأن الناس إن عرفوا « هشاما »

مسيئا فما أولاهم أن يعرفوا « الوليد » محسناً ، وإن عرفوا « هشاماً » بخيلا مُقتراً ، فما أحرصهم أنْ يعرفوا « الوليد » جوادا باذلاً !... فقد أوشكت قسوة « هشام » أن تجمعهم على عداوة هذا البيت الأموى ، كما أوشك بخله أن يصرفَ القلوب عنهم

ويصيخُ « الوليد » إلى رأى « مروان » فيعود على أهل بيته بالصفح ، ويكرم وفادة من وفد عليه منهم ، ثم يعود على رعيته بالعطاء فيجرى على معوزيهم الأرزاق ، ويسمع منه الناسُ ما تطيب به نفوسُهم ، وتطمئنُّ له قلوبهم .

– ٢٢ –

ويهدأ « الوليد » ويهدأ الناس بهدوئه ، ويأخذ فى التمكين لعرشه بعد أن رأى الأمر فى يديه . ويرى بينَ يديه ابنين له صغيرين لمّا يبلغا الحُلمَ ، ويساوره خوفُ أبيه من قبل أن يموت ويتركهما دون أن يعهد إليهما فيخطف الهاشميون الملك منهما كما كادوا يخطفونه منه .

سياسة لَقنها الأمويون ، ولم يشاءوا أن يغيروا فيها مع ما بان من خطئها ، ولو أنهم جعلوا الملك فيهم شورى بين الناس ، يختارون من بينهم أصلحهم ؛ لأراحوا واستراحوا ، ولوفروا على أنفسهم هذا العناء المستمر الذى ذاقوا وباله ، ولكنهم كانوا ناظرين إلى أنفسهم وليسوا ناظرين إلى أمر الناس . وليتهم كانوا ناظرين إلى أنفسهم نظرة عامة – لا تلك النظرة الخاصة – فلو أنهم أرادوا الملك لبيتهم جملة لا لآحادهم فرادى لضمنوه فى يُسر ودون خلاف ، ولكنهم نظروا إليه نظرة المتاع الموروث ، فعبثوا به هذا العبث المفرّق الذى شتّت شملهم ، وذهب بريحهم !...

وهكذا لم يشأ « الوليد » أن يكون ملكاً أموياً بما تحمله هذه الكلمة من معنى عام ، فيجعل الملك لهم على أن يليَه خيرُهم ، ولكنَّه أراد أن

يحمّلها معناها الخاص . فيجعل الملك فى أبنائه ، كانوا خير الأمويين أو شرهم ، نهضوا بهذا العبء أو عجزوا عن النهوض به !...

وما كاد « الوليد » يعلن الأمة برغبته حتى رد الناس عليه رغبته ، وكان أول من رد عليه ذلك أهلُ بيته : إمَا حرصا على ألا يفوتَ على الأمويين ملكهم حين يلى هذا الأمر الضعيف منهم ، وإما حرصا ممن يَطمع فيه منهم ، من ذوى الأسباب والرأى !...

ولقد كان فى الأمويين هذا الرائى الذى يريد الخير للبيت الأموى ، كما كان فيهم هذا الطامع الذى يتحين الفرصة لنفسه .

وهكذا لم يكد هذا البيت أن يجتمع أمره حتى يفرقه هواه ، ولم يكد تستقر به الحال حتى ارتد إلى فتنة وخلاف !...

وما يكاد « الوليد » يرى خلافَ الناس عليه حتى يعود إلى قسْوته بأهل بيته أولاً ، وبمن تشيع لأهل بيته ثانيا .

ثم إن « الوليد » حين أراد أن يبايع لصغيريه لم يجر على سنة أبيه . فأبوه حين ردّ ولاية العهد عنه إنما فعل ذلك لأن منطق الأمور كان يملى بغيرها ، فلقد كانت هناك حرب على الأبواب ، والخليفة إن مات عن ولىّ عهد صغير .. تعرضت الأمة لمحنة لاتقوى على ردها ، وقد تعصف بالبيت الأموى . ولكن الحالَ هنا غيرُ الحال هناك ، فليست هنا حربٌ مَخُوفة ، وليس هنا مايُعَجل بالوليد ليبايع لصغَيريْن !...

ولكن الوليد كان واحدا ممن آوذى فى ذلك ، والحياة ليست فى يده يهب لنفسه ما يشاء ، والموت لا يعرف ذا صحة ولا ذا علة ، وما هو بمأمن أن يخطفه الموت فجأة عن ولديه ولم يعهد لهما .

وتقع المُشادّة بين « الوليد » وبين الناس ، وتمتد يد « الوليد » بالأذى

ليحمل مخالفيه على رأيه ، ويرى ما بسط من عذاب لا يجمع الناس إليه ، ولا يردّهم عما عارضوه به ، فيظن أن عذابه لم يبلغ مبلغ الإقناعْ ، فيزيد فيه ويزيد الناس بعدا عنه ، ويعود « الوليد » كما بدأ قسوة ، ويعود الناس كما بدءوا عهدهم نفرة وجَفْوة .

ولقد كان يهون على الناس أن يبايعوا لصغيرَيْن ، وما هى بالأولى ، ولكنَّ هذين الصغيرين كانا لسرِّية (أمة) وإن أغضى الناس عن الأولى فلن يغضوا عن الثانية ، وقد يرضى الناس بواحدة ، أما أن يجمعوا بين اثنتين خسفا وسوء كيلة ، فلن يحملهم عليهما إلا السيفُ . وما تورع « الوليد » عنه ، وتمت به البيعة لا بنيه ! ...

ولقد كان ما انحدر إليه «الوليد » من عسف وبطش ، كفيلا بأن ينطق الألسن فيه ، ومجال القول ذو سعة ، و « الوليد » له ماض مذكور ، وجديد موصول بماضيه ، وكلاهما مما يُعاب به الناس ، بَلْه الخلفاء ، ولقد سكت الناس عن هذا الماضى ، وذلك الحاضر حين طعموا ورزقوا ، ولانتْ يد « الوليد » بهم ، أما وقد بدَّل رزقهم حزمانا ، والحدب بهم قسوة ، فما لهم لا يتكلمون ، والكلام أيسر سلاح ، والموتورون يديرونه حين لا يقوون على غيره ، وهم كلما استشعروا العجزَ عن أن يثأروا لأنفسهم أمعنوا فى الحديث عن الوليد ، يبدأ هذا الحديث والصدق جزء منه.. وينتهى وليس للصدق شىء منه . وهكذا امتلأت الدنيا على « الوليد » حديثا كله يشينه ويعيبه .

والناس ينقلونه ويُرَدِّدُونه يزيدون فيه ما يشاءون ، ويصورونه كما يحبون ، حتى لم يبق لسانٌ على ذكر صالحةٍ له . وإذا نطقتْ الألسنةُ وأصاختْ الآذان استجابت القلوب ، وإذا استجابت القلوب استعصى أصحابُها على الحكام ، وتوقع المتوقعون الشرَّ العاجل والخطبَ الوشيك ... لذا لم يكن عجباً ما حذره الحاذرون من أن عهد « الوليد » بالخلافة لن يطولَ ، ولم يكن عجباً حين قدروا عمره فيها أشهراً لن تبلغ العشرين ! ...

فعل هذا كله « الأمويون » بأنفسهم أو فعلته بهم الأهواء ، والناس بخير ما آثروا الرأى على الهوى ، وقدموا النفع العام على النفع الخاص ، ولكن دنيا الناس لا يفلت من هواها إلا المستعصون عليها ، العظماء على أن يصغروا لها ، وما أقلهم وأكثر غيرهم ! ... ولكن ما أبقى تلك القلة وأضيع هذه الكثرة ، بل ما أعْمر الدنيا بحديث هؤلاء الذين يمرون بها على فترات معدودة ، وأفرغها من هؤلاء الذين امتلأت بهم وسدوا عليها آفاقها ، ثم ما أشبه تلك القلة بالبُناة ، وأشبهَ تلك الكثرةَ بالهدّامين ، وهكذا كلما شاد المصلحون صرحاً للحق والصلاح نقضه العابثون وأتَوْا عليه .

وما أدرك الهادمون من بنى أمية أنهم يفقدون ولا يكسبون وإلا لارتدوا عما يفعلون ، ولكنَّهم كانوا يُصدرون عن طبعٍ مريض ، وإذا فَسد الطبع فسد ما يصدُر عنه وما نتهمهم أنهم ملكوا الرأى ، فآثروا عليه الهوى ، وإنما نتهمهم أنهم كانوا أسرى الهوى فغلبهم على الرأى ... وما أكثر الملوك الذين يمرون فى الدنيا من هذا الصنف ! ... وما أظلمَ الناسَ بهم حين لا يملكُ الناسُ معهم رأيا يشيرون به ، يقوّم معوجا ويرد إلى خير ! ... وما ذنب الرعايا يملكها من لا ينصف ؟ ... ثم لا تملك هى أن تحاسبه على شىء وهى المجنى عليها ... وما نظنُّ الناسَ هدأتْ لهم نفسٌ والأمويون فى خصومة ، ولا استقر بهم جانبٌ والأمويون فى حرب ، ولو ملك الناس الرأى مع الحكام لأنصفوهم وأنصفوا أنفسهم ، ولضمنوا لهم حياة طيبة ، وضمنوا لأنفسهم مثلها .

وما إن ضعُف الأمويون حتى قوى الهاشميون ، ولا أنقسم الأُمويون على أنفُسهم حتى ساند الهاشميون بعضهم بعضاً . ولما أحس الأُمويون هذه الحياةَ فى الهاشميين ذُعروا لها وحاولوا أن يبطشوا بهم ، وحسبُوا البطشَ وسيلتَهم فى القضاء على هذه الحياة ، وما علموا أنه وسيلة من فَقَد كل وسيلة ، وكم

بطَش الباطشُون وما مكنوا ببطشهم إلا لغير ما أرادوه ، والقوى من رد الناس بالرأى لا بالسيف ، إلا أن يكون غاصباً لا يرى الرأى ينصفه ، ثم ظالما يريد أن يفرض غير الحق ، فلا يجد إلا السيف يخيف به ويرهب ، فيضمن به أمْناً على دخل ، وسِلمْا أشبه بالحرب يعيش فى ظله حذراً لا يهدأ له بال ! ...

وهكذا استحال حكم الأمويين إلى تلك الحال من القسوة التى إن نالتْ من الأجسام فلا تنال من القلوب ، وإن حالت بين الناس وبين أن يجهروا .. فلا تحول بينهم وبين أن يتسارّوا ، وإذا أمسى الناس على السّرّ وأصبحوا .. كانوا أنْكى وأضْرى ؛ فمع الجهر تملك أن تدفع حُجّة بحُجة ، ثم أنتَ على صلة بما فى النفوسِ ، ولكنّكَ مع السر مطلقٌ للشائعات أن تشيع ، وللباطل أن يلبس بالحق ، ثم تارك الناس يَعُون ولا يُمَحِّصون ، ويصدقون ولا يكذبون .

وقد نكّل الأُمويون بمن وقع فى أيديهم من الهاشميين ، وأسرفوا فى التنكيل ، ونكلوا بمن التفّ حولهم ، وظنوا فيهم النُّصْرة لهم والتأييد ، ولكن هذا وذاك لم يثْنِ الهاشميين عن أن يَدْعوا لأنفُسهم ؛ لأن هذا التنكيل حركهم للثأر ، وما سكنتْ نفس على الثأر ظالمةً ، وهى عليه مظلومةً أشدُّ وأحرصُ ، كما لم ينفضّ الناس عن الهاشميين لأن القسوة حرمتهم أن يديروا الحديثَ بينهم جهارا يتداولونه ويمحصونه ، وقصرتهم على أن يسمعوا الظلم مُبالغاً فيه فيستفظعوه ، والخبر المنمّق عن الهاشميين مُغالى فيه فلا يردُّوه ! ...

وينشَط « أبو مُسلم » فى الدعوة الهاشمية ، ويجمع حوله الجموعَ ، ويشتد أمره بمن حوله ويصادف ذلك خليفة هو « الوليد بن يزيد » قد غرِق فى لهوه ، بعد أن أمات الأحداث التى مرت به غيْرته ووعْيه ، حتى لقد شاء بعضهم أن يذكّره بما حوله ، فكتب إليه :

أرى خلل الرماد وميضَ نارٍ
وأحْرِ بأن يكون له ضرام ! ...
فقلت من التعجب : ليت شِعرى
أأيقاظ أميةُ أم نيام ؟ ! ...

فإذا « الوليد » يكتب إليه :

وقد أقطعتُك « خُراسانَ » فاعمَل لنفسك أودَعْ ؛ فإنى مشغول عنك بابن «سريج » و « معبد » و « الغريض » . ولم يكن « ابن سريج » و « معبد » و « الغريض » إلا من المغنين الذين كانوا يملئون على الخلفاء أوقاتَهم ، ويشغلونهم عن كل حياتهم ! ...

وهكذا أرادها « الوليد » حياة لنفسه خالصةً مما يشُوبها من عنت ، بعد ما شَفَى نفسه بالانتقام ممن حدثته نفسه بالانتقام منه ، وأمعَن يأخذ بحظه منها ماأتاحت له الحياة هذا ، وما أتاح له جاهُه ! ...

ولكنَّ الحياةَ لم تخلص للوليد كما أراد ؛ فقد أنسى أنَّ أشغلَ الناس بالناس أميرهم ، ولها يعطيه الناس قيادهم ، وأن الناس قد صنعُوا له هذا الجاه ليدفع به بعضَهم عن بعض ، لا ليدفع به الناس عنه ، وليهيئها للناس حياة طيبة ، لا ليجعلها خالصة له من دونهم ... وهو حين يعلو بجاهه كبرا سوف لا يجد من الناس تلك الأيدى التى ترفعه فيهوى ، وهو حين يؤثر نفسه بما لاحق له فيه يؤثِر الفانيةَ على الباقية !

— ٢٤ —

ولقد آذى الناسَ أن يجدُوا أميرهم فارغاً لنفسه ، وآذى أهلَ بيته أن يجدوه مستهترا جريئا فى استهتاره ، ويجتمع هؤلاء وهؤلاء يقلبون الأمر ويتشاورون .

وكان أشد الناس حمية وأجرأهم على التدبير رجلٌ من اهل بيت « الوليد » ومن أقربِ الناس إليه ، وهو « يزيدُ بن الوليدِ بنِ عبد الملك »

ولم يكن « يزيد » عندها نابهًا تغريه نباهته بأن ينافس « الوليد » فى سلطانه ، ولم يكن مغلوباً على شيء يطمع أن يستردَّه ، ويرى الأحوال مواتية .

لم يكن « يزيد » هذا الرجل ولا ذاك ، ولكنه كان ورعاً دَيِّنا ، مُسْرِفاً فى الورع مُغْليا فى الدين ، قد أهمَّه وأحزنه ما يخوض الناس فيه ، من حديث يمس « الوليد » فى تهتُّكِه ومجونه . ولم يكن « الوليد » رجلا من عامة الناس يَمُر بحسناته وسيئاته دون أن يلتفت إليه أحد ، ولكنه كان رجلَ دولة ، ثم رجل دولة إسلامية ، ثم رجل دولة إسلامية أولى قامتْ حينَ قامت للدين ، وكان ملوكها حين ملكوا رعاةً على هذا الدين ، يحمونه وينشرونه ويهيئون له ، ويثبتون أركانه . وكان بُعد أحدهم عن الدين يجردُه من أخص صفات الحاكم . ولقد بَعُد من هؤلاء الملوك من بَعد ، ولكنهم كانوا يأتُون ما يأتون سِرًّا لاعَلانية ، وكان الناسُ يعرفون لهم ظاهرا يرْضَوْنه ، ويجهَلون لهم باطنًا لا يرضونه ، فقنعوا بما علمُوا ، وسكتُوا عما جهلوا ؛ كما بعُد من هؤلاء الملوك عن الدين آخرون ، ولكنهم كانوا يأتون ما يأتون فى غير حيطة ولا حذر ، فتنكر الناس لهم ، وكادوا يخرجون عن الولاء لهم ويخلعون طاعتهم ، لولا ما كان يُلزمُ الناسُ به أنفسَهم أولَ الأمر إلزاما ، من طاعة وولاء للحاكم ، لا يتسعان لتفكير . فلم تكن ثورتُهم بالحاكم بعد هذا الذى قرَّ فى أنفُسهم بالأمر الهين يتحركون لهُ فى يُسر وسهولة ، كما أن الشدة التى ذاقوا وبالها من الحكام بالخارجين عليهم ، قد ردتهم إلى خوف ووجُوم . ولقد كانوا حين أمنوا هذا العنفَ صدرَ الإسلام ، وحين كانوا أحرارا فى الرأى على أوسع مدًى فى تلك الحرية ، يخرجون على خلفائهم وينتهى بهم هذا الخروج إلى مثل ما انتهى بهم مع « عمر » و « على » و « عثمان » ! ...

لقد عرفُوا عن الإسلام طاعة الرعية لواليها ، فأحسنوا فى هذه الطاعة وأمعنوا ، ولكنهم قد عرفوا عن الإسلام إلى جانب هذه الطاعة أنهم شركاء فى الرأى مع الوالى ، ينظرون فى أمر الأمة كما ينظر ، ينفرد هو دونهم بالتنفيذ ، ولكنه لا ينفرد دونهم بالتدبير ! ...

ولقد كان الولاة منهم أولَ الأمر ، لا ينفصلون عنهم بالجاه العريض الذى يباعد ما بينَ الحاكم والمحكوم ، ولم يكن للولاة على الرعية إلا حق الطاعة فيما ترى الرعية أن الطاعةَ فيه واجبة ، وأن الواليَ فيها لم يحملهم على معصية ؛ ولم يكن الوُلاة قساةً مستبدِّين إذا لم تُسلم الرعيةُ لهم الحبلَ على الغارب ، يقضون فى أمور الناس بما يشاءون ، بل كانوا فى كل ما يُصدرون يحسبون لرأى الناس كل حساب ، يخافون فيه رأى الصغير ، كما يخافون فيه رأى الكبير . ولكن الأمر ما يكاد ينتهى للأمويين على هذا النحو الذى انتُزِع فيه السلطان انتزاعا ، وأخذت فيه الأمة بتلك القسوة الكابحة ، حتى أَفَقد الناس حريتهم الأولى ، وعاشوا على الطاعة وحدَها ، يذكرهم بها الولاة مبدأ من مبادىء الإسلام ، ويسوسونهم عليها بالعنف ، ويعدون المخالف منهم قد اطّرح مبدأ من مبادىء الإسلام . وكما تخلق الحرية الرأى .. يُميت العنف الرأى ، وهكذا خُلق الرأىُ بين المسلمين حينًا ليس بالكثير ، ثم مات حينا كان كثيرا ، ولكن الرأى لا يموت إلى غير بعث ، بل سرعان ما تَدب فيه الحياة إن أسعفتْه الحياة ، وهو حين تسعفه الحياة يعود أقوى وأعنف ! ...

والأمم التي تعيش على حرية فى الرأى متصلة تُفيد من هذا الاتصال صلاحا للرأى واعتدالا ، فلا تتعرض لانقلابات مفاجئة خطيرة بل تمضى فى أمورها من خير إلى خير ، متدرجةً من رقى إلى رقى ، دون أن تُمْنَى بهزات ضارَّة ، وعلى العكس منها الأمم التى تُردُّ عن حريتها وتنتزع منها ؛ فهى كلما عادت إليها ردت إليها على ظمإ وجوع ، فتبدو فيها متعسفة جائرة ، تظلم فيها باسم الحرية ، وتسىء فيها باسم الحرية ، حتى ليخيل

لحاكميها أنها غير جديرة بما نالت ، وأنها بغير ذلك أولى ، وتمضى الحقب بمثل هذه الأمم فى سلْب وإعطاء ، وتضيع الأعمار وما استقامت للأمة أحوال ! ...

وهكذا ما أحسَّ الناسُ أن سلطانَ الأمويين لم يعُدْ قويّا بسيرة رجاله ، ولم يعُد مخيفا ببطْشه ، حتى عادُوا إلى الرأى يتبادلونه فى حُرِّية ، يشجعهم عليه أن على رأسهم رجلاً من الأمويين يرى ما يروْن ، ويؤمِنُ بما يؤمنون ! ...

– ٢٥ –

والتفّ حول « يزيد » نفرٌ وانصرف عنه نفر ، التف حوله الطامعون فى صلاح الحال من الأمة ، إذهم قبل غيرهم أول من يقاسى شرّها إن ساءت ، كما التف حوله الناظرون إلى جاه أو عرض من بنَى أمية ومن اتصلوا بهم . وانصرف عن «يزيد » الخائفون أن يُصيب هذا البيت الأموى شر يطوّح به ويمكن للهاشميين ، ولم يكن هؤلاء غير نفر من الأمويين لا يغريهم بالخلافة مطمع ، ويرَون السكوت على خليفة ماجن خيرا من أن تتحرك عليه الأمة فتضرى على الخلفاء ، وتألف الخروج على الحكام . والناس نائمون ، حتى إذا نبهوا لم يعرفوا النوم .

وانضم إلى هؤلاء الأمويين قليل من الوادعين من شيوخ الناس الذين جربوا الفتنة وما تأتى به ، وظنوا أنهم قادرون على أن يبلغوا بالسلم مالا يبلغون بالحرب .

واجتمع هؤلاء الخائفون وهؤلاء المثبطون بـ « يزيد » يحذرونه نقض العهدِ مرة ، ويخوفونه بطش « الوليد » به أخرى . « ويزيد » بين الخوف والطمع يرى ناصريه قلّة والعبء جسيما ، و « الوليد » عنيفا بخصومه .

فيكاد يلقى حبلها ويتركها للمقادير ، ثم يرى بعينى ورعه أن الشر قد استشرى ، وأن عليه أن يمد إليه يده بالإصلاح ، لا يريد أن يكون من أوساط المؤمنين . فيحارب الشر بلسانه ، ولا أن يكون من ضعفائهم فيسكت عنه وينكره بقلبه ، فيحمَس لفكرته ، ويمضى يحرك الناس لعونه .

ويقبل « يزيد » على رؤساء العشائر فيجد الكثرة منهم معه ، والقلَّة تخاف « الوليد » . ويقبل عليه الراغبون فى خلع « الوليدِ » فيحيون الأمل منه ، ويدخل « يزيدٌ » على الناس فيبايعونه سرا ، ويعاونه ثقاته فيلقون من لم يَلْق ، ويأخذون العهد عليهم والميثاق .

ويجد « يزيد » يومه غير أمسه ؛ فلقد كان بالأمس وحيدا إلا من نفرِ قليل ، وهو اليوم عزيز بنفر كثير ! ...

ولقد كان يسمع للمخوفين من أقاربه بالأمس ، فيميل إليهم بشق ، وينأى عنهم بشق ، حين كان لا يجد حوله ناصرا ، وهو اليوم لا يسعى إلى هؤلاء الأقارب يستشيرهم ، ولكنهم يسعَوْن إليه يرجونه ألا يفعل .

ولقد بدأ « يزيد » يرى الخلافة له حقا ، بعد أن مد الناس إليه أيديهم بها ، ولعل عاطفة أعقبت عاطفة ، وجاءت شهوة الملك ترث الغيرة على الدين ، أو لعل عاطفة ساندت عاطفة ، وبدأ الطمع فى الملك تُمهد له الغيرة على الدين .

– ٢٦ –

ولكن أين كان « الوليد » من هذا كله ، وهو الذى استقبل الملك قويا على خصومه شديدا فى عِقابهم ، فما باله بعد ما يقرب من عام قد أطمع فيهِ – بضعفهِ – الخارجين عليه ، ثم ما بال الناسِ من حوله أكثرهم يباديه العداوة ، وأقلهم يكتمونها رحمة بالأمة لا به ! ...

وما كان الناس مع « الوليد » حين ولىَ ، ولكنهم كانوا كارهين لـ « هشام » ، وما ارتاح الناس لولاية « الوليد » حين لم يثبوا به ، ولكنهم ارتاحوا لخروج « هشام » عنهم فسكتوا عليه . وهكذا مكنوا « للوليد » بهذا السكوت أن يقتص فيمعن فى القصاص ، وأن يبدو المَلِك الحاكم عن رِضاً منهم وتأييد .

فلم تكن الأمة المسلمةُ لتُبيحَ ولايتهَا واليًا مطعونا عليه فى دينه ، كما ظن « الوليد » حين ملك وحين بسط يده فى الملك ، وحين سكت الناس عنه ، ولكنها كانت أمةً تُلم بها الأزمات تلو الأزَمَات ، وهى على حرص بأن تطيع فتحسن الطاعة ، وعلى حرص بأن يستقيم لها أمرُها أحسن الاستقامة ، تميل إلى أن تعالج أزماتِها بروحْ بين اللين والعنف ، لا ترضى العِوَج ، ولا تحب العصْيان ، فكانت تسكتُ مفكرة متأنية ، وإن طال بها التفكير والتأنى . ثم رأت العمل على تقويم المعوجٍّ أرضى لها من السكوت على الطاعة ؛ لذا كانت ترضى أولاً ، ثم تثور على مارضِيتْ به ثانيا .

ولو أن « الوليد » اتخذ من هذا الرضا الأول فرصة عاد فيها على نفسه بالتقويم .. لرأى الناس له أبدا ، ولاستعصى على « يزيد » وغير « يزيد » أن يثيروا الناس به ، وأن يجدوا منهم ناصرا ومعينا . ولكنها غمرة الاستهتار أصابت « الوليد » فلَفتته عن أن يأخذ بالجانب الأقوم ، وظن سكوت الناس عنه رضا به ، وحسب أنه وهو يطيح بالرءوس ، ويعذب النفوسَ ، والناس فى صمت لا ينطقون ، قد ذلَّتْ له الحياةُ ، ودان له العباد .

فإذا هو بين عشيةٍ وضحاها قد استعصَتْ عليه الدنيا التى ظنها ذلَّتْ له ، وقد خرج عليه العبادُ الذين ظنهم قد دانوا له ، ويجد سلاح البطش فى يده مفلولاً ، وكلمة الإرهاب مِن فيه لا تبلغ المسامع ، وإذا هو قد ارتدَّ خائفا بعد أن كان جبَّارا . حذرا مترقبا بعد أن كان الناس يخافونه ويترقبُونه .

ويدخل عليه رجلٌ من خاصته كان إليه مقرَّباً ، وقد خاف عليه ما

الناس يدبرونه له ، وأقلقه ما عليه « الوليد » من سكون ، حسبه جهلا بما يحاك حوله ، ولهذا كان حذرا يردّه الحذر عن الإفصاح ، حائرا تعقد الحيرة لسانه . ولكنه ما يكاد يلمّح « للوليد » ويشير .. حتى يجد « الوليد » عنده علم بما يجرى حوله ، ويجدُه قد أسلم أمرَه للمقادير بعد أن غلبته المقادير على أمره ، ويجده قد استحال إلى رجل موعوظٍ بعد ما استعصى قلبُه على العِظة ، ويجدُه قد آمن مع المؤمنين من الناس ، بأنه لم يعدْ يُحسن القيام بما أفاءَ الله عليه من مُلكْ وسلطان ، ويجده نادماً بعد أن أصبح الندم لا يردّ عليه شيئا .

ولقد دخل عليه هذا الداخلُ ، وهو يظن أنه سوف يُنهى إليه شيئا لم يبلغه ، أو قد بلغه منه شيء وفاته شيء ، ولقد دخل عليه وهو يظن أيضا أنه سوف يشير عليه فى شيء به صلاحه ، ويتدارك ما كان .

ولكنه وجد « الوليد » عالما فلم يقل هو شيئا ، ووجده أفْقه منه بما أراد أن يبصّره به .. فلم يشر بشيء .

وما فى كل آنٍ أنتَ مالكٌ رضا الناس ، وربما كنت فى حال جامعهم حولك بكلمة ، ولو حاولتها فى أخرى بما هو أقوى من الكلام أثرا فى النفوس لم تستطع ، ووجدتهم آبى عليك وأعصى . فالأمم إذ غضبت لم ترض إلا بما غضبت له ، وهى ما لم تغضب .. يكفيها التوجيه الحميد والقول الحليم .

وهكذا رأى « الوليد » الأمة غاضبة ، وكان فطناً فاستسلم لحكم القدر ، ورأى « بنى أمية » مع الأمة غضابا ،فأدرك أن الخرق قد اتسع على الراتق فجلس فى قصره ينتظر ما سيكون ، ولم يسمع لهذا الناصح ، ولم يأخذ معه فى الحديث ، وقد أحس أن الأمر لم يعد أمر الخليفة ، ولا أمر « بنى أمية » بل قد أصبح أمر الأمة بأسرها ، وكيف له بالأمة يجمعها حوله بعد تفرق .

- ٢٧ -

ولكن الأمر الذى هال « الوليد » فاستكان له ، هال غيره من بعض سادة بنى أمية ، ففزعوا يرأبون الصدع ، فلقد اجتمع نفر منهم وقد رأوا شمسهم إلى مغيب ، وحسبوا أنهم قادرون على أن يُمسكُوها فى الأفق عن أن تزول . ولقد كان هؤلاء أمويين حقا ، يقدِّرُون لبنى أمية مالا يقدِّرُون ، ويَروْن ما يُحدِق بهم من خطر عاجل وشر سريع ، ورأوا من بينهم مشائيم يغيِّر الله النعمة بهم ، فطفقوا يجمعون كلمة « بنى أمية » ليرُدوا « يزيد » عما بدأ به . ولقد ثار بعضهم ببعض ، وتطاول بعضهمُ على بعض .

وخرج هؤلاء من مسعاهم بأعظم مما دخلوا به ، فقد دخلوا فيه ولكبيرهم حق على صغيرهم ، فخرجوا منه وقد خرج صغيرُهم على كبيرهم ، دخلوا فيه وهم يظنون أن « بنى أمية » لا تزال عصبة ، إذا ذكِّرت بالأحساب والأواصر حنت لها وعطفت ، فإذا هم يخرجون منه وقد أيقنوا أن «بنى أمية » لم تعد لأمية ، هذا الأب الجامع ، وإنما عادت شيعاً وأحزابا ، قد أنساها طول التوالد تلك الصلة الأولى ! ...

وقد فات هؤلاء شىء أجلُّ مما سعوا إليه : فقد قدروا أن الأمر كما كان فى الجاهلية الأولى ، بيت يحكم وشعب محكوم عليه ، لهذا البيت السلطان على الناس ، وليس لهؤلاء السلطان على هذا البيت ، لهذا التفتوا لهذا البيت يقيمونه ولم يلتفتوا لهؤلاء الناس يسترضونهم ، وما علموا أن الإسلامَ إنما جاء ليرد الحق إلى الناس ويسلبه من هذه البيوت ، وأن الناس ما نزلوا عن هذا الحق إلا مقهورين حينا ، وراغبين عن الفتنة حينا آخر .

نسى هؤلاء النفر هذا كلَّه ، نسُوا الناس فلم يسعوا بينهم بقليل ولا كثير ، وذكروا هذا البيت الأموى ، فحاولوا أن يلموا شعثه ؛ ليفرضوا به السلطان على الناس .

ولكن أمرَ الناس لم يَعُدْ كما كان ، ولقد غضب الناس ، وما باليسير أن يُردُّوا عن غضبهم دون أن يظفروا بحقهم .

وما كان يسيرا على هؤلاء النفر ، وقد خرج الأمر عن « يزيد » إلى الناس ، أن يردّوا الناس إليهم ، فقد أنف الناس هذا التراخى فى شئونهم ولم يعودوا يطيقونه .

ولعل هؤلاء النفر علموا الصعب فلم يحاولوه ، وشعروا بالسهل فمالوا إليه ؛ فإذا هم حتى على هذا السهل غير قادرين ، وإذا هم لم يدركوا أيسرَ ما كانوا يقدِّرون ، وإذا قائلهم يتمثل وهو يصيح :

إنى أعيـــذكم بـــالله من فتن مثـل الجبـال تسـامَى ثم تنـدفعُ
إن البريـــة قـــد ملت سيـاستَكم فـاستمسكوا بعمودِ الـدين وارتـدِعوا

وإذا صيحتُه يردها عليه بنو أمية تخاذلا وانحلالا ، وإذا الأمة تعيها عنه إيمانا بحقها وفساد بنى أمية .

وإذا الثائرون يَكثرونِ حول « يزيد » لا تعلقاً بأموى ، ولكن تأييدا لثائر يرى ما يرون ، ويحس ما يحسون .

ولقد نسى الناس أمويته بحبه للإصلاح ، والناس حين يغيِّرون لا يفكرون كثيراً فيمن يكون على يده التغيير ، ولكنهم يساندون كل ساع إليه راغب فيه .

ثم مالهم لا يهدمون الأمويين بأيدى الأمويين فيكسبون ولا يخسرون ، وما أظن هذا ولا ذاك ثار فى رءوس الناس حين ثاروا ، فما أملأ رءوس الناس وأفرغها من الحلم . حين يثورون بالغضب ، وما أبعد الرءوس حين تمتلىء بالغضب عن أن تتدبر فكرة أو تمحص رأيا . وحسب الناس أنهم ملكوا أسباب الثورة فثاروا ، ووجدوا فرصتها فانتهزوها . وما تتخير الأرض حين يضطرب جوفها ، ولكنها تندفع إلى ألين المواضع وأهونها عليها .

ولقد وجد الناس منفذهم إلى الثورة على يد « يزيد » فولوا وجوههم شطره ووجد « يزيد » نفسه آخر الأمر على غير ما كان عليه أوله ، فقد بدأه دافعاً للناس فإذا هو مدفوع بهم ، وبدأه وهو ينشطهم له .. فإذا هم ينشطونه لهم ، وبدأه وهو يظن أن زمام الناس فى يده ، فإذا زمامه هو فى أيديهم .

وما نظن هؤلاء النفر الذين أرادوا الخير لبنى أمية بجمع كلمة بنى أمية كانوا يستطيعون أن يثنوا يزيد عنها ، فلقد أصبح « يزيد » للناس. لا لهم ، وواحدا من الناس لا واحدا من بنى أمية ، وهكذا كسب يزيد الناسُ ومضت الثورة تشق طريقها إلى قصر « الوليد » .

— ٢٨ —

وفى أمسيَّة ليلة دخل الثائرون « دمشق » فملئوا أرجاءها ، ولم تدفع « دمشق » الثائرين ، ولكنها أنستْ بهم إخوانا أُباة أحرارا ، ولم يلقَ على أرض دمشق جيش جيشا ، فلم يكن حول « الوليْد » جيش يحميه ، وكان أهل « دمشق » يرَوْن أن « الوليد » أهون من أن يُبذل فى سبيله دم ، فلم يشهروا على إخوانهم سلاحاً ، وأخذت المدينة تموج بمن فيها ، والكل يرقُب الساعة الفاصلة كيف تقَع . وأخذت رسل « الوليد » تغدو إلى المدينة ، وتروح إليه على خيفة وحذر ، تنقل إليه ما الناسُ فاعلون و « الوليد » راض بقضاء الله متهيىء لما سيلقاه ، ولقد آثر ألا يحركَ للقوة قوة ، فهو إن ملك جندا فقلة معدودون . وإن ملك هذه القلة فليس فى خزانته أرزاقُهم التى تراكمتْ عليه ، فلم يعدْ يَقوى على سدادِ شيء منها ، وليس معه الجند بقلوبهم ، يدفع بهم حيث يشاء ، ولكنهم معه بأرزاقهم ، لا يتحركون إلا إذا نالوا منها ما يشاءون .

وأدرك هذا « الوليد » فلم يحرك — الجند للقتال ، بعد ما كان همّ به ، على أن تكون أرزاقُهم نسيئةً ، وأن يعطيهم الضعفَ ضعفين .

ولكن الأرواحَ لا تُشترى نسيئة ، وما يضمن الناس الحياة « للوليد » ليضمنوا أرزاقهم بعد الحرب . فتخاذل عن « الوليد » المحاربون ورغبوا عن طاعته .

ولعله وجد فيما كان رأيا : فلقد قدَّر أن الأمر بينه وبين خصومه سيمضى فى سلام ما دام هو لم يلق القوة بالقوة ، وأن الأمر سوفَ لا يعدُو أن يكون بينه وبينهم أخذاً وردا وحديثا يدار ، قد تغلِب حجتُه حجتَهم ، وقد تغلِب حجتُهم حجتَه .

لهذا قَبَع « الوليد » فى قصرِه ينتظر الثائرين به ، قانعا بما ينقله إليه رسله الغادون والرائحون بينه وبين الثائرين ! ...

إلا أنها ثورة . وكم فى الثورة من سهم طائش يصيب غير غرضه ؛ لهذا أحكم « الوليد » حراسة قصره ، وأحاط نفسة بما بقىَ من رجاله .

ولم يُجْد يزيد أنه على رأس جند يقودهم ، ولكنه على رأس ثائرين يحتال بهم ، فترك نفرا منهم يتلمسون السبيل إلى قصر « الوليد » ، ولم يكن فى نيته شىء مرسوم ولكنها ثورة « بالوَليد » على أى لون يكون هذا اللقاء .

وما نظن « يزيد » كان يفكر فى خلع « الوليد » وما نظن « الوليد » كان يقدر غير هذه ؛ لهذا ترك « يزيد » نفرا من رجاله يقتحمون على « الوليد » قصره ، وجلس « الوليد » فى قصره يرقب هذا اللقاء ولم يفرّ .

ويدخل هؤلاء النفرّ من الثائرين مع المصلين عشاء إلى مسجد القصر ، وينصرف المصلون ولا ينصرفون هم ، ويخرجهم الحراس من باب فيدخلون من باب ، حتى إذا انفردوا بالحراس أو ثقَوهم رباطاً ، وأخذوا مفاتيحَ الأبواب التى تنفذ إلى القصر . وينفذ هؤلاء المقتحمون على « الوليد »

قصره – وهم أحاد – إلى حيث الوليدُ جالس ؛ ليكونَ لهم معه شأنٌ ، سنذكره بعد قليل .

– ٢٩ –

إذنْ فلقد كان « الوليد » مقهوراً على أمره كلّه حتى استحالت الثورة ، التى خاف « يزيد » مغبتها أول الأمر ، وخاف الناس عاقبتَها حين دعاهم إليها « يزيد » وخاف أولو الأمر أن تتمخض عن حرب طاحنة ، تسيل فيها الدماء ، استحالت هذه الثورة إلى مخاتلة يسيرة ، لا يتكلف أصحابها فيها إلا أن يراوغوا فيها الحارس ، مراوغة أشبه بمراوغة الصبية ، ثم ينفذون إلى القصر قِلّة لا يهابون شيئا ، وكأنهم قد قدروا أنهم سوف لا يلقون شيئا .

ولو أن « الوليد » كان ربَّ أسرة عزيز عليها لوجد الناقمون عليه ، دونهم إليه ، عائقا وعائقا ، فكيف به وهو ربٌّ أمة يملكُ الجيوشَ والعَتّاد .

وكما تضيق الأسرةُ بربها إن أساء ، فلا تحفل به مقيما أو مرتحلا ، كذلك تضيق الأمة براعيها إن فرّط ، فلا تحرص على وجوده ، وترقب زواله ، بل قد تجد الأمةَ أنكى عداوةً ، وأشد خصومة ، وأنسى ذكراً ، وأقطع عهدا ، فالأسرة بربها موصولةٌ بصلات رحم ، ووشائج قربى ، لاتستطيع أن تَلفظَها جملةً . ولا أن تنساها فى يوم وليلة ، فهى إن كرهت .. لا تُسرف فى الكراهية ، وإن قُطعت .. لاتزال تُبقى على خيط موصول ، وإن نسيتْ ما بينَها وبينَ ربِّها لا تنسى ما بينها وبين الناس ، لهذا فقد تقبض يدا وتدفَع بيد ، وتغْمِض عينا وترعى بعين وتأسى علانيةً وتهَش سِرّاً .

ولكن الأمة صلتها بواليها رعاية حسنة تجمع القلوب عليه ، وعدل دائم يؤلف النفوسَ له ، وسيرة طيبة تحبب الأفئدة فيه . وهى إن اجتمعت عليه ، وتألفت له ، وأحبته ؛ عاشت على تفديته وماتتْ ، يأمر فيطاع ، ويدعو فيجاب ، لا ينفذ إليه المكروه إلا إذا انهدت هى أمام هذا المكروه ، ولا يقوى عليه الشر إلا إذا لم تقوَ هىَ على هذا الشر .

وهكذا هان « الوليد » على أمته هوانا كبيرا ، فلم تَرْعه فى محنته ، وبدتْ الثورةُ عليه هينة لم تتكلّفْ الأمةَ شيئا ، لأنها لم تجد ثورة ضدها ، حتى لقد قعد فيها المحاربون ، بعد أن أخذوا أهبتَهم ، تركوها تبلغ غايتَها على يد نفر منهم ، كما لم يلتفتْ لها الشعبُ إلا كما يلتفت إلى تتبع هارب قد مضى والشرطة فى إثره ، وقد جلسوا ينتظرون مصيره .

ولقد أدركها « الوليد » صريحةً حين أبى عليه جندهُ الحرب إلا إذا نقدهم أرزاقهم ، وما هكذا رأينا الجند حين يؤمنُون بمليكهم ، وما عهدنا مثلها إلا مع من يؤجرن على سفك الدماء ، ويحترفون ضروب العدوان .

وكأنى « بالوليد » قد ذكر الولاة تعيش الأمم على حُبهم ، فيفدونهم بكل رخيص وغال ، كما ذكر الولاةَ تعيش الأمم على بغضهم فيبذلون فى الخلاص منهم كل رخيص وغال ، كأنى به قد ذكر هذا وذاك ، ووضع نفسَه حيث قادتْه الذكرى . وكأنى بـ « الوليد » وقد بانت عاقبة الخير والشر ، ورُد إلى ندم مُمض وحسرة مهلكة ، يجلس إلى مصحفه وقد نشره بين يديه ، يتلو منه ، عسَاه يُقيلُ النفس من ندمها ، ويشفى القلب من حسرته .

وكأنى بـ« الوليد » وقد أدرك ما كان يجب له ، وما كان يجب عليه ، ودَّ لو رد إليه الأمر من أوله ، فبدأ حياة أخرى مع الناس تجمعهم عليه وتؤلفهم له . وكأنى بـ« الوليد » قد فطن وهو فى محنته إلى أن الوالى لرعيته يرعاها ، وينظر فى أمرها ، وإلى أن الوالى برعيته يعيش ، وبها يقوى ؛ فإن عاش لنفسه ولم يعش لها ، واستهان بها ولم يتقوّ ، كان هو الخاسر لا هى . وكأنى بـ « الوليد » وهو فى نهاية أمره .. قد ذكر أن الأممَ أقوى وإن بدت مغلوبة ، وأن الحياة مكفولة للحاكمينَ ما وصلو حبلهم بحبلها .

ويطل الثائرون على « الوليد » فيجدونه فى مكانه والمصحف بين يديه ، أراد أن يسالمه الناس بعدَ ما سَالم هو نفسه ، وأراد أن يَلينَ معه الناس بعد ما لان هو مع نفسه ، وأراد أن يَمضى عن الحياة بيوم مشهود ، كما مضى به عنها « عثمان » من قبل . على بُعد ما بين الاثنين .

وما فعلها « الوليد » اصطناعا ، ولكنه رأى نفسه خاطئة ، فأراد أن يطهرها ، ورأى حياته آثمة .. فشاء أن يختمها بعمل صالح .

وواجهه الثائرون يُحاورهم ويحاورونه ، يذكرهم بما أسْدى لهم من خير ، ويذكرونه بما فعل بهم من نكر ، ويعيا « الوليد » بأمرِهم وقد ظن أنه قادر عليهم ، ويعود بذاكرته إلى هذا الملك الذى سيكلفه الثمن غاليا ، وبوُده لو كان زهد فيه ، وجانب بنفسه عنه ، وعاش كما يعيش الناس لا عليه ولا له .

ولا يمهُله الناس كثيرا وإذا هم يتكاثرون عليه ، فيضربه أحدهم على رأسِه ، ويضربه آخرُ على وجهه ، ويسرع ثالث فيحز رأسه ويحمل هذا الرأس إلى « يزيد » ، ويأمر « يزيد » فيطاف بالرأس دمشق ، كأن المقتول ليس ابنَ عم ، وكأن الرأس لم يكن لخليفة يُعصَب عليه التاجُ منذ حين قريب .

وهكذا لقيها « الوليد » مُرة الطرفين . وما نحسبه هنىء بالحياة بين هذين ، وهكذا خَلت الخلافة بمقتل « الوليد » ليشغلها « يزيد » .

ويريدها « يزيد » ملكا خالصاً لنفسه ، إلا أن النفوس التى أثارها غضباً له ثارت غضباً عليه ، وكذلك الأمم ليس يسيراً أن تردها إلى مقنع بعد أن تُقيمها على مفزع ! ...

ولقد كانت بَرِمة بالأمويين ، ولم يكن « يزيد » غيرَ أموى ، ولقد التفوا حوله أولا ؛ لأنهم كانوا ثائرين ، وكان هو ثائراً معهم ، فالتفوا به على تلك الصلة الجامعة ، لم يفكروا فى شىء غيرِها .

ولكن الثورة لم تكد تنتهى بموت « الوليد » وولاية « يزيد » حتى انقطع ما بين « يزيد » وبين الناس من صلة ، فأصبح هو مَلكا وأصبحوا هم رعية ، وأصبح هو مسئولا وأصبحُوا هم سائلين .

كان الناس يرون مال الأمة خالصاً للأمويين من دونهم ، اللهم إلا من أعطيات كانوا يعطونها عادلة مرة وجائرة أخرى ، وليس شىء يفزع على الناس حياتهم ، إلا أن يجوعوا ويشبع غيرهم . وكما يحرك ألم الظلم العقول كذلك يثير ألم الجوع النفوس ، وقد يجد ظالمك دليله إلى عقلك فيخدعك ، ولكن مُجَوِّعُك لن يجِد دليله إلى بطنك إلا إذا أشبعك ، لذلك كانت النفوس أقرب إلى الثورة إذا جاعتْ منها إذا ظُلِمت ، فقد تصبر على الظلم مرةً ومرةً ، ولكنها لا تصبر على الجوع مرة .

وقد طمع الناس فى « يزيد » أن يزيد فى أعطياتهم ، فإذا هو ينقص منها . وأول مظهر لضيق الأمة بواليها أن تنعته بما يكره ، وقد ضاقت الأمة بيزيد لقبضه يده عنها بالعطاء ونقصه ، فنعتته « بالناقص » . وما كاد يشيع له هذا النعت حتى حرك النفوس عليه ، ووجد « يزيد » بين الناس من ينكر عليه قتل « الوليد » ويطالبه بدمه ، ويخرج عليه ، ورأى « يزيد » نفسه فى فتنه .. كالتى رأى « الوليد » نفسه فيها .

– ٣١ –

لقد بدأ خلافُ الأمة على الأمويين بالثورة على « الوليد » ، ولكن خلاف الأمويين على أنفسهم لم ينته بمَقتله . ولقد كان لهم فيه مُزدجَر ، ولكنهم لم يعوه . بل لقد هَوّن على شيخ منهم – وهو « مروان » – ما لقيه

الوليد ، فأحب هو أن يلقى « يزيد » بمثله . ولقد رأى الأمة تُدعى للثورة فتجيب ، فحركها ضد « يزيد » ، وما علم أنها عليه وعلى « يزيد » ، وأثارها يتخذ من مقتل « الوليد » وسيلةً ، وظنها وهى تستجيب إليه أنها تنقم على « يزيد » لمقتل « الوليد » ومادرى أنها ناقمة على « يزيد » بعد « الوليد » ، وأن ثورتها لا تزال فى نفسها متصلة على الأمويين ، تساند من يساندُها ، وتميل إلى من يُذكيها .

وجدَ « مروانُ » يؤلب الناس على « يزيد » وجدَ الناسُ ينصرونَه عليه ، ولكن « يزيد » لا يمهل الناس حتى ينالوا منه ما نالوا من « الوليد » ، فيموت ، وما ولى الخلافة إلا أشهرا ستة .

ولم يكن « مروان » قد هيأ للأمر نفسه ليبلغَ الخلافة ، ولم يكن قد تم له تدبيره ليظفر بها ، وقد وجد على الخلافة بعد موت « يزيد » غيره ، وهو « إبراهيم بن الوليد » ولم يجد نفسه ، وما لهذه سعى وكاد .

ويجد « مروانُ » الخليفةَ الجديدَ أضعفَ من الخليفة الراحل ، ويجد الكيد له أيسر من الكيد لسابقه ، فلا يهدأ ولا تفتر له همة ، حتى يكتب له النصر ويبايع له الناس .

ولم يسكت الناس عن « مروانَ » كما لم يسكتوا عمن قبله . وما سكت الهاشميونَ عن الأمويينَ ، وإنما تربَّصوا بهم الدوائر ، ونشط دعاتهم يدعون .

ووجدوا الناس فيهم ثائرين بالدولة الأموية كلها فاطمأنوا لهم ، ولفوا حبلهم بحبلهم .

وملأت تلك الدعوة نفوسهم حين خلت من التعلق بالأمويين ، وقرت فى قلوبهم حين نفرت من الأمويين ، واطمأنت إلى أفئدتهم حين أمنت بطشَ الأمويين ، وتجمعوا حول الهاشميين يقاتلون « مروان » ومن بقى معه .

ولقد قاتل « مروان » قتال المغلوب على أمره ، ثم خرج من ملكه فارًّا كما يخرج صغار الناس عن منازلهم . ويلقاه الجند بمصر بقرية « بوضير » فيقتلونه ، ويفر ابناه . « عبد الله » و « عبيد الله » إلى الحبشة فيلقيان ما لقى أبوهما بمصر .

وتغيبُ دولةٌ وتظهر دولةٌ ، وتعود السيادة ، مرة ثانية إلى من كانت فيهم أولاً ، ويلقى بنو العم من بنى العم نكالا وعذاباً ، جزاءً بجزاءٍ وكيلاً بكيل .

الحقبة الثانية :

ما لقيه الهاشميون على أيدي الأمويين من عسف وجور

- ١ -

قُتل عُمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عام أربع وعشرين من الهجرة ، بعد أن وَلى أمر المسلمين عشر سنين وأشهرا ، فكان قَتْله وأداً للحكم الجمهورى الشُّورِى الذى ملأ الدين به نفسَه ، ولم يَستوحشه طبعُه ؛ فلقد آمن إيمان الرائى المتدبِّر الحر ، فخلا عقلُه للإسلام يتدّبره ، وصَفت نفسُه له لا يغلبها عليه هوى ، وعاش له يرجو أن يُطبقه كما أريد به ، نظاماً لخير المسلمين أُمةً .. لا لخير فريق دون آخر .

ولم يدخل عمر الإسلامَ باسم قبيلته وأوزارها فى الجاهلية ، وإنما دخله باسم الناس جميعا ، من أسلم من العرب ومِن غيرهم ، ومن سيُسلم من العرب ومن غيرهم ، فلم يحابِ ولم يجامل ، وقسا على أهله قبل أن يقسو على من ليسوا له بأهل .

ولقد اختُطف - رضى الله عنه - وأخشى ما كان يخشاه أن يرتد الحكم جاهليًّا قبليًّا تعلو فيه كلمةُ السادة ، وتختفى فيه كلمة الشعب ، وكأنه كان يُحسها لاذعةً وهو على فراش الموت حين جمع إليه النَّفر الذين مات رسولُ الله - ﷺ - وهو عنهم راضٍ ، يوصيهم ، وهو يقول :

« أنشدك الله يا على ، إن وليت من أمور الناس شيئا أن تجعل بنى هاشم على رقاب الناس !

أنشدك الله يا عثمان ، إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس !

قوموا فتشاوروا » .

ولم تكن عشر سنين حَكمها عُمر ، إلى سنتين قبلها وليهما أبو بكر ، إلى أربع وعشرين عاما عاشها رسول الله – ﷺ – بين العرب داعياً وموجهاً ، لم تكن هذه السنون الست والثلاثون كافية بأن تنزع من قلوب السادةِ السيادةَ الجاهلية الغاشمة المستبدة ، وإن انتزعت غيرها من إثم الجاهلية ، ولا أن تنتزع من قلوب الشعب المَسُود الرهبة الصماءَ والطاعة العَمياء ، وإن كادت لتبلغ – حين هَبّ إلى عمر عربى مِن العامة – وهو يَرهب عمَر فى الحق ولا يرهبه على الباطل ، ولا تمنعه طاعته له أميرا على الأمة أن يحاسبه فرداً عن هذه الأمة ، فيقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بحد السيوف .

فلا يغضب لها عمر ، وإن بدت قاسية ؛ فلمثلها جاء الإسلام ، ولمثلها عَمل عمر .

وما كان قَتْل عمر فى فتنة من تلك الفتن التى ثارت بين المُسلمين بعدُ ، وقَتل المسلمون فيها بعضهم بعضا ؛ من أجل ذلك مَر قتلُه – رضى الله عنه – على خطره دون أن يُثير فتنة ؛ لأنه لم تهيىء له فتنة ، ومن أجل ذلك اطمأنت نفس عُمر وهو يُودع دنيا المُسلمين للمسلمين .. نقية من الخلف بينهم ، أو الخلاف عليه ، فما هى بالهيّنة على نفس الحاكم أن يرى النفوس التى حكمها ليُرضيها قد أثارنها ولايته عليهم سُخطا عليه ؛ لهذا أمر عُمر – وهو قلق – ابنه عبدالله أن يخرج فينظر مَنْ قتله ؛ ولهذا استمع عمر إلى عبدالله مطمئنا حين أنهى إليه أن قاتله هو « أبو لؤلؤة المجوسى » غلام المغيرة بن شُعبة ، ولهذا نسى عمر حرَّ الجُرح فى جسمه وقال : « الحمد لله الذى لم يجعل منيّتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » . ثم التفتَ مشغولا برعيته التى شغلته حياً يريد أن يؤدّى لها ما عليه ، قبل أن يفصل الموت بينه وبينها ، شأنَ الراعى الأمين الذى يعلم أن حياته كلها منذ أن يلى إلى

أن يموت .. لتلك الأمة التى تولّته ليس له منها شىء ؛ لذلك لم يشأ عمر أن يختص نفسه منها بشىء حتى هذا الرَّمق الباقى له . لم يُعط منه جسمه حقا ، ولم يعط منه أهله حقا ، بل زحمه بما لم تتسع له الساعات الطوال ينظر فى أمور رعيته . وأرسل ابنه عبدالله يدعو إليه هؤلاء النفر الذين مات عنهم رسول الله - ﷺ - وهو عنهم راض يوَصيهم .

ولكن القاتل - على مجوسيته - كان رعية يرعاه عمر مع من يرعى من المسلمين ، له مثلُهم من عدله وإنصافه ، وعلى عمر وأمثال عمر أن تفزع نفوسهم حين يثور هذا ، كما تثور نفوسهم حين يفزع المسلمون ، وإن اختلف معنى الفَزْعتين ، فأولاهما فزعة تُسىء إلى الحاكم فى عدله العام ، وثانيتهما تسىء إليه فى عدله الخاص .

وما نظن عمر أهمل عدله العام بعَدْله الخاص ، ولا نسى إنسانيته المجردة بإنسانيته المقيدة ، ولكن وراء أبى لؤلؤة شيئا لا يقوى عليه عمر إلا إذا تجرد عن رسالته التى كانت امتدادا لرسالة الرسول ، ثم امتداداً لحكم أبى بكر .فما نظن أبا لؤلؤة حقد على عمر أنه لم يَحطّ عنه درهمين كانا عليه لمولاه المغيرة ، وكان هو صَناعَ اليد يحترف النجارة والحدادة فى بيئة يعوزها النجّار والحدّاد . ولكننا نؤمن أن أبا لؤلؤة كان يحقد على عمر إيغاله فى فارس وغير فارس من الأقطار غير المسلمة ، وكان يحقد عليه تلك الضحايا التى استكبرت وأبت على عمر أن تشيع كلمة الله ، وما يدرينا : هل من تلك الضحايا من كان أهلا لأبى لؤلؤة ؟ وإن لم يكن فلقد عدّهم جميعا آله ، وإنّ بقاء أبى لؤلؤة حيث هو مجوسيّا لم يتحول عن مجوسيته ليس بعيداً عن المسلمين ، ولكن قريبا منهم يساكنهم ويعاملهم ، دليل على نفس الرجل وما تحمل من حقد لا لدرهمين لا يقيمان الأوَد ، ولكن لعقيدة وُتر فيها .. ورأى الواتر له عمر .

ولكنى على هذه لا أريد أن أنفى هذا السبب الهين الذى يذكره

المؤرخون ، وأنا إن ذكرته أريد أن أُحَمِّل المغيرة بن شعبةَ شيئا من التبعة فيه .

فلقد عوّدنا عمر فى الكثير مما يتصل بالمغيرة أن يكون به رحيما شيئا ما ، رحمةً لاتُضار المسلمين ولا تُضار حقوق الإسلام ، ولكن رحمة خشى إن لم يفعلها أن يضار حُرًّا هاجر فى سبيل الله . وكان هذا المعنى كبيراً فى نفس عمر ، يعظمه ويجاهد أن يحفظه بسياج من الإكبار .

من أجل هذا وقف عمر من المغيرة حين شهد عليه أبو بكرة وأخواه : نافع وزياد ، وشبل بن معبد . بالزنى . ولقد اضطربت لها نفس عمر حين شهد على المغيرة ثلاثة منهم شهادة توجب عليه الحد ، ويَقدم رابعهم « زياد » على عمر ، يراه عمر مقبلاً ، ويتمنى عمر لو جاءت شهادة زياد غير قاطعة ، ويتحرك لسانه بأمنيته فيقول : « إنى لأرى رجلا لن يخزى الله على لسانه رجلا من المهاجرين » ، وتمضى شهادة زياد بما تمنى عمر ، وفى يقينه أن المغيرة غير برىء ، ولكنها جريرة لا تقول فيها النفوس بما تؤمن ، ولكن تقول فيها الشهادات بما يرى أصحابها فى جلاء ووضوح .

ويقيم عمر الحد على الشهود الثلاثة ، ويفرح لها المغيرة وينظر شامتا بالشهود وهو يقول : الحمد الله الذى أخزاكم ! وهنا يملى يقين عمر على لسانه : اسكت .. أخزى الله مكاناً واراك .

ويمسكها على بن أبى طالب على مضض – وكان حاضرها – إلا أنه لا يملك أن يحمل زياداً على أن يصرح بأكثر مما صرح . ويرى أن هناك حداً قد وجب هان فيه زياد ، ولم يشتد فيه عمر ، رفقاً بمهاجر من المهاجرين ، ويخرج منها « علىّ » بنفس كاظمة ، ويخرج منها عمر بنفس راضية مطمئنة .

ويُضرب أبو بكرة فلا يثنيه ما نال عن أن يعود فيشهد أن المغيرة فعل ،

ويكاد يخرج عمر عن اطمئنانه ورفقه ، ويهم بضربْ أبى بكرة ، فلا يقوى « علىّ » على كظمه ، ويوعد برجم المغيرة إن ضرب عمر أبا بكرة ؛ فيكف عمر .

تلك واحدة تدُلك على رفق عُمر بالمغيرة ...

وثَمَّ ثانية تدُلك على استغلال المغيرة لهذا الرفق ، والمُباهاة به فى حق وغير حق .

يحكون عنه أنه قال : أنا أول من رشا فى الإسلام : جئت إلى « يَرفأ » حاجب عمر ، وكنت أجالسه ، فقلت له : خُذ هذه العِمامة فالبسها فإنّ عندى أختها ، فكان يأنس بى ويأذن لى أن أجلس من داخل الباب ، فكنت آتى فأجلس فى القائلة ، فيمر المارُّ فيقول : إن للمغيرة عند عمر منزلة ، إنه ليدخل عليه فى ساعة لا يدخل فيها أحد .

فعَلَى مثل الأولى ، وعلى مثل الثانية عاش المُغيرة بين المسلمين خلافةَ عمر ، يُدل على مَن لا حول له إدلالاً تختلف درجته فى نفوس هؤلاء المُستضعفين ، وكان أبو لؤلؤة أحدهم ، شكاه إلى عمر وفى نفسهِ ما فى نفوس أمثاله من عمر لتَقريبه المغيرة هذه القُربى الموهومة ؛ فلما لم ينل ما يريد من عمر تأكد عنده ما وهم ، واستيقظت فى نفسه تلك البواعث الأولى ، فأحيا شرٌّ شَراً ؛ وقتل عمر ، وكان المدبِّر له المغيرة ، إن صح أن نُسمى هذا تدبيرا .

وإن فى عدول أبى لؤلؤة عن المغيرة – وهو ظالمه الأول – إلى عمر – وهو المعين لظالمه – كما خال – ما يؤكد أن السبب الحق فى ثورته بعمر هو مجوسيته التى انطوت عليها نفسه واضطربت بها ، حتى إذا ما هاجها ما كان من ظلم المغيرة ، وخذلان عمر ، ثار يقتل عمر ، وهو يظن أنه يقتله للثانية ، وما قتله إلاّ للأولى .

– ٢ –

ثم يُقتل عثمان بن عفان – رضى الله عنه – فيكون قتله تمهيداً لأن يعود الأمر أدراجه استبداديا ، كما كان فى جاهليته ، وإن اختلفت الصورة .

وما أصدقها كلمة جرت على لسان ثمامة بن عدى – وكان أمير صنعاء يوم قتل عثمان – اليوم نزعت الخلافة من أمة محمد ، وصارت ملكا وجبرية ؛ من غلب على شىء أكله .

فلقد غلب الأمويون عثمان على أمره فشغلوه بأنفسهم أقرباء ، وجنحوا به إلى ما خشيَه عمر عليه وحذَّره منه ؛ وغلبه على أمره سادتُهم الطامعون فى الاستئثار بالأمر بعده ، يريدون أن يفوتوه على « على » وكانوا يرونه له غيرَ منافَس .

وجلس معاوية يقطع فى الأمور دون عثمان ، يصرفها على هواه لتلك الغاية التى ينشدها وهو يقول للناس : « هذا أمر عثمان » . يشجعهم على ذلك .. مَيْل كان فى عثمان فطريا إلى صلة ذوى رحمه ، فلقد سمعوه يقول : « إن أبا بكر وعمر كانا يتأوَّلان فى هذا المال ظلم أنفسهما وذوى أرحامهما ، وإنى تأولت فيه صلة رحمى »

وكانت الثورة بعثمان ؛ ثورة شارك فيها الشعب مأجورا مسوقا ؛ لم تكن ثورة من صُنعه ، وإنما كانت من صُنع السادة الذين فَزعوا بتدبير الأمويين ، سيَّروا لها فُلولا من مختلف الولايات تقتحم على هذا الخليفة المظلوم داره ، وتنال منه أشد النَّيل .

دخل عليه « على » فى محنته هذه القاسية ؛ لا ليشد أزره ولا ليثبط عنه ؛ ولكن ليقول له : « إنى أحذِّرك اللهَ وسطواته ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم » .

ويدرك عثمان قسوة « على » به ساعة يرجوه أعطف الناس عليه ، فيقول له : « أما والله لو كنتَ مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولاعبت عليك » .

وكان « على » يرى أنه صاحب حق أُبعد عنه ثلاث مرات :

الأولى يوم بايع الناس أبا بكر ، فغضب لها ، ولبث محتجبا مدة ثم بايع .

والثانية يوم أوصى بها أبو بكر لعمر ، فسكت عنها وفى النفس شيء ...

والثالثة يوم ترك « عمرُ » الأمرَ شورى ، وما كان أطمع « على » فى أن يُوصى به « عمرُ » كما أوصى أبو بكر بعمر ، ولا يتركه بين نفر غيره كلهم طامع فيها مناهض له .

وها هو ذا يراها تكون الرابعة ، والساعى إليها رجل من وراءِ الصُّفوف هو معاوية ، وليست له سابقته ولا فضله ، ويرى « عثمانَ » بتراخيه يمكِّن له .

من أجل هذا أُنسى « على » الرفق بعثمان ومؤازرته فى محنته ، ومن أجل هذا أُنسى « على » ما ذكّر به عثمان : « وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذى يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، ويلبس أمورَها عليها ، ويتركها شيعاً لا يبصرون الحق لعلوِّ الباطل » .

☆ ☆ ☆

والشعب الذى حُرك لتلك الثورة .. كان متعطشا إلى ثورة ، لأن الباب الذى فتحه عليه الرسول وأبو بكر وعمر - من الحرية والعدل والمساواة - سدّه عليه عثمان ، غير مختار بإقحام الأمويين أنفَسهم عليه ، يوجهون الأمور فى غير عدل ولا مساواة ، ولم تكن له حرية فى أن يقول أو ينقض

ما يفعلون ، ولكن الشعب مع هذا الضّيق لم يبلغ أن يدبّر لتلك الثورة ، ولم يبلغ أن يكون تدبيره على هذه الصورة المؤلمة التى انتهت بمقتل عثمان ؛ فلقد كانوا حين اجتمعوا بالمدينة لا يبلغون الألف .. من المصريين ستمائة ، ومن الكوفيين مائتان ، ومن البصريين مائة . وكان فَضُّهم ونقض أمرهم عليهم - إن كان لهم أمر جد مبرم - شيئا يسيراً على أهل المدينة وذوى الرأى فيها لو أرادوه . وصدق أبو جعفر القارىء حين قال : « ولعمرى لو قام بعضهم فحثا فى وجوهم التراب لانصرفوا خاسرين » .

ولكن المدبرين للأمر .. استطاعوا أن يجمعوا الثائرين من شتى الأقاليم لجهاد عثمان ، ثم تركوا لهذه الجموع الحبل على الغارب تموج فى الفتنة كما تشاء ، ولو أن هؤلاء المدبرين للثورة دبروا لغيرها ، واجتمعوا على رأى .. لانتهوا بعثمان إليه فى يسر ، ولسلم عثمان من القتل ، وسلمت الأمة من تلك الفتنة الهوجاء ؛ ولكنهم تركوا عثمان يواجه تلك الجموع المتألبة بمنطقه ، ولقد كاد يردها عنه حين قال لهم : « والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلى ، ولم تكونوا تختلفون عليه » لأنهم - كما قلت - لم يثوروا عن رأيهم وتدبيرهم ، وإنما كانت ثورتهم عن رأى غيرهم ، ولولا مروان بن الحكم - حين انبرى للناس بعد عثمان يقول : « إن شئتم حكمنا والله ما بيننا وبينكم السيف » - لا نقضت الفتنة فى مهدها وعاد عثمان معافىً وكأنّ شيئا لم يكن .

ولكن الشعب الذى سكن لكلام عثمان هاج لكلام مروان ، سكن لكلام عثمان لأنه ، لم يجتمع له رأى فى الغضب عليه ، فأرضاه منه هذا القليل فأطمأن ؛ ثم هاج لكلام مروان ، لأنه حرك فيه هذا القليل الذى أثاره على عثمان ، فمضى فى ثورته أقسى ما يكون ، ولم يجد غير عثمان يرده إلى سكونه بكلمة مثل كلمته ترد عليه طمأنينته .

وهكذا أصبحت هذه الثورة الملفقة المزيفة ثورةً حقيقية ، وأصبح هؤلاء

الشّذاذ الذين جاءوا المدينة لا يعرف بعضهم بعضا ، ولم تجمع بينهم من قبل ندوة يدبرون فيها الرأى ، وإنما استُجلبوا إليها كما يستجلب العَمَلة ؛ أصبحوا بعد أن حلّوا المدينة وواجهوا عثمان وواجههم ، واستفزهم مروان وأثارهم ، تجمع بينهم كلمة ، ولكنها بقيت على الرغم من هذا كله كلمة ينقصها الرأى الناضج الذى يمهد للثورة فى النفوس ، واليقين الراسخ الذى يدفعهم إلى الهدف ؛ لذلك بقوا فى المدينة أربعين يوما فى هيط وميط واضطراب وبلبلة لا يدرون ماذا يفعلون .

وكان المدبرون للأمر من خلفهم هم الآخرون لا يعرفون ماذا يفعلون ، ولا إلى أى هدف يهدفون ، ولكنهم كان يعنيهم أن يدوم هذا الاضطراب ، فلم يحاولوا أن يصرفوا الناس عنه بتدبير يجنح إلى السلم ، يلزمون به عثمان .

وما أسرع ما تضم الثورات إليها - إن دامت - حُثالةَ القوم ، ينضوون إليها عن حيوانية لا تزال فى فِطَر الناس ، إذا هاجت فيهم غلبتهم على عقولهم وتفكيرهم ؛ ثم عن مطامع دنيوية ينتهزها المغلوب ليصبح غالبا ، والمحروم ليطفىء ظمأ الحرمان .

ولقد أنس الناس بحُكمين : حكم أبى بكر ثم حكم عمر ، ذاقوا فى ظلهما معنى التحرر من نير قريش الذى حملته عواتقهم فى تلك الجاهلية الأولى الطويلة ، لم يملكوا أن يلقوه عنهم حتى كان الإسلام فسوى بين الناس ولم يجعل لسادة الأمس سطوتهم على عباد الله .

واطمأن الناس إلى خلافة أبى بكر ثم خلافة عمر ، لأنهم رأوا فيهما انتصافا من ماضٍ مظلم لم يَل فيه الحكم إلا قرشى . فلما آل الأمر إلى عثمان قبلوه مؤمنين به منكرين له ، آمنوا به لأنه شىء أملته الشورى - وإن لم تكن شورى كاملة - وآمنوا به ، لأن عثمان وإن كان قرشيا فهو شريكهم فى جهاد طويل حمل فيه عبئا كبيرا ، وتنكروا له لأنه قطع فى

نفوسهم ذلك الأمل الذى بدأ ، وأطفأ فى نفوسهم هذا الرجاء الذى أشرق فيها .

أحسها سعيد بن العاص وهو وال بالكوفة حين انتهى إليه وقوع وجوه أهل الكوفة فى عثمان ، ولقد سيرهم إلى معاوية فى الشام عن أمر عثمان ، وناقشهم معاوية وناقشوه ، فإذا ما تنطوى عليه النفوسُ .. النقمة على قريش تردهم ولاية عثمان إليها ، وتثيرها فى نفوسهم .

وكما أغضبت ولاية عثمان غير القرشيين فتنكروا لها شيئا ، أغضبت الهاشميين لأنها ستمكن للأمويين وتردهم إلى سيادةٍ غلبهم عليها الهاشميون .

ولقد اضطرب هذا المعنى وذاك فى نفوس هؤلاء وهؤلاء ، دون أن يُحسوه أولا ، ثم أحسوه حين طالت بالثورة أيامها وأخذ الثائرون فيها وأعطوا ، فاجتمعوا على أمر آخر أخفوه فى نفوسهم وأعلنوا غيره على ألسنتهم ، وكان هذا الذى أعلنوه يحرك الذى أخفوه ، ويزيدهم به إيمانا وعليه قوة ، فالتقى الأمران وكان معهما أمر واحد .

☆ ☆ ☆

ويبلغ الثوار أن أهل الأمصار المناصرين لعلى سائرون إليهم ، ويحس المدبرون للأمر أن شيئا سيقع يقطع على هذه الثورة امتدادها ، ويردهم لم ينالوا شيئا ، ويتراءى لهم حقهم المسلوب ، وقد اجتمعوا منه قاب قوسين أو أدنى ، يوشك أن يحال بينهم وبينه إلى غير رجعة ؛ هنا يغلب الطيش العقل ، وتهيب بهم النفس الثائرة : كن عبد الله القاتل ولا تكن عبد الله المقتول .

ولكن عثمان خليفة له السابقة فى الإسلام والفضل على المسلمين ، ولم يكن الذى شاع عنه من شر يمحو الذى ثبت له من خير ؛ فيلتفّ الثائرون ببيته يقدمون رِجْلا ويؤخرون أخرى ، يشتطون فى حصاره ولا يجرءون على اقتحام داره .

ويقتل المدافعون عن عثمان رجلا من الثائرين به - هو : نيار بن عياض - ويطلب الثائرون من عثمان القاتل .. فيأبى أن يسلمه إليهم ، وهو يقول : « لم أكن لأقتل رجلا ينصرنى وأنتم تريدون قتلى » . فينقلب إحجام الثائرين إقداما ، وتراخيهم عزما ، وإذا باب الدار مُحَرق ، وإذا الثائرون قد التفوا بعثمان . ولكنهم على ذلك كانوا أهيب من أن ينالوا منه أو يسفكوا له دما ، ووقفوا من حوله مبهوتين مأخوذين ، يريدون أن يهموا به : ولكنهم لا يقوون على ما يريدون .

ولكن من وراء هذه الثورة غير الواعية ثورة أخرى واعية ، فلقد كانت الأولى ثورة للناس ، يلفهم الهيج فيها بوثاق لا يحلّهم منه إلاّ بطش رادع ، فإذا لم يرزقوه .. ظلوا على هيجهم ، يحمسهم له أنهم معه مالكون ، ومع غيره مملوكون ، وما أعطش النفوس المملوكة إلى أن تحس أنها مالكة ، والويل للمالكين إن هم حركوا المملوكين بالظلم أو العسف إلى أن ينسوا طاعتهم وانقيادهم لهم .

ثم كانت الثانية ثورة ذات مطمع من وراء تلك الثورة غير ذات المطمع ، وكانت هى التى حركت الناس فلبّوا النداء ، وهم يخالون أنهم يُصدرون عن كراهية لعثمان ، وما علموا أنهم يُصدرون عن تلك الحرية التى يكبتها النظام وإن بدا عادلا ، فما بالك به وإن بدا جائرا . من أجل ذلك .. لبثت تلك الثورة متعثرة الخطى ، لا يملك الثائرون فيها رأيا قاطعا . ويحس الثائرون بعثمان - عن وعى وتدبير - عاقبة تردد الثائرين بعثمان عن غير وعى وتدبير ، ويَخْشون الزمن إن امتد ، إذ لا بد مع امتداده من إحدى اثنتين :

إما أن يفتر الثائرون ويهنوا ، فليس فى ظل الحياة الثائرة استقرار ، وليس للناس حياة مطمئنة يغدون فيها على أنفسهم ويروحون إلا فى ظل

هذا الاستقرار ، وما أحوج الناس إلى هذه الحياة المطمئنة ، ثم ما أحوجهم إلى هذا الاستقرار ليضمنوا تلك الحياة المطمئنة .

وإما أن يدخل على الثورة ما يبطش بها ، وقد أحسوا بوادره .

عند هذا برز هؤلاء المستخفون لينالوا من عثمان بأيديهم ما طمعوا أن ينالوه على أيدى غيرهم ، ولم يكن منهم إلاّ كل موتور من عثمان : منهم من يرى الخلافة له ، ومنهم من انطوت نفسه على إحنة .

ولقد اختلف الشرٌ فى نفوس هؤلاء وهؤلاء ، وإن كان قد ملأ نفوس هؤلاء وهؤلاء ؛ ولكنه حين غلت به نفوس الأولين .. كان خلع عثمان هو كل ما يطمعون فيه ، وحين غلت به نفوس الآخرين ، كان قتل عثمان هو ما ينشدون .

وفرق بين حقد يثيره المغنم العام ، وآخر يثيره المغنم الخاص ، وما سلمت الحياة من الاثنين ، وما سلم الوّلاة الذين يَلُون أمر الناس من ضير الاثنين .

وما كان ثائرو البصرة – وهواهم فى طلحة – وما كان ثائرو الكوفة – وهواهم فى الزبير – وما كان ثائرو مصر – وهواهم فى على – ما كان هؤلاء جميعا لينالوا من عثمان ما نيل منه لو لم يكن من ورائهم هؤلاء الذين أغضبهم من عثمان شأن من شئون الحياة ، أمثال : محمد بن أبى حذيفة ، وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر ، وكعب بن ذى الحبكة ، وعمير بن ضابىء البرجمىّ .

أما عن محمد بن أبى حذيفة ، فقد كان يتيما فى حجر عثمان ، ثم لما شب سأل عثمان العمل .. فأباه عليه ، وهو يقول :

لو كنت رضا لاستعملتك . فأسرّها ابن أبى حذيفة فى نفسه ، وأنساه بُخل عثمان بما لم يملك ، جُودَه بما كان يملك .

وأما عن عمار بن ياسر، فلقد كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب يوماً كلام ضربهما عليه عثمان، لم يضرب عمارا دون عتبة، ولم يضرب عتبة دون عمار، لأنه رأى كلا منهما قد قذف صاحبه قَذفاً يوجب الضرب .

وأما عن محمد بن أبى بكر، فلقد كان إلى طمعه فى الخلافة يحمل فى نفسه لعثمان شيئا، وذلك حين لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره .

وأما عن كِعب بن ذى الحبكة النهدى، فكان يلعب بالنِّيرنجات – وهى شىء كالسحر – فبلغ عثمانَ، فكتب إلى الوليد أن يُوجعه ضربا .

وأما عن عمير بن ضابىء، فإنه عاش يذكر لعثمان تعزيره لأبيه، وحبسه له حتى مات فى السجن، ولم يذكر أن عثمان لم يفعلها بأبيه كيداً، وإنما فعلها إنصافا لقوم من الأنصار اغتصبهم ضابىء كلبا، ثم هجاهم .

فهؤلاء وأمثالهم كانوا أجرأ على عثمان، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين هوّنوا على الناس قتل عثمان .

وهكذا اجتمعت على عثمان فتن ثلاث :

فتنة تَحرَّك لها الشعبُ باسم حقوقه التى له على الخليفة، رأى أن الخليفة لم يحسن توجيهها، وكان هذا جديدا على الشعب، أعنى أن الشعب لم يكن يعرف أن له على سادته حقا، وقد عاش قبل الإسلام يعرف أن لسادته عليه كل الحق، وليس له هو من الأمر شىء، فعرّفه الإسلام هذا الحق له، هداهم إليه الرسول قولا وفعلا، ثم أيقظهم له عمر وحرضهم على تعقب من يليهم ؛ فلما نُبِّهوا له أيام عثمان لم يسكتوا عنه .

وفتنة ثانية تحرك لها قوم ظلمهم اختيار عثمان للخلافة دونهم، ولم

تكن هذه الفتنة إلا امتددا لما كان بين بنى هاشم وبين بنى عبد مناف من تنازع على الرياسة .؛

وقد حرك هؤلاء الشعب معهم يُخفون هذا المطمع الذى ناله عثمان دونهم ، ويُظهرون الذى ثار من أجله الشعب على عثمان .

وفتنة ثالثة دخل فيها هؤلاء الموتورون من عثمان باسم هذا الوتر وحده ، لم يعرفوا غيره ، ولقد كان هؤلاء أقسى الثائرين على عثمان وأعنفهم به ، يَمُد لهم فى غيهم رضا الذين يحملون اسم الفتنة الثانية ، واسترسال الذين يحملون اسم الفتنة الثالثة ، وأُنسهم بالثورة يرونها متنفسا ، ويُحسونها خلاصا من طاعة الحاكم .

وهكذا قضى عثمان يحمل وزر قتله أصحاب هذه الفتن الثلاث جميعا ، ولكن ثلاثتهم لم يغنموا شيئا .

فما غنم الموتورون ؛ فمنهم من قَضى مقتولا ، ومنهم من عاش مشرداً ، ومنهم من أفلت من القتل والتشريد ليعيش على وخز ضميره وعنف نفسه به .

وما غنم الهاشميون الذين رجوا أن تخلُص لهم الحياة وتعود السيادة إليهم ، بل لقد عرضوا أنفسهم لأذى كثير .

وما غنم الشعب الذى هبّ ليرد إليه بعض ما سُلب منه ، فلقد عاد ليسلب منه كل شىء ، وليذوق حروبا طاحنة حَصدت شيوخه وأبناءه حصدا ، وفتناً مظلمة كقطع الليل تقض عليه مضجعه ؛ ثم إلى ما هو أدهى من هذا ومن ذاك ، فلقد رد إلى حكم فردى مُستبد ، وليس له فى تدبير الأمور قليل أو كثير .

- ٣ -

وإن الأهواء التى فرّقت بين الناس فى مقتل عثمان فرّقت بينهم فيمن يختارون للخلافة بعده .

لم يَقْوَ الطامعون فى الخلافة على أن يُعلنوا عن أنفسهم ولا عن رغبتهم فيها ، بل صدُّوا عنها حتى لا يساء بهم الظن ، وحتى لا يُفسر الناسُ قعودهم عن إخماد الفتنة لوناً من المشاركة فيها .

وجمد الموتورون من عثمان حيث هم يتربّصون بأنفسهم الدوائر ، ولم يكن واحد منهم أهلاً لأن يزكّىَ لها نفسه .

وأما الشعب فلقد لُقِّن أسباب السخط فثار ، ولو قدر له أن يلقن غيرها من الوعى والبصر لأجمع على من يختار .

ولهذا بقيت المدينة أياماً خمسة .. يلتمس الناس من يقوم بالأمر فيهم فلا يجدونه ، وكان أخشى ما يخشونه أن ينقلب الثائرون إلى أمصارهم دون أن يخلِّفوا عليهم خليفة ، فتتفرق كلمة المسلمين ويعودوا أوزاعا وأشتاتاً بعد أن كانوا يداً واحدة .

ودبّ فى النفوس لون من ألوان اليأس لا يكون إلا حين يفقد الناس ثقتهم بسادتهم وأولى الرأى والتدبير منهم ، وهو حين يكون يجر الأمة إلى متلفة قاصمة ، ثم يجرها إلى فَوضى قائمة ، ثم يجرها إلى بلبلة لا تُفيق منها إلا على البوار والخسران .

كاد هذا اليأس القاتل يدبّ فى نفوس الشعب ، فما من شك فى أنه نحرك للثورة غيرَ بعيد من رأى أولى الرأى ، وما من شك فى أنه تحرك للثورة ورأى أولى الرأى فى قلبه وعلى لسانه .

وإذا هذا الشعب – بعد أن حقق ما أراد .. على غير ما أراد – فلقد أراد إخراج عثمان من الخلافة ، ولم يرد إخراجه من الدنيا على هذه الصورة المَرذولة – إذا هذا الشعب يلتمس أولى الرأى ليحققوا له الأمن والطمأنينة ، بعد ما حَقق هو لهم الانتصاف ممن رُمى بالجور فى التدبير .

فإذا أولو الرأى عن الرأى صادفون : يجدون طلحة فى بُستان له ، ويجدون سعداً والزبير قد خرجا من المدينة ، ويجدون بنى أمية قد هربوا إلى مكة وإلى غير مكة ، وإذ أتوا عليًا باعدهم .

ولقد يئس الشعب من عثمان فثار به ، وها هو ذا ييأس من أولى الرأى فتمتلىء نفسه ثورة عليهم ، ولقد بدأ يُبرق ويُرعد ، وهو إذا أبرق وأرعد فقد أنذر ، وإذا أنذر .. فقد أوشك أن يثور .

أحسسنا منه هذا الإبراق وهذا الإرعاد . وأحسسنا معهما الإنذار ، وأحسسنا مع هذا الإنذار التحفز ، حين التف بأهل المدينة يقول لهم : « يا أهل المدينة ، أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وحكمكم جائز على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تَبع ، وقد أجّلناكم يومكم ، فو الله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرين » .

تلك زفرة اليأس التى زَفرها هذا الشعب .. حارّة تنبىء بحقد متأجج انطوت عليه الجوانح ، لو طال به الأمد لا نفجر عن شر مستطير .

وهال أهلَ المدينة ما صدر على لسان أهل الأمصار ، وقدروه قدره ، فتزاحموا على « على » يناشدونه الله أن يقبل .

ولربما كانت تروق علياً يوم أن كانت خلافة أُولى بعد أكرم راحل – أعنى رسول الله ﷺ – ولقد كانت النفوس أصبى ما تكون لهذا الشرف العظيم الذى يناله من يخلف رسول الله على عباد الله ، أما وقد نُحى عنها علىّ بأبى بكر أولا ، ثم بعمر ثانيا ، ثم بعثمان ثالثا ، فما هو بالمُزاحمْ

عليها . فلقد أطفأ فى نفسه جذوة المزاحمة .. ذهابُ هؤلاء الأنداد الذين كان يحلو لعلى أن يجىء فى أولهم ، أما وقد ذهب أنداده فقد خَبت فى نفسه تلك الجذوة ، وعاد يرى الأمر تفضُّلا منه إن قبل ، وأداء حق فى عُنقه للمسلمين إن أجاب .

وشىء آخر لم يغب عن فطنة « على » ، فهو لم يَغب عليه أن الذى تَلده الفتنة .. ففى حجر الفتنة يعيش ، وبلبانها يطعم ، وبين ساعديها يَشُبّ ، لا تتركه الفتنة حتى يترك ما وصله بها ، وقد لا تتركه هى وإن حاول هو أن يتركها .

لهذا قال لهم علىّ : « دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمراً له وُجوه وله ألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبُت عليه العقول » .

ولكن عليًّا يرى لنفسه ، وهم يرون للأمة ، وهو حين يرى لنفسه بين يدى واجب خاص ، وهم حين يرون للأمة بين يدى واجب عام ، وليست نفس « على » من تلك النفوس التى تُشغل بالواجب الخاص عن الواجب العام ، وما نظن عليا قال ما قال ليرد الناس عنه ، وليخلو هو إلى أمن الوادعين الذين يعبرُون الحياة عن عُرض ، ولا يدخلونها مسئولين فيها ، وإنما الظن أن عليا قال هذا ليُبّصر الناس بما هم قادمون عليه ، وليحذّرهم الفتنة عليه ، وليجمعهم معه على إخماد ما قد يثور .

لهذا ما كاد الناس يعقدون عليه الرجاء ويخوّفونه ما خافه هو على المسلمين ، حتى أجابهم وهو يقول : قد أجبتكم ، وأعلموا أنى إذ أجبتكم ركبت بكم ما أعلم » .

ولكن الذى أراده الناس أن يمر هينا سهلا مَرَّ عسيرا صعبا .

فلقد كان هينا سهلا أن تمحو ولاية علىّ آثار تلك الفتنة التى أودت بعثمان ، ولقد كان هينا سهلا ؛ أن يأخذ علىّ بيد المسلمين إلى الطريق

السوىّ ويردّهم إلى أمن وطمأنينة، ولقد كان هينا سهلا أن يلتئم شمل المسلمين بعد افتراق ، لو أنهم اجتمعوا كلهم على خلافة « على » ولم يخرج عليه خارج منهم .

ولكن الذى أزعج عثمان أزعج عليًّا : ولقد استقبل عثمان صدراً من خلافه ما يريد منه .

فلقد أوصاه بتقوى الله ، وكان ذلك أول ما أوصاه به لا عن شك فى « مسلم » ، ولكن خوفاً عليه من دنيا قد ازدحمت بالفتن ، منها المُغرى الممعن فى الإغراء الذى لا يقوى على كبح نفسه دونه إلا من عَصم الله بتقواه ، ومنها المرهب الموغل فى إرهابه الذى لا يصمد له ولا يقوى عليه ؛ إلا مَن خشى الله وحده ولم يخش سواه ، و« مسلم بن عقيل » رسول « الحسين » الأول ، وقد يكون الأخير - فليست الفتنة ممهلة « الحسين » ليغيِّر من يختار ، فهو إن مال أو نكص انقلبت الفتنة عليه ولم تُستَو له .

ولقد أوصاه بكتمان أمره ، وأن يلطُف بالناس ولا يعنف بهم ، فإن رآهم مجتمعين له عَجِل إليه ليخبره .

☆ ☆ ☆

ولقد اختار « الحسين » لرسالته ثقة من أهل بيته ، ولكنه لم يختر منهم جلداً يؤمن بها إيمانه ، ولا يهوله فيها ما يركب ، فما كاد «مسلم» يودع أهله ويودّعونه ، وينفصل عن المدينة حتى يضلّ الطريق ، وينفد ما معه من ماء فيموت دليلاه عطشاً ، ثم تستقيم له الطريق إلى الماء ، فيبلغه بعد جهد وليس فيه إلا زماء ، ويرى نفسه حين بلغ الماء قد نزل مكاناً يدعى « المضيق » ، فيتطّير ويهلع ، ويكتب إلى « الحسين » بعد أن يصف له مكان :

« إن رأيت أعفيتنى وبعثت غيرى » .

وما فزّع اسم المكان « مسلم بن عقيل » ، ولافزّعه هذا التطير ، ولكن كان - كما قلنا - غير مؤمن برسالته إيمان أخيه بها ، فما إن وقع على سبب مما يَجزع الناس له جزعا خفيفا ، حتى جزع هو له جزعا شديدا ، ونظر إلى حياته وإلى ذلك المطلب الذى خرج له ، فرأى حياته أعزّ عليه من ذلك المطلب ، وهو إن رجع فقد ضمن الحياة ، وإن مضى فما هو بضامن نُجْح ذلك المطلب .

ولعل شيئا آخر كان يشغل نفس « مسلم بن عقيل » ، قد يكون وضح له فهو يَستملى منه وهو يشعر ، وقد يكون خاطراً يُصدر هو عنه وهو لا يشعر ، وقد يكون هذا الشيء الذى انطوت عليه نفس «مسلم » بين الخفاء والظهور ، هو أن « مسلما » ساع لغيره لا لنفسه ، سيصيب الخيرُ بيته ، إن قدر لهذا الخير أن يجىء ، ولكن أين ترتيبه من هذا ، وما هو موضعه من هذا الخير .

إن صح هذا .. أوّلنا ما كان من « مسلم بن عقيل » من انثناء وإيثار للرجوع . فلم يكن التطّير وحده علة هذا ، وإنما كان قبل التطير هذا الخاطر الذى تحرك فى نفسه عن قصد أو عن غير قصد ، وما نحب أن نظن بمسلم الجُبن ، وإن كان قد ظنه به أخوه « الحسين » حين قال له وهو يرد عليه : أما بعد ، فقد خشيت ألا يكون حملك على الكتابة إلىّ إلا الجبن ، فامض لوجهك .

☆ ☆ ☆

ولقد دلنا « مسلم بن عقيل » بالذى فعل كيف ستمضى المعركة ، وهو حامل لوائها ، فما نَشُك فى أنه مضى إليها مأمورا غير مريد ، مقهورا غير مُختار . هنا لن تنفعه تقوى الله التى أوصاه بها أخوه وهو يُرسله ، فلقد ملكه الخوف ، يذكيه فى نفسه أنه قد تطيّر ، ويُذكيه فى نفسه أن الغنم لغيره ، وهو فيه مأجور له حظ قليل .

ولن يكون رفيقا بالناس كما أوصاه أخوه ، فلقد برم بما يحمل وضَجر ، والرفق بالناس لا يصدر إلا عن قلب قد امتلأ رضا وطمأنينة ، كما لن يكون كَتوما كما أوصاه أخوه ، فهو فى حَيرة من أمره ، والكتمان شىء لا يقوى عليهِ إلا منِ ملكَ زمام نفسه ، ولم تبلبل عليه الحَيرة خاطره .

وما يكاد « مسلم » تطأ قدماه الكوفة حتى يمضى يؤدّى رسالته على الوجه الذى فرضه عليه هذا التطّير ، وهذا الخاطر ، وهذا البرم ، وهذا الضجر ، وهذه الحيرة ، ويلتف به الناس علانية ، ويقرأ عليهم كتاب « الحسين » جَهرة » فإذا هو قد عَلم مكانه ، وإذا والى الكوفة « النعمان بن بشير » قد نذر به .

☆ ☆ ☆

ويفزع « النعمان بن بشير » إلى المنبر يخطب الناس وقد اجتمعوا إليه ، وكان حليماً ناسكاً يحب العافية ، وهو على ذلك كان لا يحب أن يُغلب على أمره ، فأخذ يحذّر الناس الفتنة أولا ، يملى عليه فى ذلك قلبه ؛ ثم أخذ ينذر الناس بطشه ثانيا ، يملى عليه فى ذلك حرصه عَلى ألا يُغلب .

ولكنّ رجلاً من أحلاف بنى أمية هو « عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرمى ، وكان حاضِر ذلك - لا يقنع بما كان من « النعمان بن بشيثر » فيقول له : إنه لا يصلح ما ترى إلا الغَشم ، وإن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين .

وكذلك كان بنو أمية ، وكان أحلاف بنى أمية ، يخافون صِغار الأمور ، كما يخشّوْن كبارها ، ولا يرحْمون خصمهم على الصغيرة كما لا يَرحمونه على الكبيرة ، ويرون أن استئصال الداء حين يبدو ، خيرٌ من الرفق به علاجاً حتى لا يستعصى .

لهذا شمّر « عبدالله بن مُسلم » يكتب إلى « يزيد » يخبره بمقدم « مسلم بن عقيل » الكوفةَ ومُبايعة الناس له ، ويقول له فى حزم : إن كان لك فى الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويا ينفذ أمرك ، ويعمل مثل عملك فى عدوك ؛ فإن « النعمان » رجل ضعيف ، أو هو يتضعَّف .

ويعلق معاوية قميص عثمان وفيه الأصابع يثير بذلك أهل الشام ، وإذا فتر أهل الشام وكادوا أن ينسوا انبرى عمرو بن العاص لمعاوية يقول له : حرك لها حوارها تحنّ . فيعود معاوية يعلق القميص والأصابع .

وهكذا أفسد أولو الرأى على الشعب مرة ثانية أمره ، ولم يجنحوا به إلى السلم والطمأنينة .

ولن يعدم أولو الرأى أن يجدوا مع الفتنة الثانية ما وجدوه مع الفتنة الأولى ، وليس بعزيز عليك أن تتلمس السقطات ، وليس بعزيز عليك أن تهيىء للسقطات بحجة إن كنت من أصحاب الحجج ، وليس بعزيز عليك أن تخدع من ورائك شعبا تملك عاطفته قلبه فى الكثير ، وقلما يملك قلبُه عاطفته .

ولكن العزيز عليك أن تغمض عينيك عن القليل من الشائعات لتحمى الكثير من الصالحات ، وأن تؤمن بخير الناس إذا غلب شرّهم ليؤمن بإيمانك آخرون ، وألا تخدع شعبا فتحمله على شىء وأنت تعرف أن الخير فى غيره .

لقد قست الفتنة على عثمان ؛ ما فى ذلك شك ، ولقد قيل فى « على » وغير « على » من الصحابة كلام قد نال منهم ؛ ما فى ذلك شك .

ولكنها كانت فتنة يراد منها فى جوهرها تحقيق العدل والنصفة ، لم يرد الثائرون قتل عثمان ، وإنما أرادوا إبعاده . وعلى الرغم من الثائرين لهذا المعنى من الثورة جاء قتل عثمان .

وكم تسوق الأقدار ما ليس فى التقدير والحسبان ، وكم يكون الناس عونا للأقدار عليهم إن هم لم ينسوا ما جاء عن غير قصد ، مهما يبلغ شره وضره ، وإن هم لم يعلموا أن الفتنة لن يدرك أمنها إلا بإماتتها ، فإنها كالنار كلما سعرت ازدادت .

هذا و « على » لم يَكن خليفة لا يُرضىَ . ولقد سعى الناس ليَليهم خليفة يرضى .

ولو أريد الخير بالمسلمين ، وأريد لهم ألا يذوقوا بفتنة عثمان فتنا متصلة ، لنظروا إلى ما كان نظرة مجردة عن غرض أولا ، ثم نظرة المؤمن إلى قضاء الله لا يصله بما يزيده شرا وضرا ، ولنظروا إلى « علىّ » على أنه من خيرهم فأعانوه .

ولكن الأمر كان كما رآه « علىّ » فتنةٌ تتمخض عن فتنة ، وكان عليماً بنفوس من حوله من سَراتهم ، وما أصدقه حين يقول :

ولـو أن قـومى طـاوعتنى سَراتهم   أمرتهم أمراً يُـديـخ الأعـاديَـا

— ٤ —

وكما تحرك الشعب على عثمان بسبب ، تحرك الشعب على « علىّ » بسبب ، وقد وجد مثيرو الخلاف مع عثمان سببا ، ولم يعدموا أن يجدوا مع علىّ سببا ، وكانت الفتنة هنا كما كانت هناك لها ظاهر وباطن :

أما ظاهرها فكان ما عليه الشعب البرىء ، يصبه فى روعه المهيئون للفتنة ، وما عليهم إلا أن يزخرفوا له القول ، وهو المخدوع بزُخرف القول ؛ إذ هو أسرع إلى وجْدانه وأبى على عقله ، وما عليهم إلا أن يَعِدوا ويُسرفوا فى الوعد والأمانى ، وما من أمة خلت ولا أمة ستجىء إلا وفيها هؤلاء الذين يعيشون لأمانيهم ، سعدت الأمة أو شقيت .

وهكذا ثار الشعب على « عليّ » يتهمه بالتفريط فى عقاب قتلة عثمان ، ويكاد يتهمه على هذا التفريط تهمة المشارك المحرِّض .

وإنها لكبيرة على نفس الشعب الذى يعرف عليّا حق معرفته أن يعرفه علَى هذه الصورة المزيَّفة .

وإنها لكبيرة على نفس الشعب أن يؤمن بها ولا يهُب للضربْ على يد فاعلها .

تلك كانتِ الثورة الظاهرة على عليّ . حُرِك لها الشعب كما حُرِك للفتنة على عثمان .

☆ ☆ ☆

ولكن الثورة الباطنة كانت ثورة البيت المغلوب ؛ بيت بنى أمية ، على البيت الغالب ؛ بيت بنى هاشم .

تُعينها ثورة أخرى باطنة .. كانت ثورة نَفَر من الناقمين على عليّ ، وما كان « عليّ » بمستطيع أن يُطهر نفوس الناس كافة من حقد عليه .

وما أحب أن أذكر لعائشة قولَها لمن أنهى إليها مقتل عثمان واجتماع الناس على بيعة عليّ : ليت هذه انطبقت على هذه إنِ تم أمر لصاحبك ، رُدّونى . ردونى ، وانصرفت إلى مكة وهى تقول : قُتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدَمه .

وما أُحب أن أذكر قدوم طلحة والزبير إليها ، فتقول لهما : ما وراءكما ؟ فيقولان إنّا تحملنا هربا من المدينة من غوغاء ، وفارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ، ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم .

ما أحب أن أذكر هذا أو ذاك ولكن أحب أن أذكر لك أنه حين خرجت عائشة ومن معها من مكة .. جاء مروان بن الحكم حتى وقف على طلحة والزبير فقال : على أيكما أسلِّم بالإ مرة وأؤذن بالصلاة ؟...

فيقول عبدالله بن الزبير : على أبى عبدالله – يعنى أباه « الزبير » ويقول محمد بن طلحة : على أبى محمد – يعنى أباه : طلحة .

أذكر لك هذا لأصلك بهذا السبب الباطن للثورة الذى حدثتك عنه ، وأن هذا السبب الباطن كان يثير السبب الظاهر الذى تحرك له الشعب المقاتل مخدوعًا .

☆ ☆ ☆

ويلتقى « على » وجيشه بعائشة وجيشها ، فإذا بينهما وقعة الجمل .

وما أمرَّها على النفس أن تخوض فيها ، وما أشقهًا على اللسان أن يتحرك بها ، ثم ما أعصى القلم أن يمضى فى سردها .

وحسبك أن تعرف أنها تركت من الفريقين جرحى لا يُحصون ، وقتلى يعدّون بالمئات ... قُتل فيها طلحة ، وقتل فيها الزبير ، وكادت أم المؤمنين عائشة أن يُصيبها مكروهْ .

ومرت هذه الفتنة الأولى الباطنة لتهيىء لفتنة ثانية باطنة أشد من هذه عمقا وأبعد منها غورا ، وهى الفتنة التى مهَّد لها معاوية فى الشام . كلما اطمأنوا حرك حُوارهم بقميص عثمان وأصابع نائلة .

وعفا الله عن عمرو بن العاص ؛ فبمثله رزقت هذه الفتنة من يؤرِّث لها ويذكيها ، فلقد كان يكره عليّا حقا

يحكون عنه أنه لما بلغه قتل عثمان سمعوه يقول : إن يَل هذا الأمر طلحة فهو فى العرب ، وإن يله ابن أبى طالب فهو أكره من يليه إلىّ .

وما نلوم عمراً فى كراهيته لعلى ، فالقلوب تحب وتكره ، وما نكلفها فوق طاقتها ، ولكنّا نلومه حين يكره العمل الصالح لأنه يكره صاحبه ، ويرد عن الحق صاحبَه لأنه له كاره .



وما إن تتحق الولاية لعلى حتى يحقد عليه ويتربص به الدوائر ، ويأتيه نبأ وقعة الجمل وما كان من نصر لعلى فيها فيضطرب عليه أمره ، وينظر يمنة ويسرة عمّن هو عدو لعليّ مثله ، فيسمع أن معاوية بالشام لايبايع لعلى ، وأنه يمسى ويصبح على الثأر منه .

فيدعو عمرو إليه ابنيه : عبدالله ومحمدا ، يستشيرهما ، ويقول : ما تريان ؟ .. أما « على » فلا خير عنده ، وهو غير مُشركى فى شىء من أمره ؟

فيقول له ابنه عبدالله – وكان يرى للناس لا لأبيه – تُوفى النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون ، فأرى أن تكُف يدك وتجلس فى بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه .

ويقول له ابنه محمد – وكان غير أخيه ، يرى لأبيه قبل أن يرى للناس – : أنت نابٌ من أنياب العرب ، ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه .

ويعرف عمرو فى قول أبنيه : ما هو خير له فى دينه ، ثم ما هو خير له فى دنياه ، فيؤثر ما لدنياه على ما لدينه ، ويقول لابنيه : أما أنت يا عبدالله فأمرتنى بما هو خير لى فى آخرتى وأسلم فى دينى ، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى وشرّ لى فى آخرتى .

يؤمن بهذا وذاك عمرو ، ولكن حب الدنيا يغلبه على الآخرة ، وحُب الخير لنفسه يغلبه على حب الخير للناس ، وإذا هو خارج إلى معاوية فقادمٌ عليه ، وإذا الناس من حول معاوية يحضُّونه على الثأر لعثمان ، فيُقحم عمرو نفسه بينهم ويرفع صوته ليُسمِع معاوية : أنتم على الحق ، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم .

ومعاوية لا يلتفت إليه ، ويلتفت له ابنه محمد – الذى أغرته الدنيا

كما أغرت أباه - فيقول : ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك . انصرف الى غيره .

ولو وجد عمرو غير معاوية .. ما ترك قول ابنه وما حاد عنه . ولكن عمراً عربى يعرف الخصومة الأولى بين بنى أمية وبنى هاشم ، ويعرف أن رجل هذه الخصومة اليوم هو معاوية ، ويعرف أنه إن أخفق فى إثارة معاوية على علىّ فلن يفلح فى إثارة غيره ، ويعرف أن معاوية غير راجع وإن بدا عنه منصرفا .

ويدخل عمرو على معاوية فيقول : أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن فى النفس ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ، ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا .

أرأيت معى كيف أسرَّ الثائرون بعلى من أولى الرأى أمرا وأعلنوا للناس غيره ، وكما بغاها معاوية لدنياه بغاها من التف حوله لدنياهم ، يضمهم إلى معاوية إما الكراهية لعلى ، وإما جاه الدنيا الذى أغراهم به معاوية ؟!.

ومن وراء هؤلاء شعب ضلّ عنه الحق ودخل عليه الباطل . وَحسْب هذا الشعب أن يجد كلما مر بالمنبر قميصاً مخضووبا بدم عثمان ، وأصابع زوجته نائلة : إصبعين منها ، وشيئا من الكفّ ، وإصبعين مقطوعتين من أصليهما ، ونصف الإبهام ، والأجناد من حول هذا وذاك يبكون .

عندها لا تستكثر على رجال من أهل الشام أن يُقسموا ألا يمس الماء جسومهم ، وألاّ يناموا على فراش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، ومن قام دونهم قتلوه .

☆ ☆ ☆

تلك هى حقيقة تلك الثورة ، يؤمن فيها القادة برأى ، ويؤمن فيها

الشعب برأى ، وعلىٌّ تجاه هؤلاء وهؤلاء ، يدفع الدافعين للثورة بحجة ، ويدفع المدفوعين للثورة بحجة .

ولكن الدافعين كانوا ذوى أطماع دنيويه تُصم وتُعمى ، وكان المدفوعين إلى الثورة ذوى وجدان ، قد ثاروا ثورة لا تردها إلا ثورة مثلها ، وكما هاج لمعاوية ناس هاج لعلىّ ناس ، وكانت حرب أصاب السادة منها بأسٌ قليل ، وأصاب الشعب منها بأس كبير. واستعصى التوفيق على الموفّقين ، وَعيَّ الناسُ بأمرهم وضاقوا به ذَرْعا .

فإذا ثلاثة من الخوارج هم : عبد الرحمن بن مُلْجَم المرادى ، والبرك بن عبدالله التميمى الصريمى ، وعمر بن بكر التميمى السعدى ، يبيّتون الرأى على قتل على معاوية وعمرو، فينجو معاوية ، وينجو عمرو، ويذهب علىّ مقتولاً بيد ابن مُلْجم .

— ٥ —

وهكذا يقضى علىّ بين يدى فتن ثلاث :

فتنة قديمة تمتد أصولها إلى الجاهلية الأولى حملها البيتان الأموى والهاشمى متنافَسين فيها على الجاه والسلطان .

وفتنة حملها أنداد لعلىّ منافسون له أو ناقمون عليه .

وفتنة حملها فريق من الشعب ليرد ظُلما ويُقيم عدلا .

وفرق بين موقف هذا الشعب فى هذه الفتنة وبين موقفه فى الفتنة علىٍ عثمان ، فقد كانت ثورته على عثمان باسم الحق العام الذى للشعب على الخليفة ، كانت ثورة مجردة عن غرض ذاتى ، همّها الخلاص من عثمان ، وما كان همها الدعوةَ لغيره ، وهى لهذا ما كادت تبلغ هدفها حتى ارتدت تفكر فيمن يلى ليرد الأمور أمنا وسلاما كما كانت .

ولكن ثورة الشعب على عليّ كانت أضيق غرضا ، وكانت ذات لون طائفى ، وانقسم الناس فيها يمنة ويسرة لا تعلُّقا بالآراء ؛ ولكن تعلقا بالأشخاص ، وإذا هم عثمانيون وعلويون ، أو قل أمويون وهاشميون .

وهكذا اتسع ما بين الأمويين والهاشميين من خلاف حتى انتظم الناس معهم ، فلقد عاش الأمويون والهاشميون والخلاف بينهم لا يعدوهم إلى غيرهم ، يحقد الأموى على الهاشمى ، ويحتاط الهاشمى من الأموى ، والناس من حولهم لا يشاركون فى شىء من ذلك . ثم إذا هم قد لفُّوا الشعب كله فى حبالهم ، لا يُرضيهم أن تعيش الفتنة قاصرة عليهم ؛ بل أرادوها عامة تعم الجميع .

وفرق بين حياتين : حياة جاهلية يعيش الناس فيها قبائل .. لكل قبيلة نظامها ، وحياة متحضرة تجمع ما بين الناس جميعا على نظام واحد ، كادت القبائل تذوب فيه بكل ما لها ، اللّهم إلا أواصر قربى ووشائج نسب .

من أجل هذا لم يستطع الأمويون والهاشميون أن يدخلوا هذه الحرب الجديدة إلا إذا جمعوا هذا الشعب إليهم ، فكسب هؤلاء فريقا ، وكسب هؤلاء فريقا ، وباتت وحدة الشعب التى عقد الإسلام عقدتها فُرقة قاسية يهيىء لها ميادينها الأمويون والهاشميون ، ويحرّض الناسَ عليها المُغرضون والمنتفعون ، والمبغضون والحاسدون ، ويصلى نارها الشعب المغبون

وكما أثار قتلُ عثمان الأمويين يجعلون منه سببهم للانتصاف من الهاشميين ؛ أثار الهاشميين قتلُ « على » يجعلون منه سببهم للثأر من الأمويين .

ولكن عثمان قُتل وكان وراءه داهية استطاع أن يجمع إليه الناس بالحيلة والدهاء ، وقُتل علىّ فلم يَخلفه على بنى هاشم من هو مثل معاوية دهاء وسعة حيلة .

وعاش معاوية ومضى علىّ ، فخلا لمعاوية الميدان ، لهذا قامت للأمويين دولة واختفى بنو هاشم يتجرعونها غصصا إلى حين .

— ٦ —

وكان أنصار معاوية بالشام تجمع بينهم الطاعة ، وشيعة على بالكوفة يفرق بينهم الرأى ، لذلك كان معاوية قوياً بمن معه ، وعلىّ ضعيفا بمن انضم إليه . ولقد كان الحسن بن على قادراً أن يقف بمن معه من جُند أبيه — وقد بلغوا أربعين ألفا — فى وجه معاوية ، وقد يُكتب له النصر ، ولكنه ما إن تحرّك للقاء معاوية بهذا الجيش الكثيف — وعلى مقدمته قيس ابن سعد وبلغ المدائن ، ونادى مناد فى العسكر بأن قيس بن سعد قد قتل ، حتى تفرق العسكر شذر مذر ، لايفرّون فرار الجسان فحسب . ولكنهم قبل أن يفرّوا .. يزيدون إلى نُكر الفرار نكرا أشد وأدهى ، فيعرّجون على سرادق « الحسن » لينهبوه ويجرّدوه مما فيه ، وكأنهم قد عز عليهم أن يتركوا له بساطا تحته ، فنازعوه إياه .

☆ ☆ ☆

فلا لوم على الحسن بعد هذه أن يكتب لمعاوية فى الصلح ، ولا لوم على الحسن بعد هذه أن يقضى برأيه ويعدل عن رأى أخيه الحسين ، وكان الحسين ناشده الله ألا يثق بقول معاوية .

وكما كان أهل الكوفة مع أبيه خلافاً وعناداً .. كانوا معه خلافا وعنادا وقلة رغبة فى القتال ، فهم الذين ترددوا أولا فى بيعته حين شرط عليهم أن يُسالموا من سالم ، ويحاربوا من حارب يقولون : ما هذا لنا بصاحب ؟ وما يريد إلا القتال .

وهم الذين حين صالح الحسن معاوية ، وكتب إلى قيس بن سعد يأمره بالدخول فى طاعة معاوية ، وقام قيس يقول لهم : أيها الناس أتختارون

الدخول فى طاعة إمام ضلالة ،أو القتال مع غير إمام ؟ قالوا : بل نختار الدخول فى طاعة إمام ضلالة ، وبايعوا معاوية .

وما أصدق الحسنَ حين قيل له : ما حَملك على مافعلت ؟... قال : رأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبدا إلا غُلب ، ليس أحد منهم يوافق آخر فى رأى ولا هوى ، مُختلفين لانيّة لهم فى خير ولاشر .

☆ ☆ ☆

وهكذا خرج الحسن من الخلافة بعد أن أحسّ أنه لا جند معه ، واستقر معاوية فى الخلافة بعد أن أحسّ أنه عزيز بجنده ، يأمر فيأتمرون ، ويدعو فيُطيعون ، ومضى يُثبّت لمُلكه ، يُقرّب إليه من يَنْصُرُ ويُعين ، ويُنكِّل بكل من تسوّل له نفسُه الخروجَ عليه أو النَّيل من سلطانه ، لا يَعْبَأ بأى رأس يُطيح به لمن يكون .

– ٧ –

وكما كان قَتْل « علىّ » ترجيحاً لكفة معاوية وإخلاء للميدان أمامه من مُنافس قوىّ ، كذلك كان موت « معاوية » ترجيحاً لكفة « الحسين » وإخلاء للميدان أمامه من مُنافسٍ قوى ، لو أنه رزق عُدة من جُند صادقين مخلصين مُطيعين .

فما أعطى بنو هاشم إلا عن يدٍ وهم صاغرون ، أعطى « الحسنُ » « معاوية » فى الخلافة حقَّه ، لأنه وجد نفسه لا يناصره عليها إلا أهلُه بالرأى والدَّعوات ، وقد أُفلت جنده منه وكادوا يَنْقضون عليه .

وسكت الهاشيمون بعد نزول « الحسن » عما نزل عنه لأنهم رأوا أنفسهم مغلوبين ، ورأوا بنى أمية غالبين ، ومات « معاوية » فأصبح الحسين – وهو ابن « على » – ندا ، أو أبعد من نِد ، لـ « يزيد » ، وهو ابن « معاوية » .

وما نزل « الحسين » عن حقه ، ولكن نزل « الحسن » ، وهو قد ترك دُنيا الناس للناس منذ عشرة أعوام ، فأنفتح الباب أمام « الحسين » ليُطالب بما شاء دون أن يقف فى سبيله أخوه « الحسن » بنزوله عن حقه .

أحس ذلك بنو أمية وعلى رأسهم يزيد بن معاوية ، وأحس ذلك بنو هاشم ، وعلى رأسهم « الحسين » بشيعته . فأما « يزيد » فقد أرسل لعامله على المدينة « الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان » يأمره أن يأخذ « الحسين » بالبيعة أخذاً ليس فيه رُخصة حتى يبايع .

ويدعو « الوليد » « الحسين » إليه يطلب منه أن يبايع ، ويفطن « الحسين » إلى ما يراد عليه من أخذه على غرة ، فيقول للوليد : مثلى لا يبُايع سرًّا ولا يُجتزأ بها منى سرًّا ، فإذا خرجتَ إلى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا .

يريد « الحسين » بذلك أن يُمهل نفسه .. فلا يُسرع فيُعطى ما يندم عليه بعدُ ، ويريد أن يُمهل نفسه .. فلا يُسرع فيرفض ما قد يجُر عليه شرًّا ، لأنه لم يكن قد خَبر بعدُ ما عند أصحابه وعزمهم على نصره واستعدادهم لخوض المعركة معه .

وقد فطن مروان بن الحكم - وكان حاضرها - إلى ما فى إجابة الحسين من تدبير ، وما وراءها من أهبة ، فنظر إلى « الوليد بن عتبة » يقول : لئن فارقك الساعة ولم يبايع .. لا قدرت ثانية على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فإن بايع وإلا ضربت عنقه .

مُلك - ومروان أحد المنتفعين به - يملى عليه ، لا يبالى فى سبيله أية خطة يركب ، ولا أى ظلم يقترف ، ولا أى عدوان يأتى ، لا تدفعه عن ذلك رحمة عباد الله ، ولا التفاته إلى ما رسم الإسلام من حماية الأنفس والحقوق .

ولئن كان « مروان » تغلبه دنياه على دينه ، فلقد كان الوليد بن عتبة » يغلبه دينه على دنياه ؛ ولقد كان كلاهما أمويا .

ولكن « مروان » كان أمويا قد أنسته أمويته كلَّ شيء ؛ حتى دينَه ، وكان « الوليد » أمويا ذكر إلى جانب أمويته دينه ؛ لذا كان « مروان » يملى عن أمويته فحسب ، وكان « الوليد » يملى عن أمويته ودينه معا ، وكان « مروان » لايخاف أخراه بقدر ما يخاف دنياه ، فلا عليه إن مضى من دنياه بحظه موفورا كما يحب ، وليكن فى الآخرة ما يكون .

ولكن « الوليد بن عتبة » يخاف أخراه أكثر مما يخاف دنياه ، فليمض من دنياه بأقلّ حَظ ليلقى آخرته بأكثر حظ ؛ لهذا اتجه إلى « مروان » . بعد مخرج « الحسين » عنهما غاضبا - وهو يقول له : « ويح غيرك يا مروان ، والله ما أحب أنَّ لى ما طلعت عليه الشمس وغَربت عنه من مالِ الدنيا وملكها وأنى قتلتُ « الحسين » أن قال : لا أبايع ، والله إنى لأظن أن امرأ يحاسب بدم « الحسين » لخفيف الميزان عندالله يوم القيامة » .

ويستخزى « مروان » لكلام « الوليد » ، فما كان يظنه - وهو أموى مثله - يبدهه بهذا القول المحرج . والمبطلون أسرع الناس انكسارا بين يدى الأقوياء بالحق ، وأسرع الناس نكوصا حين تلزمهم الحجة ، إذ الباطل ضعيف وإن بدا به أهله أقوياء ، فإن وجدوا من الناس انصياعا لهم واستسلاما أمعنوا يزيدون ، وإن وجدوا الناس على غير الانصياع والاستسلام ارتدوا أضعف ما يكونون ، قد تؤمن منهم الألسنة والقلوب ، وعندها لا يَرتدُّون ، وقد تؤمن منهم الألسنة دون القلوب ، وهم المخادعون . وكذلك كان « مروان » ؛ آمن بما قال « الوليد » لسانا لا قلبا ، وكان من المخادعين ، فالتفَتَ إلى « ابن عتبة » يقول له : إن كان هذا رأيك فقد أصبت ! يقول له هذا وهو غير حامد له على رأيه .

وخرج « الحسين من المدينة يتبعه بنوه وإخوته وبنو أخيه ، لم يتخلّف منهم إلا أخوه « محمد بن الحنفية » . ولقد كان « محمد » يرى الحق لأخيه ، ويرى الخوف على أخيه ، وهو لهذا أحب له أن يسعى ، وأحب له أن يحتاط وهو يسعى ؛ لم يصرفه عن هذا الحق لأنه كان يؤمن به معه ؛ بل شجعه عليه ؛ ولكنه كان أخبرَ بأهواء الناس ، دلَّوه عليها بموقفهم من أبيه « على » ، ودلَّوه عليها بموقفهم من أخيه « الحسن » . فجمع لأخيه بين تشجيعه له وخوفه عليه فى هذا الكلام الذى نحرص أن نسوقه لك ، فاستمع إليه يقول لأخيه « الحسين » : ياأخى .. « أنت أحب الناس إلىَّ وأعزهم علىّ ، ولست أدخر نصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك . ابعث رسلك إلى الناس وادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك .. كان ماتحب ، وإن أجمع الناس على غيرك .. لم ينقص الله بذلك دينك ولاعقلك . إنى أخاف أن تأتى نفرا أو جماعة من الناس فيختلفوا عليك ، منهم طائفة معك وأخرى عليك ، فيقتتلون ، فتكون لأول الأسنَّة ، فإذا خير هذه الأمة كلها -نفساً وأبا وأما - أضيعُها دماً وأذلُّها أهلا » .

أرأيت إلى « محمد » كيف دفع إلى الحق ومَنع منه ، يدفع إليه دَفْع المؤمن به ، ويمنع منه منع المشفق الخائف على أخيه .

ولكن « الحسين » كان قد اعتزم أمراً لايريد الرجوع عنه ، يغلب إيمانه به خوفه من عواقبه .

ومانعيب على « الحسين » خروجه على « يزيد » يبغى حقا يراد له ، ومانعيب على « يزيد » تمسكه بحق سيق إليه ؛ ولكنا نعيب على هذا الشعب الذى اختلفت كلمته فلم يعرف كيف يجمعها ، ووقف حائرا يفرق هواه بين « الحسين » و « يزيد » ، ولقد ذاق جزاء حيرته تلك شرا كبيراً ،

ماكان أغناه عنه لو اجتمعت له كلمته ؛ وأذاق « الحسين شرا كبيرا ، ماكان أنجاه منه لو كانت له كلمته ، ومانظن « يزيد » إلاَّ ذاق هو الآخر همًّا متصلا ونصبا .

ولكن هذا الشعب لم يعرف هذه الكلمة الموحدة التى له فيحرص عليها ، فلقد تعلمها فى اختيار « أبى بكر » ثم كان قريبا منها فى اختيار « عمر » ، ثم تمثلها مطبّقة فى أضيق حدودها فى اختيار « عثمان » ، ثم همّ أن يردّها إليه كاملة فى ثورته علي « عثمان ، ثم أملاها مرتجلة فى اختيار « على » ثم ردته عنها الفتنة بين « على » و « معاوية » ردًّا عنيفا ، فإذا هو لايعرف كلمته التى له ، وتفرق لايدرى أيجتمع حول « الحسين » لنسبه وفضله وقدره ، أم يجتمع حول « يزيد » لماله وجاهه وإغرائه وقهره؟!

ولو قدر لهذا الشعب أن يوجد الوجود القوى الموحد الذى أراده له الإسلام ، لأملى فى تلك الخصومات بالرأى الحاسم ، ولقطع دابر تلك الفتن . ولأراح نفسه من عناء كثير .

☆ ☆ ☆

وخرج « الحسين » من المدينة يقصد مكة ، فيلقاه عبد الله بن مطيع ، فيقول له : جُعلت فداك .. أين تريد ؟

فيقول الحسين : « أمّا الآن فمكة ، وأما بعدُ فإنى أستخير الله » .

وكأنى بالحسين لم يكن قد دبّر للأمر قبل خروجه عن المدينة ، وإنما هو قد أجاب « الوليد بن عتبة » بما أجاب ، وسمع من « مروان بن الحكم » ماسمع ، فأوجس فى نفسه شرا ، وقد انطوت نفسه على أمل ، فترك حيث يخاف إلى حيث يأمن ، وخرج ينشد أنصاره على حقّه ، بعيداً عن ملاحقة . « الوليد بن عتبة » له ، وقد فعل ، وبعيداً عن ائتمار « مروان » به ، وقد يفعل .

- ٩ -

ولقد كان فى مكة خارج آخر على بيعة « يزيد » له خطره ، ولقد حلّها هو الآخر .. هاربا من المدينة ، هو : « ابن الزبير » .

وفى مكة لقى « الحسين » « ابنَ الزبير » واستمع إليه يشير عليه بالرأى . ولكنا لم نعلم أنهما اجتمعا على جهد موحَّد وهما بين يدى غرض واحد .

كما قد خلف « الحسين » و « ابن الزبير » خارجا ثالثا على بيعة « يزيد » أيضا ، وله هو الآخر خطره ، هو « ابن عمر » .

ولكنا لم نعلم أن « الحسين » و « ابن الزبير » اجتمعا معه على جهد موحد ، وهم ثلاثتهم بين يدى غرض واحد .

غير أنا نعلم أن كل واحد منهم كان يبغيها لنفسه ، أسر ذلك أو جهر به ، ولهذا لم نعلم لهم هذا الجهد الموحد .

ولو أن الشعب عرف كلمته التى له - كما قلنا - لوفّر على هؤلاء السادة هذه البلبلة الفكرية ، ولردهم إلى كلمة سواء ، ولكفى نفسه مؤونة الخوض مع بعضهم معارك دامية حمل هو فيها العبء الأكبر .

- ١٠ -

وشيعة « الحسين » الذين عليهم معتمده ، هم فى الكوفة ، ليسوا من بين أهل مكة ، وليسوا من بين أهل المدينة . وحين بلغهم موت « معاوية » ثم امتناع « الحسين » ، ومعه « ابن الزبير » و « ابن عمر » عن البيعة لـ « يزيد » تنبهوا لما يجب عليهم نحو من شايعوه وتشيعوا له ، ولقد استكانوا حكم « معاوية » كله ، بعد أن سلّم « الحسن » الأمر لمعاوية ، فسلّموا هم الآخرون الأمر لمعاوية ، على اختلاف فى التسليم ، فلقد سلّم « الحسن » عن يأس وقنوط ، وسلموا هم عن وَنىً وفترة .

وعندى أن الشيعة الذين اجتمعوا حول « الحسن » فى يومهم الأول ، ثم خذلوه فى يومهم الثانى ، والذين وصفهم « الحسن » حين خطبهم ينعى عليهم هذا فقال لهم : « كنتم فى سيركم إلى صفين ، ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم » .

نعم ، عندى أن أنصار « الحسن » بالأمس كانوا غير أنصار « الحسين » اليوم ، والبيئة التى أنبتت أولئك .. هى البيئة التى أنبتت هؤلاء ، والرأى الذى حرك السابقين .. هو الرأى الذى انتظم اللاحقين ، ولكن شيئا واحدا هو الذى خالف بين هؤلاء وهؤلاء ، فأنصار « الحسن » كانوا قد خرجوا من حرب مضنية مُهلكة خاضوها مع « على » وهو يحارب « معاوية » ، وكانوا قد شوّش عليهم أفكارهم ، وبلبل فيهم خواطرَهم حُكم الحكمَين : « عمرو ابن العاص ، وأبى موسى الأشعرى » ، وكانوا قد أفسد عليهم عقولهم ماخرج به الخوارج من آراء .

فلمّا أن سلّم « الحسن » خلصوا إلى أنفسهم يلومونها على ما فرّطت فى جنبه ، ووادعتهم الحياة نحوا من عشرين عاما لم يضمّهم ميدان لحرب ، ولكن ضمّتهم ميادينُ للكلام ، نفضوا فيها عن أفكارهم ما كان يشوشها ، وعن خواطرهم ما كان يبلبلها ، وعن عقولهم ما كان يزلزلها ، فإذا هم قد عادت لهم قوة البدن ، وقوة الرأى والعقل ، وإذا هم على أول الطريق يرقبون الداعى .

وكأنى بالحسين قد بان له هذا فخرج يطلب حقه ، وكأنى به لم يشجع على هذا الخروج إلا حين رأى تلك المعانى وآمن بها وبغيرها ، فما كان بعيداً عما فعله هؤلاء الشيعة بأبيه ، وما كان بعيدا عما فعلوه بأخيه ، وما كان هو غير بصير لا ينظر للأمر من وجوهه ، وما كان طامعاً قد غمّى الطمعُ على بصيرته فسلبه الحذر وأسلمه إلى الغرور .

و « الحسين » بعد هذا كله كان مؤمنا بحق بيته الإيمان كله ، وكان

على إيمانه به حريصاً عليه لا يرى التفريط فيه ، رُغّب أو هُدِّد ، وهو لهذا قد وقف لأخيه « الحسن » – حين ألانه قبول « معاوية » شروطَه ، يجادله ألا يفعل وهو يقول له : أنشدك الله ألا تصدق أحدوثة معاوية .. وتكذب أحدوثة أبيك .

فيرد عليه « الحسن » هذا الرد الذى لا جواب معه : « اسكت .. أنا أعلم بالأمر منك » .

وردٌ أحسّ فيه « الحسن » أنه الأكبر فأجاب ناهيا ، وأحسّ فيه « الحسن » أنه خَبِر الأمور فقال قاطعا .

وسكت « الحسين » لأن الحق كان لأخيه وليس له أن يُزحزحه عنه ، ولأن أخاه لم يرد أن يَسمع فيما عزم عليه نصحا .

وسكت « الحسين » حياةَ أخيه لأنه لم يكن يملك غير السكوت ، وسكت « الحسين » عشر سنين أخرى بعد وفاة أخيه .. لأن « معاوية » كان أقوى من أن ينازَع وكان أنصاره هو لم تستقم لهم أمورهم .

– ١١ –

وهكذا خرج « الحسين » من مكة يطلب حقه حين تهيأت له هذه الأسباب كلها ، ولم يشأ أن تفلت منه .

وكانت الأسباب التى تهيأت للحسين هى الأسباب التى تهيأت لأنصاره ؛ فلقد مات « الحسن » – رضى الله عنه – ، وما كان لهم أن يتحركوا فى حياته ، ولقد مات « معاوية » – رحمه الله – وكان مَن كان سطوة عليهم وجبَروتا ، ولقد تحرك « الحسين » وما كان أرقبهم لهذا الخروج وأشدّ تلهُّفهم إليه . ولقد ولِىَ « يزيد » والناس عليه مختلفون ، فما أحينها فرصة للإرجاف به لينصروا « الحسين » ولا يخذلوه .

لهذا اجتمعت الشيعة فى منزل كبير لهم هو « سليمان بن صرد الخزاعى » ، وكتبوا إلى « الحسين » هذا الكتاب الخالد لهم وعليهم ، والذى لا يدع مجالا للحسين أن يتلبث أو أن يتريث ، يقولون فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد . فالحمد لله الذى قَصم عدوك الجبار العنيد ، الذى افترى على هذه الأمة فابتزّها أمرها ، وغَصبها فيئها . وتأمّر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها .

وإنه ليس علينا إمام .. فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنّعمان بن بشير فى قصر الإمارة ؛ لسنا نجتمع معه فى جُمعةَ ولا عيد ، ولو بلغنا إقبالك إلينا أخرجناه حتى نُلحقه بالشام إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمه الله وبركاته .

☆ ☆ ☆

كفْر بمعاوية وبمَن ولد ، وإيمان بالحُسين .. معه إيمان بقوتهم على أنهم قادرون ، لا يَمنعهم أن يظهروا على عدوهم إلا أن يَجدوا من يجتمعوا عليه ، ولقد صَوّروا له واليَهم شخصاً لا نفَع فيه ولا ضَير منه ؛ إن شاءوا أبقَوا عليه ، وإن شاءوا نَفَوْه عنهم .

ولقد شفعوا هذا الكتاب بكتاب آخر ، فعلَ الواثق .. تنفرج له الساعات عن سانحات تَعجل به وتَدفعه إلى مزيد من الإقدام ، ثم عن حَذر معجل به هو الآخر ، ويَدفعه إلى مزيد من الإسراع .

من أجل هذا وذاك .. لم تُمهل الشيعة « الحسين » حتى يصل كتابهم إليه ، ولم يُمهلوا أنفسهم حتى يصل جواب « الحسين » إليهم ، وسيَّروا بعد ليلتين رسولا لهم ثانيا بكتاب لهم ثان إلى « الحسين » ، يذكر المؤرخون أن

صفحاته التى جاوزت المائة بخمسين - وفى يقينى أن هذه الصفحات التى جاوزت المائة بخمسين - لم تكن كلاماً كلها ، فما فى ليلتين يستطيعون أن يحبّروا هذا الكتاب ، ولا بعد ليلتين من كتابهم الأول يكونون قد أدركهم هذا الفيض من الرأى لتمتلىء به هذه الصفحات .

وإنما الذى أكاد أجزم به .. أن كتابهم الأول إلى « الحسين » أمضاه نفر منهم قليلون ، وكان أن حِذَروا أن يظن « الحسين » أن ناصريه قِلة ، وأن الداعين له عدد مَعدود ، وما أحرى « الحسين » أن يصدق ، وما أحراهم هم أن يشكوا فى أنفسهم ؛ لهذا حَبّروا هذا الكتاب الثانى يذكرون فيه ، مع كلمة كانت لا شك قصيرة ، وكانت لاشك أيضا فى معنى الكلمة الأولى ، يذكرون فيه أسماءهم اسماً اسماً ، وبهذا وحده ملئوا تلك الصفحات التى بلغت مائة وخمسين صفحة ، أسماء لجلة القوم ومشهوريهم .

هذا الحذر هو الذى عجّل بهم فبادروا إلى إرسال كتابهم الثانى إلى « الحسين » بعد ليلتين من كتابهم الأول ، ليملئوه يقينا ، وليضَمنوا خروجه إليهم .

وهكذا بدأ الشيعة يسبقون « الحسين » إلى الثورة ، بعد أن سبقهم هو إليها . وهم حين فعلوا ما عليهم ووثّقوه .. أصبحوا حريصين عليه متلهّفين إليه ، من أجل ذلك لم يجتزئوا بما كان أولا وما كان ثانيا ؛ بل أرسلوا رسولا ثالثا إلى « الحسين » يحثّونه على المسير إليهم .

أمور لا تترك « الحسين » - وهو المؤمن بحقه ، الجرىء به ، الثائر له - يتلبث أو يتريث ، فلقد أظهروا تأييدهم له أولا ، ثم قضوا بالذى فعلوا ثانيا على حذره ، فلم يبق له إلا أن يسرع إليهم ، وقد أرسلوا يستعجلونه .

ولكن « الحسين » على هذا كله كان يحب أن يطمئن شيئا ، فكتب إليهم : أما بعد . فقد فهمت كل الذى اقتصصتم . وقد بعثت إليكم بأخى

وابن عمى وثقتى من أهل بيتى : « مسلم بن عقيل » ؛ وأمرته أن يكتب إلىَّ بحالكم وأمركم ورأيكم . فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى مَلَئِكم وذوى الحجى منكم على مِثل ما قدمتْ به رُسلكم ؛ أَقدم إليكم وشيكا إن شاء الله .

فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق . والسلام .

– ١٢ –

ويخيل إلى أن « الحسين » كان عَجِلاً هو الآخر ، على الرغم مما بدا من تريّثه ، وإرساله « مسلما » على الطريق قبله ، يتطلّع له قبل أن يمضى هو .

ويكاد خطابه هذا يكشف عن عجلتّه تلك، فلقد كان فيه « الحسين » موجزا كل الإيجاز . يعجل نفسه عن أن يُطيل فيضّيع وقتا ، ويُعجل نفسه عن أن يمهل رسوله إليهم « مسلم بن عقيل » فترة أخرى فتفوت الفرصة ، وكأنى به قد أحسّ أن العيون أخذت ترقُبه ، والآذان أرهفت لتَسمعه ، وقد فوت هو وقتا فلا يحب أن يفوّت وقتا آخر .

من أجل هذا كله كتب « الحسين » كتابه الذى كان يجب أن يصدر عنه ، فيه الإسهابُ ، وفيه الإطالة . إن لم تكن مبادلة للقوم على ما فعلوا من مثلها ، فما كان أولاه أن يصدر عنه يضم رأيه ، ويكشف عن حقه ، ويتضمن سابقة ، ويذكر فضلا .

لقد خلا الكتاب من شىء من هذا كله ، وكان يَجب أن يضم هذا كله ، واجتزأ فيه « الحسين » بتلك الكلمة القصيرة التى ضمنها صفة الإمام العادل ، وكأنه ، إنما كان يعنى نفسه ، وينعى بها على غيره .

ولعل « الحسين » إلى جانب تلك الخشية التى عجلت به عن أن يُطيل ، كان على ثقة من نوايا هؤلاء الأنصار ، فكفّ عما يجب أن يقال مثله لمن ليس لهم علم هؤلاء بأمرهم ويَقينهم به .

☆ ☆ ☆

ومضى « مسلم بن عقيل » برسالة « الحسين » يسعى نحو الكوفة بعد أن أوصاه « الحسين » بما يريد منه .

فلقد أوصاه بتقوى الله ، وكان ذلك أول ما أوصاه به لا عن شك فى « مسلم » ، ولكن خوفاً عليه من دنيا قد ازدحمت بالفتن ، منها المُغرى الممعن فى الإغراء الذى لا يقوى على كبح نفسه دونه إلا من عَصم الله بتقواه ، ومنها المرهب الموغل فى إرهابه الذى لا يصمد له ولا يقوى عليه ؛ إلا مَن خشى الله وحده ولم يخش سواه ، و« مسلم بن عقيل » رسول « الحسين » الأول ، وقد يكون الأخير - فليست الفتنة ممهلة « الحسين » ليغيِّر من يختار ، فهو إن مال أو نكص انقلبت الفتنة عليه ولم تُستَو له .

ولقد أوصاه بكتمان أمره ، وأن يلطُف بالناس ولا يعنف بهم ، فإن رآهم مجتمعين له عَجِل إليه ليخبره .

☆ ☆ ☆

ولقد اختار « الحسين » لرسالته ثقة من أهل بيته ، ولكنه لم يختر منهم جلداً يؤمن بها إيمانه ، ولا يهوله فيها ما يركب ، فما كاد «مسلم » يودع أهله ويودّعونه ، وينفصل عن المدينة حتى يضلّ الطريق ، وينفد ما معه من ماء فيموت دليلاه عطشاً ، ثم تستقيم له الطريق إلى الماء ، فيبلغه بعد جهد وليس فيه إلا زماء ، ويرى نفسه حين بلغ الماء قد نزل مكاناً يدعى « المضيق » ، فيتطّير ويهلع ، ويكتب إلى « الحسين » بعد أن يصف له ما كان :

« إن رأيت أعفيتنى وبعثت غيرى » .

وما فزّع اسم المكان « مسلم بن عقيل » ، ولافزّعه هذا التطير ، ولكن كان - كما قلنا - غير مؤمن برسالته إيمان أخيه بها ، فما إن وقع على سبب مما يَجزع الناس له جزعا خفيفا ، حتى جزع هو له جزعا شديدا ، ونظر إلى حياته وإلى ذلك المطلب الذى خرج له ، فرأى حياته أعزّ عليه من ذلك المطلب ، وهو إن رجع فقد ضمن الحياة ، وان مضى فما هو بضامن نُجْح ذلك المطلب .

ولعل شيئا آخر كان يشغل نفس « مسلم بن عقيل » ، قد يكون وضح له فهو يَستملى منه وهو يشعر ، وقد يكون خاطراً يُصدر هو عنه وهو لا يشعر ، وقد يكون هذا الشىء الذى انطوت عليه نفس «مسلم » بين الخفاء والظهور ، هو أن « مسلما » ساع لغيره لا لنفسه ، سيصيب الخيرُ بيته ، إن قدر لهذا الخير أن يجىء ، ولكن أين ترتيبه من هذا ، وما هو موضعه من هذا الخير .

إن صح هذا .. أوّلنا ما كان من « مسلم بن عقيل » من انثناء وإيثار للرجوع . فلم يكن التطّير وحده علة هذا ، وإنما كان قبل التطير هذا الخاطر الذى تحرك فى نفسه عن قصد أو عن غير قصد ، وما نحب أن نظن بمسلم الجُبن ، وإن كان قد ظنه به أخوه « الحسين » حين قال له وهو يرد عليه : أما بعد . فقد خشيت ألا يكون حملك على الكتابة إلىّ إلا الجبن ، فامض لوجهك .

☆ ☆ ☆

ولقد دلنا « مسلم بن عقيل » بالذى فعل كيف ستمضى المعركة ، وهو حامل لوائها ، فما نَشُك فى أنه مضى إليها مأمورا غير مريد ، مقهورا غير مُختار . هنا لن تنفعه تقوى الله التى أوصاه بها أخوه وهو يُرسله ، فلقد

ملكه الخوف ، يذكيه فى نفسه أنه قد تطيّر ، ويُذكيه فى نفسه أن الغنم لغيره ، وهو فيه مأجور له حظ قليل .

ولن يكون رفيقا بالناس كما أوصاه أخوه ، فلقد برم بما يحمل وضَجر ، والرفق بالناس لا يصدر إلا عن قلب قد امتلأ رضا وطمأنينة ، كما لن يكون كَتوما كما أوصاه أخوه ، فهو فى حَيرة من أمره ، والكتمان شىء لا يقوى عليه إلا من ملكَ زمام نفسه ، ولم تبلبل عليه الحَيرة خاطره .

وما يكاد « مسلم » تطأ قدماه الكوفة حتى يمضى يؤدّى رسالته على الوجه الذى فرضه عليه هذا التطّير ، وهذا الخاطر ، وهذا البرم ، وهذا الضجر ، وهذه الحيرة ، ويلتف به الناس علانية ، ويقرأ عليهم كتاب « الحسين » جَهرة » فإذا هو قد عَلم مكانه ، وإذا والى الكوفة « النعمان بن بشير » قد نذر به .

☆ ☆ ☆

ويفزع « النعمان بن بشير » إلى المنبر يخطب الناس وقد اجتمعوا إليه ، وكان حليماً ناسكاً يحب العافية ، وهو على ذلك كان لا يحب أن يُغلب على أمره ، فأخذ يحذّر الناس الفتنة أولا ، يملى عليه فى ذلك قلبه ؛ ثم أخذ ينذر الناس بطشه ثانيا ، يملى عليه فى ذلك حرصه عَلى ألا يُغلب .

ولكنّ رجلاً من أحلاف بنى أمية هو « عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرمى ، وكان حاضَر ذلك - لا يقنع بما كان من « النعمان بن بشير » فيقول له : إنه لا يصلح ما ترى إلا الغَشم ، وإن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين .

وكذلك كان بنو أمية ، وكان أحلاف بنى أمية ، يخافون صِغار الأمور ، كما يخشَوْن كبارها ، ولا يرحُمون خصمهم على الصغيرة كما لا يَرحمونه

على الكبيرة ، ويرون أن استئصال الداء حين يبدو ، خيرٌ من الرفق به علاجاً حتى لا يستعصى .

لهذا شمّر « عبدالله بن مُسلم » يكتب إلى « يزيد » يخبره بمقدم « مسلم بن عقيل » الكوفةَ ومُبايعة الناس له ، ويقول له فى حزم : إن كان لك فى الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويا ينفذ أمرك ، ويعمل مثل عملك فى عدوك ؛ فإن « النعمان » رجل ضعيف ، أو هو يتضعَّف .

وكما كتب الشيعة إلى « الحسين » كتاباً بعد كتاب ، كتب أنصار « يزيد » إليه كتاباً بعد كتاب ، وكان أول الكاتبين إليه « عبد الله بن مسلم » هذا ، ثم تلاه غيره ، فكتب إليه « عمارة بن الوليد بن عقبة » . وكتب إليه « عمر بن سعد بن أبى وقاص » ، كما كتب إليه غيرهم ، كلهم يُحذّرو ينذر .

☆ ☆ ☆

وكما كان « الحسين » عَجِلاً ليناجز خصمه ، كان « يزيد » عَجِلاً ليقضى على خصمه ، وأولهما يسعى إلى ملك يريد أن يجمع أسبابه بين يديه ؛ وثانيهما يريد أن يحتفظ بملك قد اجتمعت أسبابه لديه ؛ وأولهما يسعى لأمل لم يذُقه ، وثانيهما يُدافع عن أمل ذاقه ؛ لذلك كان ثانيهما أعنف على خصمه ، وأشدَّ قسوة للدفاع عن حقه .

وسرعان مااستبدل « يزيد » بـ« النعمان بن بشير » الناسك الحليم رجلاً لم يدخل النسكُ قلبَه ، ولم يَعمر الحلمُ وجدانه هو :« عبيد الله بن زياد » ،ولم يكن بعيدا عن قرابته ، فقد استلحق « أبو سفيان » أباه « زيادا » ودسه على بنى أمية .



ولم يُمهل « يزيد » « عبيد الله » يوما أو بعض يوم ، وإنما أمره أن يخرج إلى الكوفة من غده ، لايترك « مسلم بن عقيل » إلا مقتولا أو مَنفيًّا .

وكأنى بأهل الكوفة الذين استيقظوا على موت « معاوية » ، وولاية « يزيد » ، وخروج « الحسين » ونفر معه عليه ؛ كادوا أن يعودوا إلى سُباتهم حين علموا بمقدم « عبيد الله بن زياد » إليهم .

فلقد حَسبوا اللقمة سائغة ، وأن خصمهم قد هان فهبوا ، ولقد رأوا « الحسين » يُقدم إليهم رِجلاً ويؤخر أخرى ، ففتروا شيئا ، ولقد لقوا رسول « الحسين » إليهم « مسلم بن عقيل » وليس فيه الغيرة على مايحمل ؛ فتراخوا ، ولقد ساءهم ألا يَقْدُم إليهم « الحسين » فيخوض بهم المعركة فى حينها لا يضن بنفسه ، فلما عزّ عنهم شيئا بدأ نفرٌ منهم يَضن بنفسه ، ولما رأوا أمرهم قد افتضح ، وأن خصمهم قد تنبه لهم تخاذلوا ، وحين علموا أن « عبيد الله بن زياد » هو واليهم الجديد تلبّثوا يتدبرون حياتهم .

لهذا كان خروج « الحسين » إليهم بعد هذا ليس من التدبير فى شىء ؛ فلقد كتب « الحسين » إلى أشراف البصرة كتابا يَحفزهم إليه .. ليقيموا الدين للناس بعد أن زَعزع أركانه بنو أمية .

كتب بذلك إلى « مالك بن مسمع البكرى » ، وإلى « الأحنف بن قيس » ، وإلى « المنذر بن الجارود » ، وإلى « مسعود بن عمرو » وإلى « قيس بن الهيثم » ، وإلى « عمر بن عبيد الله بن معمر » ، وإلى غيرهم .

فكلهم تلقّى كتابه يكتُمه فى قلبه ، لاتتحرك له يَد ، ولا ينطلق منه لسان ، خَوَراً وضَعفا .

ويبلغ الخور والضعف بواحد منهم ، وهو : « المنذر بن الجارود » غايته ، فإذا هو يسعى بالكتاب وحامله إلى « ابن زياد » ، وهو يَظن أن

« ابن زياد » قد دسّه عليه ليخبر ماعنده ، فيمزق « ابن زياد » الكتاب ويَضرب عُنق حامله .

ولربما كان خلْف « المنذر بن الجارود » غيره من إخوان له بلغ بهم الخوف مبلغه ، إلا أنهم استمسكوا شيئا ولم يفعلوا .

ثم يقف « ابن زياد » بين أهل البصرة يخطبهم ، وهو يريد أن يسمع أهل الكوفة ، وهو يقول : ياأهل البصرة ، إن أمير المؤمنين قد ولاّنى الكوفة ، وأنا غاد إليهم بالغَداة ، وقد استخلفت عليكم أخى « عثمان بن زياد » ، فإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالله .. لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف لأقتلنّه وعريفه ووليّه ، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تَستقيموا ، ولا يكون فيكم مخالف ولامُشاق ، وأنا « ابن زياد » أشبهتُه مِن بين من وطىء الحصى ، فلم ينتزعنى شبه خال ولاابن عم .

ولقد دوّت كلمة « ابن زياد » فى آذان أهل البصرة فوعتها ووجلت لها قلوبهم ، وهوّن عليهم الأمر شيئاً أنه غَدًا عنهم راحل ، وليس « عثمان » كعبيد الله ، كما دَوّى صداها فى آذان أهل الكوفة فوعتها ووجلت لها قلوبهم ، وصعَّب عليهم الأمر شيئاً أنه قادم إليهم فملاقيهم ، ومقيم بينهم .

☆ ☆ ☆

وماتكاد قدَمَا « عبيد الله بن زياد » تطأ أرض الكوفة حتى تطأ المنبر فإذا هو واقف عليه يقول : أما بعد . فإن أمير المؤمنين ولاّنى مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومُطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم . وأنا مُتّبع فيكم أمره ومنفّذ فيكم عَهده ، فأنا لمُحسنكم كالوالد البرّ ، ولمُطيعكم كالأخ الشقيق ، وبسيفى وسوطى على من ترك أمرى وخالف عهدى ، فَلْيُبق أمرؤٌ على نفسه .

مازادا على ذلك ، ثم نزل

عرف « عبد الله بن زياد » أن القلوب منها مايُباع ويُشترى ، ففتح لها هذا الباب على مِصْراعيه ، يدخل منه الطامع فى جاهِ بنى أمية وَنشَبهم .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن مِن القلوب مايخاف ويَخشى ، فلوّح لها بعُنفه وبَطشه ، غير مكذوب فى هذا التَّلويح ، فقد سبق إليهم مافعله فى البصرة مع هذا الرجل الذى ساقه إليه « المنذر بن الجارود » .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن هناك نفرا بين هؤلاء وهؤلاء لايضمهم إليه طمع ، ولايُخيفهم منه بأس .. فبعث إليهم رجاله يأخذونهم أخذاً شديداً ، وألزم العُرفاء أن يَحصوا له الناس على ماتُضمر نفوسهم وتُخفى ، وهو يقول لهم : مَن كتب إلىّ فقد برىء ، ومن لم يكتب لنا أحدا فَلْيضمن لنا مافى عرافته ألاّ يُخالفنا منهم مُخالف ، وألا يبغى علينا منهم باغ . فمن لم يفعل فبرئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله . وأيما عَريف وجد فى عرافته مِن بُغية أمير المؤمنين أحدٌ .. لم يرفعه إلينا .. صُلب على باب داره

☆ ☆ ☆

ويسمع « مسلم بن عقيل » بمقالة « ابن زياد » فيهتز لها قلبه ، ويحس أن صاحب الدار الذى يؤويه لاشك خائف وضائق به ، فيخرج عنه إلى دار « هانىء بن عروة المرادى » يطرق عليه بابه ، ويُدرك « هانىء » مَن القادم عليه ، فيخرج لاليرحِّب به ، ويهش له ، ولكنّه يلقاه عابسا وهو يقول له : لقد كلّفتنى شططا ، ولولا دخولك دارى لأحببت أن تنصرف عنّى . غير أنه يأخذنى من ذلك ذمام ، أُدخل .

ولقد مرّ بك ماكان من « المنذر » بالبصرة ، وهاأنت ترى ماكان من « هانىء » بالكوفة ؛ حادثتان إن دلت أولاهما على حذر ليس معه تنكر للعهد ، فقد دلّت الثانية على خوف يكاد يحمل التنكر للعَهد .

وإلى هذه الحال أو قريب منها يكاد ينتهى أمر الشيعة ، فلقد انصرفوا عن الجَهر بما كانوا يقولون إلى الإسرار به ، وعن الإعلان بما يريدون إلى التخفّى فيه .

و« عبيد الله بن زياد » جاد فى إثر « مسلم بن عقيل » يتعقبه ، وأصبح هذا الذى نزل الكوفة منذ قليل ليعرف خبر القوم ، ويكتب للحُسين ليَقْدم ، قد حَبس نفسه فى دار « هانىء » ، لايخرج منها ولايعلم من أمر القوم الذين سيكتب عنهم إلا القليل. الذى يصل إليه عَفْواً ، ومما لايُغنى « الحسين » شيئا ، كما أصبح « مسلم » فى مخبئه لايُغَنى عن أمر الشيعة شيئا . وعاد الشيعة كما كانوا أولا ، لاهم إلى حرب فيستعدون ، ولاإلى سِلم فيهدؤون ، ولكن كانوا بين هذه وتلك يتخطفهم « ابن زياد » واحدا بعد الآخر .

ويحس « عبيد الله بن زياد » من يخبىء « هانىء » ؛ دلّه عليه رجل كان له عينا عليه ، فيطلب « ابن زياد » « هانئا » إليه ليلقاه ، فيعتذر أولا ، ثم يلبى ثانيا « فيقول له « ابن زياد » : « جئتَ بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح وظننت أن ذلك يَخفى .

ويقول له « هانىء » اسمع منى وصدّقنى ، فوالله لاأكذبك . والله مادعوتُه ولاعلِمتُ بشىء من أمره حتى رأيته جالساً علىّ بابى يسألنى النُّزُول على ، فاستحييتُ من رَده ، ولزمنى من ذلك ذِمام ، فأدخلتُه دارى وضِفْته ، وقد كان من أمره الذى بلغك . فإن شئت أعطيتُ الآن مَوثقا تطمئن به ، ورهينة تكون فى يدك ، حتى أنطلق وأخرجه من دارى وأعود إليك .

فيقول له « ابن زياد » : لاوالله ، لاتفارقنى أبدا حتى تأتينى به .

ويثور فى نفس « هانىء » خُلُق عربى ، لاينزل عنه عربى أبدا . يَستوى فى ذلك مَن كان المدافَع عنه عدوًا أو صديقا ، هذا الخلق هو ماشاع

عن العرب وأثر عنهم ، وضربت به الأمثال ، ألا وهو إكرام الضيف وحمايته والدفاع عنه ، من أجل هذا الخلق وحده ؛ لامن أجل الرأى الذى رَبط مابين « هانىء » و « مسلم بن عقيل » ، والذى من أجله ثار الشيعة وكتبوا للحسين ، والذى من أجله أرسل « الحسين » « مسلم بن عقيل » ؛ من أجل هذا الخلق وحده قال « هانىء » لابن زياد : لا آتيك بضيفى تقتله أبدا .

وهاأنت ترى مرة ثانية كيف ذاب حَماس الشيعة أمام تهديد « ابن زياد » وشدته ، ولم يكن « هانىء » إلا واحدا منهم ؛ بل كان كبيراً من كبرائهم ، يخطو فى إثر خَطوه مئات ، ويعنف بعنفه مئات ، ويلين بلينه مئات .

وكنا نحبها كلمة أخرى تجرى على لسان « هانىء » قبل كلمته هذه ؛ أو مع كلمته هذه ، كنّا نحبه أن يكون شجاعا لرأيه ومايَدين به ، كما كان شجاعا لعادته تلك التى نَشأ عليها ، ولكنه نَسى هذا الرأى حين أحس المَتلفة فى ظِله ، وذكر هذا الخلق لأنه خاف أن يترك الحياة بسبّة تدخل عليه وعلى أبنائه ، فلا يزالون يُعيَّرون بها إلى آخر الدهر .

☆ ☆ ☆

ولعلنا نفيد من حديث « هانىء » جديدا قد لايكون توكيدا ، ولكنه ظَن يثيره ظن : هو أن الرأى الذى لف الشيعة بَحبله لم يكن قد بلغ بعدُ أن ينزل من قلوبهم منزلة العقيدة الدينية التى دخلت عليهم قلوبهم ، فملأتها مَلئا لامتّسع فيها لغيرها ، فرمَوْا بأنفسهم إلى الموت لايخشونه فى سبيلها ، واستعذبوه على مرارته وهشوا للقائه ، يذكرون حقا يغبطهم معه أنهم سوف يلَقون ربَّهم عليه .

ولعلنا نفيد من حديث « هانىء » جديدا آخر ، قد يكون توكيدا وليس ظنًّا يثيره ظن ، هو أن هذا النِّزاع الذى جمع الشيعة على « الحسين » كان

مَردّه إلى ذلك الكُرْه الذى حمله غير القرشيين للقرشيين . وقد غَنموا قَهر الأمويين للهاشميين على حقهم ، ليجعلوا منها فرصتهم للوثوب بالأمويين ؛ من أجل ذلك التفوا بالحسين ، كما التفوا بالحسن ، وكما التفوا بعلىّ ، وهم فى كل مرة التقوا فيها لم يكونوا يصدرون عن وَعى يشبه وَعى العقيدة ، لهذا سَرعان ماكانوا ينفضّون إن أحسوا اليأس أو أنذروا بالشدة .

☆ ☆ ☆

هكذا بدأ الرأى الشيعى ؛ بدأ رأيا سياسيا ، ثم كان رأيا دينيا فيما بعد .

ولقد ثار الجدل بين« ابن زياد » و « هانىء » ؛ لايذكر « هانىء » إلا هذا الذى ذكره من قبل ، وهو حق الضيف عليه ؛ ولايذكر « ابن زياد » إلا أن يُسلم « هانىء » « مسلم بن عقيل » إليه .

ويدخل بينهما رجل من القوم كان حاضرهما ؛ ليهون الأمر على « هانىء » ويحقق لابن زياد مايبغى ، فيخلو بـ« هانىء » يقول له :

ياهانىء : أنشدك الله أن تقتُل نفسك ، وتدخل البلاء على قومك ؛ إن هذا الرجل ابن عم القوم - يعنى بنى أمية - وليسوا بقاتليه ولاضائريه ، فادفعه إليه فليس عليك مخزاة ولامنقصة ، إنما تدفعه إلى السلطان .

فيقول له هانىء : بلى والله ، إن علىّ فى ذلك خزياً وعارا ، لاأدفع ضيفى وأنا صَحيح شديد كثير الأعوان ، ووالله لو كنت واحداً ليس لى ناصر ، لم أدفعه حتى أموت دونه .

وهكذا يسجل « هانىء » على نفسه مرة ثانية نِسْيانه رأيه الذى شارك فيه وهِيج له ، مع إقرار منه بأنه كثير العون والناصر ، ولكنه لايثيرهم ولايثورون معه لهذا الرأى ، وإنما يثيرهم ويثورون معه لغيره مما هو دون هذا الرأى .

ولكن للقصة بقية تكشف لك عن نفوس هؤلاء الشيعة من أهل الكوفة ، كما كشف لك أولها عن نفس « هانئ » :

فلقد وكل « ابن زياد » بهانئ مَن ضربه على وجهه حتى كسر أنفه ، ونَثر لحم خدَّيه وجبينه على لحيته ، وملأ حجره دما .

فتقبل « مذحج » ؛ شيعة « هانئ » وعليها « عمرو بن الحجاج » فتحيط بقصر « ابن زياد » ، يظنون أن « هانئا » قد قُتل ، فُيطل عليهم « شريح القاضى » يُخبرهم أن صاحبهم لم يُقتل ، فينقلبوا راجعين وهم يقولون :

الحمد لله إذ لم يقتل !...

فهم لم يثوروا لما فعل « ابن زياد » بـ« هانئ » يُسيئه على إيوائه « مسلم بن عقيل » ، وإنما ثاروا حين ظنوا أن « ابن زياد » قتل « هانئا » .

يقرّون لابن زياد أن ينكل بـ« هانئ » ؛ ليَستخلص منه « مسلم بن عقيل » ، ولايُقرونه على أنه يقتل على هذه سيدهم ، وكأنهم أحسّوا أن سيدهم لابّد مستلين معَ تنكيل « ابن زياد » فتركوه يألم ليَستجيب ، وأن « ابن زياد » لن يقتُل سيدهم .. لهذه فتركوه بين يديه يشتّد به حتى يجيب .

ثم إن للقصة بقية أخرى لا يفوتك أن تعرفها :

يروون أن الخبر بلغ « مسلم بن عقيل » فخرج من مكمنه يدعو أصحابه إليه ، فإذا هم ثمانية عشر ألفا ، كلهم قد بايعه ، من « كندة » ، ومن « مذجح » ، ومن « أسد » ، ومن « تميم » ، ومن « هوازن » ويخرج بهم نحو قصر « ابن زياد » .

ويروون أن « ابن زياد » لما بلغه إقبال « مسلم » إليه فيمن اجتمع

حوله تحرّز فى قصره وأغلق الباب عليه ، ليس معه فى القصر إلا ثلاثون رجلا من الشُّرطة ، وعشرون رجلا من الأشراف ، هذا غير أهل بيته ومواليه .

ويَروون أن « ابن زياد » كان فيمن معه رجال من أشراف « كندة » و « مذجح » و « تميم » ، فأمرهم أن يخرج كُل واحد منهم إلى مَنْ مع « مسلم بن عقيل » من قَبيلته يخوّفهم ويخذلهم .

كما أمر مَن عنده من الأشراف أن يطلوا على الناس من القصر فيُمنّوا أهل الطاعة ، ويخوّفوا أهل المعصية .

فإذا الناس كلهم ، الذين اجتمعوا حول « مسلم بن عقيل » قد تفرقوا عنه ، وإذا « ابن عقيل » ليس معه غير ثلاثين رجلا .

وكما اجتمع الشيعة حول « مسلم بن عقيل » تضّمهم إليه كلمة ، افترقوا عنه تفرقهم كلمة ، ولاندرى ألأن « مسلم بن عقيل » لم يكن الرجل الذى دبروا الثورة من أجله ؟ أم لأنهم لما رأوا صاحبهم ابتعد عنهم ولم يحضرهم ابتعدوا هم عن « مسلم » ولم ينصروه .

أم لأن الشيَعة – كما وصفناهم – لم يكونوا يصدرون عن رأى ، للأسباب التى قدّمنا من قبل ؟

☆ ☆ ☆

ومضى « مسلم بن عقيل » يضرب فى أزقة الكوفة ، لايدرى أين يذهب ، وإذا هو آخر الأمر أمام باب امرأة من « كندة » ، وكان لها ابنٌ خرج مع الناس ، وجلست هى ترقب عودته . فسلّم عليها « ابن عقيل » ، وطلب منها ماء فسقَته وجلس يَستريح . وإذا المرأة تقول له : ياعبد الله ألم تشرب ؟ فيقول لها « مسلم » : بلى . فتقول له المرأة : قُم فاذهب إلى أهلك .

ويُطرق « مسلم » والمرأة تقولها ثلاثا .. وهو لا يبرح ، حتى إذا برمت به اتجهت إليه تقول له فى عُنف : سبحان الله !... إنى لاأحلّ الجلوس على بابى .

عندها يخرج « مسلم » عن صمته ويقول للمرأة والأسى يملأ عليه جوانحه : أنا « مسلم بن عقيل » كذبنى هؤلاء القوم وغرّونى .

وترثى له المرأة وترقّ ، وتدخله دارها وتعرض عليه العشاء فلا يذوق منه شيئا ، ويجىء ابنها ، فيعلم من أمه خَبر « مسلم » بعد إلحاح منه عليها ، وتَستكتمه أمره ، وتأخذ عليها الأيْمان بذلك ؛ فيسكت .

☆ ☆ ☆

ويُصبح « ابن زياد » فيرسل فى إثر « مسلم » من يبحث عنه ويشتد فى ذلك ، ولايَقوى هذا الابن الذى آوت أُمه « مسلم بن عقيل » على أن يكتم ، ويخاف نكال « ابن زياد » به إن هو رآه عند أُمه وفى بيته ، فيسعى هو إلى « ابن زياد » يُخبره خبره ، وإذا « مسلم » بين يدى « ابن زياد » .

ولكن « مسلما » لم يُسلم نفسه إلا بعد قتال بينه وبين من اقتحموا عليه الدار ليأخذوه ، وإلا بعد أن قال له « محمد بن الأشعث » : لك الأمان فلا تقتل نفسك ، وإلا بعد أن أثخن بالجراح وعجز عن القتال

وأتى القوم ببغلة فحملوه عليها بعد أن انتزعوا منه سيفه ، فإذا عيناه تدمعان ، وإذا هو يقول : هذا أول الغدر .

ويتجه إليه رجل من القوم وهو يقول له : « مَن يطلب مثل الذى تطلب ؛ إذا نزل به مثلُ الذى نزل بك لم يبك ! ... »

فيقول له « مسلم » : « ماأبكى لنفسى ، ولكن أبكى للمنقلبين إليكم ، أبكى للحُسين وآل الحُسين !... »

وقبل أن ننتقل بك إلى أخبار « الحسين » نحب أن نفرغ من حديث « مسلم » .

فقد قدم « محمد بن الأشعث » بـ« مسلم » على « ابن زياد » وأخبره خبره وذكر له أمانه له .

وهنا تُصبح الكلمة لـ« ابن زياد » بعد أن ملك ، يزيده هذا المُلك عُنفا إلى عُنفه ، أو قل يردّه الملك إلى عُنفه المعهود ، فيقول لابن الأشعث : ماأنت والأمان ، ماأرسلناك لتؤمنه ، إنما أرسلناك لتأتينا به .

فيسكت « ابن الأشعث » على استحياء لايقول شيئاً .

وتمضى القصة تكشف لك عن قسوة الإنسان بأخيه ، لاترده عنه رحمة ولاتثنيه قرابة .

فيحكون أن « مسلم بن عقيل » اشتد به العطش ، وقد طال انتظاره على باب قصر « ابن زياد » ، ورأى جِرة فيها ماء بارد . فقال : اسقونى من هذا الماء !... فحال بينه وبين الماء .. رجل من القوم .. لاضير عليك من أن تعرف اسمه ، فلقد كان « مسلم بن عمر و الباهلى » ولقد رأى أن يُضيف إلى عناء « مسلم بن عقيل » عناء آخر ، فقال له وهو يتهكم به : أتراها ؟ .. ماأبردها ؟ .. والله لاتذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم .

ويدخل « مسلم » على « ابن زياد » فيقال له : ألا تسلّم على الأمير ؟

فيقول « مسلم » : إن كان يريد قتلى فما سلامى عليه ، وإن كان لايريد قتلى فَلَيكثرن تسليمى عليه .

فيقول له « ابن زياد : لعمرى لتقتلن .

ولم يَر « ابن زياد » أنه قد شفى نفسه بهذه الكلمة ، ولابلغ بها من

نفس « مسلم » ماأراد ، فيقول : قتلنى الله إن لم أَقتلك قتلة لم يُقتلها أحد فى الإسلام .

وتُثير هذه الكلمة « مسلم بن عقيل » فيثور بـ« ابن زياد » ، فقد عرف ماينتظره على يديه ، فما عليه أن يَشفى نفسه كما شفى « ابن زياد » نفسه ، فالتفت إليه وهو يقول له :

أما إنك أحق من أحدث فى الإسلام ماليس فيه ، أما إنك لاتدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولؤم الغلبة ، ولاأحد من الناس أحق بها منك .

هنا لم يملك « ابن زياد » إلا أن يشتمه ، ويشتم « الحسين » ، ويشتم « عليا » ، ويشتم « عقيلا » .

ثم سرعان ما أمر بمسلم فأصعد فوق القصر لتضرب رقبته ، وليُتبِعوا رأسه جسده و « مسلم » لا يكف عن التسبيح والاستغفار .

☆ ☆ ☆

ويطمع « ابن زياد » فى أخرى بعد أن مرت الأولى بسلام – أعنى قتل « مسلم » – ليجمع القلوب على رهبته . ويزيدها من خشيته ، فيأمر « بهانىء » فيخرج به إلى السوق فيضرب عنقه ، يتولى ذلك منهم مولى تركى لابن زياد .

ثم يجمع « ابن زياد » رأس « مسلم » إلى رأس« هانىء » ويبعث بهما إلى « يزيد » ليشيع فى غير الكوفة ما شاع فى الكوفة ، وليخشاه مع أهل الكوفة من هم فى غير الكوفة .

وما درى بالذى فعل أنه غرس فى قلوب أهل الكوفة وقلوب غير أهل الكوفة – إلى جانب هذه الخشية – موجدة مضت الأيام تزعزع جذور

الأولى ، وتؤصل لجذور الثانية ، حتى كانت الفتنة الصاخبة بالأمويين التى سنحدثك حديثها بعد حين .

ولكن أين كانت « مذجح » وأين كان « عمرو بن الحجاج » الذى ثار منذ وقت قريب حين بلغه مقتل « هانىء » ؟

وأين هؤلاء الثمانية عشر ألفا الذين تحركوا مع « مسلم » منذ قليل ؟

لقد ردُّوا جميعا على أعقابهم لا تضطرب أيديهم بالسيوف ، ولكن تضطرب قلوبهم بالنِّقمة والسخط .

لقد كان « ابن زياد » قليلا بجنده ، ولكنه كان كثيرا بالأشراف الذين طَمعوا فى جاه بنى أمية ونَشَبهم ، ففتوا فى عضد الناس .

ولقد كان « ابن زياد » عنيفا لا يرعى إلاًّ ولا ذِمة ، ففت عُنفه فى عَضد فريق آخر من الناس ، وهم الذين لم يكن الذى جمعهم قد بلغ مبلغ العقيدة فى قلوبهم ، فاستكانوا فى يسر يسير .

وخلا الجو لابن زياد يمضى فى الطريق إلى نهايته ، يشجعه « يزيد » على أن يفعل ، وهما يظنان أنهما يثبتان ملكا ، وما حسبا أنهما يغرسان حقدا لا يثبت معه ملك ، وإن بدا قوياً ، وما قدرا أن السيف الذى يحمى الملك إلى انثلام ، وأن القلوب التى تحوط الملك إلى غير دوام .

ولكن أنَّى للأمويين أن يَستبدلوا بسياسة العنف سياسةَ اللين والرِّفق ؟ ذلك ما لم يكن لهم إليه سبيل ؛ فالأمر اغتصاب وسبيل ذلك إلى الأقوى ، ولم يكن الأمر شورى مرده إلى الشعب يحكم لمن يَرضى .

وهكذا كانت سياسة الأمويين سياسة عنيفة عنفا لا محيد لهم عنه ، وكانت مقاومة الهاشميين هى الوسيلة التى لا بد لهم منها . وكان لا مفر

للشعب من أن يكون بين هؤلاء وهؤلاء يشقى بالقتل ، ويشقى بالفرقة ، لا تستقيم له حال إلا فى القليل .

☆ ☆ ☆

- ١٣ -

والآن نعود بك إلى حديث « الحسين » ؛ فقد كتب إليه « مسلم بن عقيل » قبل أن يلقى حتفه - وحين اجتمع إليه هؤلاء النفر الثمانية عشر ألفا ، وحين وقع « هانىء » فى يد « ابن زياد » - يخبره بأن الفرصة مواتية ، وما عليه إلا أن يَقصد قَصْد الكوفة .

ولقد أخطأ « مسلم » كما أخطأ « الحسين » من قبله : أخطأ « مسلم » لأنه نظر إلى الناس فى عديدهم ، ولم ينظر إليهم فى قُلوبهم .

ولقد أخطأ « الحسين » حين لم يعجّل إلى أهل الكوفة قبل أن ينزل بهم « ابن زياد » ، إذ كان الناس على « النعمان بن بشير » أجرأ ، وكانوا مع « ابن زياد » أضعف ، وإذ كان « النعمان » رفيقا يطمع الناس فيه ، ولم يكن كـ « ابن زياد » يخاف الناس منه ، وإذ كان « النعمان » أعجز من أن يضم الأشراف حوله بالرغبة والرهبة ، على حين ضم « ابن زياد » الأشراف إليه رغبة ورهبة .

وكذلك أخطأ « الحسين » حين قدر لخَطوه أولا ثم لم يقدر لخطوه ثانيا ، ولكنه كان بعيدا عن موطن الفتنة ، وكان « مسلم » رسوله إليها ، فله العُذر إن استجاب .

ولقد أدرك « مسلم » وهو يساق إلى الموت ما جنت رسالته على « الحسين » ، فخلا بابن الأشعث - وهو الذى أمّنه كما تقدم لك - يقول له : إنى أراك ستعجز عن أمانى ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلا

يخبر « الحسين » بحالى ويقول له عنى : ليرجع بأهل بيته ولا يَغُرّه أهل الكوفة ، فإنهم أصحاب أبيه الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ؟.

وأدرك ذلك مرة ثانية ، وهو بين يدى « ابن زياد » وقد حلف ليقتلنه ، فطلب منه أن يدعه يُوصى إلى بعض قومه ، فخلا « مسلم » بـ « عمر بن سعد » يقول له : إن بينى وبينك قرابة ، ولى إليك حاجة ، وهى سر .

وهنا يحجم « عمر بن سعد » عن أن يسمع من « مسلم » ؛ فهو فى موقفه هذا أعجز من أن يحتمل أمانة السر ، و « ابن زياد » حاضر وسامع ، فإما أن يكتمه عن « ابن زياد » فيعرّض نفسه للتلف ، وإما أن ينبىء به « ابن زياد » فيكون قد خان أمانته ، وما هى بالهينة على رجل ذى مروءة كـ « عمر بن سعد »

ولكن « ابن زياد » كان فى هذه المرة رفيقا ، أو قل داهية ماكرا ، فهو لم يُرد أن يمضى « مسلم » بهذا السر الذى قد يُفيد هو منه ، فما عليه أن يرخى له ليقول ، وما عليه بعد ذلك إلا أن يشتد بـ « عمر بن سعد » حتى يقول ؛ لهذا قال « ابن زياد » لـ « عمر بن سعد » لا تمتنع من حاجة ابن عمك ! ...

عندها لم يَقْوَ « عمر بن سعد » أن يرفض ، وإلا كان مقصرا فى شأن ابن عمه ، مخالفا عن أمر « ابن زياد » فاختلى ، بمُسلم يسمع منه ، وإذا « مسلم » يقول له : إن عَلىَّ بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة ؛ سبعمائة درهم ، فاقضها عنى .

ووجده « عمر بن سعد » سراً هيّنا ليس عليه بأسٌ إن كتمه فاطمأن .

وكان يظن « مسلم بن عقيل » قد انتهى عند هذه ، فإذا هو يقول له : وانظر جثتى فاستوهبها فوَارها .

ويعرف « عمر بن سعد » - وكان رجلا ذا بصر - أن حقد « ابن زياد » أبعد من أن يَعرف مثلُه مداه ، وأنه أضعف من أن يدخل بين « ابن زياد » وبين ما يريد ، فيتململ . « عمر » ولا يدعه « مُسلم بن عقيل » يقول شيئاً ؛ بل يمضى يقول : وابعث إلى « الحسين » من يرده .

هنا يفيق « عمر بن سعد » على ما خشيه أولا ، ويجد أمانته فى كفة وحياته فى كفة أخرى ، ولكنه رأى أنه إن هو قام بأمانته لم يُغن شيئا عن « الحسين » ولا عن نفسه . وإن هو خانها وصارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » فقد يحفظ على « الحسين » حياته وعلى نفسه حياتها .

وقد كان ما قدر « عمر بن سعد » وإن لم يكن كُل ما قدَّر كان ، فما إن صارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » حتى قال « ابن زياد » لمُسلم : لا يخونك الأمين ، ولكن قد يؤتمن الخائن . أما مالك فهو لك تصنع به ما شئت . وأما « الحسين » فإن لم يُردنا لم نرده ، وإن أرادنا لم نُكفَّ عنه وأما جثتك فإنا إذا قتلناك لا نبالى ما يُصنع بها .



- ١٤ -

إذن لم يكتب « عمر بن سعد » إلى « الحسين » ، كما طلب منه « مسلم » ، ولكن كتب إليه « ابن الأشعث » كما أراد منه « مسلم » ويلقى رسول « ابن الأشعث » « الحسين » فيخبره فلا يثنيه هذا ، وهو يظن أن إجابة « مسلم » فيما كتب إليه أولا أولى به .

وكأنى بالحسين لم يكن عليه غير أن يُجيب ، وإلا ففيم كان امتناعه على « يزيد » بالبيعة ؟ وفيم كان إرساله « مسلم بن عقيل » قبله يتحسس له ؟ وفيم كانت هذه الشائعات التى ملأت عليه الآفاق ؟ ... وفيم كان تعريضه أنصاره يلقون مالقوا وهو عنهم بعيدِ ؟ ...

إلا أنه لو استجاب للثانية لاتُّهم فى عزمه ، ولاتُّهم فى شجاعته ، ولقضى على ما يملك فى القلوب ، ولفَض الناس من حوله إلى آخر الدهر . فما عليه إذا مضى ، ولكنه ملوم إن قعد .

أو ليس الذى خرج له حقا ليس له وحده ؟ ولكنه للبيت الذى ينتمى إليه ، وإن هو ارتد واستكان ، كما ارتد أخوه « الحسن » فَتّ فى عضد آله ، وفتّ فى عضد الناس من حول آله ، ولكنه إن مضى على وجهه فلا يبعد أن يظفر بحقه ، أو يموت فيترك آله على هذا الحق ، والناس من حوله لا يرجعون .

على هذا صمم « الحسين » ، وبهذا أجاب رسول « ابن الأشعث » إليه يقول له : كل ما قُدر نازل ، وعند الله نحتسب أنفسنا .

☆ ☆ ☆

ولكنه قد كان إلى جنب « الحسين » بمكة قوم مُشيرون ناصحون ، يعزّ عليهم أن يمضى « الحسين » إلى وجه لا يؤمَن عليه فيه التلف .

فيأتيه « عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » فيقول له : إنى أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى أنك مُستنصحى قلتها وأدّيت ما علىّ من الحق فيها ، وإن ظننت أنك غير مستنصحى كففت عما أريد »

فيقول له « الحسين » : « قل ، فوا لله ما أستغشك ، وما أظنك بشىء من الهَوى » .

فيقول له « عمر بن عبد الرحمن » : « قد بلغنى أنك تريد العراق ، وإنى مُشفق عليك ، إنك تأتى بلدا فيه عُمّاله وأمراؤه ، ومعهم بيوت الأموال ؛ وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصرَه ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه . »

فيقول له « الحسين » : « جزاك الله خيرا يابن عم ، فقد علمت أنك مشيت بنصح ، وتكلمت بعقل ، وقد آخذ برأيك أو أتركه ، فأنت عندى أحمد مُشير وأنصح ناصح .

☆ ☆ ☆

ويأتيه « عبد الله بن عباس » فيقول له : « قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبيِّن لى ما أنت صانع ؟ ... »

فيقول له « الحسين » : قد أجمعت السيرَ فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى .

فيقول له « ابن عباس » : فإنى أعيذك بالله من ذلك ، خبِّرنى - رحمك الله - : أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟! فإن كانوا فعلوا ذلك فَسِرْ إليهم ، وإن كانوا قد دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر وعُمالهم تجبى بلادهم ؛ فإنما دعوك إلى الحرب ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، ويُستنفروا إليك ، فيكونوا أشد الناس عليك .

فيقول الحسين : فإنى أستخير الله وأنظر ما يكون .

ويأتيه « ابن الزبير » فيحدثه حديثا غير حديث هذين اللذين سبقاه ، يحدثه حديثا يحفزه شيئا ويرُده شيئا ، فيقول له : ما أدرى كيف تركنا هؤلاء القوم وقد كففنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين ، ووُلاة هذا الأمر ، خبرنى ما تريد أن تصنع ؟

فيقول له الحسين : لقد حدثت نفسى بإتيانى الكوفة ، ولقد كتبت إلى شيعتى بها وأشراف الناس ، وأستخير الله .

فيقول له ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلتُ عنها .

و « ابن الزبير » ذو غرض ؛ يريد أن يبعد « الحسين » عن مكة ليخلو له الجو بها ، وكأنه أحس ذلك فى وجه « الحسين » وخشى أن « يتهم فيما قال ، فعاد يقول : لو أَقمتَ بالحجاز ثم أردت الأمر هاهنا ما خالفنا عليك ، وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك .

وكأنه أراد أن يطمئن ما « الحسين » فاعل ، وأنصت يستمع إلى « الحسين » يجيب جوابا ما كان أحرصه على أن يبلغه ، فإذا « الحسين » يقول : « إن أبى حدثنى أن لها كبشا ، به تستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون ذلك الكبش »

وهنا يطمئن « ابن الزبير » أن « الحسين » خارج لا محالة ، وكأنه أراد أن يضم إلى هذا المغنم الذى وقع له مغنما آخر فقال له : إن شئت توليني أنا الأمر ، فتطاع ولا تعصى .

ولكن « الحسين » كان أدرى بما يريد « ابن الزبير » ، كان « ابن الزبير » يريد أن يكون صاحب بعض الأمر حياة « الحسين » ، وصاحبه كله إن مات « الحسين » ، وما كان « الحسين » ذا غفلة يغلبه « ابن الزبير » على حقه فى هذا اليُسر وتلك السهولة ، فالتفت « الحسين » إلى ابن الزبير » وهو يقول : ولا أريد هذا أيضا .



وخرج « ابن الزبير » عن « الحسين » وقد اطمأن إلى شىء ولم يطمئن إلى شىء ، ويلتفت « الحسين » إلى الناس من حوله يقول لهم : أتدرون ما يقول هذا ؟

فيقول الناس : لا ندرى ، جعلنا الله فداك .

فيقول الحسين : إنه يقول : أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس ، والله

لأن أُقتل خارجا منها بشبر أحب إلى من أن أقتل فيها ، ولأن أقتل خارجا منها بشبرين أحب من أن أقتل خارجا منها بشبر . وأيم الله لو كنت فى جحر لاستخرجونى يقضُوا بى حاجتهم .

ويطرق « الحسين » ثم يقول : إن هذا - يعنى ابن الزبير - ليس شيء من الدنيا أحبَّ إليه من أن أخرج من الحجاز ، وقد علم أن الناس لا يَعدلوُن بى ، فودّ أنى خرجت حتى يخلو له .

☆ ☆ ☆

- ١٥ -

لقد علم « الحسين » أن الحجاز يضم حوله أهل الرأى ، ولكنه لا يضم حوله أهل الحرب ، ولقد علم « الحسين » أن أهل الرأى لا يغنون فى مثل تلك الفتنة قدر ما يغنى أهل الحرب ؛ لهذا كان عزمه على أن يخرج إلى العراق ويترك الحجاز ، ثم هو إن كسب العراق بأهل الحرب .. فسوف يكسب الحجاز بأهل الرأى ، وما عليه أن يُخلّى الحجاز إلى حين .

ولقد علم أهل « الحسين » أنه ما بقى فى الحجاز فهم ضامنون بحياته شيئا وإن قلّ ، وأنه إن خرج إلى العراق فهم متوجّسون أن يُخذل « الحسين » فيفوت عليهم ذلك القليل الذى قد ينمو مع الزمن .

من أجل ذلك عاد إليه « ابن عباس » يقول : إنى أتصبّر ولا أصبر ؛ إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال . إن أهل العراق قومٌ غدر فلا تَقْربهم ، أقم فى هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يُريدونك - كما زعموا - فاكتب إليهم فَلينفوا عاملهم وعدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونا وشعاباً ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة . وأنت عن الناس فى عزلة ،

فتكتب إلى الناس ، وترسل رسلك وتبعث دعاتك ، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية .

فيقول له الحسين : يابن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مشفق ، وقد أزمعت وأجمعت المسير .

☆ ☆ ☆

وهكذا ترى الرأى قد اختلفت وجوهه :

فالحسين ينظر إلى الدعوة ولا ينظر نفسه ، لا يرى أن ينكل عن أنصاره وقد أثارهم ، فلا يجدهم بعدُ معه إن حاول أن يُثيرهم .

ويرى أن هذا الأمن الذى ينشدونه له لن يغنى إلا هؤلاء المشيرين من حوله ، يأنسون به حياته وادعين مطمئنين ، ولكنه سوف يَفُت فى عضد أنصاره ، ويخمد جذوة هذا الحق فى نفوسهم ، كما أخمدتها مهادنة أخيه « الحسن » لمعاوية .

ويرى أن أباه حين ولىَّ مقتولا .. كان خيرا من أخيه حين ولى غير مقتول .

ويرى أن الثورة لا بد لزعيهما من أن يركب الصعب ، لا يحتاط حتى يُقحم مَن بعده على ركوبه ، وأنه إن هو حمل اليسير فيها حملوا هم ما هو أيسر منه ، وانكفئوا لم يحققوا شيئا .

ويرى أنه يدبّر لمن بعده ، فلا عليه أن يمضى هو بالغرم ليكون لمن بعده الغُنم .

وكان « ابن عباس » يرى أن « الحسين » إن فاتهم .. فقد فات الدعوة من يحمل رايتها .

ويرى أنهم به مُحتمون ؛ فإن هو قُتل هان قتلهم على أعدائهم .

ويرى أن الدعوة لمّا تستقم فى النفوس ، لمَا يعلمه عن أهل العراق – وهم أكثر الناس إيمانا بها كما يبدو – وأن بقاء « الحسين » داعيا .. فيه ما يكفل لهذه الدعوة الدُّخول إلى القلوب لتملأُها .

ويرى أن بقاء « الحسين » لهذه خير له ولهم من ذهابه ، والنفوس لم تتصل بالدعوة اتصالا قوياً .



– ١٦ –

ولكن الأمر سيمضى على ما رأى « الحسين » لا على ما رأى « ابن عباس » ، فلم يجد « ابن عباس » جديداً يثنى به « الحسين » عما رأى ، ولكنه أحب أن يدخل إلى قلبه من باب آخر ، فقال له : إن كنت سائراً فلا تَسر بنسائك وصِبْيتك ، فإنى لخائف أن تُقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولدُه ينظرون إليه .

ويجد « ابن عباس » هذه لا تَهول « الحسين » فيأخذ فى أخرى ، ويمضى يقول له :

لقد أقررت عين « ابن الزبير » بخُروجك من الحجاز ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك .

فلا يلين له « الحسين » . ويلتفت إليه « ابن عباس » مغضبا ، وكأنه همّ أن يخرج عن القول إلى فعل ، ولكنه قبل أن يفعل أحب أن يتبين أثر ما سوف يفعل فى نفس « الحسين » إن هو فعل . فقال له : والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنى إن أخذت بشعرك وناصيتك – حتى يجتمع علينا الناس – أطعتنى فأقمت .. لفعلت ذلك .

فيجد « الحسين » قد كاد يُنكرها عليه ، فيسكن متخاذلا ، ويقوم عنه وهو يردد : قرّت عينك يا « ابن الزبير » ثم ينشد :

يـــا لـــك من قُنبرة بمَعمر خـلا لـك الجـو فبيضى وأصفرى
ونقّرى مـــا شئت أن تُنقرى لا بد يـومـا أن تصَادى فـاصبرى

ثم يقول - وكأنه يخاطب ابن الزبير - : هذا الحسين يخرج إلى العراق يخلّيك والحجاز .

- ١٧ -

ويخرج « الحسين » من مكة فى طريقه إلى الكوفة فيمر بالتَّنعيم ، وهناك يلقى عيراً قد أقبلت من اليمن ، بعث بها إلى « يزيد » عاملُه عليها ، فيأخذها « الحسين » ويقول لأصحاب الإبل : من أحب منكم أن يمضى معنا إلى العراق أوفَينا كراءه وأحسنّا صحبته ، ومن أحبّ أن يُفارقنا من مكاننا أعطيناه نصيبه من الكِراء .

ففارقه منهم أناس فأعطاهم حقهم ، ومضى معه أناس فأعطاهم كراءهم وكساءهم .

☆ ☆ ☆

غرضٌ خرج إليه « الحسين » ولم يملك له أهبة ، فكل ما وقعت عليه يداه من مغنم فهو أهبته إليه ، وعامّة الناس فى ذلك بين يدى فتنة يريدون أن يخرجوا منها إلى مأمن ، يحسبونه هنا فيميلون ، ويحسبونه هناك فيمضون ، ويغلبهم على أمرهم هذا فينصاعون ، ويسوقهم إليه ذاك فيخرجون ؛ لأنهم لم يكن لهم رأى يدبّرونه ، ولا كلمة يجتمعون عليها .

ويمضى « الحسين » بمن معه حتى يبلغ « الصفّاح » فيلقاه الفرزدق

الشاعر ، وقلبه مع الحسين » ، فيدعو له وهو يقول : أعطاك الله سؤالك وأمّلك فيما تحب .

ويأنس به « الحسين » فيقول له يسأله : بيّن لى خبر الناس خلفك .

فيقول الفرزدق : على الخبير وقعت ، قلوب الناس معك ، وسُيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء .

ولقد صدق الفرزدق شيئا ، وإن كان لم يبلغ الصدق كلّه . فما دخل الإيمان بهذه الدعوة قلوب الناس فاستوعبها ، ولو صح لكانت سيوفهم طوع قلوبهم ، ولكنه كان إيمانا لمّا يستوعب القلوب ، لهذا كانت القلوب ناحيةً والسيوف ناحيةً أخرى .

☆ ☆ ☆

ولكن « الحسين » كما قلنا غير راجع، فيقول للفرزدق : صدقت ، لله الأمر ، يفعل ما يشاء ، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نَعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ؛ وإن حال القضاء دون الرجاء ؛ فلم يعتد من كان الحق نيته والتّقوى سريرته .

☆ ☆ ☆

ويمضى « الحسين » فى طريقه فيُدركه ولدا « عبدالله بن جعفر » : عدن ومحمد ؛ بكتاب أبيهما إليه يقول له فيه : « أسألك بالله لما انصرفت حين تقرأ كتابى هذا ، فإنى مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، وإنك إن هلكت اليوم .. طُفِئَ نور الأرض ، فإنك علم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير .»

ولا يجتزىء « عبدالله بن جعفر » بهذه ؛ بل يسعى إلى « عمرو بن

سعيد بن العاص » ، وكان أميرا ليزيد على الحجاز ، فيقول له : اكتب للحسين كتاباً تجعل له الأمان فيه وتمنّيه فيه البر والصلة ، واسأله الرجوع .

ويستجيب « عمرو » لـ « عبدالله » ويرسل بهذا الذى طلب كتاباً يبعثه إلى الحسين ، يحمله إليه أخوه « يحيى بن سعيد » ، ومعه « عبدالله بن جعفر »

ويدركه « يحيى بن سعيد » و « عبدالله بن جعفر » ببعض الطريق ، ويقرآن عليه كتاب « عمرو بن سعيد » ، ويجهدان معه ليحملاه على أن يرجع ، فلا يفعل .

فلقد امتلأت نفس « الحسين » بغرضه الذى خرج يسعى إليه ، لم يُعد يقوى صارف أن يصرفه عنه ، حتى لقد رأى نفسه بين يدى هذا الغرض مأمورة ، يُملى عليها عقله الباطن ، وتوحى إليه الرُّؤى ، وما كان لمثل « الحسين » أن يتنكر لما يُمليه عليه عقله الباطن ، أو أن يخالف عن تلك الرؤيا التى رآها ، فقد رأى أن رسول الله - ﷺ - يأمره بأمر يمضى له ، فمضى لهذا الأمر الذى أمره به رسول الله - ﷺ - لا يرجع عنه .

وإن كان لم يُفصح للناس عنه حين سألوه : ما تلك الرؤيا .

فقال : ما حدَّثت بها أحداً ، وما أنا بُمحدِّث بها أحداً حتى ألقى ربى .

صدق « الحسين » فيما رأى ، وصدق رسول الله - ﷺ - فيما ألهم ، فلقد كان « الحسين » مَسوقاً إلى قضاء الله وقدره ، وما هو بمستطيع أن يهرب من قضاء الله وقدره .



هذا ، و « الحسين » لمّا يبلغه مقتل ابن عمه « مسلم بن عقيل » ولما يبلغه مقتل « هانىء » .

فأما الأول : فأهله وذووه حول « الحسين » وما أظنك ستسمع منهم غير كلمة الثأر ، تجرى حارّةً على ألسنتهم ، وتخفق بها قلوبهم .

وأما الثانى : فأهله وذووه فى الكوفة ، وقد عرفت من أمرهم ما كان .

فما كان « مسلم بن عقيل » هيناً على أهله وذويه ، وما كان « مسلم بن عقيل » هيناً على « الحسين » ، وما أبعد « الحسين » ولا أبعد آل « مسلم بن عقيل » عن الجاهلية كثيراً فينسوا الوتر وينسوا الثأر .

فانضم هذا إلى ما عند « الحسين » من عزم أخير على أن يسير ، على الرغم من تثبيط نفر من أصحابه ، كانوا من أنصاره ولم يكونوا من أهله ، فعز عليهم مقتل « مسلم » ولكن هالهم هذا العزم فخافوا وتعلقوا بالحسين يرجونه ألا يمضى .

ولكنهم على هذا كانوا يُشفقون للمَوتورين من آل « مسلم » فملكوا رأيهم حين أشاروا ، ولم يملكوا قلوبهم حين وَجِدت على القتيل ، وحين رثت للموتورين ، لهذا لم يُغن رأيهم شيئا ، وغلبتهم كلمة « الحسين » على هذا الرأى حين سمعوه يقول : لا خير فى العيش بعد هؤلاء . وغلبتهم على رأيهم كلمات أخرى صاح بها نفر من المَوتورين ومن غير الموتورين ، وهم يقولون للحسين : ما أنت مثل « مسلم بن عقيل » ولو قدمت الكوفة لكان الناس أسرع إليك .



ومضى « الحسين » لا يمر بماء إلا اتبعه من عليه ، فإذا هو كثير الجند بمن انضم إليه ، وإذا هذه الكثرة المنضمة ترد أصحابه المتهيبين إلى إقدام ، وتزيد أصحابه غير المتردّدين إقداماً .

وإذا حادثة أخرى تنضمّ إلى ما كان فتقتلع ما بقى من تهيُّب فى نفوس هؤلاء المتهيبين ، وتملأ قلوب غيرهم حماساً .

فقد كان « زهير بن القين البجلى » خرج للحج - وكان عثمانيا - فلما عاد من حجه جمعه و« الحسينَ » الطريق ، وكان يساير الحسين .. إلا أنه لا ينزل معه ، واستدعاه « الحسين » فلم يجبه ، ثم أجابه على كُره منه .

وإذا هو حين خرج من عند « الحسين » يدعو أصحابه إليه يقول لهم : « من أحب منكم فليتبعنى ، وإلا فإنه آخر العهد به وسأحدثكم حديثا : غزونا بَلنجر - مدينة ببلاد افرزر ، ففُتح علينا وأَصبنا غنائم ففَرحْنا . وكان معنا « سلمان الفارسى » فقال لنا : إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد .. فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم معه ، ما أصبتم اليوم من الغنائم ؛ فأمّا أنا فأستودعكم الله . ثم طلّق زوجته وهو يقول لها : الحقى بأهلك ، فإنى لا أحب أن يُصيبك فى سَبَبى إلاَّ خير . ولزم « الحسين » .

وهكذا مضى « الحسين » بمن معه قد نسوا كلّ ما بدا لهم من رأى صارف ، وامتلأت نفوسهم بكل ما يدفعهم إلى القتال دفعا ، لا يثنيهم بعد هذا من يعرض لهم ببعض الطريق يَلفتهم عما عقدوا عليه النية ، إلى ما نبذوه وراءهم ظهريّا .

كذلك الذى كان من «عبدالله بن مطيع » حين لقى « الحسين » فى طريقه إلى الكوفة على ماء من مياه العرب ، فتعلق به يستحلفه وهو يقول له : بأبى أنت وأمى يا بن رسول الله ، ما أقدمك ؟ ... أذكرك الله يا بن رسول الله وحرّمة الإسلام أن تُنتهك ! ... أنشدك الله فى حرمة قريش !...

أنشدك الله فى حرمة العرب !... فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أمية ليقتلُنّك ، ولئن قتلوك .. لا يهابون أحداً أبداً ، والله إنها لحرمة الإسلام ، وحرمة قريش ، وحُرمة العرب ، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرّض نفسك لبنى أمية .

☆ ☆ ☆

كلمة لو قيلت قبل اليوم لوجدت أذنا صاغية ، ولكانت إلى كلمة « ابن عباس » – التى مرت بك – ذات صدّى ، فلقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه « زهير بن القين » أن يمضى « الحسين » مقتولا ، فلا يجد الهاشميون ومن إلى الهاشميين رجلا قويا يلتفّون حوله .

ولقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه « زهير » أن يهون أشراف الهاشميين وغير الهاشميين من أتباعهم على بنى أمية ؛ فلا يعبأون بعدها بمن يقتلون .

ولكن الناس – كما قلت لك – لمَ يعُد لهم رأى يُقلّبونه ، وإنما أصبحوا بين يدى ثأر يسعون إليه ، وقد أصبحوا قوة بمن انضموا إليهم ، وأصبحوا أقوياء بما قرّ فى آذانهم وانتهى إلى قلوبهم من كلام « زُهير بن القين البجلى » .

☆ ☆ ☆

– ١٩ –

ويكتب « الحسين » إلى أهل الكوفة يخبرهم بمقدمه عليهم ويستنهضهم ، ويبعث إليهم كتابه هذا مع رسول له .. هو « قيس بن مسهر الصيّداوى » .

ولكن الرسول يُقبَض عليه فى الطريق ، ويُسلمه القابضون عليه إلى « ابن زياد » ، وكان ابن زياد قد فرّق شرطته فى الطرق المفضية إلى الكوفة ، حين بلغه خروج « الحسين » إليه .

وكأنى بك تبسألنى ما فعل « ابن زياد » بالرسول ؟ ... وكأنى بك قد نسيت - وأنت تسأل - ما عرفت عن عنف « ابن زياد » وقسوته وفحشه ، إلا أنى لا أحب أن أغيّب عنك شيئا من عنف « ابن زياد » وقسوته وفحشه ؛ لتكون معى غير شاكٍّ فيما وصفناه به .

فلقد أمر « ابن زياد » رسول « الحسين » هذا أن يصعد القصر فيسُب الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن على » .

فيصعد الرسول القصر - وابن زياد يظن أنه قد ائتمر بأمره - فإذا الرسول يعلن بصوته المدوّى : « إن هذا الحسين بن على ، خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وأنا رسوله إليكم وقد فارقته وهو منكم غير بعيد ، فأجيبوه » .

كلمة جريئة يُمليها قلب شجاع . لو جرت على لسان غيره ممن وقعُوا فى يدى « ابن زياد » من قبل لغيرت مجرى الحوادث ، ولدفعت الناس الذى أظلهم « ابن زياد » وهم له متهيبون ، إلى العناد عليه والوقوف فى وجهه ، ولكنها جاءت متأخرة حين امتلأت القلوب هيبة من « ابن زياد » وخوفا منه .

ولقد أحسها « ابن زياد » مقلقة ذات خطر ، وأحس إن هو فوّتها بعقُوبة رقيقة عادلة أُحيت فى القلوب ما أماته هو بأسلوبه القاسى العنيف ، واقتلعت ما غرس من أصوله .

لهذا التفت « ابن زياد » إلى جنده ، لم يفكر إلا فى مادبّر لهذا الرسول من عذاب شديد ، وهو يقول لهم آمرا : ارموا به من أعلى القصر .

فإذا هذا الرسول على الأرض وقد تقطع جسمه إربا إربا وقد غَرق فى دمه .

لم يفعل هذه وحدها « ابن زياد » بهذا الرسول ؛ بل فعلها برسول آخر للحسين ، وكان هذا الرسول أخا للحسين من الرضاعة ، وهو : « عبد الله بن بقطر » .

وكما وقع « قيس بن مسهر » فى يدى « ابن زياد » وقع « عبد الله بن بقطر » فى يديه ، وكما أمر « ابن زياد » « قيس بن مسهر » أن يصعد فوق القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، أمر « ابن بقطر » أن يصعد القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، وكما كان من « قيس بن مسهر » كان من « ابن بقطر » ، وكما نكَّلَ « ابن زياد » بـ« ابن مسهر » نكل بـ« ابن بقطر » .

غير أن قتل « ابن مسهر » على هذه الصورة التى مرت بك .. جرى وكان المسىء فيها واحدا ، هو : « ابن زياد » ، ولكن قتل « ابن بقطر » جرى ، وقد انضم إلى الإساءةفيه مسىء آخر غير « ابن زياد » . فما أسرع مايتعاون على الشر من تعمُر قلوبهم بالشر ، يَسبقهم إليه أجرؤهم عليه ! ...

فلقد أدرك « ابن بقطر » الأرض وبه رمق ، بعد أن تكسرت عظامه . فإذا رجل من أتباع « ابن زياد » يسرع إليه لاليخفف عن هذا الجريح أو يعينه ، ولكن ليذبَحه فيجهز عليه .

وإذا مااتجه إليه نفر من الناس أتستهم الرحمةُ بالشقِّى المُعنَّى رهبة ، « ابن زياد » يلومونه ، استخزى بيْنهم وردّ عليهم يقول : إنما أردت أن أريحه .

☆ ☆ ☆

ولقد مر قتل « ابن مسهر » ومابلغ « الحسينَ » عنه شىء ؛ ولكن مرقتل « ابن بقطر » وقد انتهى إلى « الحسين » عنه كل شىء .

عندها أدرك « الحسين » أن أخاه من الرضاعة قد بلّغ رسالته فوفَّى ، وعندها أدرك « الحسين » أن شيعته بالكوفة قد بلغتهم الرسالةُ فلم يفعلوا

شيئا ، ففتّ ذلك فى عضده ، والتفت إلى أصحابه وقد عزّ عليه أن يركب بهم طريقاً غير مأمون ، وأن يدفع بهم إلى مالا يأمنه عليهم فحركه الوفاء لمن معه ، والحرص على حياة من شايعوه على أمره ، أن يخطبهم فيقول : « خَذَلنا شيعتنا ، فمن أحب أن ينصرف فَلْينصرف ، ليس عليه منّا ذمام .

وكأنى بالحسين قد أحس من الأعراب حوله ماقد دار بخلدهم حين التفوا به واجتمعوا حوله ، وأنهم قادمون معه على بلد قد استقامت له طاعة أهله ، وإن هى إلاّ جولة أو اثنتان ، ثم ينقلبون بالخير الكثير والمغنم الواسع .

وكأنى بالحسين وقد خشى أن يعرف الناس فيما بلغهم من قتل « ابن بقطر » وتخاذل الشيعة ،مايفزعهم ، فيرتدون عنه عن غير أمره ، مشفقين من هذه الحرب النكراء التى هم مُستقبلوها ، وقد ظنوها ليس فيها عناء .

وكأنى بالحسين وقد أراد أن يكون الناصح الأمين : كما هو العهد به ، لا يغرّر ولا يخدع ، فأحب أن يكشف للناس معه عمّا سيُلاقون .

ولقد صدق « الحسين » ظنُّهُ ؛ فما إن قال ماقال حتى تفرّق هؤلاء الذين التفوا حوله راغبين فيه شيئا ، وطامعين فى المغانم شيئا ، فإذا حياتهم أغلى عليهم من هذه الرغبة ، وذلك الطمع ، ومضى « الحسين » إلى طيته بمن بقى معه من أصحابه الذين خرجوا معه من مكة .

— ٢٠ —

لقد كان « الحسين » غير هؤلاء جميعا يؤمن أنه مقحم نفسه فى شر كبير ، ولكنه يؤمن معه بأنه بين يدى واجب كبير ، ويؤمن بأن شيعته قد تخاذلوا ؛ ولكنه يؤمن مع ذلك بأن عليه أن يلقاهم ، عسى أن يغنى هذا اللقاء فيعوضه مافات ، ثم هو – كما قلت لك – مدفوع إلى ذلك دفعا ، يستحثه قضاء الله وقدره ، إلى حيث يكون قضاء الله وقدره .

لهذا لم يسمع الحسين إلى هذا العربى الذى لقيه غير بعيد من الكوفة ، وكان على علم بما أعد القوم له ، وكان على علم بما انتهى إليه أمر الشيعة ، فقال : أنشدك الله لما انصرفت ، فوالله ماتقدم إلاَّ على الأسنة وحدّ السيوف ، وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ، ووطئوا لك الأشياء فقدِمت عليهم ؛ لكان ذلك رأيا ؛ فأما على هذه الحال التى تذكرها فلا أرى لك أن تفعل .

فما كان جوابَ الحسين إلاّ أن قال : إنه لايخفى علىَّ ماذكرت ، ولكن الله عز وجل لايُغلب على أمره .

☆ ☆ ☆

ويمضى الحسين على رأس جيشه المكدود ، أما عن عناء السير ومشقة السفر فلا تبالى الجيوش كم تجشمت ، وكم أياما طوتها على الجوع والظمأ ، وكم جرعة كدرة ارتشفت ، ولقمة قذرة أكلت ، كما لايشفق قادة الجيوش بما يعانى الجسد من هذا كله ؛ اللهم إلاَّ أن يجرهم إلى متلفة . فلذلك كله خُلق الجندى ، وعلى هذا كله يُمرَّس الجندى .

أما الذى يدخل على الجيوش فُيوهن من بأسها ، ويَفُل من عَزْمها ، ويرُد النفوسَ جزعة ، والقلوب هلعة ؛ فذلك هو ماتخشاه الجيوش ، ويخشاه قبلها قادتها .

ولقد دخل على جيش الحسين من هذا كله شىء كثير ، فمنذ غادر هذا الجيش المدينة يقصد قَصْد مكة ، وهو بين فِتن هوجاء ، وآراء مضطربة ، وكلماتٍ موزعة ، لايكاد يجتمع على شىء إلا بدا له غيره ، ولايكاد يمسك بما بدا له حتى يرتدَّ إلى ماترك ، وإذا هو آخر الأمر يضرب فى الأرض بخطى ثقيلة ، وعقول موزعة ، ونفوس مبلبلة ، لايدرى ماهو ملاق فى يومه ، ولاماهو مُستقبل فى غدهِ . ثم هو أجهل مايكون بما عبأه له « ابن زياد » وماأعدّ له .

ليست له طليعة كاشفة ، ولاعيون راصدة ، ولا أدلاَّء هادون ، كما ليس له مُعتَمد من عَتاد ، ولامُدَّخر من زاد ، ولاخُطة فى إقبال ولاإدبار .

تحس ذلك جليًا حين أدرك هذا الجيش « شراف » مع منتصف النهار ، وقد غطّت الشمس الأرض فكشفت لهم عن كل ماعليها ، وإذا رجل من جيش الحسين يكبّر ، وإذا أصحابه يفزعون إليه يستوضحونه .. لم كان تكبيره ؟ فيقول : إنى أرى نخلا - يعنى أنهم قد أشرفوا على الريف ، وهذه نخلاته ليس بينهم وبين أن يصيبوا من ثمرها إلا خطوات ، ويعنى هذا الرجل أنهم قد أشرفوا على حدود العراق ، وهم على أن يدخلوه دون أن يلقوا كيدا .

فيقف إليه رجلان من بنى أسد ، كانا على علم بمواقع الأقدام فيقولان : نحن فى أرض لا عهد لها بنخل قط .

وعند هذا تشرئبُّ عنق « الحسين » ينظر ، وتشرئبّ أعناق القوم ينظرون ، فإذا ما رآه هذا الرجل نخلا إنما هو خَيل العدو وهذه هواديها تهتزُّ على صفحة البيداء ، فيخيِّل الجوع شيئا ، ويخيِّل اليأس شيئا ، فيحسبون أنهم أدركو الريف ، وأنهم على أبواب العراق .

وهنا يقف هذا الجيش المكدود ليستقبل جديدا لم يكن فى حسبانه ، يصحو عليه كما يصحو النائم المفزع ، لا يدرى أهو لا يزال موصولا بنومه ، أم هو قد استيقظ منه .

ويلتفت الحسين إلى هذين الرجلين الأسديِّين ليستشيرهما ، وقد عرف ما عندهما من خبرة ، وهو يقول لهما : وهل لنا من ملجأ نلجأ إليه نجعله فى ظُهورنا فنستقبل القوم من وجه واحد ؟

فيدلانه على جبل إلى جنبه عن يساره ، وسَرعان ما مال إليه « الحسين » بمن معه ، وسرعان ما تبعتهم خيل العدو إليه فكانوا تلقاءهم .

ولم يكن هذا الجيش الذى خرج للقاء « الحسين » من الكوفة ينتظم غير أهل الكوفة ، ولم يكن قائد هذا الجيش الذى خرج على هذا الجيش من الكوفة إلاّ رجلا من أشراف الكوفة .

ترى أين هم شيعته الذين كاتبوه ؟ ... وترى أين هم جنده الذين خرج ليلقاهم ليعينوه ؟

إنهم كانوا لا شك من أهل الكوفة ، وهاهم أولاء أهل الكوفة أمامه ، ولكنهم جاءوه حربا عليه لامددا له .

ولكن ما باله لا يلقاهم فيذكّرهم بما كان منهم إليه ، فقد يكون « ابن زياد » ألّبَهم عليه وغَرَّهم عمّا يؤمنون به ، وبذل لهم ما يفسد نفوسهم .

وعلى هذا صمم « الحسين » ، فخرج إليهم يخطبهم وهو يقول : « أيها الناس ، إنها مَعذرة إلى الله وإليكم ، إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورُسلكم أن أقدم إلينا ، فليس لنا إمام ، لعلّ الله أن يجعلنا بك على الهُدى . وقد جئتكم ، فإن تعطونى ما أطمئن إليه من عهودكم .. أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا وكنتم بمَقدمى كارهين .. انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه .

وينبرى له « الحُرّ بن يزيد التميمى » قائد هذا الجيش الكوفى - فيقول : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل التى تذكر .

عندها يُخرج « الحسين » ، خُرجين مملوءين صحفا ، فينثرها بين يدى « الحر » والقوم ينظرون .

فيقول له « الحر » فى حزم ، وكأنه لم ير شيئا : فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك .



موقف جديد غير ما سبقه من مواقف ، ما كان أولى « الحسين » أن يقفه منذ أن فكّر فى الأمر ، ومنذ أن كانت له عليه عزيمة .

ولكن الأمور – كما تبين لك – مرت عَجِلة مضطربة ، يدفع إليها أمل أولا ، ويُنهض إليها حقٌ ثانيا ، وتَسوق الأحداث مع هذا وذاك ما يحفز إلى هذا الأمل وذاك الحق ، وما يصرف عن هذا الأمل وذاك الحق ، ولكن النفوس إذا امتلأت بهذا الأمل وتعلّقت بذلك الحق كانت آبى على ما يصرفها ، وأمْيَل إلى ما يدفعها ، وكذلك كان الحسين .

ولكن « الحسين » فى ساعته هذه بين يدى حقيقة مُرة تصرفه عن أمله وعن حقه ، وهو لا يملك أن يمضى ، ولكنه يؤثر أن ينصرف . ولقد خال إن هو فعل أنه صارفٌ عنه عدوّه ومُنصرف هو إلىَ حيث يريد .

ولقد كانت هذه هيّنة على « ابن زياد » أن يُعطيها . ولكنه داهية محنَّك يعرف ما عند الهاشميين ولا يَجهله ، ويعرف أن « الحسين » إن نجا من هذه فهو لا شك مدبِّر لغيرها ، وهو من أجل ذلك قد أوصى قائده ألا يدع « الحسين » يرجع ؛ بل يأتيه به .

وكان « الحسين » هو الآخر داهية محنَّك ، يعرف ما عند الأمويين ولا يجهله ، ويعرف إن هو أسلم نفسه إلى « ابن زياد » فقد قضى على دعوته أوَّلا ، وقد يقضى على حياته ثانيا ، ولم تكن حياته إلى دعوته شيئا يأبه له الحسين ، ولكن كانت دعوته إلى حياته هو ما يأبه له . من أجل ذلك أبى على قائد « ابن زياد » أن يمضى معه إليه ، وقال له بعد أن أخبره « الحر بن يزيد التميمى » بأنه غير تاركه حتى يقدم به على « ابن زياد » : الموت أدنى لك من ذلك .

ولقد هم « الحسين » لينصرف بجيشه ، فمنعه « الحر » . ولقد أغلظ « الحسين » للحر ، فلم يُغلظ « الحر » للحسين ، وما نظن القوم الكوفيين

قد تجردوا عن كل ما يكنون للحُسين من تعظيمه ، وإن كانوا قد اضطروا أن يتجردوا عن غيره .

ولقد رفق « الحر » بالحسين يريد أن يرزقه الله فيما ابتُلى به العافية ، ولقد رزق الله « الحر » هذه العافية فيما ظن ، وهو يشير على « الحسين » بأن يأخذ طريقا لا تُدخله الكوفة ولا ترده إلى المدينة ، وهو يريد بذلك أن يكسب وقتا يكتب هو فيه إلى « ابن زياد » ، ويكتب « الحسين » فيه إلى « يزيد » أو « ابن زياد » لعل الله أن يأتى بأمر يكون فيه الفرج .



– ٢١ –

ويسير « الحسين » ويسايره « الحر » ، و « الحسين » طامع فى قلوب هؤلاء الجند الكوفيين الذين مضوا إلى جنبه يسايرونه ، يخطبهم ويذكرهم وعودهم ، ولكنه كان فى خُطبه هذه شديداً عليهم عنيفا بهم ، ولقد أثر له من قوله فيهم : « قد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تُسلموننى ولا تخذلوننى ، فإن أقمتم على بيعتكم تُصيبوا رشدكم . وأنا الحسين بن على بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، نَفسى مع نفسكم ، وأهلى مع أهلكم . فلكم فىّ أسوة . وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى وخلعتم بيعتى فَلعمرى ما هى لكم بنكير . لقد فعلتموها بأبى ، وأخى وابن عمى « مسلم بن عقيل » والمغرور من اغترّبكم فحظكم ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه . وسيُغنى الله عنكم .



وكما لم تغن خطبته الأولى فيهم .. لم تغن خطبته الثانية ، والقوم هم القوم مسيَّرون لا مخيرون ، وقائدهم هو قائدهم مسيّر هو الآخر لا مخير ،

ويخاف أن يبلغ « ابن زياد » عنه أنه مال أو حاد أو فَتر : فيقول للحسين وهو يخوفه : أذكِّرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن .

فيهيج « الحسين » لما قال « الحر » ويلتفت إليه مغضبًا وهو يقول له :

أبالموت تُخوفنى ؟!. وهل يبدو بكم الخَطب أن تقتلونى ، ماأدرى ماأقول لك ، ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ، وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ : إلى أين تذهب فإنك مقتولٍ ؟ فيقول هذا الأوسى :

سأمضى ومابالموت عار على الفتى إذا مانوى خيراً وجاهد مسلما

☆ ☆ ☆

وهكذا رأى « الحسين » فيما يُعرض عليه ذلَّ الأبد فلم يرضه ، ورأى نفسه فى محنة ، والمحن كما تضيق تنفرج ، يملأ اليأس قلوب الضّعفاء فيجبنون ويصغرون ، وتتأبى على اليأس قلوب الأقوياء فلا يهنون .

ولقد كان « الحسين » من هؤلاء الأقوياء فلم يَهن ، ومضى فى سيره و« الحر » يُسايره .

وفيما هم ماضون يخبطون فى الأرض لاتعُرف لهم وجهة ، ولكنهم على كل حال غير قاصدين قَصد الكوفة ، ولاقاصدين قصد المدينة ، إذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم .

وكان « الحسين » على الرغم مما بدا له من أهل الكوفة لايزال يَربطه أمل بهم ، فلقد كانِ يؤمن فى قرارة نفسه أنهم أنصاره ، ولكن غلبه « ابن زياد » عليهم ، وأنهم بين يدى دنيا فيها كل مايُغرى من مال وجاه ونشب ، وقد ملكه « ابن زياد » باسم « يزيد » ، وفيها كل مايُغرى بنَصْره على حقه ، طمعا فى ثواب وطمعا فى قربى من آل البيت ، وقد ملَك هو أسبابها ، ولكنه لم يستطع أن يملأ بها قلوبهم ليَنسوا ماأغراهم به « ابن زياد » .

وعلى نحو ماعرف « الحسين » أهل الكوفة عرفهم « الحر بن يزيد التميمى » من أجل هذا تطلع الحسين إلى هؤلاء النفر الأربعة الذين طالعوه من الكوفة ، وهو يظن أن عندهم خبرا ينتفع به ، ومن أجل هذا تطلع « الحر » إلى هؤلاء النفر ، وهو يظن أن عندهم شراً يُفسد عليه أمره .

ومن أجل هذا أراد « الحسين » أن يلقاهم ليعرف ماعندهم ، ومن أجل هذا أراد « الحر » أن يمنعهم عنه ، ويقول « الحر » : إن هؤلاء النفر من أهل الكوفة وأنا حابسهم أو رادهم .

ويقول الحسين : لأمنعنّهم ممّا أمنع منه نفسى ، إنما هؤلاء أنصارى ! وهم بمنزلة من جاء معى ، فإن كففت عنهم وإلا ناجزتك .

ولقد كان « الحر بن يزيد ، يبغى العافية لنفسه ماستطاع ، ولم ير فيما طلب « الحسين » كبير بأس ، وهل هم غير أربعة لايغنون شيئا ، ولقد ترك الكوفة لابن زياد ، وترك « ابن زياد » « الحسين » له ، فكف عنهم .

ويجلس إليهم « الحسين » يستخبرهم خبر الناس خلفهم ، وهو يطمع فى أن يسمع منهم غير مابلغه عنهم ، فيوجه الأمور توجيها جديدا . فينبرى للحسين أحدهم وهو يقول : أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم ، وملئت غرائرهم ، فهم إلبّ واحد عليك . وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسُيوفهم غدا مَشهورة عليك .

ويلتفت إليه ثانيهم وهو يقول : « لقد رأيت قبل خروجى من الكوفة بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس مالم تَرَ عيناى جَمعا فى صعيد واحد أكثر منه قط ليسيروا . فأنشدك الله إن قَدرت على ألا تَقدم إليه شبراً فافعل .

فأطرق « الحسين » وهو يقول :

إن بيننا وبين هؤلاء القوم قولا .. لسنا نَقدر معه على الانصراف ، ولاندرى علام تتصرف بنا وبهم الأمور .

☆ ☆ ☆

حيرة لايقدر « الحسين » على أن يقضى فيها برأى ، لايملك أن يرجع عنهم ، كما لايملك أن يرجع إليهم . ولكنه صاحب حق يؤمن به ، ومايُحب أن يهزم عليه ، وأن يكون الهازم له هؤلاء النفر من الأمويين الذين يراهم مغتصبين ثم هم غير عادلين ، وهؤلاء النفر من أهل الكوفة الذين كانوا له فإذا هم عليه .

وإنها لمُرة على النفس أن يَهزمك خَصمك بصَديقك ، ويغلبك بأنصارك .

ويمعن « الحسين » فى إطراقه ، فإذا رأسُه يخفق خَفقة ثم ينتبه وهو يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين » .

فيفزع لما نطق به الحسين ابنه « على بن الحسين » ويُقبل على أبيه آسيا وهو يسأله : « ياأبت !... جعلت فداك ، ممّ حمدت واسترجعت ؟...

فيجيبه أبوه آسياً كذلك ، « يابنى !... إنى خفقت برأسى خفقة فعنّ لى فارس على فرس فقال : « القوم يسيرون ، والمنايا تسير » فعلمت أن أنفسنا نُعيت إلينا .

فيقول علي : ياأبت ، لاأراك الله سوءا ، ألسنا على الحق .

فيقول له الحسين : بلى ، والذى يَرجع إليه العباد .

فيقول على : إذن لانُبالى أن نموت محقين .

فيقول له الحسين : جزاك الله من ولد خيرا ، ماجزى والداً عن ولده .

☆ ☆ ☆

وهكذا قَرَّ فى نفس « الحسين » أن يستدبر دنياه ليستقبل أخراه ، وهكذا اطمأن الحسين حين سمع ماسمع من ابنه أن فى إثره مَن سيحمل هذا الحق عنه .

ولكنه كان على هذا مُشفقا على أصحابه ، لايريد أن يعرّضهم للتلف ، ولاأن يتركهم فريسة للعدو ، فأخذ يَميل بهم يَسرة ويَمنة ، يريد أن يفرّقهم ، ويريد أن يَنفَضُّوا عنه و« الحر » يأبى عليهم ذلك ، وهو يريد أن يسوقهم بجمعهم إلى الكوفة فيأبون عليه .

وفيما هم فى ذلك إذا راكب من الكوفة قد أقبل عليهم فتلبّثوا ينظرون على أمل ، وإذا هو يسلم على « الحر » ولا يسلِّم على « الحسين » ، فتطلّعوا ينظرون على غير أمل .

فلقد كان هذا الراكب رسول « ابن زياد » إلى « الحُر » وإذا معه كتاب إليه وإذا فيه : أما بعد ؛ فجعجع بالحسين - أى ضيّق عليه المكان - حين يبلغك كتابى ويَقدم عليك رسولى ، فلا تنزله إلا بالعَراء فى غير حِصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يَلزمك فلا يُفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى ، والسلام .

☆ ☆ ☆

وكان « الحر » كما تعلم رجلا يحب العافية ، ولكنه كان إلى ذلك رجلا يخاف « ابن زياد » . وحب العافية فى ملك الرجل ما لم يَنقضه عليه الخوف ، لا سِيّما إذا كان هذا الحب للعافية لونا من ألوان البقية التى كانت فى قلب « الحر » .

لذلك سرعان ما استجاب « الحر » لأمر « ابن زياد » يتخذ من وجود هذا الرسول معه عينا عليه ، وفى هذا ما يُبرر به هذه الاستجابة لأمر « ابن زياد » .

فلقد ضيّق « الحر » على « الحسين » ومن معه ما وسعه هذا التضييق ، وأخذهم بالنزول على غير ماء ولا فى قرية .

ويقول له الحسين ومن معه : دعنا ننزل على ماء أو نحل قرية .

فيقول لهم الحر : لا أستطيع ، إن هذا الرجل قد بُعث عيناً علىّ .

☆ ☆ ☆

عند هذا ينبرى أحد رجال « الحسين » للحسين يقول له : « إنه لا يكون والله بعد ما ترون إلا ما هو أشد منه يابن رسول الله ، وإن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ، فلعمرى ليأتينّا من بعدهم ما لا قِبَل لنا به .

فيقول الحسين : ما كنت لأبدأهم بالقتال .

وما إن يُظلهم الغد حتى تُظلّهم شدة أخرى ، لاتَدع لهم مجالا فى التفكير فيما أشار به المشير بالقتال . فقد رأوا جيشا جديدا يُطالعهم من الكوفة ، وعليه « عُمر بن سعد بن أبى وقاص » ، ينضم إلى هذا الجيش الذى أحاط بهم وعليه « الحر بن يزيد» .



— ٢٣ —

ولقد كان لـ « عمر بن سعد بن أبى وقاص » قَبل أن يقدم بجيشه مَع « ابن زياد » قصة ، ولقد كان فى هذه القصة ما يُلقى ضوءاً جديدا على ما نحن فيه ، وما يكشف لك شيئا عن تحوّل الناس عن الأخذ من دنياهم بما ينَفعهم لآخرتهم ، إلى الأخذ من دنياهم بما لا ينفعهم فى آخرتهم ، وما يدلك شيئا على أن الناس انصرفوا عن الغرض العام الذى يؤسّس لدولة صالحة نَفعها لهم جميعا ، إلى النَّفع الخاص الذى يمهّد لجاه فردى نفعُه لآحاد منهم .

فلقد كان « عبيد الله بن زياد » بعث « عمر بن سعد بن أبى وقاص » على هذا الجيش إلى الدَّيلم ؛ ليردهم إلى الطاعة بعد ماخرجوا عليه . فلما تم له ما أراد ، ولاه « ابن زياد » الرَّى .

ثم كان ما كان من أمر « الحسين » ، فكتب « ابن زياد » إلى « عمر بن سعد » يأمره أن يسير إلى « الحسين » ، ووعده إذا هو فرغ من أمر « الحسين » رده إلى عمله الذى كان عَهد إليه به .

ولقد استكبرها « عمر بن سعد » أولا – أعنى أن يتوجه بجيشه إلى « الحسين » – وأباها على « ابن زياد » واستعفاه منها ثانيا .

ولكن « ابن زياد » كان ماكراً ، يعلم من أين تؤكل الكتف . فما وصله رد « عمر بن سعد » حتى أرسل إليه يقول له : نعم ، على أن تَرد عهدى ، وهو يعنى عزله عن الرىّ .

وما تكاد الدنيا تُذكر لـ « عمر بن سعد » أو أنه سيفقد نصيبه منها ، حتى يَهْلع . ويُرسل إلى « ابن زياد » يقول له : أمهلنى يوماً حتى أنظر .

ويجلس « عمر بن سعد » إلى أصحابه يستشيرهم ، فكلهم يُشير عليه ألا يفعل ، ويأتيه « حمزة بن المغيرة بن شعبة » – وكان ابن أخته – فيقول له : ، أنشدك الله ألا تسير إلى « الحسين » فتأثم وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من دُنياك ومالِك وسلطان الأرض ، لو كان لك خير ، من أن تلقى الله بدَم « الحسين » .

فتبلغ كلمات ابن أخته من قلبه ، وينصرف عنه وهو فى ظاهر أمره مًجيب ، ولكنه كان فى باطن أمره رافضا ، ويبيت ليلته ولسانه يردد :

أأترك مُلـــك الرَّىّ والرىُّ رغبتى ... أم ارجع مَـذموما بقتـل حُسين

وفى قتله النـار التى ليس دونهـا ... حِجـاب وملـــك الرَّى قُرة عين

وهو على ذلك يصبح متردداً ، فيأتى « ابن زياد » فيقول له : إنك قد ولَّيتنى هذا العمل وسمع الناس به ، فإن رأيت أن تنفذ لى ذلك فافعل ، وابعث إلى الحسين من أشراف الكوفة من لست أغنى فى الحرب منه - ويُسمى له أناسا .

فيقول له « ابن زياد » : لست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث ، فإن سرت بجندنا ، وإلا فابعث إلينا بعهدنا .

عندها تغلب الدنيا بمتاعها « عمر بن سعد » على أمره ، وإذا هو يقول : فإنى سائر .

وعلى هذه .. قدم « عمر بن سعد بن أبى وقاص » على جيشه هذا ؛ الذى كان يضُم أربعة آلاف مقاتل ، وعلى هذه أصبح « الحسين » يقاتل هذين الجيشين اللذين لا قِبل له بهما .

ولقد أرسل « عمر بن سعد » إلى « الحسين » حين قدم عليه بجيشه يسأله ما الذى جاء به .

وكأن « عمر بن سعد » لم يكن يعرف فيم خرج « الحسين » ، وإلى أى شىء ، ولكنها لغة القُواد يحبون أن يعذروا قبل أن ينذروا . .

أو لعل « عمر بن سعد » أراد هو الآخر أن يضمن العافية ، كما أراد أن يضمنها « الحر بن يزيد » ؛ من أجل ذلك بعث إلى « الحسين » يسأله ، وقد يجيب « الحسين » بما يجد هو فيه مخرَجا من ذلك الضِّيق .

وكان « الحسين » صريحا فيما أجاب به « عمر بن سعد » ، لا يلتفت إلى حقه ، ولكنه يلتفت إلى شىء أقلّ من ذلك ، فيقول له : « كتب إلىّ أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم ، فأما إذ كرهونى فإنى أنصرف عنهم »

وهكذا أعطى « الحسين » « عمر بن سعد » سببا يستطيع هو أن يتعلق به ، إن صح منه العزم على أن يمد إلى « الحسين » يداً .

ولكن « عمر بن سعد » لم يكن يملك الأمر كله فيقضى فى أمر « الحسين » بما يرى ، ولكنه كان يملك أن يمهل « الحسين » حتى يكتب إلى « ابن زياد » .

وهكذا كتب « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يخبره بما كان من « الحسين » .

☆ ☆ ☆

ولئن كان « الحر بن يزيد » ممن يرجون العافية ويَطمعون فيها ، ولئن كان « عمر بن سعد » ممن أرادوا العافية وطمعوا فيها ؛ فلم يكن « ابن زياد » ممن لا يميل إلى العافية ولا يطمع فيها ، ولكنه كان أشبه شيء بالذئب المفترس الجائع لا يَثنيه استسلام الفريسة بين يديه عن أن يُنشب فيها أظافره ، فما كاد « ابن زياد » يقرأ ما كتب إليه « عمر بن سعد » حتى تمثل بقول القائل :

الآن إذ علقت مخـــالبنـــا بــــه ... يرجـو النجــاة ولات حين منــاص

ثم كتب إلى « عمر بن سعد » يأمره أن يَعرض على الحسين بيعة « يزيد » .

وما وقف « ابن زياد » عند هذه يجتزىء بها من « الحسين » ، ولكنه جعل أمر « الحسين » بعدها – إن فعل – إليه يأمر فيه بأمره .

ثم خاف « ابن زياد » أن يَفتر « عمر بن سعد » عن حصار « الحسين » وهو يُفاوضه ، فأمره أن يبَقى على حصاره ، وأن يبقى على مَنعه الماء . لا يجعله يدنو منه ، ولا يدنو منه أحد من أصحابه .

ولئن كان « عمر بن سعد » قد استقبل أمره مع « الحسين » وهو يريد العافية ، فلقد استدبره وقد أُنسى تلك العافية .

فما إن وصل كتاب « ابن زياد » إليه حتى أرسل خمسمائة فارس يحيطون بالماء ، إمعاناً منه فى الحيطة ، وإسرافا منه فى الإيذاء . وإذا الإمعان وذلك الإسراف من « عمر » ، ينتقلان إلى رجال « عمر » ، وإذا واحد منهم يتطلّع إلى « الحسين » وهو يقول : يا « حسين » أما تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء ، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا .

– ٢٤ –

وهكذا أنسى الحسين الأمر الذى خرج له ، وعاد يذكر هذا الأمر الذى بين يديه ، لقد خرج ينازع على ملك ، وأصبح اليوم ينازع على حياة ، ولقد جهد به أصدقاؤه أن يبقى فى المدينة لا يغادرها فلم يجبهم ، فإذا هو يجهد بأعدائه أن يرتد إلى المدينة فلم يجيبوه ، ولقد كان له من قبل – غير أهله – أنصاره ، منهم المخلص لدعوته الإخلاص كله – وكانوا قلة – ومنهم المخلص لها شيئا من الإخلاص – وكانوا كثرة – ومنهم المسوق لغنم أو نفع – وكانوا بين هؤلاء وهؤلاء – فإذا هو قد فقد هؤلاء جميعا وكاد يفقد معهم بعض أهله .

☆ ☆ ☆

وما انتهى حديث « عمر بن سعد بن أبى وقاص » مع الحسين ؛ وإن كان قد انتهي بينه وبين نفسه ، فلقد نظر عمر بن سعد إلى دنياه مغرية فآثرها على أخراه – كما مر بك – وانتهى على أن يخرج إلى الحسين على رأس جيشه ، فأنهى بهذا الرأى الذى رآه ما بينه وبين نفسه من أخذ ورد . ومضى يقضى فى أمره مع الحسين فى ضوء ما قضى مع نفسه .

فلقد بعث الحسين إلى « عمر بن سعد » ذات ليلة يطلب منه أن يلقاه

بين العسكر لا فى هذا العسكر ولا فى ذاك ، ولقد خرج إليه « عمر » فالتقيا وتحادثا طويلا ، ثم عاد « الحسين » إلى عسكره كما عاد عمر إلى عسكره ، فأفضى الحسين إلى من حوله بما كان ، وأفضى « عمر » إلى من حوله بما كان ، فإذا المتحدثون من هنا ومن هناك يلتقون على خبر واحد فى معناه ، وإن اختلف شيئا فى مبناه .

وإذا هذا الخبر الواحد يرويه الرواة فيقولون : إن الحسين قال لـ « عمر بن سعد » : اخرج معى إلى يزيد بن معاوية وندع العسكرين .

فيقول له عمر بن سعد : أخشى أن تهدم دارى .

فيقول له الحسين : أبنى لك خيرا منها .

فيقول عمر بن سعد : تؤخذ ضياعى .

فيقول الحسين : أعطيك خيرا منها من مالى بالحجاز .

وكان وراء ذلك - غير الدار والضياع - عز الولاية وجاه الإمرة ، يطمع فيها « عمر بن سعد » ويبغيها لنفسه ، لم يذكرهما للحسين ، لأن الحسين كان على حاله تلك .. أعجز من أن يعد بمثلهما ، وهو إن ملك أن يعوض « عمر بن سعد » عن داره وضياعه ، فما يملك أن يعوضه ولاية وإمرة .

لهذا سكت عمر فلم يقل للخسين شيئا ، ولهذا انصرف « عمر بن سعد » عن « الحسين » ولم يجبه إلى ما طلب .

☆ ☆ ☆

والرواة الذين قالوا هذه قالوا أخرى ، فقد قالوا : إن الحسين قال لعمر : اختاروا منى واحدة من ثلاث : إما أن أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه ، وإما أن أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه ، وإما أن تسيروا بى إلى أى ثغر من ثغور المسلمين شئتم ، فأكون رجلا من أهله .. لى ما لهم وعلى ما عليهم .

ولكن الرواة الذين رووا هذا وذاك يقولون : إن الحسين لم يطلب أن يضع يده فى يد يزيد ، ولاأن يسيِّرُوه إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعونى أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه ، أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس .

☆ ☆ ☆

ولكنى أرى أن هذه الروايات كلها تلتقى على معنى واحد ، وإن أراد المشفقون على « الحسين » ألا يصدر عنه ما يلمزه فى كبريائه .

وكأنى بهؤلاء المشفقين أرادوا أن يخلص لهم كلام « الحسين » على الوجه الذى صوروه ليمضوا بعده فى دعوتهم يكسبون من إبائه البيعة على « يزيد » ، وأنه مضى - رحمة الله عليه - وهو لها رافض ؛ وفى هذا مايُعطيهم الحق بعده فى أن يمضوا هم على الدعوة ويهيئوا لها ، وفرق بين أن يستقبل الدعاة الناس وفى أيديهم هذه الحجة ، وبين أن يستقبلوهم وهم لا يملكون هذه الحجة .

ومأأريد أن أقول إن الحسين قال هذا ولم يقل ذاك ، ولكنى أكاد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى « عمر » أن يذهبا معا إلى يزيد ، لم يطلب ذاك إلا وهو يريد أن يبايع ، ولقد أراد أن يعطى هذه البيعة ليزيد ، ولم يرد أن يعطيها على يدى « عبيد الله بن زياد » وهو مقهور ، ولقد رأى إن هو لقى « يزيد » فقد لقى ندا وملكا ، وإن هو لقى « ابن زياد » فقد لقى عدوا مسفا فى عداونه يريد أن يذله .

وأكاد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى « عمر » أن يحل بلدا من بلاد الله .. لم يكن يغيب عليه أنه لن يكون له الخيار فى النزول بأى بلد يشَاءُ .. له فيها أنصار يعود بهم بعد قليل لحرب يزيد ، ولكنه كان يدرك أن اختيار هذا البلد لهم لا له .

وأكاد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى عمر بن سعد أنه سيكون رجلا من الناس ، له مالهم وعليه ماعليهم ، كان يملى عن روية بعد مافاته أمر الناس وبعد أن بلاهم فلم يجد عندهم خيرا ، وكان يملى عن رغبة خالصة فى السلم لايريد أن يجعل لعدوه عليه حقا .

ولو أنه جعل بقاءه فى هذا البلد الذى سيحله لهذا الذى رووه عنه ، من أنه سيبقى فيه حتى ينظر مايصير إليه أمر الناس ، لكان شيئا ينقض عليه رغبته فى السلم ، ويعطى لعدوه عليه حقا فى ألا يعطى .

ولكنه - كما قلت - لم يعُد هذا الذى أراده الشيعة والأنصار ليمضوا فى دعوتهم معتمدين على أن « الحسين » مضى ولم ينزل عن شىء ، وأنه قد ترك لهم الأمانة ليحملوها عنه ، بعد أن لم تسعفه الأحوال على تحقيقها .



غير أن الرواة يلتقون مرة ثانية على هذا الخبر الذى خرج عليه بعضهم ، ويقولون : إن « عمر بن سعد » حين لم يجب « الحسين » إلى ماطلب حرصا على دنياه كتب إلى ابن زياد يقول : « أما بعد . فإن الله أطفأ النائرة وجمع الكلمة . وقد أعطانى الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه ، أو أن نسيره إلى أى ثغر ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده ، وفى هذا لكم رضا وللأمة صلاح .

فلقد ذكر « عمر » أن الذى ولاه « ابن زياد » ولقد ذكر عمر أن « ابن زياد » أقرب منه إلى « يزيد » ولقد ذكر « عمر » أنه إن عدا «ابن زياد » إلى « يزيد » ولم يرجع إليه ، فليس آمنا أنه سوف يغضب « ابن زياد » ولايرضى يزيد .. على حين أنه إن وصل حبله بـ« ابن زياد » فهو ضامن رضا « ابن زياد » و« يزيد معا » ، ثم هو ضامن بعدها تلك الولاية التى لوح له بها « ابن زياد » .

لهذا كتب عمر إلى ابن زياد ، ولم يستجب للحسين فيصحبه إلى يزيد .

ولقد كاد « ابن زياد » يجيب « عمر بن سعد » إلى ماعرض ، ولقد رآه « ابن زياد » نصرا حاسما له أولا ، وليزيد ثانيا .

ولكنه قد فاته أنه إن هو أجاب .. فقد أعطى الحسين شيئا أراده ، فيه امتهان له ، وفيه إنصاف للحسين .

ولقد كان « ابن زياد » لهفا للنصر ، فلم ينظر للأمر بعقله كله ، وكان إلى جنبه رجل هو « شمر بن ذى الجوشن » لم تغمره نشوة الفرح كما غمرت « ابن زياد » فينسى بها عقله وتدبيره فالتفت إلى « ابن زياد » وهو يقول له : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن . ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه .. فإن عاقبت .. كنت ولىّ العقوبة ، وإن عفوت .. كان ذلك لك .

وهكذا ردّ « ابن ذى الجوشن » ابن زياد إلى كل عقله وتما تدبيره ، فلقد أراد الحسين - كما مر بك - أن يفوّت على ابن زياد تشفّيه فيه ، وأن يفوّت عليه أن يكون حسم النزاع على يديه ، فيخرج من الأمر بنصف فخره ، أو دون هذا بكثير . ومايكاد ابن زياد يسمع من ابن ذى الجوشن قوله حتى يقول له : نِعْم مارأيت . اخرج بهذا الكتاب إلى « عمر بن سعد » فليعرض على « الحسين » وأصحابه النزول على حكمى ، فإن فعلوا فليبعث بهم إلىّ سلما ، وإن أبَوا فليقاتلهم .

ثم يحتاط « ابن زياد » لأمره ؛ فلقد داخله من « عمر بن سعد » شىء ، فيقول لابن « ذى الجوشن » وإن فعل « عمر » فاسمع له وأطع ، وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس ، واضرب عنقه وابعث إلى برأسه .

لقد كاد « بن زياد » أن ينسى قسوته الفطرية بهذا الظفر الذى لاح له

فى الأفق فبدأ يلين شيئا ، ولقد عاد ابن زياد إلى قسوته كلها لم ينس منها شيئا حين قرت فى أذنه كلمة ابن « ذى الجوشن » ، وهى لاتغنى المؤمنين الذين يعملون لأخراهم شيئا ، ولكن تغنى فى قلوب القساة الذين يعملون لدنياهم كل شىء .

من أجل ذلك .. ركب ابن زياد الطريق إلى دنياه ولم يركب الطريق إلى أخراه ، ومن أجل ذلك .. تنكر ابن زياد لمن يشيرون عليه فى أخراه واستمع إلى من يشيرون عليه فى دنياه ، ومن أجل .. ذلك نسى « ابن زياد » « عمر بن سعد » ومابلغه من حسم للنزاع ، وذكر « ابن ذى الجوشن » وهو يدفعه إلى مالا تحمد عقباه ، ومن أجل ذلك .. أصبح « عمر بن سعد » لدى « ابن زياد » متهما ، وأصبح « ابن ذى الجوشن » ناصحا ، ومن أجل ذلك كان جزاء « عمر بن سعد » أن يقطع رأسه ، وكان جزاء « ابن ذى الجوشن » أن يكون له الأمر .

☆ ☆ ☆

ولقد كان كتاب « ابن زياد »الذى حمله « ابن ذى الجوشن » الى « عمر بن سعد » ينبئك بهذا كله ، فاقرأه معى لتعلم مبلغ الحقد من نفس « ابن زياد » . فلقد كتب إليه يقول : « إنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ، ولالتمنّيه ، ولالتطاوله ، ولالتقعد له عندى شافعا .

انظر فإن نزل « الحسين » واصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلىّ سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون . فإن قُتل « الحسين » فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فإنه عاقٌ ، شاق ، قاطع ظلام ، فإن أنت مضيت لأمرنا .. جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت .. فاعتزل جندنا ، وخلّ بين « شمر » وبين العسكر .

ولقد كان « ابن زياد » فى كتابه هذا عنيفا بـ« عمر بن سعد » فلقد جمع فى كتابه هذا إلى عنفه به مكره له ، فهو يعلم حُب « عمر » لدنياه ، فشفع عنفه بمكره ، وهو يؤمن أن « عمر » مغلوب على أمره بحبه لدنياه ، وأنه لاشك آخذ بما يريد منه ، ناسٍ مايريد هو ، ليضمن ماعند « ابن زياد » ومايعنيه أن يخسر ماعند الله .

ولكن « عمر بن سعد » كانَ موصولا يحب العافية بسبب ، وكان موصولا يحب الدنيا بأسباب ، ومضى حبه للدنيا يرخى يديه على هذا السبب ويشد يديه على تلك الأسباب .

لهذا التفت إلى « ابن ذى الجوشن » شبه مغضب يقول له : أفسدت علينا أمرا كنا رجونا أن يصلح والله ، فلن يستسلم « الحسين » أبدا ، والله إن نفس أبيه لبين جنبيه ؟

ولكنه حين يلتفت إليه « ابن ذى الجوشن » يقول له : ومأأنت صانع ؟

فيحس « عمر » أن « ابن ذى الجوشن » يهدده بالذى يقول ، و هنا يذكر دنياه .

فيقول له : سأتولى ذلك

وهو يعنى أنه ماضٍ كما قال « ابن زياد » .

— ٢٥ —

ويركب « عمر بن سعد » والناس معه فيشرفون على « الحسين » وهو جالس أمام خيمته وقد احتبى بسيفه وغلبه النعاس فأطرق برأسه .

وتسمع أخته زينب عجيج الجند وصهيل الخيل وهى مقبلة ، فتسرع إلى أخيها « الحسين » فتوقظه وترفع رأسه .

وماتكاد عيناه تقعان عليها بعد أن أفاق - لاتعنيه هذه الخيل ومن عليها ، ولكن يعنيه أن يقول لها : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام يقول لى : إنك تروح إلينا :

وتبكى أخته زينب وتكاد تخرج عن اطمئنانها وهى تقول : ياويلتاه .

فيلتفت إليها « الحسين » واجما ، ولكنه غير هيَّاب ولاوجل ، فيقول لها : ليس لك الويل ياأُخيَّة ، اسكتى رحمك الله .

ويلتفت إليه أخوه « العباس » ينهضه وهو يقول له : أتاك القوم ياأخى .

وينهض « الحسين » لاليثيرها حربا ؛ فلقد علم « الحسين » أنه لاقبل له بالقوم ، ولاليلقى حربا فيما نظن ، فلقد أعطى مايدفع الحرب عن الناس ويرد الأمر أمنا بينهم .

لهذا هم « الحسين » أن يخلص إلى القوم يسألهم عن أمرهم ، فلم يكن يخشاهم بعد الذى أعطاهم .

ولكن أخاه « العباس » لايدعه يخرج إليه إذ هى فتنة ، والغدر من صفاتها . فركب هو إلى القوم ليعرف ماعندهم ، يجعل حياته بين حياة أخيه .

ويلقى « العباس » القوم فيقول لهم : مالكم ؟ ومابدا لكم ؟

☆ ☆ ☆

ويرتد « العباس » ليخبر أخاه « الحسين » بما جد وبما يطلب « ابن زياد » وبما أرسل به رسوله « ابن ذى الجوشن » إلى « عمر بن سعد » وبما كان من « عمر بن سعد » .

ويعود « العباس » إلى القوم ثانية يحمل إليهم جواب أخيه « الحسين » يستمهلهم إلى غد ليقضى فيما طلبوه منه برأى ، إما أن يرضاه وإما أن يرده .

ولقد كاد « عمر بن سعد » أن يجيب « العباس » إلى ماطلب ولكنه كان يعلم أن إلى جنبه « ابن ذى الجوشن » وكان يعلم أن الرأى رأى « ابن ذى الجوشن » لارأيه ، وكان يعلم أنه إن قضى بما يرى لابما يراه « ابن ذى الجوشن » فقد ولّت عنه دنياه العريضة التى طمع فيها . وربما ولت قبلها حياته العزيزة التى يحرص عليها .

لهذا التفت « عمر بن سعد » إلى « شمر بن ذى الجوشن » وهو يقول له : ماترى ياشمر ؟

و« شمر » ماكر هو الآخر ، يريد أن يرخى لـ« عمر » حتى يتورط ورطة لايقيله هو بعدها ، ويكون له العذر عليه . فقال له : أنت الأمير فأقبل على الناس .

ويقبل عمر على الناس وفيهم من يرحم للضعيف ضعفه ، وفيهم من يزيده ضعف الضعيف قسوة به .

فاستمع « عمر بن سعد » لـ« عمر بن الحجاج الزبيدى » وهو يشير ويقول :

« سبحان الله ، والله لو كان « الحسين » من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغى أن تجيبوه » .

واستمع « عمر بن سعد » « لقيس بن أشعث » وهو يشير ويقول متهكما : أجبهم ، لعمرى ليصبحنك بالقتال غدوة .

☆ ☆ ☆

لكن « عمر بن سعد » قد وجد فى القوم من يعينه على نفسه الطامعة ، كما وجد فيهم من يعين نفسه الطامعة عليه ، ولم يجد الناس فى جانب واحد ولكنه وجدهم على رأيين ، ولقد رأى نفسه وليس لابن ذى الجوشن عليه حجة إن هو أخذ بالرأى الذى يعين على نفسه الطامعة ، فالتفت إلى « قيس بن الأشعث » يقول له : لو أعلم أنهم يفعلون ماأخرتهم العشية .

ثم رجع عن « الحسين » ليلقاه الغداة اللقاء الأخير ، إما على الاستجابة فسِلْم مهين ، وإما على الرفض فحرب لاتعرف اللين ، كما أشار « ابن زياد » ، وكما سيشهد تفاصيلها « ابن ذى الجوشن » .

- ٢٦ -

نظر الحسين فى أمره كله فتدبره فإذا هو ضعيف لا حول له ، وإذا هو رحيم بمن معه لا يريد أن يحملهم على الشطط ، وإذا هو ينظر لخلاصهم قبل أن ينظر لخلاص نفسه .

لهذا جمع « الحسين » إليه أصحابه بعد أن رجع عنه « عمر بن سعد » يقول لهم : أثنى على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء ، اللهم إنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة . وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا فى الدين ، فاجعلنا لك من الشاكرين .

أما بعد « فإنى لا أعلم أصحابا أوفى ولا أخير من أصحابى ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى »: فجزاكم الله جميعا عنى خيرا .

ألا وإنى لأنظر إلى يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، وإنى قد أذنت لكم جميعا فانطلقوا فى حل ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا . وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى فجزاكم الله جميعا خيرا ، ثم تفرقوا فى البلاد ؛ فى سوادكم ومدائنكم حتى يأتى فرج الله ، فإن القوم يطلبوننى وإن أصابونى شُغِلوا عن طلب غيرى .

فيلتفت إخوته وأبناء إخوته إليه يقولون : ولم نفعل هذا ؟ ألنبقى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبدا .

ويلتفت إليهم « الحسين » يقول لهم : حسبكم من القتل الذهاب بـ « مسلم بن عقيل » ، اذهبوا فقد أذنت لكم .

فيقولون له : وما نقول للناس ، نقول تركنا شيخنا وسيدنا ولم نرم معه بسهم ، ولم نطعن معه برمح ، ولم نضرب بسيف ، ولا ندرى ما صنع ، لا والله لا نفعل ولكنا نفديك بأنفسنا ونقاتل معك حتى نرد موردك ، قبَّح الله العيش بعدك .

ويقوم إليه « مسلم بن عوسجة الأسدى » فيقول له : أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك ، أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى ، وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى . والله لو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك .

وكما تكلم أهل « الحسين » وتكلم « مسلم بن عوسجة » تكلم غيرهم فقالوا مثل كلامهم .

☆ ☆ ☆

وهكذا أراد « الحسين » أن يخرج منها آخر الأمر لا عليه ولا له ، فأباها عليه « ابن زياد » بخطته تلك التى اختطها إمعانا فى إذلاله ، وأباها عليه قومه بهذا الذى قالوه له لم يرضوا أن تستذلهم الحياة ، ولا أن يستذلهم الناس ، ولا أن يستذلهم الم الخُلق الوضيع ، وهم سادة الدنيا وسادة الناس وسادة الخلق .

وهكذا لم يجد « الحسين » بدا من أن يخوض بهم الحرب ، التى كرهها أخيرا له ولهم ، بعد أن كان يحبها له ولهم .

ولقد كان « الحسين » حين أحب الحرب يملك عذره الأغر البين ، كما كان حين كرهها يملك عذره الأغر البين .

☆ ☆ ☆

وما درى « ابن زياد » أنه لو أجاب « الحسين » إلى ما طلب لأعفى نفسه من إثم وأعفى الأمويين من شر . وأكاد أميل إلى أنه لو فعل كان مسلماً دعوة « الحسين » إلى هدأة وفتور ، وممكنا للأمويين ببذلهم وإغرائهم أن يزيدوا فى تلك الهدأة وذلك الفتور .

ولكن « ابن زياد » أبى إلا أن يمضى آثما ، وأبى إلاّ أن يعنّى الأمويين بما أثم هو فيه ، وأبى إلا أن يثير بإثمه النفوس ، وأبى إلا أن يوقظ الشيعة على أعنف مما استيقظوا له أولا ، وأبى إلا أن يجمع بإثمه إلى الشيعة غيرهم ممن عز عليهم أن يمضى « الحسين » مقتولا ممثلا به .

– ٢٧ –

وما إن أصبح « الحسين » حتى عبّأ أصحابه . ولئن سألتنى كم كانوا ؟ لأجبتك .. أنهم لم يكونوا غير اثنين وثلاثين فارسا وغير أربعين راجلا .

هكذا كان رجال « الحسين » أمام ألف سبق بهم « الحر بن يزيد » وأمام أربعة آلاف انضموا إليهم وعليهم « عمر بن سعد » .

ولقد أخذ « الحسين » ينظم من جيشه هذا الصغير بعدده ! – الكثير بقلوبه ، فجعل منه ميمنة وميسرة ، وجعل على ميمنته رجلا ، وجعل على ميسرته رجلا ، وأعطى أخاه « العباس » رايته ، وجعل البيوت من وراء ظهره ، وأمر بحطب وقصب فألقى فى مكان منخفض من ورائه وأضرم فيه ناراً لئلا يؤتوا من ظهورهم .



ولكن « الحسين » على ذلك كان مؤمنا بحتفه ، وكان أصحابه على ذلك مؤمنين بحتفهم ، ولكنه استشهاد فى سبيل الحق فلم يخشوه ، واستشهاد فى سبيل العزة فلم ينكلوا عنه ، واستشهاد فى سبيل الخُلُق فهشوا له ولم يعبسوا .

فقد رووا أن « الحسين » وهو يطالع القوم دعا بطيبٍ فتطيب ، فِعْل من يستعد للموت ، لا من يستعد للحرب ، فإذا أصحابه بين يديه يتسابقون إلى ما تطيّب به لينالهم منه شيء ، و لسان حالهم يقول : والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم .

☆ ☆ ☆

غير أن « الحسين » – على هذا كله – كان يحب أن يعذر إلى عدوه ، فوقف إليهم يقول :

« أيها الناس اسمعوا قولى ولا تعجلونى حتى أعظكم بما يجب لكم على ، وحتى أعتذر لكم من مقدمى عليكم ، فإن قبلتم عذرى وصدقتم قولى وأنصفتمونى ؛ كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل .

ثم دنا منهم يقول :

أما بعد : فانسبونى من أنا .. ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها ، وانظروا هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ... ألست ابن بنت نبيكم ، وابن وصيه ، وابن عمه ، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسول الله ؟؟...

أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبى ؟... أو ليس جعفر الشهيد الطيار فى الجنة .. عمى .

أما فى هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمى ؟؟.

وأحس « الحسين » من القوم مايطمعه فيهم شيئا .. فازداد منهم قربا وهو يقول : فإن كنتم فى شك مما أقول أو تشكون فى أنى ابن بنت نبيكم ؛ فوالله مابين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى منكم ولامن غيركم .

اخبرونى .. أتطلبوننى بقتيل منكم قتلته ، أو بمال لكم استهلكته ، أو قصاص من جراحة ؟؟...

فسكت القوم لايجيبون .. فدنا منهم شيئا وهو ينادى :

يا« شبث بن ربعى » و« ياحجار بن أبجر » و« ياقيس بن الأشعث » ويا« زيد بن الحارث » ألم تكتبوا إلىّ فى القدوم عليكم .

فيقولون كلهم معا : لم نفعل .

هنا يرتد « الحسين » جَزِعا وهو يقول : « بلى والله فعلتم » .

وماكذب « الحسين » ولكن كذب هؤلاء ، فلقد قالوها له والدنيا فى ظنهم مواتية لـ« الحسين » وهم كاسبون . ولقد كذّبوه فيها والدنيا منصرفة عنه إلى « ابن زياد » وهم لعقابه كارهون ، وفى مغنمه طامعون .

☆ ☆ ☆

ويلتفت إليهم « الحسين » حزينا آسيا وهو يقول :

أيها الناس . إذْ كرهتمونى فدعونى أنصرف إلى مأمنى من الأرض .

- ٢٨ -

وإذا أحد هؤلاء الذين ناداهم « الحسين » بأسمائهم يشهدهم على أنفسهم ، ويشهدهم على ماقالوا ، يقول للحسين :

أولا تنزل على حكم ابن عمك - وهو يعنى « عبيد الله بن زياد » - فإنك لن ترى إلا ماتحب ؟

ومأسى « الحسين » لهذه كما أسى لإنكارهم ، فهم حين أنكروا أنهم كتبوا إليه . قد أنكروا عليه مايطلب من حق ، لهذا لم يلتفت « الحسين » إلى « قيس » التفاتة الداعى لنصير من أنصاره ، كما كان من قبل ، وإنما أجابه بما يجيب العدو عدوه ، ينذره المغبة ، ويهدده بسوء العاقبة ، فقال له :

« أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم « مسلم بن عقيل » لاوالله لاأعطيهم بيدى إعطاء الذليل ، ولاأقر إقرار العبد .

ثم أناخ راحلته ونزل عنها وهو يقول : إنى عُذت بربى وربكم أن ترْجمون ، أعوذُ بربى وربّكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب .

وهكذا انتهى مابين « الحسين » وبين القوم من كلام ، ولم يعد بينه وبينهم إلا شىء آخر ، استعد له « الحسين » فنزل عن راحلته ، واستعد له هؤلاء النفر من حوله فتجمعوا حوله فى سلاحهم .

ولقد كانوا قلة لايغنون عن أنفسهم ولاعن « الحسين » شيئاً ، ولكنهم كانوا أباة لن تمنعهم قلتهم أن يكونوا شيئا ، وكانوا مع إبائهم ذوى فطن تقدر الأمور ، وذوى ألباب لاتحب أن تخالف عن أمر الله : « ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

فبرز من رجال « الحسين » « زهير بن القين » على فرسه وفى سلاحه ، لم يشأ أن يضعه عنه فيظن به وبأصحابه الخور ، ولم يشأ أن يدعو إلى قتال فيظن به التهور ، ولكنه وقف لمن أمامه من أهل الكوفة لينذرهم عذاب الله على مااختانوا ، ويخوفهم غدر « بن زياد » بعد حين ، ويضرب لهم الأمثال بمن قتل منهم .

ولكنه ماكاد يفرغ حتى صاحوا به يذكرونه بالسوء ، ويذكرون « ابن زياد » بالخير .

☆ ☆ ☆

ولقد كان « الحسين » حين خطب القومْ يبغى أن يردّهم إلى عقل ليسمعوا له ، وإلى روية ليملك مقادهم ، وإلى حجة يضمنهم على الرأى ولا يتركونه إلى غيره .

ولكن « زهير بن القين » خطب القوم فردّهم إلى طيش ، لم يملكوا معه العقل ، وإلى نزق نسوا به الحلم ، وإلى هيج خرجوا به عن الرأى إلى غيره ، وإلى ماأبعد من هذا كله ثورة ، فإذا هم يقولون له :

والله لانبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو تبعث به وبأصحابه إلى الأمير « عبيد الله بن زياد » سلما .

وحين يلين « زهير بن القين » فى قوله لهم : ياعباد الله ، إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من « ابن سمية » - يعنى ابن زياد - فإن كنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم . خلوا بين الرجل وبين ابن عمه « يزيد بن معاوية » فلعمرى إن « يزيد » ليرضى من طاعتكم بدون قتل « الحسين » .

وحين يلين « زهير » هذا اللين لا يلقى لينا ، ولكنه يلقى سهما يرميه به أحدهم وهو يقول له : اسكت ، أسكت الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك .

☆ ☆ ☆

والشر لجاج ، وتراشق بالألفاظ مالم ترفع فيه يد ، أو يشهر سيف ، أو ينطلق سهم ، فإذا هو عجاج تصطك معه الأسنة ، وتتشاجر السهام ، وتتشابك السيوف .

وكما حرك قول « زهير » النفوس فثارت ، حرك هذا السهم النفوس فهاجت ، وتحرك القوم للقوم ، وماتحرك قوم « الحسين » ، ولكن تحرك قوم الكوفة ، فلقد هاجت نفوس الحسينيين فتحركت ألسنتهم بالفزع إلى الله ، وثارت نفوس الكوفيين ، فامتدت أيديهم إلى السيوف ، وإذا هم يزحفون ، وإذا على رأسهم « عمر بن سعد » هذا الذى بدأ يذكر العافية ويكاد يؤثرها ، ثم انتهى يؤثر الدنيا ولا يكاد ينساها .

ويفزع « الحر بن يزيد » لما رأى من عزم « عمر » وكان « الحر » قد بدأ كما بدأ « عمر بن سعد » يحب العافية ويرغب فيها ، وحين أوشكت دنياه تغلبه على عافيته فزع يعمل للعافية ، ولا يستجيب للدنيا .

وإذا هو ملتفت إلى « عمر بن سعد » ، يقول له : أصلحك الله أمقاتل أنت هذا الرجل ؟... فيقول له « عمر بن سعد » إى والله ، قتالا أيسره أن يسقط الرءوس ويطيح الأيدى .

فيقول له « الحر » : أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضاً .

فيقول « عمر بن سعد » : والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك .

☆ ☆ ☆

وكأنى بـ« عمر بن سعد » قد نسى أن يزيد فيقول : ومن يضمن لى الولاية على الرى .

هذه الولاية التى أنسته أن يستجيب للحسين فيأخذ بيده إلى « يزيد » فيضع لتلك الفتن حدا ينصف « الحسين » وينصف « يزيد » ، ومامن شك فى أنها كانت ستمضى سلما ، يخرج منها « الحسين » ناجيا بحياته ، وإن لم

ينبج بما خرج يطلبه ، ويخرج منها أهل « الحسين » وغير أهل « الحسين » بحياتهم ، وإن لم يخرجوا منها بما ارتقبوا من مغنم .

ولكن قاتل الله الدنيا ؛ كم تعمى وكم تصم ؟! وقاتل الله الشهوات ، كم تغلب على العقل والرأى ؟! وقاتل الله الطمع ، كم ينسى به الطامع الأنفس غير نفسه .

☆ ☆ ☆

ومايكاد « الحر » يسمع « عمر بن سعد » ويعرف ماانتواه ، حتى يردد فى نفسه : إنى والله أخيِّر نفسى بين الجنة والنار ، ولاأختار على الجنة شيئا ؛ ولو قُطِّعْت وحُرِّقت .

وإذا هذا الذى تردد فى نفسه يتحرك به لسانه ، ويسمعه عنه المحيطون به وقد أفصح ، ومادام قد أفصح فقد مَلَك الشجاعة على أن يفعل ، وقد ملك أن يميل إلى العافية وأن يميل عن الدنيا .

وهكذا ترك « الحر » « عمر بن سعد » إلى « الحسين » . ولم يشأ أن يأثم بحربه ، وإذا هو بين يدى « الحسين » يلقى معاذيره ويقول له :

« جعلنى الله فداك يابن رسول الله ، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع ، وسايرتك فى الطريق ، وجعجت بك فى هذا المكان ، ووالله الذى لاإله إلا هو ، ماظننت أن القوم يردون عليك ماعرضت عليهم أبدا ، ولايبلغون منك هذه المنزلة أبدا ... وإنى قد جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى ، مواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ؛ أفترى ذلك توبة ؟. »

فيقول له « الحسين » : نعم ... يتوب الله عليك ويغفر لك .



ولكن « الحر بن يزيد » على ذلك ؛ كان يرى أن الأمر أهون من أن يشعل حربا ، لو حفظ الناس على « الحسين » كرامته وإباءه ، وقبلوا منه ماعرض .

وكان « الحر » يطمع فى أن يؤثر القوم العافية إيثاره ، يطمع فى ذلك من « عمر بن سعد » أولا ، ثم يطمع فى ذلك من أهل الكوفة ثانيا .

وقد خبر « الحر » « عمر بن سعد » حينا ، فوجده ممسكا بحبلين ، أحدهما لدينه ، والآخر لدنياه ، يشد على الذى لدنياه يده ، ويرخى عن الذى لدينه يده الأخرى ، ولكنه على ذلك لا يفلته ، فطمع « الحر » فى أن يرد « عمر » أحرص على دينه من دنياه ، فاتجه إليه وإلى القوم يقول :

أيها القوم : « ألا تقبلون من « الحسين » خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟

ولكن « الحر » قد نسى أن إلى جانب « عمر » رجلا آخر - هو : « شمر بن ذى الجوشن » كان عليه وزر هذه الحرب كله ، وكان عينًا لـ« ابن زياد » أو كان حريصا على أن يتراخى « عمر » فيضرب عنقه ويمضى هو بفخرها .

وقد نسى « الحر » أن « عمر بن سعد » كان ضنينا بدنياه » قد جعل من وجود « شمر » إلى جواره عذرا له وسببا .

ولكن « الحر » إلى هذا كله كان طامعا فى هذا السبب الواهى الذى أحس شيئا منه فى نفس ؛ « عمر » وهو رغبته فى العافية .

ولقد كان « عمر » كما هو ، رجل دنيا كان رجل دين ، لم يخيّب ظنّ الذين عرفوه فيه ، وإن كان قد خيّب ظن « الحر » ، حين التفت إليه يقول : لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلا .

ولكن « الحر » الذى يئس من « عمر » لم ييأس من أهل الكوفة ، وإن لهم بـ « الحسين » لأسبابا قد يصلوها لو نبهوا إليها ، فالتفت إليهم بعد ماالتفت عن « عمر » يقول لهم :

ياأهل الكوفة . أدعوتموه حتى إذا أتاكم .. أسلمتوه ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ؟

أمسكتم بنفسه ، وأحطتم به ، ومنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمن هو و أهل بيته ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرا .

ومنعتموه ومن معه ماء الفرات الجارى تتمرغ فيه خنازير الوادى وكلابه ، وهاهو وأهله قد أضرَّبهم العطش .

بئسما خلفتم محمدا فى ذريته ، لاسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه .

☆ ☆ ☆

ولكن النفوس كانت قد استقرت على شىء ، نفوس القادة ونفوس الجند ، فلم يعد هناك آذان تسمع ، ولاأفئدة تعى ، ولاقلوب تتدبر .

من أجل هذا لم يكن جواب « الحر » إلا النبل يرمونه به ، وارتد على عقبه يقف أمام « الحسين » يكون له ردءا .

وكأنى بـ« عمر بن سعد » قد طال عليه انتظاره ، وكأنى به أحس شوقا إلى ولايته التى وعده بها « عبيد الله بن زياد » وكأنى به قد عجل ليفرغ من شىء إلى شىء ، وكأنى به قد خلع عنه العافية جانبا ولبس ثياب الدنيا ، فإذا هو أول داع إلى الحرب ، وإذا هو أول رام فى تلك الحرب ، وإذا هو يشهد على نفسه لِتبلغ « ابن زياد » ، ولا يفعلها مستورة فيضيع

عليه أجرها . فلقد حكوا عنه أنه أخذ سهما فرمى به ، ثم قال : اشهدوا لى أنى أول رام .

☆ ☆ ☆

وماكانت حربا فيها التكافؤ فيساق لها خبر ، ويُروى عنها حديث ؛ غير أن تلك القلة القليلة التى كانت مع « الحسين » قد استبسلت الاستبسال كله ، ووضعوا أنفسهم دون نفس « الحسين » ، يتخطفهم القتل واحدا بعد واحد ، لايحزنون على أن قتلوا ، ولكن يحزنهم أنهم مضوا عن « الحسين » وتركوه دون نصير ، ولمصير كهذا المصير . »

يُصاب « مسلم بن عوسجة الأسدى » .. وكان من أنصار « الحسين » - إصابه قاتلة ، فيدنو منه « حبيب بن مطهر » - وكان من أنصار « الحسين » - يقول له : عزّ علىَّ مصرَعك . أبشر بالجنة ، ولولا أنى أعلم أننى فى إثرك لاحق بك لأحببت أن توصينى .

☆ ☆ ☆

فيقول له « مسلم » - رحمه الله - أوصيك بهذا - وأومأ بيده نحو « الحسين » - أن تموت دونه .

تلك واحدة تدلك على كثيرات غيرها حملتها نفوس أصحاب « الحسين » واستقبلوا بها عدوهم ، فاستعصوا عليه على قِلَّتهم ، لا يبرز منهم واحد إلا قتل من يبرز له .

ولقد فَزَّعوا خصمهم على كثرته ، فإذا هذا الخصم يدبر أمره ويرتد مفكرا ، وكان هذا أولى بتلك القلة التى حول « الحسين » .

فإذا « عمرو بن الحجاح » - وهو من فرسان « عمر بن سعد » - يصيح بالناس وهو يقول : أتدرون من تقاتلون ؟ فرسان المصر ، قوما مستميتين ،

لا يبرز إليهم منكم أحد ؛ فإنهم قليل وقلما يبقون . والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم .

وما يكاد « عمر بن سعد » يسمعها حتى يحس الراحة ، فيقول له : نِعْم مارأيت ، ثم منع الناس من المبارزة .



– ٢٩ –

وقاتل أصحاب « الحسين » قتالا شديدا ، ولم يكونوا غير اثنين وثلاثين فارسا ، لا يحملون على جانب من خيل الكوفة إلاَّ كشفوه .

ويجمع لهم « عمر بن سعد » خمسمائة من الرماة ، يرشقونهم بالنبل ، وما ظنك باثنين وثلاثين فارسا تلقاء خمسمائة رام ، فما كاد هؤلاء الرماة يرمون حتى عقروا الخيول كلها ، وإذا هؤلاء الفرسان على أرجلهم وقد فقدوا خيولهم .

وعلى الرغم من ذلك فقد قاتل هؤلاء الفرسان الاثنان والثلاثون قتالا شديداً ، قاتلوا من مطلع الشمس إلى أن انتصف النهار ، يجعلون مضاربهم وراء ظهورهم ، يحتمون بها ولا يقاتلون إلا من وجه واحد .

ويأمر « عمر بن سعد » بهذه البيوت فتحرق ، ويمضى « شمر » حتى يدنو من بيت « الحسين » فينادى : عليَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله ، فيصبح به النساء ، ويصبح به « الحسين » ويصيح به غير واحد ممن معه ، فينثنى بعد لأى .



وتكاثروا على « الحسين » وأصحابه ، ورأى أصحاب « الحسين » أنهم

غير قادرين عليهم ، وأنهم غير قادرين على أن يمنعوا « الحسين » ولا أن يمنعوا أنفسهم ، فالتفوا بـ « الحسين » يتنافسون فى أن يُقتلوا بين يديه .

واشتد بـ « الحسين » عطشه ، فدنا من الفرات ليشرب ، فرماه أحدهم بسهم ، فوقع فى فمه ، فاختلط ما يشرب من ماء الفرات بدمه .

ويقبل « شمر بن ذى الجوشن » فى نفر من رجاله فيحيطون بـ « الحسين » ، ويهوى رجل منهم - أحب أن تعرفه باسمه ؛ فلقد كان « بحر بن كعب بن تيم الله بن ثعلبة » - إلى « الحسين » بالسيف ، فيصيح به غلام من أهل « الحسين » كان إلى جانبه فيقول له : أتقتل عمى ؟ .

فيهوى « بحر » بالسيف يريد الغلام ، فيتقيه الغلام بيده ، فيقطعها « بحر » ، ويصيح الغلام باكيا ، فيضمه إليه « الحسين » وهو يقول له : اصبر يابن أخى على ما نزل بك .

وينكشف مَن حول « الحسين » من أصحابه عنه من حر الضرب ، ويبقى « الحسين » فى ثلاثة أو أربعة . و « الحسين » يحمل على الذين عن يمينه ، ويحمل على الذين عن يساره ، ينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ، وينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ، كأنهم المعزى قد شد فيها الذئب .

ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء .

« والحسين » بينهم ينادى : أعلى قتلى تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى .

وينادى « شمر » فى الناس : ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل ، اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم .

وكما خاف « عمر بن سعد » « شمر بن ذى الجوشن » خافه هؤلاء

القوم ، وكان لهم فى قائدهم « عمر » أسوة ، فحملوا جميعهم على « الحسين » .

يضربه « زرعة بن شريك التميمى » على كفه اليسرى ، ويضربه على عاتقه ، ثم انفرجوا عنه قليلا ، وهو يقوم ويكبو .

ويحمل عليه « سنان بن أنس النخعى » وهو على حاله تلك ، فيطعنه بالرمح فيقع على الأرض .

ويصيح « سنان بن أنس » برجل إلى جانبه هو « خولى بن يزيد الأصبحى » ليحتز رأسه . ويحاول « خوليٌّ » أن يفعل ، فترعد يداه .

فينزل « سنان » عن فرسه وهو يلعن « خولى بن يزيد » ويجثم على « الحسين » يذبحه ويحتز رأسه ، ويدفع بالرأس إلى « خولى »

وإذا هم بعد هذا كله يسلبون « الحسين » ما عليه ، فيأخذ « بحر » سراويله ، ويأخذ « قيس بن الأشعث » قطيفته ، ويأخذ « الأسود الأزدى » نعليه ، ويأخذ رجل من دارم سيفه ، ويميل نفر على الفرش والحلل والإبل فينتهبونها .

ألم يأمرهم أن يفعلوا هذا وغيره « ابن زياد » ؟ وهل منهم من أحد إلا وقد ملأ قلبه خوف « ابن زياد » ؟ وهل منهم من أحد إلا وهو راغب فيما عند « ابن زياد » .

ولكن أين القلوب التى آزرت « الحسين » ؟ ما بالها قد فقدت الرحمة حين ملأها الخوف والطمع ؟ وما بالها قد أنسيت أن من قتلت .. هو « ابن بنت رسول الله » ؟ وما بالها قد أنسيت أن من تمثل به .. هو رجلهم الذى التفوا به من قبل .

ولكنك لا تنس أن الآثمين آحاد ، وأن الكثرة المشاركة كانت مسوقة إلى حرب لم يبلغ الظن بها أن تُسف إلى هذا

فلقد كان هينا عليهم شيئا أن يمضى « الحسين » ، مقتولا ، وأن ينال مالا يحصى من الطعنات والضربات ، ولكن لم يكن هيناً عليهم أن يقطع رأسه ، وأن يمثل به ، وأن يُسلب ما عليه من ثياب على هذه الصورة المعيبة .



- ٣٠ -

ولكنا قبل أن نسدل الستار على مقتل « الحسين » نحب أن نعود قليلا إلى « عمر بن سعد » الذى غلبته دنياه على قلبه . وما نحب أن نعود إليه بعد ما سقنالك ما كان .. إلا لنذكر له ما أعطى إلى جانب ما أخذ ، ولقد كان ما أعطاه لـ « الحسين » قليلا بجانب ما غلبه عليه ، ولو أن أمره مضى على غير هذا ، ورجح ما أعطى عن ما أخذ ، لخرج « الحسين » من هذه الفتنة موفور الكرامة موفرة عليه حياته .

ولكن هكذا أراد الله لـ « عمر » ، وهكذا أراد الله لـ « الحسين » .

غير أن « عمر بن سعد » هذا الذى كان أول رام وقال للناس اشهدوا .

و « عمر بن سعد » هذا الذى حرّق على أهل « الحسين » بيوتهم .

و « عمر بن سعد » هذا الذى صال فى هذه الحرب وجال .

هو « عمر بن سعد » الذى وقف يبكى لما انكشف « الحسين » وأحاط به الناس يطعنونه ويضربونه ؛ حتى بل دمعه خديه ولحيته ؛ وذلك حين دنت منه « زينب » تقول له : يا عمر ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى وقف للناس بعد مقتل « الحسين » وهو يدفع عن بيت « الحسين » ويقول : لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد ، ومن أخذ من متاعهن شيئا فليرده .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى حذف « سنان بن أنس » قاتل « الحسين » بالقضيب حين وقف على باب فسطاطه ، وهو ينشد :

أوفـو ركـــابى فضـــة وذهبـــا إنى قتلت السيـــد المحجّبـــا
قتلت خير النـــاس أمـــا وأبـــا وخيرهم إذ ينسبـــون نسبـــا

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى خلى سبيل « عقبة بن سمعان » مولى « الرباب » أمرأة « الحسين » وكان ثانى أثنين نَجَوَا من تلك الحرب .

ولكنه كان أيضا بعد هذا كله « عمر بن سعد » الذى نادى فى أصحابه بعد مقتل « الحسين » : من ينتدب إلى « الحسين » فيوطئه فرسه ، فانتدب عشرة ، فداسو « الحسين » بخيولهم حتى ضوًّا ظهره وصدره .

نعم كان « عمر بن سعد » هو الذى فعل هذا وهذا ، خاف « ابنَ زياد » وطمع فيه ، فوفّى له بكل ما طلب منه جهرة وعلى رءوس الأشهاد .

وذكر دينه وما يجب عليه من حرمة نحو « الحسين » وآله ، ففعل ما فعل تنفيسا عما يكن ، وكان عليه مرغما .

وما ضر حياة الناس وأفسدها عليهم إلا أمثال « عمر بن سعد » ، يدخلونها على الناس وهم قادة وإليهم الأمر ، والناس لهم يطيعون ، فإذا هم يركبون بالناس مثل هذا المركب الوعر الخشن ، وإذا هم مع الناس خاسرون .

ولكن ما يخسره الناس معوضوه بعد حين - يقصر ويطول - حين يعلمون أن قادتهم لم يحسنوا قيادتهم وحَمَّلوهم شططا .

أما ما يخسره القادة فهم غير معوضيه ، فإنهم لا شك ماضون بالخزى الباقى والعار الدائم والسبة التى لا تنمحى .

والناس لا شك مفيدون - إلى جانب ما أفادوا من هذا الخزى وذاك العار وتلك السبة - عظات كثيرة .

☆ ☆ ☆

ويحمل رأس « الحسين » إلى « ابن زياد » « خولى بن يزيد » . وما أظنك نسيت « خولى بن يزيد » ، فيجد « خولى » ، قصر « ابن زياد » مغلقا ، فيمضى برأس « الحسين » إلى منزله ، فيضع الرأس تحت إجانة ، ويدخل إلى امرأته « النوار » هاشًا باشا يقول لها : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس « الحسين » معك فى الدار .

فتقول له « النوار » امرأته : ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ ، والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبدا ، ثم تخرج عنه .

وهذا هو .. مال بنى أمية يغريه ، وجاه الدنيا يعميه ، وتلك هى .. يردها إلى الصواب .. حب لرسول الله وحب لبنيه .

ولقد كان المغرورون المخدوعون كثرة ، وكان جُرم القتل كبيرا ، وشناعته مفظعة ، فآب هؤلاء المغرورون المخدوعون بعد حين قلةً ، وآب جرم القتل حديث القلوب أولا ، ثم حديث الألسن ثانيا ، ثم انتقل هذا الحديث إلى الأيدى فعلا وعملا ، مما ستعرف خبره بعد حين قليل .

☆ ☆ ☆

فلقد جلس « ابن زياد » ورأس « الحسين » بين يديه ، وهو ينكث بقضيب بين ثنيتيه ساعة ، فيثور به « زيد بن الأرقم » وهو يقول له : ارفع

هذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فو الذى لا إله غيره ، لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين تقبلهما ! ... ثم بكى .

وهكذا رأى « ابن زياد » الشر الذى أراد أن يقضى عليه بالقضاء على « الحسين » يطل برأسه مرة ثانية ، وكما لم ينس « ابن زياد » شدته فى الأولى ، لم ينسها فى الثانية ، فالتفت إلى « زيد بن الأرقم » يقول له : أبكى الله عينيك ، فو الله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .

فخرج عنه « ابن الأرقم » وهو يقول : أنتم يا معشر العرب .. العبيد بعد اليوم : قتلتم ابن فاطمة ، وأمَّرتم « ابن مرجانة » - يعنى « ابن زياد » - فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالذل ، فبعدا لمن يرضى بالذل .

☆ ☆ ☆

ولقد جلس « ابن زياد » لآل « الحسين » من نسائه ، حين جلسن بين يديه ، و « زينب » أخت « الحسين » فى أرذل ثيابها متنكرة فيقول « ابن زياد » : من هذه الجالسة ؟ فلا تكلمه . يقولها ثلاثا وهى لا تكلمه .

فتقول أَمَة من إمائها : هذه « زينب بنت فاطمة » .

فيقول لها « ابن زياد » : الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وكذب أحدوثتكم .

فتقول له « زينب » : الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت ، وإنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر .

فيقول لها « ابن زياد » : فكيف رأيتِ صُنع الله بأهل بيتك ؟ ...

فتقول له « زينب » : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده .

ثم ينظر « ابن زياد » إلى « على بن الحسين » ، فيقول له : ما اسمك ؟ ...

فيقول : « على بن الحسين » .

فيقول « ابن زياد » : أو لم يقتل الله « عليّ بن الحسين » ؟

فيسكت « على بن الحسين » .

فيقول له « ابن زياد » : مالك لا تتكلم ؟ .

فيقول « على بن الحسين » : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

فيقول له « ابن زياد » : أنت والله منهم .

ثم يلتفت « ابن زياد » : إلى رجل بجواره ، فيقول له : اقتله ؟ ...

☆ ☆ ☆

وينادى منادى « ابن زياد » فى الناس ، فيجتمعوا فى المسجد ، ويصعد « ابن زياد » المنبر يخطب الناس فيقول :

الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين « يزيد » وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن على » وشيعته .

فيثب إليه « عبد الله بن عفيف الأزدى » فيقول له : يابن مرجانة ، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، والذى ولاك وأبوه .

يابن مرجانه ، أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين .

فيقول « ابن زياد » : علّى به .

فيثور معه « الأزديون » ويحملونه إلى داره ، فيرسل « ابن زياد » من يأتيه به ، ثم يأمر به فيقتل ، ثم يأمر به فيصلب فى المسجد .

☆ ☆ ☆

وهكذا دخل « ابن زياد » بالذى ارتكب من غلظة ، فى الشرّ الذى أراد أن يخرج منه .

وهكذا مضت هذه الثورات الصغيرة لمقتل « الحسين » تهيىء لثورات كبيرة .

وهكذا أفسد « ابن زياد » على الأمويين أمرهم الذى انتدبوه ليصلحه .

وهكذا مضى « ابن زياد » يخرج من عنف ليدخل فى عنف ، ويترك قسوة ليرتكب أخرى .

فقد أمر « ابن زياد » برأس « الحسين » أن يحمل على خشبة فيطاف به فى الكوفة ، يظن أنه يلقى الرعب فى القلوب ، وقد ألقاه حقا كما ظن ؛ ولكنه ألقى إلى جانبه الأسى للمقتول ، والحسرة على التفريط فى نصره ، وهيأ هذه القلوب لشر كبير .

☆ ☆ ☆

ولقد أدرك « يزيد » ما جره عليه « ابن زياد » حين دخل الرسول ينبئه بما كان منهم نحو « الحسين » وآله ، يزوِّر له فى العبارة ، ويجود فى الكلام ، يبغى أن يسره ويدخل البشر عليه .

فإذا « يزيد » تدمع عيناه ، وإذا هو يقول لهذا الرسول : كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل « الحسين » لعن الله ابن سمية ، أما والله لو أنى

صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله « الحسين » ، وما وصل ذلك الرسول بشيء على بشراه .

☆ ☆ ☆

ألا ليت « عمر بن سعد » كان حاضرهما ليسمعها من « يزيد » . ثم ألا ليت « عمر بن سعد » أدرك أنه كان مدركا عند « يزيد » فوق ما كان يرجو عند « ابن زياد » ، دون أن يأثم أو يجر على نفسه وعلى الأمويين شرا .

– ٣١ –

وهكذا استقبل الأمويون بمقتل « الحسين » شيئاً جديداً ، فلقد كادت الأمور تستقيم لهم بنزول « الحسين » عن حقه ، و كادت الأمور تستقيم لهم حين رغب « الحسين » فى أن يلقى « يزيد » ، وهو حين يلقاه – لو تم له ما طلب – كان لا شك معطيا ما أعطى « الحسن » أو معطيا شيئا قريبا منه ، يسد على الأمويين باب الفتنة ، ويُسْكت الداعين ويردهم إلى نوع من السكون ، ولقد كان الأمويون قادرين – فى ظل هذا السكون – على أن يمضوا فى إغرائهم – وهم يملكون خزائن الأرض – فيجمعوا الناس حولهم ، وهم لا شك كاسبون فى ظل الأمن ؛ إذ هم يملكون الأسباب التى بها تُشترى النفوس ، وتصرف القلوب ؛ على حين كان « الحسين » وآله لا يملكون منها إلا القليل ، وهم لا شك كاسبون فى ظل هذا الأمن لأنهم لن يعطوا خصومهم ما يثيرون به القلوب عليهم ، وهم لا شك كاسبون فى ظل هذا الأمن وتلك الموادعة التى رغب فيها « الحسين » ولم يُجب إليها ، لأن الشيعة لم ينفروا مع « الحسين » إلا حين رأوه ثائرا لحقه ، رافضا أن يُعطى « يزيد » ، وهم حين يرون « الحسين » يوادع .. موادعون .

ولقد كان غير « الحسين » من آله لاتملأ قلوبهم الحميّةالتى ملأت

قلبه ، ولقد كان إرضاؤهم ليس بالشىء العسير على الأمويين لو أرادوه ، ولقد كان صرفهم عن « الحسين » وضمهم إلى « يزيد » يسيرا على « يزيد » لو لم تجر الأمور على هذا النحو الذى جرت عليه ، وانتهت بمقتل « الحسين » على تلك الصورة المفزعة .

☆ ☆ ☆

لهذا ارتد الشيعة إلى أقوى ما كانوا عليه حياة « الحسين » وارتد آل « الحسين » أطمع ما يكونون فيما كادوا ينزلون عنه .

فلقد امتلأت قلوب الشيعة حسرة على ما فرّطوا فيه ، وألماً على تخاذلهم ، وكادوا يعدون أنفسهم شركاء فى إهدار دم « الحسين » .

ولقد صحا آل « الحسين » على مقتل « الحسين » صحوة قوية عنيفة ، يذكيها الثأر ، وما خلصت نفوسهم منه ، ويذكيها تهيؤ الشيعة لجديد من الأمر ، ويذكيها غضب الناس من حولهم ممن ليسوا بشيعة ولا أهل .

وهكذا خرج آل « الحسين » من مقتل « الحسين » بحافزات أربع :

فلقد كسبوا الشيعة بعد أن كاد « الحسين » يخسرهم .

ولقد كسبوا أنصارا آخرين كانوا عنهم بمعزل .

ولقد كسبوا هم أنفسهم بعد أن كادت تهون وتلين .

ولقد كسبوا شيئا آخر كان له خطره ، وكان لا يقل شأنا عن هذه الثلاثة الأولى ، فلقد كسبوا حجة على الأمويين فيما ارتكبوا من عنف وغلظة ، كانت فى يدهم أقوى سلاح وأمضاه ، كلما لانت القلوب .. حركوها بها ، ألا وهى مقتل « الحسين » .



أحسها « يزيد » لاذعة موهنة حين بلغه ما فعل « ابن زياد » فقال :

ما عليّ لو احتملت الأذى وأنزلت « الحسين » معى فى دارى وحكمته فيما يريد ، وإن كان عليّ فى ذلك وهن فى سلطانى ، حفظا لرسول الله ﷺ ، ورعاية لحقه وقرابته ، لعن الله « ابن مرجانة » فإنه اضطره ، وقد سأله أن يضع يده فى يدى ، أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله ، فلم يجبه إلى ذلك فقتله ، فبغّضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البر والفاجر ، بما استعظموه من قتل « الحسين » ، مالى ولابن مرجانة .. لعنه الله وغضب عليه .

أما والله لو أنى صاحبه ما سألنى خصلة أبداً إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ، ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن قضى الله .

☆ ☆ ☆

وأحسها المروانيون من حول « يزيد » حين حُمل رأس « الحسين » إلى الشام .

فلقد جاء القومَ « مروانُ بن الحكم » يسألهم : ما صنعوا ، فلما علم ما كان .. انصرف عنهم مغضبا .

ولقد جاءهم « يحيى بن الحكم » يسألهم هو الآخر : ما صنعوا . فلما علم ما عندهم . انصرف عنهم مغضبا وهو يقول : لن أجامعكم على أمر أبدا .

ودخل على « يزيد » وهو ينشد :

لَهـــــام يجنب الطف أدنى قرابـــــة

من ابن زيـــاد العبـــد ذى الحسب الـــوغـل

سميـــــة أمسى نسلهـــــا عـــــدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليـــــوم من نســـــل

ولقد بكت « الحسين » نساء المروانيين مع رجالهم ، ونِحْنَ عليه ، وأقمن المأتم .

☆ ☆ ☆

وإذا تركنا الشام معقل الأمويين إلى غيرها ، رأينا البلبلة التى ملكت على الأمويين أنفسهم ، وعلى غير الأمويين ألبابهم ، قد ملكت الباب أهل المدينة ففزَّعتهم ، ولسان حالهم ينشد :

أيهـــا القـــاتلـــون جهـــلا حسينـــا
أبشروا بـــالعـــذاب والتنكيـــل
كـــل أهـــل السمـــاء يـــدعـــو عليكم
من نبى وَمـــلائـــك وقبيـــل
قـــد لعنتم على لســـان ابن داو
د ومـــوسى وصـــاحبِ الإنجيـــل

وإذ ما تركنا الشام والمدينة إلى غيرهما رأينا الناس مولهين مهمومين ، قد امتلأت قلوبهم حسرة وأسى .

— ٣٢ —

وما قُتل « الحسين » وحده فى هذه الفتنة ، فيهون الأمر شيئا على ذويه أولا ، وعلى المسلمين ثانيا ، وعلى الشيعة ثالثا ، ولكنه قتل إلى جانبه فى هذه الفتنة كل من كان معه من آله :

قُتل « العباس بن على » ، وقُتل « جعفر بن على » ، وقُتل « عبد الله بن على » ، وقتل « عثمان بن على » ، وقُتل « محمد بن على » ، وقُتل « أبو

بكر بن على » ، وقُتل « على بن الحسين بن على » ، وقتل « عبد الله بن الحسين بن على » ، وقتل « أبو بكر بن الحسين بن على » ، وقُتل « القاسم بن الحسين بن على » ، وقُتل « عون بن جعفر بن أبى طالب » ، وقتل « محمد بن عبد الله بن جعفر » ، وقتل « جعفر بن عقيل بن أبى طالب » ، وقُتل « عبد الرحمن بن عقيل » ، وقُتل « عبد الله بن عقيل » ، وقُتل « مسلم بن عقيل » ، وقُتل « عبد الله بن مسلم بن عقيل » ، وقتل « محمد بن أبى سعيد بن عقيل » .

وقتل من مواليهم : « سليم » مولى « الحسين » ، وقتل « منجح » ، مولى « الحسين » ، وقتل « عبد الله بن بقطر » ، رضيع « الحسين » .

واستصغروا « الحسن بن الحسن بن على » ، و « عمرو بن الحسن » فلم يقتلوهما .

وهكذا كانت حربَ استئصال - كما رأيت - لم يُبق فيها « ابن زياد » ولم يذر .

وصدق « يحيى بن الحكم » حين قال :

سميـــة أمسى نسلهـــا عـــدد الحصى وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

☆ ☆ ☆

وإن الحجة التى ملكها « ابن زياد » للناس على الأمويين ، وعلى رأسهم « يزيد » ملَّكها « ابن زياد » للناس عليه ، فإذا هو الآخر يريد أن يخلص من إثمها ، كما أراد « يزيد » أن يخلص من إثمها ، وإذا « ابن زياد » يرى « يزيد » قد ملك « عذره » وحمّله هو تبعتها ، فنجا « يزيد » - فيما ظن « ابن زياد » - من شرها ليتقبل خيرها ، وآب « ابن زياد » بشرها وهو فى شك من خيرها .

عندها ارتد « ابن زياد » يفكر ، وماله هو الآخر لا يكون له عذر « يزيد » ، على الناس ، وماله هو الآخر لا يحمِّل تبعتها « عمر بن سعد » فينجو كما نجا « يزيد » من إثمها ، ويحمِّله كله كاملا « عمرَ بن سعد » .

من أجل ذلك دعا « ابن زياد » إليه « عمر بن سعد » يسأله أن يأتيه بالكتاب الذى كتبه إليه فى قتل « الحسين » .

وهنا يدرك « عمر بن سعد » ما يُراد به ، وينسى ما عند « ابن زياد » بما عند الله ، وينسى لذة المطمع بمرارة الغدر ، وينسى هذه الدنيا بحقد الناس عليه ، فيلتفت إلى « ابن زياد » يقول له : مضيت لأمرك وضاع الكتاب .

ويعرف « ابن زياد » أن « عمر بن سعد » يمكر به ، وأن كتابا كهذا لن يفرط فيه « عمر بن سعد » ويعرف أن الكتاب لا زال فى يد « عمر بن سعد » يحتفظ به ، فيسأل ويلح فى السؤال .

وإذا كان « عمر بن سعد » قد خانه وفاؤه ، فلن يخونه دهاؤه ، وإذا كانت الدنيا قد غلبته على أمره مرة فلن تغلبه أخرى ، وإذا كان لم يقدر لأمره من قبل يروده الصواب ؛ فما أولاه أن يقدر له اليوم والصواب رائده ، ثم ماله هو الآخر لا يخرج من الفتنة وله عذره ، وليدع « ابن زياد » يخرج بإثمها كله ، كما فعل به «يزيد » ، وما عليه أن يخسر ما عند « ابن زياد » فلقد رآه ، شيئا لا يغنى إزاء ما هو لاق على ألسنة الناس وزارع فى قلوبهم .

لهذا التفت « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يقول له : تركته والله يُقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهن .

أما والله لقد نصحتك فى « الحسين » نصيحة لو نصحتها أبى « سعد بن أبى وقاص » لكنت قد أديت حقه .

وهكذا خرج « ابن زياد » وآله بإثمها كله ، فيما ظن « يزيد » ، وفيما ظن « عمر بن سعد » . ولقد صدق « عثمان » أخو « ابن زياد » حين قال وهو يعقب على كلام « عمر بن سعد » : صدق ؛ والله لوددت أنه ليس من بنى زياد رجل إلا وفى أنفه خزامة إلى يوم القيامة ، وأن « الحسين » لم يقتل .

☆ ☆ ☆

وليحمل « ابن زياد » إثم قتل « الحسين » ، وليحمل « عمر بن سعد » إثم قتل « الحسين » أو لا يحمله ، وليخرج « يزيد » من هذا الإثم بما بدله .

ولكن قتل « الحسين » وآله ، لم يكن شيئا يبحث فيه عن القاتل ليقتص منه ، ولم يكن شيئا يعذر فيه القاتلون إلى الناس ، ولكنه كان جرحا لا يندمل ، وكان شراً لا تهدأ ثائرته ، وكان فتنة ظن الأمويون أنهم قادرون عليها أول الأمر ، فإذا هى فتنة هم عاجزون عنها آخر الأمر .

وكما لم يسكت الأمويون مع مقتل « عثمان » وهبوا يطالبون بقاتليه ، واتخذوا من ذلك وسيلتهم لحرب « على » .

كذلك لم يسكت الهاشميون عن المطالبة بدم « الحسين » وهبوا يطالبون بقاتليه .

ولقد كان قاتلو « عثمان » حفنة من الناس لم تتبين حالهم ، وكانت المطالبة بهم لا تضير كثيرا ، وهى مع ذلك أعطت الأمويين أسباب الغلبة ، وأثارت معهم الناس .

وكان قاتلو « الحسين » عمالا للأمويين وقادة ، لم تغب حالهم ، وكانوا فى ذلك القتل عامدين قاصدين مدبرين ، وكانت المطالبة بهم تطلب

الخروج على الدولة الأموية ، والثورة بها ، والسعى لزعزعتها ؛ لذلك دبر الهاشميون ، وبثوا دعاتهم ، لينتصفوا لأنفسهم ، ولينالوا من عدوهم ، ترهبهم قوة الأمويين فيلينون شيئا ، ولكنهم على ذلك لم ينسوا ، وظلوا يناوئونهم حتى يكتب لهم النصر آخر الأمر ، يزيدهم ضعف الدولة الأموية قوة ويزيدهم التفاف الناس حول دعاتهم قوة ، ويزيدهم أن الناس لم ينسوا مقْتَل « الحسين » وآله قوة ، وإذا هم آخر الأمر يغلبون الأمويين على أمرهم .

وكما دخل الأمويون إلى الحكم بدم « عثمان » دخل الهاشميون إلى الحكم بدم « الحسين » ؛ مع فرق بين الحالين :

فقد سعى الأمويون إلى الحكم فاستخلصوه لأنفسهم ، دون أن يخسروا فيه إلا دم « عثمان » .

ولقد سعى آل أبى طالب بن عبد المطلب إلى الحكم يستخلصونه لأنفسهم فإذا هم قد خسروا فيه كل دمائهم ، وإذا الحكم آخر الأمر لبنى عمومتهم آل « عباس بن عبد المطلب » .



فلقد نزل عنها - وهى لا تزال دعوة - « أبو هاشم بن محمد بن على بن أبى طالب » ، فى مرض الموت ، إلى « على بن عبد الله بن العباس » ، ثم يموت « على » ويتلقفها ابنه « محمد » .

ثم يموت « محمد » بعد أن يعهد لابنه « إبراهيم » ، ثم يموت « إبراهيم » بعد أن يعهد لأخيه « أبى العباس السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس » ، رأس الدولة العباسية ، وأول خلفائها .

و بـ « أبى العباس السفاح » كان ميلاد الدولة العباسية ، وعلى يديه

تجرع الأمويون ما جرعوه للهاشميين ؛ يسعى إلى استئصالهم ، كما استأصلوا إخوانا لهم من قبل ، تحدوه القسوة التى حدت « ابن زياد » ، وهو يتمثل قول « سديف » الشاعر :

لا يغرنـــك مـــا ترى من رجـــال　　إن تحت الضلـــوع داء دويّـــــا
فضـع السيف وارفـع السـوط حتى　　لا ترى فـوق ظهرهـــا أمـــويـــا

الحقبة الثالثة

تجمع كلمة الهاشميين التي مهدت لظهور الدولة العباسية

— ١ —

على أطراف الشام ، وبالقرب من عمان ، تقع الحميمة ، وهى بلدة صغيرة كان يمر بها العابر دون أن يعرج ، قبل أن ينزلها بنو العباس ، وقبل أن يتخذوها موطناً لهم . ونزلها بنو العباس فالتفتت إليها الأعين أيام بنى أمية ، أعين الراغبين من بنى العباس وأعين المتخوفين منهم ، يقصد إليها هؤلاء الراغبون خفية يأخذون عن العباسيين ويلقون إليهم ، ويقصد إليها المتخوفون من بنى العباس خفية هم الآخرون يتحسسون الأخبار ، ويعدون على الصاعدين إليها والهابطين منها حركاتهم وسكناتهم .

كان ذلك كله يجرى لا يحسه إلا نفر قليل ممن يعنيهم الأمر ، منهم جملة من الأصدقاء الذين لا مشاركة لهم فى الحكم ، ومنهم جملة من الأعداء الذين بيدهم الحكم .

ولم يكن العباسيون حين ذاك أصحاب الأمر ، بل كانوا أعواناً لبنى عمهم عليه ، يشاركونهم فى الدعوة إليه ويشاركونهم فى هذا العبء ، عبء التنقص من الأمويين ، والتمدح بمآثر الهاشميين ، يريدون أن ينقُضوا على الأمويين ملكهم ليخلو الجو أمام الهاشميين .

وما نظن العباسيين كانوا يريدونها للهاشميين خالصة ، بل كانوا يريدونها للهاشميين ولهم ، فما أبقت تلك المعارك التى دارت رحاها بين الأمويين والهاشميين إلا قلة من الهاشميين ، ثم أتى بطش الأمويين – حين تتبعوا الهاشميين – على كثرة من هذه القلة ، وما بقى من هذه القلة من الهاشميين من هو جدير بهذه الأمانة غير أبى هاشم .

وكانت ليلة من ليالى عام تسع وتسعين من الهجرة ، حين نزل أبو هاشم على محمد بن على بن عبدالله بن عباس نزلته الأخيرة ، وكان أبو هاشم قبل أن يقصد إلى محمد بن على مر بسليمان بن عبد الملك ، فكرم سليمان وفادة أبى هاشم وقضى حوائجه .

وما كان سليمان قد عرف قبل اليوم أبا هاشم ، وما كان أبو هاشم جلس قبل اليوم إلى سليمان . وكان سليمان يعرف أن أبا هاشم رأس المنافسين له ، وأنه كان رأس الدعاة الهاشميين ، وأنه لو أوتى من القوة شيئاً لأزاحه من مجلسه ليجلس هو مكانه .

وكان أبو هاشم يعلم أن سليمان يظهر له غير ما يبطن ، وأنه لولا اطمئنان قليل إليه ما أبقى عليه .

من أجل هذا .. رحب سليمان بأبى هاشم ليسبر ما عنده ، وقبل أبو هاشم أن ينزل بسليمان ليزيده اطمئناناً إلى اطمئنان . وكان سليمان رجلا فى الملك يخشى أن يفلت منه ، فكان أشد حيطة وأقرب إلى الغدر ، وكان أبو هاشم رجلا يسعى إلى الملك ، بين يأس وطمع ، ليس فى يده ما يخشى عليه ، من أجل ذلك لقى سليمان يبغى أمنه ولا يريد أذاه ، وكان ضعيفاً فى حضرة قوى ، فلم تحدثه نفسه بغدر .

ورأى سليمان من أبى هاشم ما حركه عليه ، وليس شىء يثير ما بين المتنافسين غير أن يبدو من أحدهما أنه يبز صاحبه ، هنا يحس المغلوب أنه منزوع منه أمره فيقوى ، ويحس أن منافسه سيملك الأمر دونه فيضل ويغوى .

ولقد أحس سليمان فى تلك الجلسة القصيرة ، التى جلس فيها إليه أبو هاشم ، أن أبا هاشم ذا فضل ، فحقد عليه ، وأن أبا هاشم ذا علم فخاف أن يجذب الناس إليه بعلمه ، وخاف أن هذا الفضل وذاك العلم سوف يمكننان

من شأن أبى هاشم ، وسوف يهونان من شأنه هو ، فيخسر سليمان ويكسب أبو هاشم ، وقد يكون ما يخسره سليمان هو الملك ، وقد يكون ما يكسبه أبو هاشم هو تمكين أهله من ذلك الملك ، وما فكر سليمان فى هذا طويلا حتى قرّ رأيه على ما يقر عليه رأى من هم فى مثل حاله ملكا وسلطانا ، فكما لم يعرف هؤلاء الملوك وأولئك السلاطين الهوادة واللين مع من يحسون منهم شراً ، ومع من يخافون منافستهم . كذلك لم يعرف سليمان الهوادة واللين مع أبى هاشم ، لا يملى عليه فكره ولكن يملى عليه هواه . وإذا ما كان الهوى والفكر كانت الغلبة للهوى على الفكر ، فالهوى طموح والفكر جموح ، والنفس إلى الانطلاق أشوق منها إلى الجمود .

من أجل ذلك لم يرع سليمان لأبى هاشم أنه ضيفه ، ولم يرع له أنه فاضل عالم برّ تقى ورع ، لم يذكر له شيئاً من هذا كله حين ذكر خوفه منه ، فدبر للخلاص منه تدبيراً بأكثر ما علمناه لمن يدبرون للخلاص ممن يخافونهم ظلماً وبهتاناً .

وكأن سليمان كانت فيه بقية من تحرج ، وبقية من تحرز ، وبقية من خوف ، فهو لم يقتل ضيفه فى حضرته ، حتى لايصاب فى تحرجه أو تحرزه ، وحتى لا يثير فى نفسه الخوف ، فما من شك أن قتل أبى هاشم كان سيصيب سليمان بشىء من الحرج ، حين يقال عنه إنه قتل ضيفه ، وكان سيهدر ركناً من أركان دينه ، فيصاب فى تحرزه حين يقال عنه إنه قتل مسلماً فى غير ذنب ولا جريرة : وكان ذلك لاشك سيقض عليه مضجعه ، لأن أبا هاشم لم يكن رجلا من هؤلاء الذين تذهب دماؤهم هباء .

لهذا كله .. فكر سليمان فى أن يُخرج عنه ضيفه ليلقى حتفه بعيداً ، فيترك الناس على شك لا على يقين ، ويترك لنفسه الفرصة فى أن يدفع وينفى ، وفرق بين أن تكون الجريرة فى ساحته فلا يؤخذ بها إلا هو ، وبين أن تكون الجريرة أبعد ما تكون عن ساحته فيكون هو واحداً من هؤلاء المتهمين ، وقد يكون بعيداً عمن يتهمون .

رأى هذا كله سليمان وهو مغرى بقتل أبى هاشم ، فنصب له رجلا على الطريق مخرجه من عنده ، وأوصى هذا الرجل بأن يستقبل أبا هاشم حين يمر به ويدعوه إلى طعامه كما يدعو المقيم عابراً لسبيل ، وما رد العابرون على الطريق إكرام المقيمين عليه ، ولا امتنع مسافر عن أن ينال من طعام حالّ ، لهذا ما رحب هذا الرجل بأبى هاشم حتى ارتاح له أبو هاشم ، وما قدم له قدحاً من اللبن قِرى حتى خفت إليها يد أبى هاشم ، وحتى صب هذا القدح فى جوفه صباً يظنه قدحاً من لبن خالص ، وما درى أنه صب فى جوفه قدحاً من سم يستره هذا اللبن ببياضه .

وما كاد أبو هاشم يشرب هذا القدح حتى أحس ألم السم يفرى أحشاءه ، وحتى أحس أنه ميت ، وحتى أحس أنه قد خدع ، وحتى أحس أن الذى خدعه سليمان ، وأن هذا الداعيه إلى قِرًى أجيره .

وكانت تلك الدعوة أمانة فى عنق الدعاة ، لايكاد أحدهم يحس الموت حتى يسرع ليقلدها غيره من بعده من أهله . ولم يكن أبو هاشم قد أعقب فيوصى بتلك الأمانة لابنه من بعده ، وكان يعلم أن فى الحميمة محمد بن على بن عبدالله بن عباس ، وكان أبو هاشم يرى أنه أولى بهذه الأمانة ، من أجل ذلك خفّ إليه فنزل عليه وأعلمه أن هذا الأمر إليه وأوصى إليه ، بما أوصى .

وعلم الشيعة بما كان من أبى هاشم ، وبما أوصى به أبو هاشم ، فإذا هم حول محمد بن على يباعونه ، ويؤكدون الولاء له ، ويدعون الناس إليه ، وإذا محمد بن على بعد هذا صاحب هذه الدعوة ، يمهد لها ، وينظم أمرها ، ويجمع حوله ، رجالها ويرسم نهجها .

– ٢ –

ونشط محمد بن على يدعو ويوجه دعاته هنا وهناك ، فيتعرضون

للأذى وهم صابرون ، لأنهم كانوا يؤمنون بما يحملون ، ومانظن محمداً كان يرى أنه بالغ بالدعوة مايريد ، بل كان يرى أن الأمر سيكون لمن بعده وأنه يمهد السبيل لغيره ،

كان محمد يعلم هذا وكان يعلم أن صاحب هذا الأمر من بعده هو ابن له ، وكان محمد عندما تلقى الأمانة عن أبى هاشم .. له ولد يدعى إبراهيم ، وكان إبراهيم - عندها - يبلغ من العمر مايقرب من ثمانية عشر عاماً ، ولكن محمداً لم يكن يرى إبراهيم صاحب هذا الأمر ، كان يعده داعياً من الدعاة وإماماً من الأئمة ، عليه ماعليهم ، ولكنه لشىء ما لم يكن يراه صاحب هذا الأمر .

ونكاد نفسر هذا الشىء بأنه نوع من الحذق ، ونوع من الدهاء والحيلة من محمد ، والدعاة لو لم يرزقوا حذقاً ودهاء لم يملكوا القلوب ، ولم يستولوا على الألباب . والويل لهم إن جرب الناس عليهم الفشل مرة .. فما أسرعهم عند ذاك إلى الانفضاض من حولهم .

فلقد كان محمد يعرف نفسه ، ويعرف الدولة الأموية من حوله ، يعرف نفسه ويعرف الشيعة من حوله تجمعهم إليه الرغبة فيه ، ويفرقهم عنه الخوف من السلطان ، يمولونه ولايمولهم هو ، على العكس من جند السلطان الذين كانت تجمعهم على السلطان الرغبة فى ماله والخوف من عقابه ، فكان محمد ضعيفاً أشبه بالقوى ، وكان السلطان قوياً ذا باع فى الأقوياء طويل ، على هذا كان محمد يعرف نفسه ، ويعرف سلطان الأمويين ، يعرف أنه يدعو ليمهد لمن بعده لالنفسه ، ومايريد أن يرخى فى الأمد للناس فيملوا الالتفاف حوله ، ومايريد أن يقصر فى الأمد للناس فيتفرقوا عنه حين يبين لهم خلاف ماقال .

من أجل ذلك .. لم يجعل صاحب الأمر ابنه إبراهيم ، لأنه كان يعلم أن الشوط لايزال بعيداً ، وكان يخاف أن يمتد الشوط فيطوى إبراهيم دون أن

يظفر بالأمر فيضجر الناس ولايؤمنوا بالدعوة ، لهذا عدل محمد عن إبراهيم ، ولم يُرد حين عدل عن إبراهيم أن تخرج هذه الدعوة عن ولده ، ولكنه كان يبغى ولداً لما يولد بعد ، يجعله هو صاحب هذه الدعوة فيعطى لنفسه ولهذا الوليد - الذى سيولد بعد - فرصة واسعة يتمكن فيها دعاته من بث الدعوة ، ويكون الزمن قد أضعف من سلطان الأمويين إضعافاً يمكن لسقوطهم ، ويمكن للعباسيين أن يحلوا مكانهم ، وكأن محمداً قد رأى شيئاً من هذا وذاك ، فعدل بالدعوة عن إبراهيم ليجعلها لولده عبد الله .

وما كاد هذا الوليد يدخل إلى الحياة .. حتى كاد يزيد بن عبد الملك يخرج من الحياة ، بعد مرض أضناه ، ويخلِّف دولة تتهيأ للزوال وتتعرض للفتن ، فقد خلف من ورائه هشاماً أخاه ، والوليد ابنه يتنازعان الملك .

لهذا شيعته ، ولذاك أنصاره ، يكيد هذا لذاك ، ويكيد ذاك لهذا ، إلى أن تألب الناس على الأمويين جميعاً فأزالوا دولتهم ،

ماكان هذا كله يغيب عن محمد بن على ، بل رآه جلياً واضحاً مع مولد ابنه عبد الله ، من أجل ذلك .. كان محمد لبقاً حين جعل عبد الله صاحب الدعوة ، وكان فطناً حين اختار الوليد لهذه الدعوة ، فالناس تجذبهم إلى الرضع عاطفة ،

- ٣ -

وفى سنة أربع ومائة ، وفى شهر ربيع الآخر منها ، كان مولد أبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، الذى لقب فيما بعد « بالسفاح » .

ويمضى خمسة عشر يوماً على مولده فيفد على أبيه محمد بن على نفر من الشيعة ، وعلى رأسهم أبو محمد الصادق ، فيُخرج إليهم محمد بن على ابنه أبا العباس فى خرقة ، وهو يقول لهم : هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يديه .

ومايكاد يسمعها هؤلاء النفر حتى التفوا بالوليد يقبلون أطرافه . ولكن محمد بن على ماكاد يضمن قلوب هؤلاء الشيعة على المحبة لابنه .. حتى أراد أن يضمنها على الكراهية لخصومه ، فهو يعلم أن حبهم لابنه لن يضمن له الملك .. إلا إذا ضمنهم مع هذا الحب عداوة للأمويين لاتفتر ولاتلين .

لهذا لم يكد يظفر منهم بالأولى حتى التفت إليهم يحركهم إلى الثانية ، وإن أيديهم لاتزال خدرة بما مست ، وإن شفاههم لاتزال ندية بما قبّلت ، وإن عيونهم لاتزال شاخصة إلى صاحبهم الذى سيتم الأمر على يديه ، التفت إليهم وهم على هذه الحال لم ينفضوا يداً ، ولم تجف لهم شفة ، ولم يتحول منهم طرف ، وهو يقول : والله لايتمّن هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوكم .

وهكذا كان محمد لبقاً أشد اللباقة ، فطناً أبعد الفطنة ، حين فتح القلوب يملؤها حباً ، وحين فتحها يملؤها بغضاً .

وكأنى به قد أدرك أن الأيام قد لاتسعفه بما ينشد ، وخاف أن يمضى هو بيد الأمويين ، أو يقضى بيد الدهر ، فيفت ذلك فى عزم أنصاره ، ويخرج الأمر عن العباسيين إلى أهله من الهاشميين ، وكانت لاتزال منهم بقية .

ولكن هناك شيئاً قد ذكرناه قبل ، وهو أن محمدا كان له ابن آخر سبق أبا العباس إلى الوجود ، وكان عند مولد أبى العباس فتى قد جاوز العشرين من عمره بقليل ، هو إبراهيم .

وما نظن أن كلمة محمد - لو صحت عنه - تمضى بسلام ولايحقد لها الابن الأكبر .

ومانظن محمداً كان يجهل أنه سيثيرها إحنة بين الأخوين ويقسم الشيعة بينهما فئتين . ومانظن الطالبين لهذا الأمر من العباسين ، ومنهم إبراهيم ،

قد برئت نفوسهم من دنس الحياة ، وخلصت قلوبهم مما لم تخلص منه قلوب الناس ، من طمع مغر وشهوة جامحة .

وما نظن داعياً يسخو بما يسخو به من جهاد فى سبيل الدعوة ، وهو يعلم أنه مأجور لغيره ، يهيىء له ملكاً ، ويؤسس عزاً .

قد تسخو بمثلها نفس الأب ، ولمثلها يعمل الآباء ، ولكنها لاتسخو بها نفس الأخ ، ومالمثلها يعمل الأشقاء .

ولقد مات محمد بن على ، وما نعرف أنه أوصى مع موته لأبى العباس ، ولكنه أوصى لإبراهيم ، ولقد وجه إبراهيم بهذه الوصية رسوله بكير بن ماهان إلى مرو ، فلقى بكير النقباء والدعاة ، ونعى إليهم محمد بن على ودعاهم إلى إبراهيم ، بعد أن دفع إليهم كتابه يحمل وصية أبيه به ، فقبلوه وأعطوه مااجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فحملها بكير ليقدم بها على إبراهيم .

ولقد عاش إبراهيم يصدر الدعاة عن رأيه ، ويلتفون حوله ، ويستمعون له ، ثم ينفضون عنه بأمره ومايشير به ، وينتشرون فى البلاد يدعون له ولايدعون لأخيه أبى العباس .

حتى إذا ماقبض الخليفة الأموى مروان على إبراهيم ،،وظن إبراهيم أنه ملاق ربه ، نعى نفسه إلى أهل بيته ، وأوصى إلى أخيه أبى العباس ، وجعله الخليفة من بعده .

وكان إبراهيم ثانى اثنين من الأئمة العباسيين ، الذين رأوا الأمر لهم جميعاً ، كما رآه كل واحد منهم لنفسه .

سعوا له جميعاً حتى لايخرج من هذا البيت ، وسعى له كل واحد منهم حتى يكون له دون غيره من هذا البيت .

من أجل هذا حمل كل واحد منهم عبئه يرى الأمر له أولاً ، ولمن بعده ثانياً ، يمضى فيه إلى آخر المطاف غير وان ، حتى إذا ماأدرك أنه مختطف عهد به إلى من يليه ، لايؤثر بعيدا على قريب ، ولايقدم له صغيراً على كبير .

فهو يعلم أنه إن فعل سوف يثير فتنة بين أصحاب الحق ، سوف تتبعها فتنة أعنف بين المناصرين على هذا الحق .

لهذا مضى العهد بين هؤلاء الأئمة - فيما نعلم - على ترتيبه ، عهد محمد إلى ابنه الأكبر إبراهيم ، ثم عهد إبراهيم إلى أخيه أبى العباس ، وكان أن قضى الله على يد أبى العباس مالم يقض على يد أبيه وأخيه من قبل ، وكتب له أن يكون صاحب هذا الأمر .

ولكن الرواة - أو الدعاة إلى هذه الدعوة - أبوا إلا أن يخرجوا بهذه الدعوة عن طبيعتها السياسية إلى صفة دينية .

وأبوا إلا أن يضيفوا إليها هذه الإرهاصات ليمكنوا لها فى قلوب الشيعة أولا ، وفى قلوب غير الشيعة ثانياً .

ومن أجل هذا أضافوا ذلك الذى أضافوه إلى محمد بن على فى ابنه أبى العباس حين ولد .

ومن أجل هذا عزوا إلى رسول الله ﷺ أنه أعلم العباس بن عبد المطلب أن الخلافة تؤول إلى ولده .

ومن أجل هذا عزوا إلى أبى هاشم بن الحنفية أنه حين لقى محمد بن على بالشام ، ونزل له عن حقه قال : إن هذا الأمر الذى يرتجيه الناس فيكم .

ومن أجل هذا اصطنعوا قصة أخرى لاأحب أن أغيبها عنك ، كما لم يحب المؤرخون أن يغيبوها عنا .

فقد قالوا : إن الخليفة الأموى مروان وجد موصوفاً عنده في بعض الكتب صفة هذا الخارج عليهم الذى سيكون زوال ملكهم على يديه ، فجد يتعقبه .

ويأخذ الرواة فى القصة فيذكرون أن مروان استدعى رسولا له أميناً وذكر له تلك الصفة التى يجدها .

وكأنى بمروان لم يكن رأى إبراهيم ولم يكن يعرفه ، وهكذا أراد الرواة ليستقيم لهم جانب من القصة .

فلقد زعموا أن مروان بعد أن بين لرسوله تلك الصفة وجهه للقبض على إبراهيم ، إذ كان هو داعى الوقت ونقيبه .

وكما لم ير مروان إبراهيم .. كذلك لم ير الرسول إبراهيم ، وهكذا أراد الرواة هذا أيضاً ليستقيم لهم الجانب الآخر من القصة .

فلقد ذكروا أن هذا الرسول حين أخذ إبراهيم وانطلق به إلى مروان ، قال له مروان : ليست هذه الصفة التى وصفت لك .

فيقول له الرسول : قد رأينا الصفة التى وصفت - وهو يعنى أنه رأى أبا العباس مع أخيه إبراهيم حين قبض عليه - وإنما سميت إبراهيم ، فهذا إبراهيم .

ويأمر مروان بإبراهيم فيحبس ليقتل ، ويرسل رسوله مرة ثانية فى إثر أبى العباس ، فلا يقع عليه .

وهكذا اصطنع العباسيون هذا الذى اصطنعوه ليمهدوا لأنفسهم ، ويجعلوا الأمر لهم من دون أولاد عمومتهم الهاشميين ، فأضافوا إلى رسول الله ﷺ شيئاً قاله للعباس ، وأضافوا إلى أبى هاشم بن الحنفية شيئاً قاله لمحمد بن على .

ثم اصطنع الشيعة الموالون لأبى العباس شيئاً آخر ، فأضافوا إلى أبيه محمد بن على كلاماً قاله مع مولده ، كما زيفوا هذه القصة التى حملوها مروان .

وهم فى كلتيهما يقصدون إلى جمع الأمر لأبى العباس ، ورد منافسيه عن هذا الحق .

فأنت ترى معى أن شيئاً من هذا وضع أولا والدعوة إلى العباسيين فى أولها ، أعنى هذا الذى عزاه العباسيون ودعاتهم إلى رسول الله ﷺ ، وهذا الذى عزوه إلى أبى هاشم .

وأن شيئاً من هذا وضع آخراً حين أوشك الأمر أن يستقيم لأبى العباس ، أو بعد أن استقام الأمر لأبى العباس ، أعنى هذا الذى تقوّلوه على لسان الأب ، ثم هذا الذى حملوه مروان .

ولقد كان الناس حديثى عهد بتحرر فلم يكدوا أذهانهم ، وكانوا بين يدى فتن فى الرأى عاصفة ، فاستكانوا لما تعيش عليه النفوس المكدودة الممتحنة من أحاديث موصولة بالدين ، وهى دخيلة على الدين .

وهكذا عاشت تلك الدعوات تعرف طريقها إلى القلوب فتلح عليها ، لاتدخر شيئاً يحركها إلا اصطنعته ، لاتبالى على أى لسان وصعته ، بشجعهم على ذلك .. أن الناس من حولهم قد نامت عقولهم واستيقظت قلوبهم .

— ٤ —

وما استقام الأمر لأبى العباس واستوى من تحته الملك حتى ابسطت يده فى التنكيل ببنى أمية .

ولقد كان هؤلاء السادة فى جاهليتهم على أطماع محدودة وشر صعبر . فإذا هم مع إسلامهم قد خرجوا عن ذاك الطمع المحدود إلى طمع لاتنضم عليه حدود ، واستحال هذا الشر الصغير إلى شر كبير .

كانوا فى جاهليتهم يذكرون وشائج القربى والرحم فيمسكون شيئاً ما ، وإذا هم مع إسلامهم ينسون وشائج القربى والرحم فيسرفون شيئاً ما .

وكانوا فى جاهليتهم بين يدى دنيا ضيقة لا تنضم على جاه عريض ، ولا ملك كبير . فكان التنافس الذى يجر إلى الحقد ، والتنابز الذى يمليه هذا الحقد . ضيقاً هو الآخر ، وإذا هم مع إسلامهم بين يدى دنيا واسعة تنضم على جاه عريض وملك كبير ، فكان هذا التنافس الذى يجر إلى الحقد ، وذلك التنابز الذى يمليه هذا الحقد ، عريضاً هو الآخر .

وعاشوا لم يردهم الإسلام إلى رقته ورحمته وعدله ، لأنهم قد أنسوا الإسلام برقته ورحمته وعدله ، وذكروا الدنيا بقسوتها وبغضها وظلمها .

والشعب كان غير بعيد من هؤلاء وهؤلاء ، ولأنه عاش مقتسما بين هؤلاء وهؤلاء ، أنسى هو الآخر دينه برقته ورحمته وعدله ، وانغمس فى دنيا هؤلاء بأطماعها وأهوائها وفتنها .

وهكذا أفسد هذا التنافس على الأمويين والعباسيين حياتهم ، كما أفسد على الناس من حولهم حياتهم .

فما إن قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية .. حتى أُخذت بناته ونساؤه فسُيِّرن إلى صالح بن على بن عبدالله بن العباس .

وكما كان صالح عما لأبى العباس .. كان عماً لهؤلاء البنات وتلك النسوة ، على قرب وبعد فى العمومة .

ولكن القربى الواصلة أصبحت قربى فاصلة ، ومن قبل هذا .. كان يُذكَّر بها الأعمام فيعطفون ، فإذا هى تذكر لهم فيحقدون .

اتجهت كبرى بنات مروان إلى صالح تذكر له تلك القرابة ، علّه يرق

ويلين ، وهى تقول له : حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا .

تقول هذا وهى تظن أن القلوب قد تنسى حين تبلغ ما تتمنى ، وأن النفوس قد تطهرها حلاوة النصر من مرارة الوتر .

وما علمت كبرى بنات مروان أن تلك النفوس التى اطمأنت إلى دنياها حين تردّ إليها .. لم تهدأ بعد عن تلك الترات التى روّعت بها ، وأن هذه القلوب التى سكنت إلى حقها تظفر به .. لم تسكن عن الثأر لتلك الدماء التى أريقت وتلك الأرواح التى أزهقت .

ومتى كانت دنيا الناس على هذا الوجه الذى خالته كبرى بنات مروان ، ينسى فيها الموتور وتره إن غلب ، ويرتد المظلوم إلى العفو والصفح إن قدر ؟

ثار هذا الماضى كله الحافل بمآسيه فى نفس صالح بن على ، فإذا هو ينسى به ما حاولت أن تذكّره إياه كبرى بنات مروان ، وإذا هو يقول لها :

والله لا أستبقى منكن واحدة ، ألم يقتل أبوك ابن أخى إبراهيم الإمام ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد ويصلبه فى خراسان ؟ ألم يقتل ابن زياد الدعى مسلم بن عقيل ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على وأهل بيته ؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله ﷺ سبايا فوقفهن موقف السبى ؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه ؟

فما الذى يحملنى على الإبقاء عليكن ؟

كل هذا مثّل لصالح بن على .. فأنسى الدنيا التى نالها ، والحق الذى ظفر به ، وعاد لا يذكر إلا أنه موتور ، وها هى الدنيا قد أمكنته ، وهو الملوم إن لم يقتل ويسفك ويسبى ، ولكن كبرى بنات مروان على هذا

كانت مشفقة من الموت متعلقة بأسباب الحياة ، فيلين هذا الإشفاق من كبريائها ، ويمد هذا التعلق بالحياة فى خبط رجائها ، فإذا هى تقول لصالح :
ليسعنا عفوكم .

وما ندرى كيف ارتد صالح عن عنف إلى لين ، ومن طيش إلى حلم .

وما ذكرته بنات مروان أخيراً إلا بهذا العفو الذى طلبته منه أولا .

ولعل الرواة قد أنسوا شيئاً لم يذكروه ، ولعل هذا الشيء الذى أنسوه كان مما يصحب الاسترحام من بكاء .

أكاد أظن أن كبرى بنات مروان أسرفت فى الاسترحام ، وجادت معه عيناها بدموع كثيرة .

وأكاد أظن أن قلب صالح الذى ذكر هؤلاء الذاهبين من أهله فوجد عليهم تحرك لدموع تلك الفتاة المهيضة ، ودموع كثيرة من فتيات مثلها ونساءحولها ، فرَق .. وكان شيخاً تغلبه الرحمة ، فيعود إلى اللين مع أول داع .

وأكاد أظن أن كبرى بنات مروان كانت تتسم بخلق وسيم يزكى فيها هذا الخلق الوادع الرحيم .

وأكاد أظن أن هذه الأخيرة .. هى التى جعلت الشيخ يسمح ، وجعلته يستجيب إلى العفو ، وجعلته يغرق فى هذا العفو فيقول ، أما هذا فنعم – وهو يعنى العفو – وإن أحببت زوجتك ابنى الفضل .

ولكن كبرى بنات مروان كانت على هذا أبية ، لم تكد تعود إليها حياتها حتى عادت إليها صفاتها ، ولقد كرهت أن تساق إلى الفضل سوق المقهورات ، فيقال عنها إنها اشترت الحياة بهذا الزواج ، وإن كان لا غبن

فيه عليها ، وقد أحست معه - إن هى قبلت - بغصة القهر ، وغصة أشبه بغصة السبى .

ولو أنها استملت نفسها لأحست بغصة أخرى ، أصدرت عنها دون وعى ، فهى لا تزال أموية ولا يزال غالبها عباسياً ، وهى لا تزال على وتر ، ولا يزال غالبها على وتر مثله ، وإن بدا عافياً ، والدنيا أمام هؤلاء وهؤلاء ممتدة ، وكما تعطى تأخذ ، وكما تجعل العز إلى هوان تجعل الهوان إلى عز ، فما بالها لا تصبر للحياة كما صبر لها المنكوبون غيرها .

ومن أجل هذا .. لم تسرع إلى جواب صالح فيما عرض بعد العفو ، وابتعدت عنه فى رفق وهى تقول : وأى عز خير من هذا ؟.. بل تلحقنا بحرّان .

وهكذا خرجت كبرى بنات مروان بمن معها من هذه المحنة سالمة ، لم تخسر كبرياءها ، وإن كانت قد خسرت مع هذه الثانية شيئاً بذلته هينة ، وهى دموعها ، حتى أسمح صالح وعفا .

ولكن الأمويين لم يكونوا كلهم على حال كبرى بنات مروان ، ولم يكن العباسيون كلهم على حال صالح بن على .

وجرت الأمور لا تديرها رحمة ، ولا يحركها حلم ، ولا يمليها غير منطق واحد .. هو منطق الوتر والانتقام .

- ٥ -

وما عرف الناس أبا العباس عبد الله بن محمد بن على ، منذ ولد إلى أن آل اليه الأمر ، بغير اسمه وكنيته ، يعرفون أن صاحبهم اسمه عبد الله ، ويعرفون أن صاحبهم يكنى أبا العباس ، ينادونه باسمه مرة ، وينادونه بكنيته مرة أخرى ، وقد يجمعون بين الاثنين .

فإذا الزمن يضيف إلى أبى العباس عبد الله بن محمد بن على شيئا ليس له باسم ولا كنية . وإنما هو لقب آفاده ، أفادته إياه أعماله حين أصبح خليفة ، وأفادته إياه غلظته حين ملك ناصية الأمر ، وأفاده إياه تعطشه للدم حين أصبح ولى هذا الدم .

وإذا أبو العباس عبد الله بن محمد بن على يلقب بالسفاح ، يعرفه الناس به ، ولايكادون يذكرونه بغيره ، ولم تعد كنيته تغنى شيئاً ، كما لم يعد اسمه يغنى شيئاً .

وما أفاد أبو العباس لقبه السفاح عن زور وبهتان ، ولاأضافه الناس إليه متجنين أو غالين ، ولكنه أفاده عن إسراف فى سفك الدم ، لا يضبطه عقل ، ولا يوجهه عدل ، وأضافه إليه الناس ينطقهم به شطط هذا الرجل ، ويوحى إليهم به إسرافه .

وماعرفنا أبا العباس عاصر تلك المآسى الدامية كلها التى غرق فيها أهله ، ولاوقعت عينه على تلك المحن القاسية أجمع التى ابتلى بها قومه .

ولكنهُ من غير شك أدرك منها شيئاً يدل على غيره .

أدرك منها مقتل زيد بن على بن الحسين على يدى هشام بن عبد الملك ، والتنكيل به صلباً وإحراقاً .

وأدرك منها مقتل يحيى بن زيد على يدى الوليد بن يزيد والتمثيل به صلباً .

وأدرك السعى فى إثر أخيه إبراهيم ، والقبض عليه وإيداعه السجن ليموت فيه .

وأدرك هذا الإرهاب الذى بسطه الأمويون على العباسيين ، وبنى عمهم من الهاشميين ، يعدون عليهم سكناتهم وحركاتهم .

ثم هو مع هذا الذى أدرك قد سمع الكثير مما لم ير ، سمعه على ألسن الدعاة حديثاً مروعاً فيه حق وفيه تهويل ، يتلونه على الناس حين يصبحون وحين يمسون ، ويملئون به النفوس نقمة ، ويحشون به الصدور غيظاً ، وينتزعون به من القلوب رفقاً ورحمة .

وهكذا شب أبو العباس مغيظاً محنقاً موتوراً ، قد أنسى الرفق والرحمة ، حتى إذا ماملك زاده هذا الملك قسوة ، ومكّن ليديه أن تنطلقا فى خصومه بعد كبح ، وللسانه أن يأمر فيهم بعد حُبسة .

يدخل عليه سديف الشاعر ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، بعد أن استعطفه فعطف ، وبعد أن استرحمه فرحم ، وبعد أن استرقّه فرق له ، وهو إلى جانبه آمن وادع مطمئن .

فما هو إلا أن يحركه سديف ببيتين من الشعر .. أنسى بهما أبو العباس عطفه الذى أباح ، ورحمته التى أتاح ، ورفقه الذى إليه استراح ، وإذا هو غادر بهذا كله ، ناقض لهذا كله ، خارج على هذا كله .

يقول له سديف :

لا يَغُرَّنَّك ماتَرى مِن رِجالٍ ... إن تحت الضُّلوع دَاءً دَويَّا
فضَع السَّيف وارْفَع السَّوْط حتى ... لاتَرى فوق ظَهرها أُمويَّا

فإذا أبو العباس ، العاطف الراحم الرقيق ؛ تجده السفاح الغليظ القاسى الجانى ، وإذا يداه اللتان انبسطتا لإيناس ضيفه تمتدان لقتله .

هذا لأن النفس الباغية العاتية كانت هى النفس التى نشأ عليها ، وكانت تلك النفس الرادعة الوادعة هى النفس التى لم ينشأ عليها ، فما إن أتيح لأبى العباس أن يتصل بنفسه التى نشأ عليها حتى بَعُد عن نفسه التى لم ينشأ عليها .

- ٦ -

ويجتمع لأبى العباس السفاح مجلسه يوماً ، ومانظنه يوماً أبعد كثيراً عن صيرورة الأمر إليه ، وقد جلس أبو العباس على سريره ، وبنو هاشم دونه على الكراسى ، وبنو أمية دونهم على الوسائد .

وماهكذا كان الأمويون ، أيام كانت الدولة لهم يضعون الهاشميين ، فلقد كانوا يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسى .

ولكن أبا العباس شاء أن يجعل السرير له وحده ، وشاء أن يضع الناس على هذه المنازل ، وأن يجعل المنزلة الدنيا لبنى أمية ، يرفع فوقهم الهاشميين ، ويرفع هو نفسه فوق الهاشميين ، وقد كان يستطيع أن يجمعهم جميعاً على منزلة واحدة ، بعد أن يرفع هو نفسه فيضم القلوب على ألفة .

ولكن كما فعل الأمويون من قبل بالهاشميين يفعل هو اليوم بالأمويين ، ويفعل شيئاً مثله بالهاشميين ، يريد أن يباعد بينه وبين الهاشميين فى المجلس حتى لاتشرئب أعناقهم إليه ، وحتى لايكون لهم فيه مطمع ، ويريد أن يباعد بين الأمويين والهاشميين حتى يضمن الفرقة بين الاثنين أولا ، فلا يجتمع مغلوبان على حقهما ، ويريد أن يحط من قدر الأمويين ثانياً ، فيشفى شيئاً فى نفسه فيراح ، ويشفى شيئاً فى نفس الهاشمين فيكسبهم على مودته ، ويضمنهم على بُعد لايجتمعان معه ، ومانحب أن نثير على أبى العباس هذه فما أهونها حين تثار .

وعلى أية صورة جمع أبو العباس الهاشميين والأمويين حوله فهو مشكور مأجور ، مشكور بلسان المحبين للأمن الراغبين فيه ، الذين يؤثرون أن يروا الأمة على وحدة جامعة لاصخب ولاشغب ، مأجور على لسان المنكوبين بتلك الفتن ، المبتلين بها ، الذين يؤثرون أن يروا الأمة على شمل مجموع لاهيط ولاميط .

وماأحسب هذا المجلس انضم إلا وقد انضمت قلوب الناس معه على فرحة وهدأة ، غير قلوب نفر انطوت نفوسهم على إحن مفسدة ، أو أغراض مغرية ، فهى لاتطمئن للأمن يسود ولكنها تنزعج له ، كما لاتغتبط بالأحوال تستقر ولكنها تساء لها ، وكان من هؤلاء النفر القليلين شاعرنا سديف هذا الذى أغرى منذ حين قريب أبا العباسّ بضيفه ، ولقد اقتحم سديف على أبى العباس مجلسه الأمين فأفسده عليه .

ولكن أبا العباس كان رجلا غدرة ، فيما أعلم ، كان لا يلبث أن يلم بالخير حتى ينخلع عنه ، كانت له نفس ساكنة وادعة ، ولكنها عاجزة ضعيفة ، وكانت له نفس ثائرة باطشة ولكنها قوية عاتية .

ولكنه على كل حال كان ينسى شره الكثير بخيره القليل حيناً قليلا ، ثم لا يلبث أن ينسى خيره القليل بشره الكثير حيناً طويلا .
وكأنى به لم يجنح للسلم إلا عن فترة وونى . وما أقل ما كان يحس تلك الفترة وهذا الونى ، ثم كأنى به لم يلم بالعنف إلا عن طبع يزكيه إرث ثقيل لم تستطع نفسه أن تخلص منه ، لهذا .. كان شره أغلب ، وعنفه أكثر ، وغدره حاضراً .

وهكذا ما دخل عليه سديف حتى دخل على نفسه هذا الشر الكثير الذى كان قد خرج منه ، وإذا هو ينسى الناس بسديف ، وينسى خيره بشر سديف ، وإذا هو يقبل عليه يستمع منه ، ويجمع شتات نفسه الشريرة ، ويشتت شمل نفسه الخيرة .

ويحس سديف إقبال أبى العباس عليه ، ويحس توثب الشر بين عينيه : فيمضى يقول :

لاتُقيلنَّ عَبْـــدَ شَمْسٍ عِثَـــاراً   واقْطَعَنْ كُــلَّ رِقْلــــة وغِرَاسِ [1]

---

(١) الرقلة : النخلة الطويلة .

خَوَّفُهمْ أظهر التَّوَدُّدَ منهم ... وبهمْ مِنْكُمُ كحزِّ المَواسى

أَقْصِهِمْ أيها الخليفةُ واحْسِمْ ... عَنْك بالسَّيف شَأْفَةَ الإرْجاس

واذْكُرَنْ مَصرع الحُسين وزَيْدٍ ... وقَتيلٍ بجانب المِهْرَاس [1]

فلقد سَاءَنِى وسَاءَ سَوَائِى ... قُرْبُهم مِنَ نَمَارِق وكَرَاسِى

وما يكاد أبو العباس يسمع لسديف حتى ينمحى بشره ليحل مجله عبوسه ، وحتى تأخذه رعدة الغضب ، ويقبل على هؤلاء الذين كانوا منذ حين قريب موضع إيناسه وترحيبه ، ليكيل لهم اللعنات ، ويسبهم أقذع سباب ، فيقول لهم : يا بنى الفواعل !

وهكذا لم يبرأ لسان الخليفة فى تعاليه مما لم تبرأ منه ألسنة العامة فى تدانيهم ، ولكنه الشر الغالب على أبى العباس كما قلت لك ، ما إن يملكه حتى يملك فيه كل شيء : لسانه وعقله وقلبه ، فلا تورع ولا تأبى ولا تحرج .

ويثور الشر فى نفسه جملة ، ويختفى الخير من نفسه جملة ، وينسى شبه قضاء قضى به للقوم حين جمعهم ، بقضاء يقضى به على القوم حين أراد أن يخلص منهم ، فإذا هو يقول لهم ، وهو مربد غيظاً وسخيمة :

أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون فى الدنيا ، خذوهم .

منطق ما أشبهه بمنطق الجاهلية ، ليس فيه عدل ولا إنصاف ، فليس بين القوم الذين التفوا حوله قاتل ولا آثم ولا محرض ، ولكن فيهم اللاجىء والمستعيذ والمستجير ، أثم الآباء وما أثم الأبناء ، وما بإثم الآباء يؤخذ الأبناء .

---

(١) المهراس : ماء بأحد ، وعنده قتل حمزة بن عبد المطلب . وكان قائد الكفار أبو سفيان بن حرب .

وما أجمل ما كان من أبى العباس حين وسعهم عطفه فتلقاهم ، وما كان أجمل منه أن يؤنسهم لينسوا ، ويبرهم لتصلح قلوبهم ، ويرعاهم ليجعل لتلك المحن نهاية .

ثم ما كان أجمل به أن يحتاط لنفسه ولملكه حيطة أخرى ، ليس فيها الظلم المسرف ، ولا الإيذاء المستكره ، فهو خليفة مسلم أقل ما يجب عليه أن ينسى ما لذاته ، وما يتصل بها ، فلا يجعل من ولايته على المسلمين سلطاناً له على المسلمين يأخذ به لنفسه وينتصف به من خصمه .

وما كان بالملوم بعد لو بث عيونه عليهم. يأخذهم على البادرة تصدر عنهم .. بالعقوبة التى يفرضها الدين على تلك البادرة ، لا إسراف ولا غلو ، وما نظن الإسلام جاء ليفرض بطش الولاة على الناس هوى لا يضبطه عدل ، أو ظلماً لا يقره قانون .

وإنما أقام الإسلام الولاة على الناس ليأخذوا من قويهم لضعيفهم ، وليقيموا العدل بينهم ، ولهم على الناس حق الطاعة فى المعروف ، لا يظلمونهم ولا يؤذونهم ولا يسلبونهم حقاً هو لهم .

وأكبر ما نهى الإسلام عنه وبغّض فيه أن يؤثر الوالى نفسه بشىء دون الرعية ، باسم هذا السلطان ، أو أن ينال الوالى من الرعية شيئاً غير مشروع باسم هذا السلطان ، أو أن يُركب الوالى الرعية طغياناً باسم هذا السلطان ، أو أن يرفع فيهم ويضع عن هوى باسم هذا السلطان .

ولكن أبا العباس السفاح أنسى هذا كله بطبعه القاسى الغاشم ، ونفسه الظامئة إلى الدم ، تُزكّيه فيما فعل تلك الترات التى ذكرها ، أو ذكّره بها سديف .

ولقد سفك الأمويون ما سفكوا من دم ، وهم يملكون عليها حجة أو شبه حجة .

فلقد ثار بهم الهاشميين فانتقموا هم من هولاء الثائرين بهم ، انتقاماً لا نبرئه من الإسراف هو الآخر ، ولكنهم ملكوا بثورة الهاشميين بهم حجة لهم .

ولكنا ما نظن أن هؤلاء الذين قتلهم أبو العباس كانوا قد تهيئوا لثورة أو اجتمعوا لفتنة .

وما كان لوال أن يأخذ الناس بما تخفى السرائر وتجنى الضمائر ، وإلا كان آثماً إن فعل .

آثماً فى ذات نفسه حين يحملها تلك الأوزار التى وراءها عقاب من الله شديد ، وآثماً فى حق أمته حين يتيح لها تلك القدوة السيئة فتضطرب أمورها ولا تستقيم لها حال .

ولكنى مع هذا لم أكن أسيغ هذا اللقب الذى خلعه الناس على أبى العباس وأضافوه إليه ، فلأبى العباس أن يثأر ظالماً فيبوء بوزر الظالمين ، ويحمل إثمهم ، ولأبى العباس أن يأمر بتسعين رجلا من أشراف بنى أمية أبرياء إلا من جرائر للآباء فيقتلوا ، فيقال : رجل موتور أراد أن يأخذ بوتره ، لا يعنيه على من يقع الوتر ، ويقال : رجل أراد أن يحمى سلطانه ، ولم يشأ أن يكلف نفسه عناء الحيطة ، وقد تخونه الحيطة فيفلت منه هذا السلطان وهو غافل .

ولكنى حين رأيت أبا العباس يعدو الثأر إلى شىء أمر من الثأر ، ويبعد فى الإسراف بالقتل إلى ماهو أشد نكراً من الإسراف فى القتل ، أصبحت أسيغ هذا اللقب الذى خلعه الناس على أبى العباس وأضافوه إليه .

يروى الرواة مجمعين أن أبا العباس دعا بالغذاء ، حين قتل هؤلاء الأشراف ، (تسعين رجلا) وأمر ببساط فبسط عليهم وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته .

فلما فرغ من الأكل قال : ماأعلمنى أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسى منها .

ثم لما فرغ من هذه قال : جروا بأرجلهم فألقوهم فى الطريق يلعنهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء .

ويقول الراوى - ولم يكن بعيداً عن هذا كله - فرأيت الكلاب تجر بأرجلهم وعليهم سراويل الوشى حتى أنتنوا ، ثم حفرت لهم بئر فألقوا فيها .

ويقول غيره ، ولم يكن بعيداً عن هذا كله هو الآخر : لقد صلبوا فى بستانه حتى تأذى جلساؤه بروائحهم ، فكلموه فى ذلك ، فقال : والله لهذا ألذ عندى من شم المسك والعنبر .

وإنا لنعلم النفوس السليمة تنتهى ثورتها عند النيْل ممن أحفظها ، حين يشتد بها الغضب ولاتملك أن تحزم أمورها ، ونعلم النفوس المريضة تخرج بها الثورة إلى مابعد النيل إلى مثل ماخرجت إليه نفس أبى العباس من هذا الشطط المؤذى للإنسانية عامة ، ثم للإنسانية الإسلامية خاصة .

ولقد مرضت نفس أبى العباس مرضاً متصلا ، لم يشفها منه هذا الذى كان من قتل تسعين رجلا نشدوا الأمن فى جواره ، ولم يشفها منه قتل سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهو مستوثق منه بحرمة الضيافة ، بل لقد تفشى هذا المرض فى نفس أبى العباس كلها ، فإذا هو مريض كله لامكان للسلامة من نفسه ، يأمر بنبش قبور بنى أمية بدمشق ، فينبشون قبر معاوية بن أبى سفيان ، بعد مايربى على نصف قرن من موته ، فلا يجدون فيه إلا هباء .

ويأمر بنبش قبر يزيد بن معاوية ، بعد مايربى على نصف قرن من موته ، فلا يجدون فيه إلا حطاماً كأنه الرماد .

ويأمر بنبش قبر عبد الملك بن مروان ، بعد نحو من نصف قرن من موته ، فيجدون فيه جمجمة ، ويأمر بنبش قبور الخلفاء جميعاً فلا يجدون فى القبور إلا العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد الملك ، فقد وجدوه صحيحاً فى قبره لم تبل منه إلا أرنبة أنفه .

وهنا أحب أن تسمع معى لما يرويه الرواة .. يقولون :

إنه ماكاد يظفر بتلك الجثة كاملة .. حتى أمر من يضربها بالسياط ، ثم أمر بها فصلبت ، ثم آمر بها فحرقت ، ثم أمر بها فذريت فى الريح .

ولقد اقترفت أيدى الأمويين شيئاً من هذا الإثم وذاك التنكيل ، ولكنهم اقترفوه ليرهبوا به الثائرين من حولهم ، فمضوا مع عذر يقوم لهم حجة ،

ولكن أبا العباس اقترفها وليس بين يديه عذر يقوم له حجة ، ليس بين يديه ثائرون أو شبه ثائرين يرهبهم ، ولكنه يطفىء ثائرة نفسه وثائرة غيظه .

وهكذا تتبع أبو العباس بنى أمية أولاد الخلفاء وغيرهم ، فلم يفلت منهم إلا رضيع أو هارب ، واستصفى أموالهم كلها غنيمة سائغة له ، وإذا هو بعد هذا طيب النفس قرير العين ينشد :

بنِى أُمَيـــة قــــد أَفْنيتُ جَمعكُم ... فكيف لِى مِنْكُمُ بـالأَولِ المــاضى
يُطَيِّب النَفْسَ أَن النَـــار تَجمعكُم ... عُــوِّضتم مِن لظــاهــا شَرَّ مُعْتــاض
مُنيتُمُ لا أَقـــــــال الله عَثرتكم ... بلَيْثِ غــابٍ إِلى الأَعــداءِ نَهّــاض

وكأنى بهذا السفاح المريض النفس كان بحاجة إلى من يفثأ غضبه ، ويسكن مرضه ، فيرده إلى شىء من الهدوء والسلامة ، وكأنى بهذا السفاح

المريض لو رزق هذا الفاتىء وذلك المسكن لمرّت حياته دون أن تشيع فيها تلك الأوزار الثقال .

وكأنى بالناظرين فى أمر الناس من آل أبى العباس ممن لم يؤمنوا إيمانه بتلك القسوة المبيدة ، وذلك الشر المفسد ، عاشوا إلى جنب أبى العباس أول الأمر يخافون أن يصدوه حتى لا يظن بهم الظنون ، فلم يحبوا أن يدخلوا بينه وبين مايفعل ، لم تخل نفوسهم هم الآخرون مما لم تخل منه نفس أبى العباس ، ولكنهم لما وجدوه قد أربى على مايجيزون لم يجيزوه على مايفعل ، ولكنهم ظلوا ينتظرون . فلقد كانت نفس أبى العباس ألصق بالداعين إلى الشر ، وكانت نفس أبى العباس لما ترو بعد ظمئها من هذا الشر ، ولكن هذه النفس مالبثت أن فقدت هؤلاء الداعين شيئاً ما ، ثم مالبث أن رويت شيئاً ما ، فإذا هى بعد هذا وذاك قد هدأت شيئاً ما ، وإذا المحبون للأمن من آل أبى العباس ، يجدون سعة لأن يقولوا فقالوا .

فلقد كان ممن هربوا من أبى العباس .. أموى معروف ، هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبى سفيان ، احتال لنفسه قبل أن تقع عليه يد أبى العباس ، وكان كلما نزل مكاناً عرف به تركه إلى غيره ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وسدت فى وجهه السبل .

وكما عُرف عمرو فى المحيطين بأبى العباس المؤرثين للشر ، عرف بين الموطدين للأمن ، وكان يرى سليمان بن على واحداً من هؤلاء الداعين للأمن ، الراغبين فى ألا يساء إلى العباسين على يد أبى العباس بما يفعل .

ولم يكن سليمان بن على قد لقى عمرو بن معاوية من قبل ولاعرفه ، ولكن عمرا كان يعرفه ، ولم يغب عنه خبره .

وفى ضوء هذا الأمل سعى عمرو إلى سليمان يستجير به ، يحدوه إليه ماشاع عنه من ميل إلى الدعة والرفق ، فذهب إليه وقد أسلم أمره إلى الله .

ويتعلق عمرو بسليمان وهو يقول له : لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك ، فإما قتلتنى فاسترحت ، وإما رددتنى سالما فأمنت .

ويدهش سليمان لهذا الهارب المستجير المستأمن ، وماظنه غير أموى من هؤلاء الأمويين المفزعين الهائمين على وجوههم فى الأرض . ولكنه لم يعرفه فالتفت إليه يقول : ومن أنت ؟ فاطمأن عمرو قليلا وتشجع يعرِّفه بنفسه .

ولقد امتلأ طمأنينة حين وجد سليمان بعد هذا يرحب به ويسأله عن حاجته .

وهنا تأخذ هذه النفس المعذبة فى شكواها ، ويأخذ هذا اللسان المحبوس فى حديثه ، وإذا عمرو يقول : إن الحرم اللواتى أنت أوفى الناس بهن ، وأقربهم اليهن ، قد خفن لخوفنا ، ومن خاف خيف عليه .

ويحرك عمرو بشجوه شجو سليمان ، فإذا هو يبكى ، ويبكى كثيراً ، وقد أخذ لسانه يردد هذه الكلمات فى رفق ، يخاطب بها عمرو بن معاوية ، يحقن الله دمك ، ويوفر مالك ، ويحفظ حرمك .

ولكن سليمان لا يملك أن يضمن هذا كله ولا شيئاً من هذا كله لعمرو ، فمن ورائه أبو العباس ببطشه وظلمه وقسوته ، وهنا أخذ سليمان فى الكتابة إلى أبى العباس بأمر هذا اللاجىء المستأمن ، وماجرؤ عليها سليمان ، وكان لايقوى على مثلها منذ حين قريب ، إلا بعد أن ضاق ، وحركه هذا الضيق إلى غضب ، ثم دفعه هذا الغضب إلى استنكار ، ثم دفعه هذا الاستنكار إلى شجاعة ، هذا الى أن أبا العباس - كان كما قلنا - قد وهن شيئاً ، وكان دعاة الشر قد وهنوا هم الآخرون شيئاً .

وما كتب سليمان إلى أبى العباس فى أمر يخص عمرو بن معاوية وحده ، ولكنه كتب إليه فى أمر بنى أمية كلهم ، فلم تعد المشكلة مشكلة

عمرو ، ولكنها باتت مشكلة عامة لا ينفع فيها أن ينجو عمرو وحده ، كانت مشكلة أمن اضطرب ، وجور ساد ، وقانون افتقد ، ووال أساء ، وبيت عباسى يكاد يفقد ما كسب .

لهذا كتب سليمان إلى أبى العباس فأفصح ثم نصح ، ثم أشار عليه بما يجب ، وكأنه يأمره ، فقال له .

يا أمير المؤمنين ، إنه قد وفد وافد من بنى أمية علينا ، وإنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم ، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف ، والرحم تبل ولا تقتل ، وترفع ولا توضع ، فإذا رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل ، وإن فعل فليجعل كتاباً عاماً إلى البلدان .

نشكر الله تعالى على نعمته عندنا وإحسانه إلينا .

كتاب فيه الغلظة المستوره ، والأمر الملبس لباس الرجاء ، وكان هذا الكتاب جديراً بأن يحرك أبا العباس إلى غير ما يرجوه سليمان منه ، ولكنه ورد على أبى العباس فصادف منه نفساً قد خثرت ، كما قلنا ، فإذا هو يجيب سليمان إلى ما طلب فى يسر ، وإذا هو يمضى بيمينه ذلك الأمان العام لبنى أمية ، وتعود الحياة أمناً كما كانت من قبل ، ولكن بعد أن خلفت النفوس على وتر جديد .

– ٨ –

وما آل هذا السلطان لبنى العباس هينا سهلا ، ولا استقام هيّنا سهلا ، ولا ألقى الناس مقاليدهم عن طواعية واختيار ، ولا أمن بنو العباس شرهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولا أمنوا بنى أبى طالب بهم ، ولا صفت الحياة بينهم وبين قوادهم وأعوانهم ، بل كان بين يدى هذا كله أهوال ذاق منها بنو العباس شيئاً قليلا ، وأذاقوا غيرهم منها كثيراً ، وكان أعظم الهول وأشده ما أصاب الشعب العربى فى مختلف أقطاره وبلدانه ، فغدا تتنازعه الآراء التى

دخل بها عليه هؤلاء ، وما كان بملكة أن يعيش بعيداً عن تلك الآراء ، ولكن كان عليه أن يبتلى بها أشد البلاء .

تهيأت الكوفة للقائهم جادة تريد أن تكفر عن خذلانها للحسين من قبل ، وتهيَّئوا هم لدخولها ، يريدون أن يلتقوا بأنصارهم على موعد قد قُدر ، فيعلنوا أمرهم ويخرجوا عن السر إلى الجهر ، ومن التدبير إلى العمل ، وأبو العباس على رأس آله ونفر من شيعتهم وأنصارهم من أهل خراسان .

ويلقاهم زعيم الشيعة بظاهر الكوفة ، هو أبو سلمة الخلال ، كان عباسياً فيما يظهر ، ولكن هواه كان لآل أبى طالب ، يود بجدع الأنف لو حول الأمر من هؤلاء إلى هؤلاء .

وكان هذا الزعيم قد بلغه الخبر عن موت إبراهيم الإمام - أخى أبى العباس - انتهى إليه هذا الخبر وحده دون الناس ، ووجد الفرصة مواتية لأن يفيد من موت إبراهيم فيدعو لغيره من آل أبى طالب .

لهذا دبر أبو سلمة ، فأنزل أبا العباس ومن معه من آله بظاهر الكوفة ، وظل يكتم أمرهم نحو أربعين ليلة ، جعله بمعزل عن القواد لا يلقونه ولا يلقاهم ، وكان هو موصولا بهؤلاء القواد يلقونه ويلقاهم على شىء يؤامرهم فيه ، ولم يكن هذا الشىء غير صرف الأمر عن العباسيين ، ورده عودا إلى أصحابه من آل أبى طالب .

ولقد علموا هم أن الإمام إبراهيم قد مات ، وعلم هو منهم ذلك ، ولم يعلموا هم أن إبراهيم قد أوصى إلى أبى العباس ، وأن أبا العباس منهم غير بعيد على قاب قوسين أو أدنى ، وعلم هو أن إبراهيم لم يترك الدنيا غير موصٍ ، وأن وصيه أبا العباس هذا الذى حجزه بظاهر الكوفة حتى يقضى فى أمره .

ولكن أبا سلمة .. كان ذا قلب ولم يكن ذا عقل ، وكان ذا عاطفة ولم يكن ذا رأى ، فلقد أحب آل أبى طالب بقلبه ولكنه لم يعرف كيف ينفعهم بعقله ، وفعل ما فعل بأبى العباس ، وصحبه يستملى عاطفته ولا يستملى رأيه ، فلم يغتنم الفرصة عَجِلاً حين بدت له ، ولم يصرف الوجوه إلى ما أحب حين أحب ، بل ترك الساعات تمر ، وكلما سأله أصحابه عن الإمام يقول لهم : لا تتعجلوا .

ولم يعرف أبو سلمة أن أبا العباس من أصحابه قريب ، وأنه إن خفى مكانه عليهم ساعة فلن يخفى أخرى ، وأن التدبير أنجحه أبغته ، وأقربه من التوفيق ما صادف وقته .

وكأنى بأبى سلمة لم يكن قد وصل حبله بمن يريد أن يجعل له الأمر من آل أبى طالب ، وكأنى به قد بغته موت إبراهيم ، ونزول أبى العباس به : وكان أبو سلمة ذا قلب وذا عاطفة فتحرك قلبه كما تحركت عاطفته لتلك الفرصة ، وسكن لتحركها عقله كما سكن رأيه ، فإذا هو مستجيب لشىء .. غير مستجيب لشىء آخر ، وإذا هو بين يدى هذا التدبير الذى لا عقل معه ولا رأى .

فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى بان ماظن أبو سلمة أنه مخفيه ، فإذا أبو العباس موصول بأهل الكوفة ، يعرفون مكانه كما يعرفه أبو سلمة ، ويعرفون أمره كما يعرفه أبو سلمة . وإذا هو خليفة الناس على الرغم من تدبير أبى سلمة .

جرى هذا كله أو بعضه وأبو سلمة قار حيث هو يدبر لأمره ، يطلب منه أبو العباس كراء الجمال التى حملتهم إلى الكوفة ، فيقبض يديه ولا يرسل إليه بشىء ، يريد أن يبغض إليه المقام فيضيق به ، وبريد أن يبغض إليه الناس فلا ينشط للقائهم ، ويريد أن يمكن لأعدائه فيقبضوا عليه .

ولكن هذا كله أو بعضه جرى على غير ماقدر أبو سلمة ، فقد أرسل إليه الشيعة بما أحب من مال ، ولم يضق أبو العباس بمقامه ، وعرف أن الناس معه غير أبى سلمة ، فنشط للقائهم ونشطوا للقائه ، ومرت المحنة بسلام ، لم يبلغ أعداءه فيها شىء فيكيدوا له ، وعرف هو بعد هذا غدْر أبى سلمة ، فأسرها فى نفسه ولم يبدها له .

وهكذا خرج أبو سلمة من ذلك الأمر بغير مادخل به ، فقد دخل إليه نصيرا ومعيناً ، وخرج منه مباغضا مباعداً ، وقد دخل إليه صديقا له ماللأصدقاء ، وخرج منه عدوا عليه ماعلى الأعداء ، وإذا أبو العباس بعد مأأصبح أمير المؤمنين يدبر لأبى سلمة .. كما دبر له أبو سلمة قبل أن يصبح أميراً للمؤمنين .

ولم تكن شنشنة أبى العباس أن يتلبث بخصمه كما تلبث أبو سلمة به ، ولكنه لم يكن على كل مايفعل شجاعا غير هياب ، ولقد كان بين يديه مما هو ثأر وانتقام مايرده عنه خوف وإحجام ، وكان أمر أبى سلمة الذى بين يديه من ذاك .

وكتب أبو العباس إلى أبى مسلم يعلمه برأيه فى أبى سلمة ، وماكان هم به من الغش .

ويكتب إليه أبو مسلم بلغة ذلك العصر الذى كان يعيش فيه ، وبمنطق تلك الحياة التى كان يحياها : إن رابك منه شىء ياأمير المؤمنين فاقتله .

ويكاد أبو العباس أن يفعل ، فيرده عنها عمه داود بن على حتى لايجعل لأهل خراسان عليه حجة .

فلقد كان أبو سلمة الخلال زعيما من زعماء الخراسانية ، وهم من هم نصرة وتأييداً لأبى العباس ، إن مالوا عنه والدولة فى أيامها الأولى انتقض عليه ماجمع ، وأفلت من يديه ماانضمت عليه .

قر هذا فى نفس أبى العباس فارتد يحتال لقتل أبى سلمة ، لايريد أن يقال عنه إنه أمر به فيؤلب الخراسانية عليه ، وأخذ يظهر لأبى سلمة شيئاً آخر ، أخذ يظهر له الأنس به والرضا عنه ، ويسر له الضيق به والنقمة عليه .

ويدخل عليه أبو سلمة الخلال بعد ما أخفق فيما دبر يهنئه بالخلافة ، فيلقاه جليس لأبى العباس بما يسوؤه مظهراً الشماتة به ، وهو يقول له : على رغم أنفك .

فيلتفت أبو العباس إلى جليسه .. يكفه عن إيذاء أبى سلمة أو التعرض له بما يكره .

ثم يأمر أبو العباس منادياً ينادى فى الناس : إن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة .

ويمضى أبو العباس فى تدبيره فيدعو إليه أبا سلمة فيكسوه ويخلع عليه ، ويأنس أبو سلمة بأبى العباس ، فينصرف عنه ليعود إليه ليلة ، فيجلس إليه يسامره سمراً متصلا حتى يمضى من الليل عامته ، ثم ينصرف إلى منزله ليلقى فى الطريق نفراً أقيموا له ليقتلوه .

– ٩ –

وهكذا دبر أبو العباس لقتل أبى سلمة ، وهو يشيع ويذيع أن الخوارج هم الذين قتلوه ، وأنه لم يقترف إثم ذلك .

ولكنى بعد هذا لاأحب أن أطوى الحديث عن مقتل أبى سلمة عَجلا ، فلقد مر بك غير بعيد ماكان من داود بن على ، عم أبى العباس ، من ريبة حول أبى مسلم ، وماكان داود بن على وحده هو الذى كان يظن أن وراء أبى سلمة أبا مسلم . وأن أبا سلمة لو لم يأنس إلى هذا الداعية أبى مسلم

ماركب الذى ركب ، وأنه مافعل الذى فعل إلا عن اطمئنان بأن أبا مسلم يؤزاره ويرى رأيه .

لقد كان هذا ظن نفر من الناس المحيطين بأبى العباس ، ولم يكن داود بن على إلا الناطق بما يجيش فى صدور هؤلاء .

ولقد سمعها أبو العباس قبل أن يستمع إلى هذا الرأى الذى أشار به داود عليه منذ قليل ، حين هم بقتل أبى سلمة ، ولقد كان أبو العباس فى شك من الأمر ، أو قل فى شك من أبى مسلم ، من أجل هذا لم يقض فى أمر أبى سلمة حين بدا له أن يقتله - وهو السفاح العنيد - بل رجع عما تمليه عليه طبيعته القاسية وكتب إلى أبى مسلم وكتب إليه أبو مسلم بما يؤكد إخلاصه ودفع الريبة عنه .

ومانظن أبا مسلم كان بعيدا عما يثار فى مجلس الخليفة حوله من تهمة وريبة ، ومانظنه إن جهل هذه ، يجهل كتاب الخليفة إليه وما يثير ، فلقد كان أبو مسلم رجل فتنة وكان شيخا من شيوخها ، إن لم يكن شيخها الأول ، ثم هو بعد هذه وتلك لم يكن يجهل أن بين الناس وراءه حاقدين عليه ومنافسين له ، وكلاهما له عدو مبين ، وماأكثر ماخلف أبو مسلم من منافسين حين ظهر اسمه وكتب له هذا الفوز وذاك النصر .

ومانظن أبا مسلم لم يبلغه ذلك المجلس الذى اجتمع هو والخليفة فيه يتبادلان الرأى فى أمر أبى سلمة ، ومانظن أبا مسلم لم يبلغه قول من قال وهو يذكر أبا سلمة : لعل ماصنع كان من رأى أبى مسلم .

وإن أحسنا الظن فقلنا : إن أمر هذا المجلس مضى على سر وتكتم ، وان أحسنا الظن فقلنا : إن أبا مسلم لم يكن له وراءه عيون تتجسس الأخبار لتنهيها إليه فى حينها .

فمن الإنصاف أن نحسن الظن أيضاً بأن أبا مسلم كان ذا عقل وكان

داهية ، وكان حنكا يستطيع أن يستشف من كتاب أبى العباس ما فاته ، مع حرص أبى العباس على قضاء أمره خفية ، ومع حرمانه هو - أعنى أبا مسلم - من أن تكون له هذه العيون .

وهكذا زرعت فتنة أبى سلمة فى نفس هذين الرجلين شيئاً - أعنى أبا العباس وأبا مسلم - زرعت فى نفس أبى العباس الشك فى أبى مسلم أولا ، ثم التنبه لشأنه ثانياً ، ثم الخوف منه ثالثا ، ثم بعد هذا كله التفكير فى التخلص منه .

وزرعت فى نفس أبى مسلم مثل مازرعت فى نفس أبى العباس ، شكاً وتنبها وخوفاً ، ولكنها لم تستطع أن تزرع غير هذه الثلاثة ، فقد أصبح أبو العباس قويًا شيئاً ما ، لأن رسالة أبى مسلم كادت أن تنتهى بصيرورة الأمر إلى أبى العباس ، ورسالة أبى العباس بدأت بالتفاف الناس حوله وتوليه الأمر ، وذهاب الدولة الأموية ، ولأن الشيعة كانوا قد سئموا هذا المطاف الطويل وملّوا السعى فيه بعد أن انتهى أمر الخلاف بين الأمويين والعباسيين على هذه الصورة التى إن لم تكن رضا كلها ففيها بعض الرضا ، ولأن تحريكهم لغيرها لم يكن هينا ، لأنها تفقد أسبابها الدافعة ، أو لم يكن ذلك مأمونا ، لأن أبا العباس عنيف بخصمه ، قاس على من يناوئه ، غليظ لاعهد لقلبه برحمة أو رأفة .

غير أنها زرعت فى نفس أبى مسلم غير هذه الرابعة شيئاً آخر ، زرعت فيها المصانعة لأبى العباس والجد فى استرضائه ، فلقد فطن أبو مسلم إلى أنه لا حيلة له فى تغيير دفة الأمر بعد أن استقر ، ولقد عرف أبو مسلم أن دعوته الثانية .. إن هب يدعو لغير أبى العباس غير دعوته الأولى ، فهذه دعوة أصبح عليها كثرة ما بين عباسيين وهاشميين ، وتلك دعوة لن يجتمع عليها إلا هاشميون ، إن أصبحت لهم كلمة ، وما أبقى الزمن منهم غير نفر لا حول لهم ولا قوة .

وها هو ذا أبو العباس قد أمكنته الفرصة من خصم قوى هو أبو سلمة ، ربما كان اليد الباطشة لأبى مسلم إن أراد أن يفعل ، فلقد كان يقال لأبى سلمة إنه وزير آل محمد ، كما كان يقال لأبى مسلم : إنه أمير آل محمد ، فما غناء الأمير بعد ذهاب الوزير .

ولكن أبا مسلم على هذا لم يكن هينا ، كما أنه لم يكن قوياً القوة كلها ، يفسر لك ذلك ما كان من أبى العباس حين قيل له فى مجلسه ذاك الذى أشرنا إليه : لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأى أبى مسلم ، فإذا هو يقول : لئن كان هذا من رأيه لنعرضن إلى بلاء إلا أن يدفعه الله عنا .

وهكذا عرف أبو العباس ما عند أبى مسلم ، تصور له الحقيقة شيئاً ويصور له الخوف شيئاً ، ولقد كان ما يصوره الخوف يربى على ما تصوره الحقيقة ، فما أهلع قلوب الملوك ، وإن بدوا شجعاناً ، وهم لهذا يفزعون للخطب اليسير يظنونه خطباً جسيماً . يأخذ فيه أحدهم بالقسوة القاسية فتخاله عاتياً قاسياً ، وإنما هو رعديد .. يبطش بيد خائفة ، فهى لهذا تعبث وتسرف ، ولا يبطش بيد جريئة تعقل ولا تسرف .

وبات أبو العباس ، حين ظن شيئاً وخاف شيئاً ، يطغى عليه خوفه فلا يتركه يتدبر فى ظنه عله يكون باطلا من البطلان .

ولقد استجاب أبو مسلم لأبى العباس حين طلب إليه أن يتولى هو قتل أبى سلمة ، وكان ذلك عن إشارة من دواد بن على – عم أبى العباس – فما تخلف أبو مسلم .

وكان داود بن على فيما أشار به على أبى العباس يريد أن يمكن للشك فى قلب أبى العباس عن أبى مسلم ، ويريد ألا يرى إلى جانبه شخصاً ملحوظاً يرتبط مصيرهم به ، ويريد ألا يعرف الناس أبا مسلم فينسوا داود ابن على وإخوته .

وهكذا كان الأمر ملكاً لابد أن يخلص كله لأصحابه ، وأن يبرأ من كل شائبة تمت إلى الحق بسبب أو لا تمت إليه بسبب ، لا يعنى هؤلاء الأصحاب أن يطوحوا برؤوس المخلصين لهم كما يطوحون برؤوس المنابذين لهم .

وما نظن أنه أغنى عن أبى مسلم شيئاً إرساله مرار بن أنس الضبى لقتل أبى سلمة ، مخرجه من عند أبى العباس ، ليلته تلك التى سمر فيها مع العباس فأطال السمر ، فلقد ظل الخوف منه هو الخوف فى قلب أبى العباس ، ينمو مع الزمن ، على الرغم من توكيد من أبى مسلم ، سيمر بك شيء منه .

وكانت تلك زلة - فيما نظن - من أبى مسلم ، فلقد فقد نصيرا لم يكن القتل جزاءه ، وكان استصلاحه يسيراً ، وما كانت جريرته غير أنه أخلص للدعوة ورأى أصحابها بها أولى ، ولم يشأ أن يحيد بها عن قصدها ، وكانت محاولة غير مسلحة أراد أن يسبر بها غور الأمور ، إن نجحت فقد أدى ما فى عنقه ، وإن باءت بالخسران فما نظنه كان سيبقى قائما على مناوأة أبى العباس .

يدلك على ذلك .. ما كان منه من إقبال على أبى العباس ، وما كان منه من تسليم ، وما كان منه من اطمئنان .

وما نظن ذلك كله كان منه عن خوف ، ولكنا نظن أن أكثره كان عن استسلام لما تم ، ولقد كان شيعيا يعنيه أولا أن تخلص الأرض من حكم الأمويين ، ولا عليه بعدها أن يتم الأمر لغير من كان يؤثر ما دام هذا الأمر لم يخرج إلى بعيد غير ذى سبب متصل .

ولقد أنسى أبو مسلم أن تمهيده للخلاص من أبى سلمة كان تمهيداً للخلاص منه ، وأن أبا العباس حين خافه فقال ما قال .. خافه لأن من

حوله أنصارا ومؤيدين ، مثل أبى سلمة ، وهو حين يعلم أنه قد ذهب عنه مثل أبى سلمة فهو أقل منهم خوفاً وأخف .

ولكن أبا مسلم كان ، كما قلتُ لك ، يريد ألا يفقد نصيبه من المغنم بعد أن استوى له هذا المغنم ، وكان يريد أن يطمئن قليلا فى ظل الحياة الكاسبة بعد أن اضطرب كثيرا فى ظل الحياة الخاسرة ، أعنى أنه كان يريد أن يذوق حلاوة الراحة والملك .. بعد أن ذاق مرارة الجهاد والتشريد .

لهذا أنسى أبو مسلم ، أنه قد باع صديقاً دون ثمن ، وأنه قد مكن منه عدوا دون ثمن أيضاً .

وقد أنسى ذلك كل النسيان ، ولم يترك لرجعة سبيلا ، ولا لعذر طريقاً ، حين وجه محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن يقتل عمال أبى سلمة ، لا يبقى منهم أحداً ولا يذر .

— ١٠ —

وما هدأ السفاح وما هدأت الفتنة ، هو قلق والناس قلقون ، ملك لم يجتمع القوم له على رأى جامع ، بل كان لمن غلب ، وقوم رأيهم بينهم موزع قد بلبله عليهم الدعاة من هاهنا ومن هاهنا وبلبله عليهم الطامعون فى الحكم من هاهنا ومن هاهنا فعاش القوم فرقا وأحزاباً ؛ يضرب الدعاة والطامعون بعضهم ببعض ، والقوم على ذلك مكرهون ، يصبحون على قتل ويمسون على قتل ، وكأنهم بين يدى جاهلية مفرقة ، لا إسلام معه السلام والأمن .

وهكذا ضل الناس أسباب دينهم ، وأغروا بأسباب دنياهم ، وليتهم دخلوا إلى دنياهم تلك الفاتنة بتلك الأسباب الدنيوية التى دخلوها بها فى

جاهليتهم ، بل لقد دخلوا دنياهم تلك متخذين من الدين سبباً ووسيلة ، فانصاع الناس لهم ، والتفوا حولهم مخدوعين مغرَّرين .

فلقد كان على العراقين أمير أموى ، وهو يزيد بن عمر بن هبيرة ، وليهما لمروان بن محمد .

استعصى على الدعوة العباسية ولم يلن لدعاتها ولم يستجب لهم ، وثارت بينه وبينهم حروب أتت على خلق كثير .

ولكن هذه الحروب لم تنته بقتل مروان بن محمد وذهاب الدولة الأموية بل بقى ابن هبيرة يحمل لوءاها ، ثم يخال الناس قد ثبطهم عنه قتل الخليفة الأموى الأخير ، أوفت فى عضدهم قيام الدولة العباسية ، ويعز عليه أن يهدأ أمر الناس وينتهى هذا البلاء ، فإذا هو يتحول بجمعهم على سبب آخر للحرب بعد أن فقدوا سببهم الذى من أجله يحاربون .

لقد كان ابن هبيرة بالأمس القريب يحارب من أجل دولة يدين لها بالولاء ، ويدين لها بالولاية على العراقين ، ومانلومه على ذلك فهو به قمين ، ولكن حين يختفى سبب الحرب الذى من أجله حارب ، وحين يحل ملك مكان ملك ، ما كان أولاه أن يسلم أمر الناس إلى هدأة وأن يدعهم إلى استقرار . وشغل الناس بأنفسهم أولى من شغلهم بالملوك ، وماعاد يعنيهم لو ترك الأمر لهم خالصاً أن تستبدل الأيام بملوكهم فتنزع أمويا وتضع عليهم عباسيا ، بعد أن جربوا الحياة فى ظل تلك الفتن التى لاتهدأ ، وفى ظل تلك الفوضى التى ابتلاهم بها هذا الخلاف بين الأمويين والعباسيين .

ولكن الناس كانوا على هذا أغرارا ، وكانوا لارأى لهم ، يجتمعون على غير كلمة جامعة يدبرونها بينهم ، سريعاً ضلالهم ، وسريعاً خداعهم ، وسريعاً حملهم على مايكرهون .

من أجل هذا لوح لهم ابن هبيرة بشىء يحبونه ليثير نفوسهم ، وليضمنهم معه على الحرب ، بعد أن أحس منهم تخاذلا عنه ، حين جاءهم الخبر بمقتل مروان ، وقال قائلهم : علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟ لقد لوح لهم ابن هبيرة بالدعوة إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن على ، لايريد بدعواه الإخلاص إلى الله ، ولكنه كان يريد شيئين :

يريد أن يجمع الناس حوله بعد أن كادوا ينفضون عنه فيمضى فى الحرب حتى يكتب له النصر .

ويريد أن يخرج من هذه الحرب ملكاً أو شبه ملك قد ضمن السلطان الذى كاد أن يفقده ، والجاه الذى كاد أن يفوته .

وقد علم ابن هبيرة مافى قلوب الناس من حب لآل على ، وعلم ابن هبيرة مافى قلوب الناس من تنكر لآل العباس ، حين سلبوا الحق من آله ، وفوتوه على أصحابه ..

فسرعان ماتحول هؤلاء الأغرار الذين كانوا يحاربون بالأمس دفاعاً عن بنى أمية منكرين على الدعاة دعوتهم ، إلى محاربين من أجل الدعوة على تلك الصورة التى صورها لهم ابن هبيرة فى يوم وليلة .

وهكذا كان الناس عقولا لم يستقم لها رأى ، وقلوباً لم يستبن لها هوى ، وكانوا ضعافاً يسوقهم الخوف ويضل عنهم الرأى ، وكانوا مفزعين يهاجون إلى الحرب فى يسر وهينة ، وكانوا أعطش مايكونون إلى الأمن ، ولكنهم لم يجدوا غير الحرب طريقاً إليه .

من أجل هذا انصاع الناس يحاربون ، ومضى بهم ابن هبيرة يحارب ، ولكن الذى تجمع لأبى العباس لم يتجمع مثله لابن هبيرة ، ولأن تلك القلوب التى التفّت حول ابن هبيرة كان ينقصها الإيمان العميق بما يدعو إليه ، على حين كانت القلوب التى التفت حول أبى العباس عامرة شيئاً ما

بما آمنت به ، ولأن أبا العباس السفاح كان قد ملأ القلوب خشية بما أزهق من أرواح وبما سفك من دماء ، ولأن أبا مسلم كان حين مكن للسفاح ساعة تخلى عن أبى سلمة ، وجعل الدعوة لعلوى ، قد أتى ضرباً من ضروب المخاطرة .

من أجل هذا كله لم يصمد ابن هبيرة لحرْب السفاح ، وما إن رغب فى الصلح حتى رغب هو فيه ، صلحاً مشروطاً بالأمان له ، وأمضاه أبو جعفر أخو السفاح بعد أن استأنس أبو جعفر برأى السفاح ، وبعد أن جرى السفراء بين ابن هبيرة وبين أبى جعفر أربعين ليلة فى هذا الصلح حتى رضيه ابن هبيرة .

وكما لم يتحلل السفاح من قسوته لم يتحلل أبو مسلم من قسوته ، ولكن السفاح على عنفه أخذ يخاف العاقبة شيئاً ، لايريد أن يحمل إثم تلك الدماء كلها فى ظاهر الأمر على أقل تقدير ، على حين لم يرع أبا مسلم ظاهر هذا الأمر ولاباطنه .

وكأنى بالسفاح كان يمهد بهذا التظاهر بالرفق إلى شىء ما ، وكان هذا الشىء الذى يريده ويمهد له هو الخلاص من أبى مسلم .

وكأنى بأبى مسلم رأى فى هذا الذى يمهد به السفاح شيئاً وغاب عنه منه شىء ، فلقد خال أبو مسلم فى هذا الذى يمهد به السفاح الشك فى طويته والريبة فى إخلاصه ، فأخذ يملى عن عنف لاتقره نفسه عليه جزاء عادلا ، ولكنها تقره عليه إرضاء للسفاح فيما يرى ، وتبريئاً لنفسه فيما يحسب .

وهكذا فعل أبو مسلم فى أمر أبى سلمة الذى مر بك ، وهكذا فعل أبو مسلم فى أمر ابن هبيرة الذى ستعرفه .

وغاب عن أبى مسلم أنه بعنفه على الناس قد خسر الناس ولم يكسب أبا

العباس ، فلقد كتب السفاح لأبى مسلم يعرض عليه أمر ابن هبيرة بما انتهى إليه ، وماكان لأبى مسلم لو فطن أن يقضى فى هذا الأمر بغير ماقضى فيه أبو جعفر ، أماناً يجب أن يلزم به معطيه ، ولقد أعطاه أبو جعفر بعد ماآمر فيه السفاح وبعد مارضيه السفاح ، أماناً ماكان لمحارب أن يخرج عنه ويتنكر له ، أماناً لم يخرج عليه الناس فى جاهليتهم الضالة إلا من رضى منهم أن يعيش بسبة الأبد وعار لايمحى .

ولكن أبا مسلم ، كما قلت لك ، كان يعرف هوى السفاح فى أن يقتل ابن هبيرة ، وكان يخال أنه ممتحن عنده بهذا الذى كتب به إليه يسأله الرأى فيه ، ويعرف أنه لو نصح مخلصاً لحقته التهمة ، وأنه إن أشار غير مخلص قارب أن يكون من المبرئين عند السفاح .

ولكن أبا مسلم على هذا كان رجلا يحب أن يمكن لنفسه ، يكره أن يعيش إلى جوار الخليفة رجل له مالابن هبيرة من قوة وجاه ، ويكره أن تستقيم لابن هبيرة مع السفاح حال فينسى رجلا برجل ، من أجل هذا وذاك أجاب أبو مسلم السفاح يقول : إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ، لاوالله لايصلح طريق فيه ابن هبيرة .

ولعل أبا مسلم كان هو الآخر ماكراً ، ولعله أراد شيئاً ، هو أن يرخى للسفاح فى انتقامه فيكون قد أرضاه وأبعد الشك عنه ، ويكون قد ورطه فى قسوته ، فيزيد الناس عليه سخطاً وبه ضيقاً ، ويكون قد خلص من ابن هبيرة وأساء إلى السفاح . وبهذا يكون قد انتهى إلى كثير مما يريد .

ولم يفعل السفاح فى هذه - أعنى ابن هبيرة - مافعل فى الأولى - أعنى مقتل أبى سلمة - حين وكل إلى أبى مسلم أمر قتله ، وخرج منه السفاح مُعافًى غير آثم .

فلقد كان السفاح يملك مع غضبه على أبى سلمة شيئاً من الرأى وشيئاً

من الخوف ، إذ كان أبو سلمة داعية من الدعاة ، فكانت له حرمة وكان له خطر ، وكان أبو سلمة يعتز بنفر من حوله من الشيعة فكان منه خوف ، وكان أبو سلمة غير بعيد من أبى مسلم ، فكان لابد من حيطة .

ولكن ابن هبيرة لم يكن له من هذا كله غير الاعتزاز بقبيله ، وقد أوشكوا أن ينفضوا عنه ، ثم هو قد أوغر نفس السفاح عليه إيغارا لم يملك معه السفاح رأياً ، ولم يملك معه أن يذكر الأمان الذى أعطاه .

فلقد دخل ابن هبيرة على السفاح يوماً بعد ماصار إليه وأخذ يحدثه ، فإذا لسانه يسبق بما لايجرى مثله فى مخاطبة الخلفاء ، وإذا هو يقول له :ياهناه ، ثم يذكر أنه يخاطب الخليفة فيعود إلى مايجب ، ويدرك أنه قد أساء فيقول : أيها الأمير ، إن عهدى بكلام الناس بمثل ماخاطبتك به لقريب ، فسبقنى لسانى إلى مالم أرد .

وهكذا أثارت هذه غضبة السفاح فلم يترك له رأيا يدبره فيمضى مقتله كما أمضى مقتل أبى سلمة ، ولم يتركه يفكر فى ذلك الأمان الغليظ الذى أعطاه .

ولكن أبا جعفر الذى شارك فى هذا الأمر من قبل ، والذى لم يكن الغضب قد دخل إلى نفسه فأفسد عليه رأيه .. يأبى على السفاح أن يغدر ، ويأبى على السفاح أن يقتل رجلا كان له أمان ، وكان هو شاهده ، ويكاد يكون هو معطية .

من أجل هذا راجع أبو جعفر السفاح كثيراً جين عزم أن يقتل ابن هبيرة ، ومن أجل هذا لم يلن أبو جعفر لأمر السفاح حتى استمع إليه يقول : والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ، ثم أتولى قتله .

وكنا نحب لأبى جعفر أن يخلص لأمانه ولا يتنكر له ، وما كان عليه أن يترك السفاح وما يريد فيخلص هو بشرفه وعهده ، ويدع السفاح يتمرغ فى إثمه وغدره .

ولكن أبا جعفر نظر إلى غيرها ، نظر إلى نفسه ، فهو لا يريد أن يعرضها للتلف ، وما هى بكبيرة على السفاح أن يقتل أخاً إن خالف على أمره ، ونظر إلى دنياه ، فهو يريد أن ينال حظه من هذا الملك ، وما عليه أن يفرط فى شيء من معانى الخلق والوفاء ، من أجل هذا الذى يطمع فيه ، ولا ضير أن يمضى ابن هبيرة مقتولا كما قتل غيره ، أليس ملكاً لا تثبت قواعده إلا بالقضاء على مناوئيه ، أو ليست حياة لا قانون فيها إلا ما يريده الغالب ، أو أليست دنيا لا حجة فيها إلا لمن يملك السيف والبطش . ثم أليس الناس - الذين هم الشعب - هملا بين أيديهم لا ينكرون ولا يردون .

ولو أن الناس - الذين هم الشعب - كانوا على وعى ما شجع السفاح ، ولا ناصر أبو مسلم السفاح ، ولا لان أبو جعفر للسفاح ، ولكنها قسوة أخافت الناس ، استبدادا بالأمر لم يملك الناس معه حقهم ، وخلت الحياة كلها للحاكم دون الناس ، فإذا الأمر على هذه الصورة التى لا أمن فيها ولا رأى ، ولا سبيل لمظلوم أن يدفع عن نفسه .

وهكذا مضى ابن هبيرة مقتولا ، قتلوه وقتلوا معه نفراً من مواليه كانوا حوله ، دخلوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ، لم ينج من شرهم إلا صبى لابن هبيرة كان فى حجره ، نحاه عنه حين هموا بقتله ، وهو يقول لهم : دونكم هذا الصبى .

ثم خر ساجداً فقطعوا عنقه ، ثم حملت الرؤوس جميعها إلى أبى جعفر ، يشفى بها غله ، ويرضى بها انتقامه ، ويروى بها نفسه الظامئة إلى الدم .

ولقد فر نفر عن ابن هبيرة من أصحابه ، ولكنهم لم يغنهم فرارهم ، فأخذوا يستأمنون ، استأمن منهم عمر بن ذر فقبل السفاح أمانه ، واستأمن منهم خالد بن سلمة فأمنه أبو جعفر . وكأن أبا جعفر أراد بالذى فعل حقاً هو له كما هو لغيره ، فلقد أمن زياد بن عبدالله عمر بن در فلم يقل السفاح شيئاً ، ثم لعل أبا جعفر أراد شيئاً آخر ، ولا يبعد أن يكون هذا الشيء الذى أراده هو أن يكون وفيا بعض الشيء لأمانه الأول الذى أعطاه لابن هبيرة ، وأن تكون له حسنة تمحو سيئة .

ولكن هذا الشيء الذى خاله أبو جعفر حين لان للسفاح ولم يشأ أن يخالف عن أمره تبينه حقيقة ، فلقد أجاز السفاح أمان زياد بن عبدالله لابن ذر ولكنه لم يجز أمان أبى جعفر لخالد ، وما كان خطر خالد أبعد من خطر ابن ذر ، إن صح أن لكليهما خطراً ، ولكن السفاح كان واحدا على أبى جعفر حين أخذ معه وأعطى فى أمر ابن هبيرة ، وكان الخوف منه قد أخذ يدب فى نفسه مخافة أن يكون يسعى لنفسه ويريد أن يستأثر بالأمر دونه ، لهذا ردّ السفاح على أبى جعفر أمانه وقتل خالداً ، يريد أن يهون من شأن أبى جعفر ، ويريد أن يفوت على أبى جعفر ما يريد ، إن صح أن أبا جعفر كان يريد شيئاً .

ولكن الذى لا شك فيه أن قتل ابن هبيرة كان نكراً من النكر ، وأن السفاح باء بإثمه ، وأنه خرج منه بما أراد أبو مسلم له أن يحرج به ، وأن الناس قد غضبوا لهذا القتل وضاقوا به ، وانطوت نفوسهم على شيء ، وجرت ألسنتهم بشيء منه ، يصور لك أبو العطاء السندى الشاعر شيئاً من هذا الذى انطوت عليه النفوس ، وشيئاً من هذا الذى جرى على الألسنة ، حين يقول وهو يرثي ابن هبيرة :

إلا أن عينًا لمْ تَجُد يَوْمَ واسط ... عليك بجارى دمْعها لجمُودُ
عشية قام النَائِحاتُ وصفقت ... أكُف بأيْدى مأْتم وخُدود

فإن تمس مهجُور الفناء فرُبما أقام بنه بعد الوفود وفود
فإنك لم تبعد على متعهد بلى كل من تحت التراب بعيد

وما نظن السفاح وحده كان مطلق اليد والرأى فيما يفعل ويدبر، بل كذلك كان آله من حوله، قواده. يسرف آله كثيراً، معتزين بأنهم من هذا البيت الحاكم الآمر، لهم مثل صاحبهم السفاح إن خلوا إلى أنفسهم، ويسرف قواده محتجين بأنهم يؤيدون ملك صاحبهم ويثبتون أركانه، يخوفونه الشر فيخاف، ويجيزهم على ما يفعلون، وهل كانت دماء الناس مما يحاسب عليها سافكوها فيتئد القاتلون ولا يسرفون، ويزدجر السفاح فلا يبيح، ولكن الشيء الذي كان يؤبه له ويقام له وزن، هو ذلك الملك، فليبق .. وليذهب الناس.

— ١١ —

فلقد كان – على الموصل – مولى لخثعم يدعى محمد بن صول، وكان الناس، ومنهم ناس الموصل، على عزة قديمة تملأ عليهم نفوسهم، يقدرون الرجال بأنسابهم، وهم أشغل بأقدار الرجال حين يكون الأمر لوال يليهم أو حاكم يحكمهم، وهم من أجل ذلك برموا بابن صول، وودوا لو استبدلوا به، وامتنعوا على طاعته، وأخرجوه عنهم.

وما نشك أنها كانت كبيرة على السفاح ألا يرضى الناس ولايته عليهم ويخرجوه عنهم، ولكنا نشك فى أنها كانت كبيرة على الناس أن يقبلوا ما يخالف سنتهم فى الحياة ويجافى موروثهم.

وما خلق الولاة ليذلوا الناس ويحاربوا فيهم مألوفهم وعرفهم، ويحملوهم على بعض مالا يحبون مما لا خير معه قسرا وعنوة، ولكنهم خلقوا ليسوسوهم سياسة رقيقة حيناً .. عنيفة حينا آخر، حتى يضمنوهم آخر الأمر على ما يحبون، وليرعوا ما للناس حيناً إن كان مع الخير، وليرعوا ما لهم حينا إن كان مع الخير، فإذا هم آخر الأمر قد خرجوا بالناس عما لا

يصلح إلى ما يصلح ، وإذا الناس بعد هذا قد التقوا مع الولاة على ما هو صالح كله . وما نظن أن ولاة السفاح كانوا قلة ليس منهم إلا ابن صول ، وما نظن السفاح كان فاقدا شيئاً لو أعطى الناس فى هذه ما يطلبون ، ولكنه الاستبداد المفرط والفساد المغرق اللذان امتلأت بهما نفس السفاح ، فلم يشأ معهما أن يلين ويستجيب للناس بما يرضى الناس ولا يضيره فى شيء .

ولقد أرسل السفاح أخاه يحي بن محمد والياً على الموصل عوضاً عن محمد بن صول ، لم يشأ أن يرد إليهم ابن صول ، لالأنه مال إلى إرضائهم ، بل لأنه قصد إلى خداعهم والانتقام منهم ، ولو فعلها للأولى لاللثانية لكسب الناس على طاعته ، ولاستقبل ربه بصفحة نقية طاهرة ، ولكنه قاس عنيد ، لاقانون بينه وبين الناس غير هواه ومايريد .

وهاأنت رأيت أن السفاح كان باستطاعته أن يرضى أهل الموصل حين أراد أن يولى عليهم ، ومامثله من كان يجهل ميول أهل الموصل .

وهاأنت قد رأيت أنه كان بين يديه أخوه يحيى بن محمد ، ولم يكن الولاة قلة ، كما قلت لك ، وكان فى استطاعته أن يوليه الموصل أول ماأراد أن يولى .

وذهب يحي بن محمد إلى الموصل فى اثنى عشر ألف مقاتل ، لم يظهر لأهل الموصل شيئاً ينكرونه ، ولم يعترضهم فيما يفعلون ، يظنون به خيراً ، وقد بيت لهم شرا ، ثم دعاهم فقتل منهم اثنى عشر رجلا ، اختارهم كما أراد أن يختار ، وقتلهم كما شاء أن يقتل ، لم يحتج عليهم بشيء ويترك لهم الفرصة يدفعون عن أنفسهم ، ولم يقم عليهم بينة ثم يخلى بينهم يدلون ببينتهم ، ولكنه ساقهم سوق الغنم إلى مذابحها ، يختار منها خيرها وأكثرها سدا للجوع وإشباعاً للمسغبة .

عندها لم يملك الناس أنفسهم فثاروا ، ثاروا لهذا العسف الذى يفقد أسبابه من رحمة ، ولهذا الظلم الذى لم يسبقه استماع لرأيهم ، ولهذا العنف الذى لم يصحبه مايبرره ،

ولكن يحي كان مخادعاً ، وكان الناس لايعرفون الخداع إلا صفة من صفات السفلة ، فأطمأنوا له يملون عن طبع طيب موروث .

وهكذا كانت النفوس فى جملتها منذ بدأ التاريخ تعيش على خلق ، وتحيا على موروث من تقاليد .

ومن أجل هذا كانت الشعوب مخدوعة فى الكثير من أحوالها ، تستجيب لأول قائل ، وتصبخ لأول داع ، تظن الخير بالقائل ، فتحسن الظن بالداعى .

ومن أجل هذا كله ظُلمت الشعوب هذا الظلم الكثير الذى امتلأت به صفحات التاريخ ، وهى هى لم تتحول عن طبعها ولم تتخلف عن موروثها .

ونادى منادى يحي بن محمد فى الناس يدعوهم إلى أمانه ، فاستكانوا ولانوا ، وهل يظن الناس بالأمان إلا أنه أمان ، وهل ظن الناس بأمان رجل مثل يحي بن محمد إلا أنه أغلى أمان .

ولكن يحيى بن محمد لم يعرف هذا الأمان إلا أنه خدعة من خدع الحرب ، على هذا جرأه أخوه السفاح ، وعلى هذا هو يجرؤ .

ولقد كان يحي يملك جيشاً يقهرهم به فيملكهم دون أن يفسد أخلاقهم ويشككهم فى موروثهم .

وهكذا أراد يحيى كما أراد السفاح أن يملك الناس لاأن يسوس الناس ، فرق بين من يريد أن يملك ومن يريد أن يسوس ، فذاك لايعنيه إلا أن

يكون الناس له ، وهذا يعنيه أن يكون هو للناس ، ذاك يعنيه أن يعيش على الناس ، وهذا يعنيه أن يعيش بالناس .

والفرق بين ذاك وهذا ، هو أن أولهما يخلق أمة له ، وثانيهما يخلق أمة به ..

والفرق بين الأمتين أن ثانيتهما أمة تحيا قوية عزيزة قاهرة غالبة ، مكتوب لها السيادة إلى الأبد ، وأولاهما أمة تعيش واهية ضعيفة ذليلة مغلوبة ، مكتوب عليها المهانة إلى الأبد .

وهكذا خُدع أهل الموصل بأمان يحيى الذى كان نكراً من النكر ، فلقد دعا المستأمنين لدخول الجامع ليؤكد لهم أنه جاد وأنه مستمسك بعروة من عرى الدين .

ألا ليت يحيى إلى غير الجامع دعا المستأمنين ، ففى بيت من بيوت الله ، وفى مكان موصول بالله ، وعلى بقعة طاهرة يستظل فيها الناس بالأمن وينسون عليها الغدر ، كانت خيانة يحيى وغدره .

فما كاد الناس يجتمعون فى المسجد ، وماكاد يحيى يطمئن إلى أن الناس قد انقلبوا إليه بقضهم وقضيضهم ، حتى أعمل فيهم السيف لايبقى ولايذر ، يقتلهم قتلا ذريعاً ، فيه إسراف وفيه وحشية ، فإذا هم جميعاً قتلى ، وإذا المقتولون يبلغون أحد عشر ألفا .

أى خُلق كان هذا الخلق الذى عاش به يحيى ؟ وأية سياسة كانت تلك السياسة التى استنها يحيى ؟ وأى حكم هذا الذى كان يملى عنه يحيى ؟

إنه خلق هذا الحاكم الذى حدثتك عنه ، الذى يرى الناس له ولايراه لهم ، وإنها سياسة ذلك السائس الذى يملك الناس عبيدا ولايدعهم يملكونه سائساً عادلا ، وإنه حكم ذلك الطاغى الذى يملى عن هواه الطائش ولايشرك الناس معه فى الحكم .

ويخرج يحيى بن محمد مع الليل فيسمع صراخ النساء وعويلهن ، يندبن موتاهن ، فتضيق بهذا نفسه ضيقا آخر ، ويخاله ثورة عليه وكراهية بما فعل .

وكأنى بيحيى بن محمد كان يريد النساء المولهات المحزونات يقابلنه بالطبل والزمر والزغاريد .

وكأنى به كان يريد أن تكبت كل محزونة حزنها ، وأن تنسى كل مصابة مصابها ، إرضاء لقسوته القاسية ، وإشباعا لغْريزته المتوحشة .

ولكن أنى لهؤلاء المكلومات أن يفعلن ، وأنى لهذا الطاغية أن يرعوى .

فإذا هؤلاء المحزونات على صراخهن وعويلهن ، لايتحولن عنه ، وإذا يحيى بن محمد يأمر فيقتلهن ويقتل معهن صبيانهن ، وإذا هذه المذبحة الرهيبة لاتهدأ أياما ثلاثة .

وهكذا أراح يحيى بن محمد أذنيه فلم يعد يسمع صوت شاكية ، ولاصرخة مكلومة ، ولاأنة محزونة .

ولكن للقصة بقية محزنة مضحكة ، تدلك على نفوس هؤلاء الناس الذين حكموا الناس .

يحكون أنه لما كان يحيى فى اليوم الرابع ، ركب وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة ، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته ، فأراد أصحابه قتلها ، فنهاهم عن ذلك ، وتقدمت منه هذه المرأة وهى تقول له : ألست من بنى هاشم ؟ ألست ابن عم رسول الله ﷺ ؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن يطأهن الزنج ؟

ولعلك قد فهمت معى ماكان نصيب نساء الموصل بعد تلك الفتنة ، وماكان من امتهانهن على أيدى الزنج ، الذين كانوا فى جيش يحيى .

ويحكون أن يحيى أمسك عن جوابها ، وسيّر معها من يبلغها مأمنها ، حتى إذا كان من الغد جمع الزنج ، وهو يظهر أنه ماجمعهم إلا للعطاء ، فاجتمعوا ثم أمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

أرأيت كيف فعل يحيى ؟ ثم أرأيت كيف كان الناس يعيشون ؟ وكيف كان الناس يحكمون ؟ وكيف كان الولاة يفعلون ؟

– ١٢ –

لقد كانت أسباب الحياة مواتية لهؤلاء الحكام أن يخلقوا أمة ، وكان بين أيديهم كتاب الله وسنة رسوله ، وفيهما أسباب الحكم القويم ، وفيهما خلق أمة كريمة عزيزة على حياة كريمة عزيزة ، معها المساواة ، ومعها الشورى ، ومعها الألفة ، ومعها المحبة ، ومعها العدل ، ومعها الرفق .

ولكن هؤلاء الحكام أنسوا هذا كله وذكروا أنفسهم ، فعوقوا هذه الأمة كثيراً عن أن تمضى ، وأوغروا صدرها كثيرا بما لم تبرأ منه حتى اليوم ، وتركوها على بقايا فرقة ، وعلى كثير من تخلف ، قعدوا بالشعب العربى عن أن يكون له وجوده الحق الناهض ، ولو قدر له أن يكون منذ وجد الرسول ، ومنذ وجد الخليفتان الأولان ، لمضى قدماً إلى الأمام دون تعثر ودون إحجام .

ولكنه كان خلافاً قديماً كتب على هذه الأمة العربية فى جاهليتها ، كمن فى النفوس فترة قصيرة حياة الرسول وحياة الخليفتين من بعده ، ثم ظهر على صوره تلك التى مرت بك ، والتى لم تخالف جاهليتها فى شىء من سيادة مطلقة معها كل شىء وليس للناس فيها شىء ، سواء بسواء ، وكما كان الناس فى جاهليتهم كانوا فى إسلامهم ، وماهكذا أراد الإسلام لهم الحياة .

أترى معى هل كان السفاح بعد الذى مر بك ، وبعد أن ثبت الله له ملكه ، وفل شوكة عدوه من الأمويين وممن شايعوا الأمويين ، أترى معى هل كان السفاح بعد هذا وذاك فى حاجة إلى أن يمعن فى قتل من بقى من بنى أمية ؟ وفى قتل من بقى ممن شايعوا بنى أمية ؟

لقد سمعنا بالحروب التى ثارت من قبل ، ورأينا الحروب التى تثور اليوم ، وسيرى الناس الحروب التى تثار بعد اليوم ، ومانظننا سمعنا أو رأينا أو سيرى الناس أن الحرب إبادة ، تبيد الأمة الأمة ، ولاتترك منها شيخاً ولاكهلا ولاشابا ولاصبيا ولارضيعاً ، ثم تمعن فتقتل النساء مخافة أن يكن قد حملن فى بطونهن نسلا يولد .

ولكن الأمويين .. أبوا ألا أن يفعلوا هذا أو مثله بالعباسيين ، وأبى العباسيون ألا أن يفعلوا هذا أو مثله بالأمويين .

وكنا نحسب أن الزمن إذا امتد بهذه الخصومة ألان من حدتها ، وأضعف من قسوتها ، وكنا نحسب أن العباسيين مع مانالوا من الأمويين إسرافاً فى القتل قد شبعوا ، ومع مانالوا من ملك قد قنعوا ، ومع مامر بهم من هذا الزمن الممتد فى الخصومة قد لانوا ورجعوا ، ولكنا رأينا هذا كله مما مد لهم فى طغيانهم ، وزادهم عليه بأساً وعدواناً .

فلقد كان على مكة والمدينة داود بن على - ابن عم السفاح - عاملا له عليهما ، وكما كان السفاح .. كان إخوته ، وكان أولاد عمومتهم ، وكما امتدت يد السفاح فيمن حوله من الأمويين وأشياع الأمويين .. امتدت يد إخوته ويد أولاد عمومته فيمن حولهم من الأمويين وأشياع الأمويين .

وهكذا فعل داود بن على ، فلقد جمع إليه الأمويين يريد قتلهم ، فانبرى له هاشمى من أولاد على يريد أن يصرفه .

وكأنى بهذا الهاشمى قد رده إلى هذا اللين مايجده فى نفسه على

العباسيين حين انفردوا بالأمر دونهم ، فأصبح لايحب لعدوهم ما يحبه له العباسيون من فناء وضعف ، يريد لهم فى نفسه أن يكون لهم بقاء لعل هذا البقاء يغنى الهاشميين ويعوض عليهم شيئاً .

فلقد علمنا أن الهاشميين كانوا أكثر استشهادا على يد الأمويين ، وأنهم على هذا كانوا أكثر موجدة على الأمويين وأكثر حقداً .

ومانظن عبد الله بن الحسن أراد أن يرد داود بن على عما همّ به رأفة بالأمويين ، ولكن بهذا الذى قدرنا .

ولكنا على هذا لانخليه من بقية من رحمة وبقية من رأى حركهما فى نفسه هذاالذى قدرنا أيضاً ، فقد كان بعيدا عن السلطان الذى أغرى العباسيين بهذا العنف ومكنهم منه ، وكان قد ألان منه مانُكب فيه فعز عليه أن يُنكب الناس فى مثله .

وبهذه النفس التى نالتها الرحمة شيئاً ، وانكشف لها الرأى شيئا ، تحدث عبد الله بن الحسن إلى داود بن على يقول له : يا أخى ، إذا قتلت هؤلاء فمن تباهى بملكك ؟ أما يكفيك أن يروك غادياً ورائحاً فيما يذلهم ويسوؤهم .

ولكن الأسباب التى حركت الرحمة فى نفس عبد الله بن الحسن .. لم يتهيأ مثلها فى نفس داود ، والرأى الذى بدا لعبد الله بن الحسن فى هدأة بال وغمرة يأس .. لم يبد مثله لداود بن على .

من أجل هذا قال عبد الله بن الحسن ولم يسمع داود بن على ، وإذا به يقتل من اجتمع له من الأمويين ، لم يبق ولم يذر .

لامحاكمة توجه فيها التهمة ويسمع فيها الدفع ، ولكنا قد أنسينا أنها تهمة عامة ، يشارك فى إثمها كل من كان أمويا ، حسبه أن يحمل هذا

اللقب . وحسب العباسيين أن يجدوه موصولا بهم ، همّ بشىء أم لم يهم ، برئت نفسه مما كان فى نفس آبائه أم لم تبرأ ، فتلك خصومة الذئب للحمل ليس فيها إلا آكل ومأكول .

غير أن هذا الذى حرك عبد الله بن الحسن ليكون رحيماً راثياً ، حرك مثله غيره ممن يملك أن يثور وممن يملك أن يجمع حوله جيشاً .

فما من شك فى أن هذا الإسراف فى القتل آذى الناس جميعاً ، منهم من كظم غيظه لا يقول شيئاً ، ومنهم من نفّس عن غيظه يقول شيئاً على حيطة وحذر ، ومنهم من جرؤ على أن يعلن عما فى نفسه لا يبالى شيئاً ، لأنه يحب الحق ، ومن أحب الحق حمل فى سبيله ما يكره ، ومنهم من كان قويا بهذا الحق بمؤيدين له على هذا الحق ، وكان منهم شريك بن شيخ المهرى ببخارى ، فقد آذاه هذا الإسراف فى القتل إيذاء شديداً ، ولقد كان شيعيا عباسيا يناصر العباسيين على الأمويين ، ولكنه رأى فى سيرة العباسيين ما يرده عن أن يكون لهم موالياً ونصيراً ، وأخذ يقول ، ويسمع الناس عنه : ما على هذا تبعنا آل محمد أن يسفكوا الدماء وأن يعملوا بغير الحق !

وهكذا بدأ ما كنا نخشاه على العباسيين ، وبدأ ما كان حتما أن يكون ، لو أن الشعب رزق الجرأة ولم يرزق الخوف ، ورزق الإيمان بحقه ولم ترده الرهبة عنه .

ولكن الشعوب بطيئة إلى أن تتجمع ، متفرقة الرأى إلى أن يتضح لها الرأى ، غير موحدة الكلمة حتى يلى كلمتها شجاع يحرك فيها الشجاعة الكامنة .

فما إن رزق هذا الشعب - البطىء المتفرق الرأى ، غير الموحد الكلمة - شريك بن شيخ ، حتى التف حوله ، واجتمع له أكثر من ثلاثين ألفاً .

ولعلك لم تنس منذ قليل ما كان مع مقتل ابن هبيرة من هبة أولى لهذا الشعب المهيض ، ولكنها لم تعد أن تكون كلمة قالها شاعر ، رددتها الألسنة ، وتغنت بها القلوب ، ثم هى تستحيل رأياً يدور فى الرؤوس ، وتجيش به الأنفس ، حتى امتلأ به رأس يملك حين يرى أن يدبر ، وحين تضطرب نفسه أن يثور ، ولقد كان شريك بن شيخ .

ولكن أبا مسلم – وكان لا يزال قائد العباسيين الأول – كان لشريك بالمرصاد ، وكانت جيوشه أكثر من جيش شريك عدداً ، وكان الرأى الذى لف أنصار شريك حوله لم يكتمل مثله لغير شريك ، ولا لغير أنصار شريك .

من أجل هذا كان هينا على أبى مسلم أن ينفرد بشريك وأنصار شريك ، وأن يفرق جمعهم ، وأن يظفر بشريك فيقتله .

ولكنها كانت فتنة على كل حال ، والفتن لا تجىء عفواً وتمضى عفواً ، لا يقتلها البطش وإن بدت مقتولة بيد البطش ، بل هى كفوُّرة البركان قد تملك أن تتقى آثارها الظاهرة ، ولكنك لا تملك أن تتقى أسبابها الباطنة ، إلا إذا نفذت إلى باطن الأشياء عن وعى وشعور ، ولم تقنع بظاهر الأشياء عن جهل وغرور .

وما نظن العباسيين أول ما ملكوا كانوا الواعين الشاعرين ، ولكنهم كانوا الجاهلين المغرورين ، يرخى لهم فى جهلهم وغرورهم تراخى الناس عن حقهم وتفريطهم فيما هو لهم .

ولكن الناس – فيما نعلم – لا يلبثون أن يرتدوا إلى هذا الحق ، ويرتدوا عن هذا التفريط ، فتكون لهم تلك الهبات التى كانت أشبه شىء بالفهقات تظهر سريعاً وتمضى سريعاً .

وإن الرأى الذى خرج به شريك على السفاح فى بخارى خرج به أو

بمثله بسام بن إبراهيم بن بسام فى خراسان ، لم يخرج به أو بمثله وحده ، وإنما خرج به معه جماعة ، وكان السفاح هو السفاح يغنيه سيفه عن رأيه ، ويرده بطشه عن رفقه ، لأنه عرف الملك بأسلوب الجائر الضال ، ولم يعرفه بأسلوب الحياة العادل الهادىء ، ولأنه لم يأنس بقانون الله وقانون رسوله ، وإنما أنس بقانونه هو ، وقانون أسرته ، وما يضيره أن يسلم هو ويفنى الناس ، ولو ارتد إلى قانون الله وقانون رسوله لسلم هو وسلم الناس .

– ١٣ –

هذه الروح التى أملت على السفاح ما فعل أولا ، هى التى أملت عليه أن يتعقب بسام بن إبراهيم ، فبعث فى إثره خازم بن خزيمة ، ولقى خازم بساماً ، فقتل جملة كبيرة من أصحابه ونجى بسام هارباً .

ولكن خازم بن خزيمة هذا كان له بعد هذه حديث طريف ، لا يقلّ عن حديث السفاح طرافة ، يدلك على ما كان يدين به من هم حول السفاح من استهتار بالأرواح وبعد عن رعاية القانون الإنسانى .

فلقد مضى خازم يتعقب بسام بن إبراهيم ليظفر به ، وكان بسام قد مر فى منصرفه بقرية تدعى : ذات المطامير ، بها أخوال السفاح من بنى عبد المدان ، وكانوا خمسة وثلاثين رجلا ، معهم مثلهم من الأصحاب والموالى ، وما كان بسام يجهل هؤلاء ويجهل صلتهم بالسفاح ، وكانوا هم يجهلون أنه بسام الخارج على ابن أختهم السفاح ، فلم يسلم عليهم خازم ، ولم يتركها له هؤلاء النفر ، بل شيعوه بالشتم بعد أن جازهم ، فعل بسام ما يرضيه وفعل هؤلاء الناس ما يرضيهم ، وانتهى أمره وأمرهم عند هذا .

وإذا خازم بن خزيمة يطالعهم ويسألهم عن بسام ، فيخبرونه خبر هذا الرجل الذى مر بهم ، ويقولون له : مر بنا رجل مجتاز لا نعرفه فأقام فى قريتنا وقتاً ثم خرج عنا .

جواب يحمل عذره ويحمل حجته ، ولا لوم على أصحابه معه ، ولكن أصحاب خازم كان لهم أسلوب آخر يختلف عن هذا الذى نراه للناس كل الاختلاف . فالحياة مضطربة ، والنفوس مضطربة ، والعقول مضطربة ، ولا مكان بين هذا الاضطراب الشامل لرأى أو عقل .

فلقد هال أخوال السفاح أن يغلظ لهم خازم على غير تفريط منهم ، فأغلظوا له إغلاظاً بإغلاظ ، وكان حسبهم هذا .

ولكن أنى لقواد السفاح أن يكونوا على غير صورة السفاح ، وكيف لا يسرفون إسرافه ولا يبطشون بطشه ، على غير إثم وعلى غير جريرة ، فكما يكون الملوك يكون الأتباع ، وهكذا كان خازم صورة من السفاح ، فيها هذا الظلم كله ، وفيها هذا الجور كله .

وتكاد تكون عرفت ما فعل خازم ، وأكاد أجدنى محدثك بما عرفت حين أقول لك : إنه أمر بهم فضربت أعناقهم جميعاً ، وهدم دورهم ونهب أموالهم ، ثم انصرف آمناً مطمئناً وكأنه لم يفعل شيئاً .

ولعلك بعد هذا تحب أن تعرف ما انتهى اليه أمر خازم ، ولو لم يكن المقتولون أخوالا للخليفة السفاح لانتهى بى وبك الحديث عن خازم عند هذه ، شأن كثير غيرها لا ينظر فيها إلى هول الإسراف فيحاسب عليه فاعله ، ولكن ينظر فيها إلى قدرة المسرف على إسرافه فيخاف لها فاعله .

فلقد سعى اليمانية إلى السفاح ينبئونه نبأ خازم ، ولقد هم السفاح بقتل خازم ، وكان واجباً عليه أن يفعل .

وكما كان لخازم بن خزيمة مع أول القصة حديث طريف ، كان للسفاح فى آخر القصة حديث طريف ، وهكذا بدأت القصة طريفة وسوف تنتهى طريفة ، فلقد دخل على السفاح نفر من قوم خازم حين علموا أنه هم بقتله ، فذكروا له سابقته وطاعته ، وذكروا له أنه خراسانى حمل مع

الخراسانين عبء الدعوة ، لم يذكروا للسفاح عن خازم شيئاً غير هذا مما يسقط عنه التهمة ويبرئه مما كان .

وحسب الرجل عند السفاح أن يكون من هؤلاء المشاركين فى الدعوة فتباح له دماء الناس وأرواح الناس وأموال الناس ، يأخذ منها كما يشاء وعندما يشاء .

وكأنى بالسفاح حين ذُكّر بالخراسانيين أفاق على شيء أزعجه ، وكأنى بهذا النفر من قوم خازم الذين دخلوا على السفاح لم يذكروا الخراسانيين ليرغبوا السفاح فى العفو عن خازم ، وإنما ليخوفوه من قتل خازم .

وهكذا ارتد السفاح عن قتل خازم خائفاً ، وما يضيره قتل أخواله ، وما يضيره أن تهدر الحقوق ، وما يضيره ألا يكون قصاص ، ما دام فى هذا كله أمنه ، وفى هذا بقاؤه .

وقد رد هؤلاء النفر السفاح عن قتل خازم بحيلة طريفة هى الأخرى ، بها تتم طرافة القصة كلها ، فلقد قالوا للسفاح : إن كنت لابد مجمعاً على قتله .. فلا تتول ذلك بنفسك ، وابعثه لأمر إن قتل فيه ، كنت قد بلغت الذى تريده ، وإن ظفر كان ظفره لك ، وأشاروا عليه أن يوجهه إلى من بعمان من الخوارج .

بهذا الأسلوب الطريف أشاروا على السفاح ، وبهذا القصاص الطريف أخذ السفاح ، وعلى هذا خرج خازم ليلقى الخوارج وليلقى القصاص العادل على ما قدمت يداه .

ولكن خازم بن خزيمة عاد منتصراً بعد أن قتل من الخوارج عشرة آلاف ، بعث برءوسهم جميعاً إلى السفاح .

ومرّ عام وعام لم يهدأ – فى هذا العام ولا فى ذاك – السفاح ، ولم يهدأ

فيهما قواده عن قتال وتقتيل ، فلم تكن الدولة العباسية قد استقام لها الأمر حين بدأت ، ولا استقام لها الأمر حين حكمت ، ولم تكن تعرف من أساليب الحكم إلا السيف ، فانصاع الناس لهم حين خافوهم ، وخرجوا عليهم حين ملكوا ألا يخافوا ، ورغب فيهم بين هؤلاء وهؤلاء نفر طامعون كان رضاهم عنهم يحركه هذا الطمع فيما بين أيدهم ، فهم راضون حيناً ، غاضبون حيناً .

ولو قدر للسفاح أن يستقبل الأمر بغير ما استقبله به ، فدعا إلى الجماعة بالرأى والقول ، ودعا إلى الحكم بالشورى والحكمة ، لجمع الناس حوله فعاش بهم ، ولم يفرقهم عنه فيعيش عليهم .

من أجل هذا تعب السفاح فأتعب الناس ، ولو رد إلى غيرها لاستراح وأراح الناس . ولكن الأمر كان على كل حال أعصى على السفاح ، فهو لم يكن للناس يدلون فيه برأى فيدينون بهذا الرأى ويعملون له ، وإنما كان الرأى للسفاح وليس للناس فيه شىء ، فكان هذا الهيج الذى استقبله السفاح ، وكان هذا الاضطراب ، الذى لم يملك فيه السفاح غير أن يكون سفاحاً .

ولقد كان بملكه أن يكون سفاحاً عاماً وبعض عام ، ثم يرجع إلى الرأى والحكمة ، ولكنه أبى إلا أن يكون عنيفاً أيامه كلها ، باطشاً حكمه كله .

وهكذا كتب على السفاح أن يجمع الناس على خوف ، وأن يقضى على فتنهم مسرفا عليهم ، وأن يمضى بعد أربع سنين من هذا الحكم القاسى ليخلف هذه الدولة الناشئة ، التى أوشكت أن تخلص من المخالفين ، والتى أوشكت أن تستجيب للعباسيين عن ضعف وخوف ، ليتسلم مقاليدها من بعده أبو جعفر المنصور .

وكانت ثمة فتنة قوية عنيفة مضى السفاح ولم يقض عليها ، فلقد مر بك شيء مما كان من أبى مسلم ، وما نجرد أبا مسلم من إخلاص ، وما نبرئه من أطماع ، وما ندرى هل كان تراخيه والسفاح حى لشيء من التدبير يمهد به لغيره حين يموت السفاح ، أم هل كان هذا لأنه لا يريد أن يستبدل بإخلاصه خيانة وغدراً ؟ .

وأكاد أنصف أبا مسلم ، وأكاد أميل إلى أنه كان يحب الأمن ، ويحب مع هذا الأمن شيئاً يعطاه على ما بذل من عون وجهد .

ولكنه كان قد دخل بين السفاح وأبى مسلم من باعد بين السفاح وأبى مسلم ، فعاش السفاح على شك من أبى مسلم ، وعاش أبو مسلم على خوف من السفاح ، فاستحال إخلاص السفاح إلى مصانعة ومداورة ، يريد أن ينجو بحياته إلى أن تهيىء له الأيام فرصة .

فلقد دخل أبو جعفر بين السفاح وبين أبى مسلم ففعل هذا ، دخل أبو جعفر بينهما فى مقتل أبى سلمة حين خوف السفاح من أن يتولى قتله فيثير عليه أبا مسلم ، ودخل بينهما حين أعطى أبو جعفر الأمان لابن هبيرة ، ولما كتب السفاح لأبى مسلم يستشيره كتب إليه بما ينقض على أبى جعفر أمانه ، وكان إلى رأيه مستمعاً ، وبدأ يخاف هو أبا مسلم ، وبدأ أبو مسلم يخافه ، ويحقد على أبى جعفر .

وكتب أبو مسلم - وكان على خراسان - إلى السفاح يستأذنه فى الحج ، وسرعان ما كتب السفاح إلى أبى جعفر - وكان واليه على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان : إن أبا مسلم كتب إلى يستأذننى فى الحج وقد أذنت له ، وهو يريد أن يسألنى أن أوليه الموسم ، فاكتب إلى تستأذننى فى الحج فآذن لك ، فإنك إن كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك .

فكتب المنصور إلى أخيه السفاح يستأذنه فى الحج ، فأذن له ، فقال أبو مسلم : أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ وحقدها عليه .

وهذه النفرة بين أبى جعفر المنصور وأبى مسلم قديمة ، ترجع إلى قدوم أبى جعفر على أبى مسلم خراسان ، بعد ما صفت الأمور شيئاً للسفاح ، وكان معه عهد بالبيعة للسفاح وأبى جعفر من بعده ثم عهد بولاية أبى مسلم على خراسان .

وما تخلف أبو مسلم عن البيعة للسفاح ، كما لم يتخلف عن البيعة لأبى جعفر ، ولكن أبا جعفر أحس من أبى مسلم استخفافاً بشأنه ، لا يحدثنا عنه المؤرخون كيف كان ، فتكون لنا فيه كلمة ، ولكنهم حدثونا أن أبا جعفر أحس هذا من أبى مسلم ، ولم يزيدوا .

وهكذا رجع أبو جعفر من خراسان واجدا على أبى مسلم مغيظاً منه ، وما كتم ذلك عن أخيه السفاح حين رجع إليه ، وما وقف عند ما كان وترك السفاح يتدبر ، بل أخذ يطلب من السفاح قتل أبى مسلم ، وهو يقول له : أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة .

ويقول له السفاح : ياأخى ، قد عرفت بلاءه وما كان منه . فيقول له أبو جعفر : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنّورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ .

فيقول له السفاح : كيف نقتله ؟

فيقول له أبو جعفر : إذا دخل عليك وحادثته .. ضربه أناس خلفه ضربة قتَلَتْه .

فيقول له السفاح : فكيف بأصحابه ؟

فيقول أبو جعفر ! لو قُتل تفرقوا وذلوا .

عندها يستجيب السفاح ، ويأمر بقتل أبى مسلم ، وما استجاب إلا بعد أنْ قرّ فى نفسه أن فى رأس أبى مسلم غدرة ، كما قال أخوه أبو جعفر .

ولكن السفاح كان لا يزال فى نفسه شىء مما قال أبو جعفر ، وكان لا يزال فى نفسه شىء من إكبار أبى مسلم ، وكان فى نفسه شىء من الخوف من أصحاب أبى مسلم ، فما إن خرج أخوه أبو جعفر عنه حتى امتلأ رأسه بهذا كله ، وحتى أنسى أبا جعفر بالذى قاله كله ، فعاد نادماً على ما قال ، وأرسل إلى أبى جعفر يأمره بالكف عن أبى مسلم .

بهذه بدأت العداوة بين أبى جعفر وبين أبى مسلم ، وبهذه بدأ الشك من أبى العباس السفاح فى أبى مسلم ، وبهذه بدأ أبو مسلم يحقد على أبى جعفر أولا ، ويخاف من السفاح ثانياً ، وبهذه وجد أبو جعفر مجال الدس فسيحاً فأوسع الخطا ، ووجد أبو العباس مجال الريبة فسيحاً فأسرع حيناً وتلبث حيناً ، ووجد أبو مسلم مجال الحيطة واسعاً فصال فيه وجال ، حتى نجا برأسه من السفاح ليستقبل به أبا جعفر .

وهكذا فسد هذا الرجل - أبو مسلم - على العباسيين ، أفسده أبو جعفر وأفسده السفاح ، وكان لابد له هو من يفسد نفسه عليهم فأفسدها .

ولكنه لمّ يجد الفرصة مواتية له والسفاح حى ، فحاول أن يجدها والسفاح ميت ، فكان ما كان من حديثه الذى سأقصّه عليك .

لقد انتهيت بك فى حديث الحج - أعنى حج أبى مسلم مع أبى جعفر - إلى هذا الذى قرأته منذ حين قريب ، انتهيت بك إلى أن أبا مسلم قال : أو ما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ وكأنه كان يريد أن يترك خراسان ، وهى له ، إلى غيرها ليلقى ناساً غير ناس خراسان ، واختار الحج ولم يعدل به ليضمن شيئين :

أولهما : ألا يكون متهما حين يختار النزول فى بلد ، وما كان بملكه

أن يفعل إلا عن إذن الخليفة ، وما نظن الخليفة كلن يأذن له ، فهو لم يغادر خراسان منذ وليها إلى هذه السنة .

وثانيهما : أنه مع الحج غير متهم ، وأنه مالك أن يفعل عن إذن الخليفة ، وما نظن الخليفة كان يردّه عن حق مفروض .

ثم هو هنا – أعنى أبا مسلم – لاقٍ للناس من شتى الأقاليم ، وواصل رأيه برأى الناس فى جو حر ومكان أمين .

لهذا كان أبو مسلم حريصاً أن يحج ليهىء لأمره بعد استجمام ، وليلقى الناس بعد أن كاد الناس أن ينسوه ، وليعرفه الناس حاجاً بعد أن عرفوه ظالماً غاشماً .

وكان حريصاً أن يحج وحده ليلى الموسم ويكون له الذكر فيه ، وإليها قصد أبو مسلم ، ولها كان يعمل .

من أجل هذا حقد أبو مسلم على أبى جعفر خروجه معه ، وما نظنه رآها من أبى جعفر عن غير تدبير ، وما نظنها لم تبلغه أنها من تدبير أبى العباس السفاح .

فلقد مر بك أن أبا مسلم كانت له عيون فى مقر الخلافة وبيت الملك ينهون إليه ما يرون وما يسمعون ، ولم تكن تلك العيون بعيدة عن الخليفة ولا رجال الخليفة المقربين .

ثم انظر إلى السفاح كيف حاور أبا مسلم وداوره قبل أن يأذن له فى الحج ، وانظر إلى أبى مسلم كيف لاين السفاح وساهله ليبلغ معه ما يريد من إذن .

وفى هذا الذى سأقصه عليك من ذلك ما يزيدك إيماناً بأن صفحة

السفاح كانت منشورة تحت عينى أبى مسلم يعلمها ، ولكنه كان يأخذ معه ويعطى ، شأن من يجهلها ، وكانت صفحة أبى مسلم هى الأخرى منشورة تحت عينى السفاح يعلمها جملة لا تفصيلا ، ويأخذ معه ويعطى شأن من يجهلها .

فلقد كتب أبو مسلم إلى السفاح يستأذنه فى القدوم عليه والحج ، إذ أنه منذ ولى خراسان لم يفارقها إلى هذه السنة . فكتب إليه السفاح يأمره بالقدوم عليه فى خمسمائة من الجند

فيكتب إليه أبو مسلم : إنى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى . فيكتب إليه السفاح : أن أقبل فى ألف ، فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يتحمل العسكر .

وهكذا عرف السفاح أبا مسلم وعرف أبو مسلم السفاح ، يمكر هذا بذاك ويمكر ذاك بهذا ، يعرف السفاح الخطر من مقدم أبى مسلم فى جنده ، ويعرف أبو مسلم الخطر من قدومه على السفاح فى غير جند كثير .

واستجاب أبو مسلم للسفاح ، ولكنه لم يستجب ، فقد صار أبو مسلم فى ثمانية آلاف من جنده ، ولكنه فرقهم فيما بين نيسابور ، والرى ، وقدم على السفاح فى ألف .

ولم يكن فى رأس السفاح شىء غير أن يأمن أبا مسلم ، ولم يكن فى رأس أبى مسلم شىء غير أن يأمن السفاح . ولو استطاع السفاح أن يفوت الحج على أبى مسلم لفعل ، ولكنه استطاع أن يفوت عليه أن يلى موسم الحج ، وقد فعل ، وانتهى إليك علمه فيما مر بك .

وخرج أبو جعفر إلى الحج وخرج أبو مسلم ، وأخذ يفعل ما فوته السفاح عليه ، فإذا هو يكسو الأعراب ، ويصلح الآبار ، ويمهد الطريق ، حتى أصبح الذكر له ، واستطاع أن يُخمل أبا جعفر . وانطلقت ألسنة

الأعراب تقول : هذا المكذوب عليه ! تعنى أبا مسلم ، وتعنى أنه على غير ما كان يبلغهم عنه ، فلقد رأوا رحمة وإحساناً وبرا ، ولقد سمعوا عنه قسوة وغلظة وجفوة .

وصدر الناس عن الحج ، فإذا أبو مسلم يتقدم فى الطريق على أبى جعفر ، ويأتيه وهو فى الطريق خبر موت السفاح ، فيكتب إلى أبى جعفر يعزيه عن أخيه ولا يهنئه بالخلافة .

ويمضى أبو مسلم لا يرجع إلى أبى جعفر ، ولا يقيم حتى يلحقه أبو جعفر ، وهكذا بدأ هذا الحقد الكامن فى نفس أبى جعفر وفى نفس أبى مسلم يأخذ طريقه إلى العلانية ، يبديه أبو مسلم أولا فى هذا البذل الذى كان منه ، وهو يريد به أن يكبت أبا جعفر ويخجله لتعلو كعب كعباً ، وهو يريد أن يجمع على حبه غير الخراسانيين ، ليزيد فى كبت أبى جعفر وإخجاله ، ويضيف إلى همه هما ، وإلى خوفه خوفاً .

ثم يبديه أبو مسلم ثانياً فى هذا الإعراض عن أبى جعفر بعد أن بلغه موت السفاح ، وهو يريد أن يلقى فى روعه أنه منصرف عنه فيحفظه ، وأنه يدعو إلى غيره ، وكان هناك أكثر من طامع فى هذا الأمر فيبذله .

وأبداه أبو حعفر فى هذا الكتاب الغليظ الذى كتب به إليه رداً على كتابه الذى بعث به إليه يعزيه ولا يهنئه .

ولقد فات أبا مسلم أنه لم يفعل غير أنه حرك الحقد الكامن فى نفس أبى جعفر ، وغير أن أفسد البقية الباقية من قلب أبى جعفر .

يرى أبو مسلم أنه شفى نفسه ، وما عند هذه ينتهى كيد الكائد ، إن كان يريد أن يأمن عاقبة كيده .

فلقد كان على أبى مسلم أن يمضى إلى آخر المطاف ، ولا يعود بعد قليل تحت جناح أبى جعفر يواليه وينصره ، وكأنه لم يفعل به شيئاً .

ترى هل كان أبو مسلم ضعيفاً بأتباعه فارتد يوالى من أثار حقده ؟

أم تراه كان لا يرى أهل خراسان معه على البيعة لعبدالله بن على - عم أبى جعفر - وقد خرج بعد موت السفاح يريد الأمر لنفسه ، لهذا استخزى ولم يسترسل فى عداوته لأبى جعفر ؟

أم تُرى أبو مسلم كان داهية فى الحرب غير داهية فى الرأى ، وأن الذى كان منه من بلاء كان كما قال أبو جعفر وهو يحرض السفاح عليه : هذا لفضل المدعو إليهم لا لقوة الداعى وحيلته .

وسترى تفصيل ذلك فيما سيتلى عليك :

قيل إن أبا مسلم بعد الذى كان منه ، استدعاه أبو جعفر ، فأقبل أبو مسلم إليه ، ورأى الجزع فى وجهه ، فقال له : ما هذا الجزع ، وقد أتتك الخلافة ؟

فقال أبو جعفر : أتخوف من شر عمى عبدالله بن على وشغبه علَىّ . فقال له أبو مسلم : لا تخفه ، فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان لا يعصوننى ، فسرِّى عن أبى جعفر ، ثم بايع له أبو مسلم .

وكما قيل هذا .. قيل غيره ، فلقد قيل إن أبا مسلم حين سبق فعلم بوفاة السفاح كتب إلى أبى جعفر : بسم الله الرحمن الرحيم ، عافاك الله ومتع بك ، إنه أتانى أمر قطعنى وبلغ منى مبلغاً لم يبلغه منى شىء قط ، وفاة أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة عليك ، ويبارك لك فيما أنت فيه .

إلى أن قال :

إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصفى نصيحة لك وحرصاً على ما يسرك ، منى .

ثم رأى نفسه لم يصرح ببيعة له فى كتابه هذا ، فعاد يكتب إليه بعد يومين من هذا الكتاب كتاباً آخر يصرح فيه ببيعته له .

وسواء أكانت الأولى أم الثانية ، فإن كلتيهما لين ، وكلتيهما إذعان ، وكلتيهما تنطق بغير ما بدأ به أبو جعفر من إهمال لأبى مسلم ، وإمعان فى خصومته .

– ١٦ –

ولعلك تحب أن تعلم هذا الخارج على المنصور ، وخبر أبى مسلم معه .

فحين مات السفاح أرسل عيسى بن موسى إلى عمه عبدالله بن على يخبره خبر ذلك ويدعوه إلى البيعة لأبى جعفر ، وكان السفاح قد أمر بذلك قبل موته .

وما إن قدم الرسول على عبدالله بن على حتى جمع الناس إليه .. فأخبرهم بموت السفاح ، ثم دعاهم إلى نفسه .

ولكن الناس كانوا فى حاجة إلى ما يلفهم خول عبدالله ويصرفهم عن أبى جعفر ، وما نظنهم كانوا يعلمون وصاة السفاح ، وما نظن عبدالله أنبأهم بها ، وإلا كان غرًّا ،

وهكذا وقف الناس يستمعون إلى عبدالله كما استمعوا لغيره من قبله ، وكأن لهم فى الأمر شيئاً ، وما لهم فى الأمر شىء ، ولكنها حجج اعتادوا أن يسمعوها ، واعتادوا أن يعوها ، واعتادوا أن يصدقوها ، فلقد جربوا الويل وذاقوا المر ، وبودهم أن يريحوا ويستريحوا .

ولقد تعلموا أن الحجج ملزمة لهم وإن كانت باطلة ، وما تساق لهم ليناقشوها ، وإنما لتكون على الذين يخالفون عن أمرهم .

على هذا وقف الناس يستمعون ، ووقف عبدالله يخطبهم ، فكان مما قال

لهم : إن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد .. دعا بنى أمية فأرادهم على المسير إليه ، فقال : من انتدب منكم فسار إليه فهو ولى عهدى ، فلم ينتدب له غيرى ، وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت .

قد يكون فيها عبدالله صادقاً يريد أن يثبت حقاً يصدقه ، وقد يكون فيها غير صادق ويريد أن يجعل هذا الملك من حقه ، ولكنه ثمن غال سوف يدفعه هؤلاء الناس على الحالين ، ما كان أغناهم عنه لو رد هذا البيت المالك إلى عقل ، ورد إلى منطق سليم ، ورد إلى رحمة بالناس .

ولكن هؤلاء الملوك حين فسدوا .. فسد بفسادهم نفر من أولى الأمر حولهم ، فزادوهم غواية ، وزادوهم بعداً عن الحق ، وزادوهم على الناس بطشاً ، وبحقوقهم إغفالا ، فما إن قال عبدالله بن على ما قال للناس .. حتى انبرى من بين هذا النفر من أولى الأمر من يؤيد قوله ويشهد له .

فازداد بهم عبدالله قوة على الناس ، وازداد بهم الناس خوفاً من عبدالله .

فما أظن الناس صدقوا ولكنهم خافوا ، وما أظن الناس آمنوا له حين بايعوا ، ولكنهم أرادوا الأمن لهم فبايعوا .

ولكن الناس كانوا ضالين حين ظنوا الأمن فيما أرادوا به الأمن ، وقد يخرج بهم عبدالله بن على يبغى هذا الملك خالصاً ، ويبغى أن يغلب عليه ابن أخيه أبا جعفر .

هذا ما كان من عبدالله ، فانظر إلى ما كان من أبى مسلم : فلقد كتب أبو مسلم إلى المنصور يقول ، حين علم ما كان من خلاف عبدالله :

إن شئت جمعت ثيابى فى منطقتى وخدمتك ، وإن شئت أتيت خراسان فأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرت إلى حرب عبدالله بن على .

لقد كان أبو مسلم بعيداً عن خراسان لم يرجع إليها ، وهكذا أراد أبو جعفر له ، ولقد كان أبو مسلم يريد الرجوع إلى خراسان ، فجعل هذا مطلبا بين مطالب ثلاثة حتى لا ينبه المنصور إليه .

ولكن المنصور كان لبقاً ، فلم يفته هذا .. وأراد أن يمضى فى الإفادة من أبى مسلم دون أن يمكن له ، فاختار من بين هذه المطالب أعسرها على أبى مسلم وأنفعها له ، وأمره بالمسير لحرب عبدالله بن على .

ولقد مضى عبدالله يقتل من الخراسانيين ، حين خشى ألا يناصحوه ، فخسر بذلك شيئاً ، وخرج على عبدالله نفر ممن أيدوه ، فخسر بذلك شيئاً آخر .

وخرج أبو مسلم للقاء عبد الله ، وكانت بينه وبين عبد الله حرب دامت خمسة أشهر ، تكون الكرة فيها لعبد الله ، وتكون الأخرى فيها لأبى مسلم .

ثم مكر أبو مسلم وكان ماكراً ، فعرى ميسرته إلا من قليل من الأشداء ، ففعل أهل الشام فعله مخدوعين ، وكانوا جند عبد الله .

وما إن رأى أبو مسلم ما كان من فعلهم حتى أمر من فى القلب فحَمَلُوا مع من بقى فى الميمنة على ميسرة أهل الشام فحطموهم ، وأزالوهم عن مواقعهم وكانت الهزيمة .

وفر عبد الله بن على ، فأتى أخاه سليمان بن على بالبصرة ، وأقام عنده زماناً متواريا .

وأقبل أبو مسلم على معسكر القوم فحوى ما فيه من غنائم وكتب بذلك إلى المنصور .

إلى هنا قد أدى أبو مسلم ما عليه ، وما نظن أبو جعفر يريد أكثر

منها ، ومن هنا أخذ أبو جعفر يلتفت إلى أبى مسلم بعد ما فرغ من عبد الله بن على .

فما إن تسلم أبو جعفر كتاب أبى مسلم .. حتى بادر فأرسل مولاه أبا الخصيب يحصى ما أصاب أبو مسلم من العسكر .

وكأنى بأبى جعفر أراد أولا : أن يتهم أبا مسلم فى أمانته ، فيضعضع من كبريائه ، ويهون من شأنه ، وأراد ثانياً : أن يسلبه ثمرة النصر فلا يدل بها ، وأراد ثالثاً : أن يختطف من يدى أبى مسلم ما وقع فيها حتى لا يقوى به عليه .

وما نظن شيئاً من هذا كله ، أو بعض هذا كله ، فات أبا مسلم ، ولكنه لم يملك غير أن يغضب ، وقد غضب ، غضب على أبى الخصّيب وهم بقتله ، فكلمه فيه الناس .. فخلّى سبيله وهو يقول : أنا أمين على الدماء خائن فى الأموال !

ولقد عبر أبو مسلم بهذا القول عن تلك المعانى التى يعتز بها قائد مثله أبلى بلاءه أولا وآخراً .

ولكن أبا مسلم كان قد انتهى إلى حال عجب ، إن كانت هى حاله الأولى ، فقد دلنا على أنه يفقد التدبير ، ويفقد الرأى ، ويفقد تلك الصفات كلها التى أضفوها عليه من تدبير ورأى ودهاء وحزم .

فلقد رأيناه مع المنصور بين حالين ، لم نعرف على أى منهما كان يستقيم للمنصور ، فعل المحبين ، ثم ينال منه فعل الكارهين ، لم يعرف له طريقاً بين هذين ، يريد أن ينال بحبه ويريد أن ينال بكراهيته ، فهو يخدع بالأولى المنصور ، إذا ما خلا به أو كتب إليه ، ويرضى بالثانية نفسه ومَن على شاكلته إن خلا بهم وخلوا به .

فلقد أنس أبو جعفر بالمنصور حين كشف له عن إخلاصه ، ولكنه كان أنسا على حذر .

ثم يبلغ أبا جعفر المنصور ما كان من أبى مسلم ، وهو على الجيش فى حرب عبد الله بن على ، من استهزاء بكتبه إليه ، فينقلب عليه غاضباً .

فلقد كتب الحسن بن قحطبة ، إلى أبى أيوب ، وزير المنصور ، يقول له : إنى قد رأيت أبا مسلم يأتيه كتاب أمير المؤمنين فيقرؤه ثم يلقى الكتاب من يده إلى مالك بن الهيثم فيقرؤه ، ويضحكان استهزاء .

وكان الحسن بن قحطبة قائداً للمنصور على جيوش أرمينية ، وكان المنصور قد بعث به على هذه الجيوش لعون أبى مسلم فى حرب عبد الله بن على .

ومانظن المنصور أرسل الحسن بن قحطبة لهذه فقط ، ومانظنه كان يأمن جانب أبى مسلم ، ومانظنه كان يريد أن يخلى لأبى مسلم الجو فى هذا الميدان الجديد .

ولكنا لانظن أن أبا مسلم كان يريد أن يهيىء لنفسه مع عبد الله بن على ، إذ كان عبد الله قد سبق فأساء إلى الخراسانيين ، حين شك فى أمرهم فقتل منهم سبعة عشر ألفاً ، وماقتْل مثل هذا العدد أو دونه من الخراسانيين ، لشك قام فى رأس عبد الله .. بالأمر الهيّن عند الخراسانيين وماهم بناسين له ، وما هم بمؤيدين من يؤيده .

والخراسانيون شيعة أبى مسلم ، وعليهم مُعْتَمَدُه ، وماكان أبو مسلم غرا ليؤيد رجلا لن يؤيده قومه .

فأبو مسلم كان جاداً فى حرب عبد الله ، ليرضى بحربه الخراسانيين أولا وأبا جعفر ثانياً .

ولكنا نظن أن أبا مسلم كان مع هذا النصر - لو كتب له وحده - واجداً فرصته فى أن يكون على رأس جيش منتصر له الإمرة عليه ، وواجداً فرصته فى أن تكون بين يديه أسلاب تكون له قوة وعوناً .

من أجل هذا أرسل أبو جعفر الحسن بن قحطبة ، وهو بين شك ويقين ، ولكنه عمل بمنطق شكه .

فلما كان جواب الحسن بن قحطبة إلى أبى أيوب .. غلب شك المنصور يقينه ، وأرسل الخصيب ، لم يرد أن يكل هذا الإحصاء للحسن بن قحطبة فيثير فتنة بين القائدين فى الميدان ، قد لاتنتهى بما لايحب المنصور ، ولكنه أرسل مولاه باسمه ليكون مكانه فى الميدان ، عندها لايجد أبو مسلم حجته فى الفتنة .

ولكن أبا مسلم الذى لم يملك أن يثيرها فتنة ، ملك آن يبدى عن غضبه ، فأراد آن يقتل أبا الخصيب أولا ، ثم عدل ، لأن الأمر لم يكن له كله فيحس القوة ، فلقد كان إلى جانبه الحسن بن قحطبة بجيوش أرمينية ، وكان من ورائه المنصور بجيوش أخرى ، وكان أمره لايزال قلقاً لاتغنيه هذه القلة التى كان أميراً عليها ، إد لم تكن من شيعته ، وليست قلوبها معه ، ولم تكن هذه الأسلاب قد آلت إليه فتمكن له .

ثم أبدى عن غضبه ثانية .. حين قال يعيب على المنصور مافعل : أنا أمين على الدماء خائن فى المال !

ثم خرج به غضبه ثالثة .. فشتم المنصور .

- ١٧ -

وبهذا كله .. عاد أبو الخصيب إلى المنصور .

وبهذا كله .. طويت صفحة المسالمة التى كانت بين المنصور وأبى مسلم .

علم هذا المنصور ، وعلم هذا أبو مسلم ، غير أن المنصور عمل بما علم ، وما نظن أبا مسلم عمل بشىء مما علم .

فلقد بدأ المنصور يخاف رجوع أبى مسلم إلى خراسان فيؤلب عليه الخراسانيين ، فكتب إليه : إنى قد وليتك مصر والشام ، فهى خير لك من خراسان .

فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام - وكان لقاء الجيشين بها ، أعنى جيش أبى جعفر ، وعلى رأسه أبى مسلم ، وجيش عبدالله بن على - فتكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب .

هذا ما كتب به المنصور إلى أبى مسلم ، وهذا ما بدأ المنصور به ليضيق على أبى مسلم ، ترى ماذا كان من أبى مسلم وماذا بدأ به ؟ لقد بدأ هو الآخر يغضب ، وبدأ هو الآخر يحقق لنفسه نصراً .

غضب أبو مسلم فقال : يولينى الشام ومصر ، وخراسان لى !

وخرج أبو مسلم مجمعاً على الخلاف يريد خراسان .

وهكذا تكاشف الرجلان ، غير أن أبا جعفر كان يعرف ما يعمل ، وأبا مسلم لم يكن يعرف ما يعمل ، وكان أبو جعفر ماضياً فيما يريد أن يعمل ، وأبو مسلم متردداً فيما يريد أن يعمل .

فما إن وصل علم هذا إلى أبى جعفر ، حتى خرج من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبى مسلم ينبئه أنه سائر إليه .

وهكذا عرف أبو جعفر ما يعمل بعد أن دبر ، فانظر إلى أبى مسلم ماذا عمل بعد ما دبر هو الآخر .

لقد رأينا أبا مسلم يكتب لأبى جعفر هذا الكتاب ، الذى أحب لك أن تقرأه :

إنه لم يبق لأمير المؤمنين - أكرمه الله - عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون عن قربك ، حريصون على الوفاء لك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإذا أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت ألا أن تعطى نفسك إرادتها .. نقضت ما أبرمت من عهدك .. ضنا بنفسى .

فأبو مسلم قد علم أن المنصور فرغ له ولأمثاله ، بعد أن استتب له الأمر وانتهت الفتن التى كانت آخرها فتنة عبدالله ، وأبو مسلم يعلمنا من طرف خفى أنه رجل كان يحب الفتنة ليشغل بها نفسه ، وليشغل بها أولى الأمر عنه ، وأبو مسلم كان بطلا ملحوظاً أيام كانت تلك الفتن على أشدها ، شارك فيها أولا ، وأعان عليها ثانياً ، وشغل بها أولى الأمر ثالثاً ، لا يكون مع السلامة أبدا .

فإذا ما اطمأنت الأحوال أو كادت ، وإذا ما بدا للدولة أن تستقيم سبيلها إلى الأمن ، لم تطب لذلك نفسه ، وكان ذلك الرجل القلق ، يأخذ ويعطى من المنصور، يقبل عليه ويرتد عنه ، يدعو له ويدعو عليه ، يرفعه ويضعه ، وهو فى كل ذلك يملى عن ذلك الطبع المتقلب الغادر ، حتى إذا لم يجد غير المنصور يفرغ معه ما فى نفسه ، أفرغ ذلك كله مع المنصور على لون أقل عنفاً وأقل انتقاماً ، لأنه لم يملك هذا العنف وذلك الانتقام ، فلقد كان يمكر .. ولكنه لا يملك ما كان يملكه مع المكر ، وملك أن يداور .. ولكنه لا يملك ما كان يملكه مع المداورة .

ولقد صرح أبو مسلم بخوفه من المنصور ، فلم يعد بعد يأمن جانبه بعد الذى كان منه إليه ، وهو يعرف سياسة الملوك مع من يكرهون ، فعل أبو مسلم منها شيئاً وأشار فيها بشىء ، من أجل ذلك .. اختار لنفسه أن يكون بعيداً على وفاء ، عبداً من عباد المنصور المخلصين .

ولكن أبا مسلم كان يعلم أن المنصور لن يعطيه هذه أبداً ، ولن يمكنه من الوصول إلى خراسان ، ولقد كان أبو مسلم هو نفسه يعلم أنه إن مكن له من هذه .. فسوف لا يكون وفيا ، وإنما كان ذلك لوناً من ألوان المكر ، ولوناً من ألوان المداورة ، التى تمتلىء بها نفس أبى مسلم ، يقول وهو يظن أنه صادق ، حتى إذا ما حلا إلى طبعه وتكشف عنه ما خافه ، وما ركب من أجله هذا المكر وتلك المداورة ، عاد لا يؤمن بالمُثل ، ولا يرعى العهود ، ولا يلقى بالاً للأيمان .

ولم ينس أبو مسلم فى آخر كتابه أنه على بقية من أيد وقوة ، فختم كتابه بتلك الكلمات التى فيها تهديد ووعيد ، والتى كانت سيئة أخرى من سيئات أبى مسلم فى آخر حياته ، أو حين تكشفت حياته ، لا يدل على حنكة وإنما يدل على تعثر ، فالتهديد إن لم يصحبه ما يحميه كان عبثاً من العبث ، وتمكيناً لخصمك منك .

وهكذا علم أبو جعفر نفس أبى مسلم كما علمها أبو مسلم ، وقدأراد أن يمضى هو الآخر معه فى المكر والمداورة ، فقد يبلغ بهما قبل أن يبلغ بالقوة ، فكتب أبو جعفر إلى أبى مسلم .

قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة لملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتهم انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمعاً ولا طاعة ، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها أن أصغيت ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك .

وكأنى بأبى جعفر يعرض بأبى مسلم من حيث يريد أن يبرئه ، فأبو

جعفر يعلم آبا مسلم مشاغباً مناوئاً ، عرف ذلك من أول لقاء تم بينهما ، وقد مر بك .

وعلم ذلك وصرح به حين خرج أبو سلمة على السفاح ، وأراد السفاح قتله ، فرده أبو جعفر عن ذلك ، وأشار عليه بأن يأمر أبا مسلم بقتله حتى لا يأخذها أبو مسلم عليه حجة ، وقد مر بك ، وأبو جعفر لا يؤمن لأبى مسلم بفضل .. فقد ذكر رأيه فيه للسفاح ، وأن ما كان منه كان بفضلهم وبفضل دولتهم . وقد مر بك .

وأراد أبو جعفر أن يجهله فى آخر خطابه ، وأن ينسبه إلى الزيغ واتباع الشيطان ، حتى يفل من عزمه ، فكتاب أبى جعفر لأبى مسلم نفاق من النفاق ومكر من المكر .

ولكنه على كل حال كان أسلوب هذا الزمان .

ولكن أبا مسلم لم يكن قد فقد البقية الباقية من عقله حتى يؤمن لأبى جعفر بما قال ، وحتى يستجيب لأبى جعفر فيما طلب ، فلقد عرف أن الأمر أصبح شرا كله ، ولم يعد فيه لصلح سبيل .

وهنا أظلمت الدنيا فى وجه هذا الرجل أبى مسلم ، وكان يظنها نورا كلها ، وانسدت المسالك دون هذا الرجل ، وكان يراها مفتحة دونه كلها ، فتضعضعت نفسه وهانت ، وكاد أن يلم بها اليأس .

والنفوس إذا بلغت ما بلغت نفس أبى مسلم ردت إلى جزع ، وإذا ردت إلى جزع استيقظ فيها الضمير ، وإذا استيقظ فيها الضمير تمثلت التأنيب ، وإذا تمثلت التأنيب ذكرت الله وعقوبته ، وإذا ذكرت الله وعقوبته ردت خاشعة منيبة ، وإذا ردت خاشعة منيبة لم تبال الحياة بخيرها وشرها .

وإلى هذا انتهت نفس أبى مسلم ، فلقد ذكر الله ولم يعد يبالى المنصور

بوعده ووعيده ، فكتب إليه هذا الكتاب الذى هو صفحة جريئة مسجلة على العباسيين شيئا ومسجلة على أبى مسلم شيئاً . وها هو ذا كتابه :

أما بعد ، فإنى اتخذت رجلا إماماً ودليلا على ما افترض الله على خلقه ، وكان فى محلة العلم نازلا ، وفى قرابة من رسول الله ﷺ قريباً ، فاستجهلنى بالقرآن فحرفه عن مواضعه ، طمعاً فى قليل قد نعاه الله إلى خلفه فكان كالذى دلى بغرور ، وأمرنى أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة ، ففعلت توطئة لسلطانكم ، حتى عرّفكم الله من كان يجهلكم ، ثم استنقذنى الله بالتوبة ، فإن يعف عنى .. فقدما عرف بالعفو ونسب إليه ، وإن يعاقبنى فبما قدمت يداى ، وما الله بظلاّم للعبيد .

ولقد صدق أبو مسلم فى شىء ولم يصدق فى شىء .

فما قتل السفاح من قتل من بنى أمية تلك القتلة القاسية بكتاب الله ، ولا قتل أبا سلمة غدراً بكتاب الله .

ولا قتل ابن هبيرة ناكثاً بأمانه بكتاب الله .

ولا قتل عماله من قتلوا بكتاب الله .

ولكن أبا مسلم لم يصْدق حين أراد أن يصور نفسه المخدوع الجاهل بكتاب الله ، فليس كتاب الله عقدة من العقد يستعصى فهمها على الناس عالمهم وجاهلهم ، بل هو دين فطرى يعرفه الناس كلهم عالمهم وجاهلهم ، ما كان مع العقل والرأى والعدل فهو من كتاب الله ، وما كان مع الجهل والشطط والظلم فليس من كتاب الله . وأين رجل له مسكة من عقل لا يستطيع أن يفرق بين ما كان عقلا وجهلا ، وبين ما كان رأياً وشططاً ، وبين ما كان عدلا وظلماً .

ولكن أبا مسلم قد استيقظ ضميره كما قلنا ، فأخذ يتلمس لنفسه عذراً فيما كان منه ، قد يقنع به فيستشعر شيئاً من رضا الناس ، الذى أحس أنه محروم منه ، ويستشعر شيئاً من راحة النفس ، ونظن أنه كان يفقدها ، ثم هو آخر الأمر مدل بندمه مع النادمين لعل الله يتقبل منه ، كما رجا وطمع .

— ١٨ —

ومع هذا الندم وتلك التوبة وذلك التأنيب لم يعد أبو مسلم يبالى أبا جعفر وخرج مراغماً ومشاقاً .

وسار المنصور إلى المدائن يظن أنه يلقى أبا مسلم عندها ، ولكن أبا مسلم أخذ طريقه إلى حلوان .

وكان أبو جعفر لا يزال يميل إلى حل لا دم فيه ، تحرجاً من الإثم ، لأن الرجل كان يجنح إلى العافية ، وتخوفاً من الحرب ، لأن الرجل كان لا يأمن العاقبة .

فقال لمن حضره من أهله : اكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يبقى على ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغى ، ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور .

وبعث المنصور بهذا الكتاب مع أبى حميد المروروزى ، وقال له : كلم أبا مسلم بألين ما تُكلم به أحداً ، ومنّه وأعلمه أنى رافعه ، وصانع به ما لم يصنعه به أحد ، إن هو صلح ورجع إلى ما أحب ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لست من العباس ، وإنى برىء من محمد ، إن مضيت مشاقاً ولم تأتنى ، وإن وكلت أمرك إلى أحد سواى ، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسى ، ولو خضت البحر لخضته ، أو اقتحمت النار لاقتحمتها ، حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ، ولا تقولن هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه ولا تطمع منه فى خير .

وكأنى بأبى جعفر كان يحب العافية حقاً مع أبى مسلم عند هذه الغاية ، فما كان يعنى أبا جعفر إلا أن يذل أبو مسلم ، وها هو ذا قد ذل أو كاد ، وما كان يعنى أبا جعفر إلا أن يصفو الأمر له ، وها هو ذا قد صفا له أو كاد .

من أجل ذلك كان أبو جعفر جاداً فى عهده هذا الذى أوحى به إلى أبى مسلم ، ومن أجل هذا كان أبو جعفر حريصاً على أن يتم الأمر بينه وبين أبى مسلم على سلم على الرغم مما كان ، لأن أبا جعفر دلنا على شيء من خلق فيما سبق لك ، ودلنا على شيء من وفاء فيما عرفت عنه ، لا يرجعه عن هذا ما كان من حقد على أبى مسلم ، فالرجل لا تخليه الحياة من حقد ، ولكن العظيم من الرجال من لا تملكه الحياة بأحقادها ولا تدعه يبرأ منها .

ولقد سار أبو حميد إلى أبى مسلم بحلوان ، ودفع إليه الكتاب ، وكان أبو حميد أميناً على ما حمّله إياه أبو جعفر ، حريصاً على ما حرص عليه أبو جعفر ، يريد أن ينتهى إلى سلم ، ولعله هو الآخر كان يرى ما يرى أبو جعفر ويحس إحساسه .

وحين دفع أبو حميد الكتاب إلى أبى مسلم قال له :

إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله ، وخلاف ما عليه رأيه منك ، حسداً وبغياً ، يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، فلا تفسد ما كان منك .

وكأنى بأبى حميد بعد هذا قد وجد من أبى مسلم لينا واسترخاء ، حسبهما عن تهيىء للاستجابة ، فمضى يقول له :

إنك لم تزل أمير آل محمد ، يعرفك بذلك الناس ، وما ذخر الله لك من

الأجر عنده فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينك الشيطان .

وفى الجديد من حديث أبى حميد جديد أيضاً من رأى أبى حميد ، فلقد خاض أبو حميد أول ما خاض مع أبى مسلم فى حديث عام كله ، عما بين الرجلين – أعنى أبا جعفر وأبا مسلم – من نفور وكراهية وتباغض ، وليست هذه كلها أموراً تنزرع فى النفوس عفوا دون أسباب ، يظن الرائى ، بادىء ذى بدء ، أنها عن قيل وقال ، وكلام يكيد به الكائدون للمتاحبين المتعارفين ، وهم غير بعيدين عن شىء من الحقيقة ، ولكن الشىء الآخر الذى يجب ألا يفوت الرائين .. هو أن ما يقال لا يستمع له ، وأن ما يكاد به لا يصغى إليه ، إلا إذا كانت النفوس تحمل قبل ذلك سبباً هو غير ما يقول الناس وغير ما يكيدون .

ولقد كان السبب الذى تحمله نفس أبى مسلم لم يفت أبا حميد ، فهو لم يفرغ مما رآه عرضاً حتى أخذ فيما يراه أصلا .

وما نبرىء أبا مسلم من أنه كان طامعاً فى مزيد ، ومانبرىء أبا مسلم من أنه كان راغباً فى كثير ، يرى الأمر بفضله قبل أن كان بفضل العباسيين ، فلما رأى أنه قد زحزح عن دنيا العباسيين قليلا قليلا ، وأنهم كادوا أن ينالوها وحدهم ، غضب وكان فى كل ما كان منه .. يملى عن هذا الغضب .. يخطىء ويصيب ، وكان خطؤه أكثر من إصابته ، عرف هذا أبو حميد وذكره ، وعرف أنه قد بلغ بحديثه الأول من نفس أبى مسلم شيئاً فيما ظن ، كما عرف أنه لم يبلغ شيئاً آخر .

من أجل هذا أخذ أبو حميد فى حديثه الجديد يريد أن ينفذ إلى هذا السبب الجديد .

ولقد رأيناه قد ذكّر أبا مسلم بأنه لا يزال أمير آل محمد ، وهو لقب لا تسبقه إلاّ الخلافة .

غير أن أبا مسلم جرب هذا اللقب فرآه اسما لا يحمل تحته شيئاً ، فكم من أمور قضيت دونه بعد أن آل الأمر إلى السفاح ، وما أقحم إلا فى أمور خاف السفاح مغبتها .

ولو أن هذا اللقب ناله أبو مسلم اسما ومعنى .. ما نظنه كان مدفوعاً إلى غضب ، وما نظنه كان مدفوعاً إلى حقد .

وكما عرف هذا أبو مسلم عرفه أبو حميد ، ولكنه لقب على كل حال له أثره فى النفوس ، وإن تجرد من معانيه ، فلم لا يلوح به أبو حميد ، ولم لا يُرضى به طموح أبى مسلم .

هذا وأبو مسلم اليوم غيره بالأمس ، فلقد كان أبو مسلم بالأمس قوياً يحب هذا الاسم ومعناه ، وهو اليوم ضعيف قد يرضى بهذا الاسم دون معناه .

من أجل ذلك لوح أبو حميد بهذا الاسم ، ولم يفته أنه ليس شيئاً ، ولكنه قد يكون فى نفس أبى مسلم اليوم شيئاً .

ثم إن أبا حميد أراد ألا يكون خادعاً ، وأراد ألا يفجأه أبو مسلم مهوناً من ذلك اللقب ، كاشفاً عما صار إليه ، فأخذ يزهده فى الدنيا ويرغبه عن أطماعها ، لا لشىء إلا ليجعل هذا اللقب دون معناه شيئاً يجب ألا يرده أبو مسلم ، ويجب ألا يستقله ، ويجب ألا يهون منه ، فلقد يكون فى هذا كله إحباط لأجره ، إحباط لما سبق له من عمل .

إلى هنا انتهى أبو حميد ، وظن أنه قد أغنى . ولكن أبا مسلم كان رجلا قد دخل عليه اليأس فأبرمه ، ودخل عليه الضيق بنفسه فأزعجه ، ولم يكن قد انتهى إلى الزهد كله ،ولم يكن قد اطمأن إلى أبى جعفر الاطمئنان كله ، فيرضى الدنيا كما عرضها عليه أبو حميد ، من أجل هذا التفت أبو مسلم إلى أبى حميد يقول له :

متى كنت تكلمنى بهذا الكلام ؟

ولكن أبا حميد كان يملك على أبى مسلم حجة أخرى لم يشأ أن يضيعها ، ولم يشأ أن تفلت منه .

وكان أبو حميد كما قلت لك يملى عن روح تحب السلم ، وتحب أبا مسلم ، وتثق بعهد أبى جعفر .

فمضى أبو حميد يقول لأبى مسلم : إنك دعوتنا إلى هذا الأمر وإلى طاعة أهل بيت النبى ﷺ بنى العباس ، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك ، فدعوتنا من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة ، فجمعنا الله على طاعتهم ، وألف مابين قلوبنا ، وأعزنا بنصرنا لهم ، أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا : من خالفكم فاقتلوه ، وإن خالفتكم فاقتلونى .

وهكذا كان أبو حميد رجلا من المسلمين قد أحب أن تلتئم كلمة المسلمين ، وحسبهم ماكان من فرقة دامية ، وأحب أن ينسى الأفراد مالهم ، وحسب المسلمين مالقوا من هذه الفردية المؤذية .

وغير هذا فلقد كان أبو حميد رجلا لم يرد خداع أبى مسلم ، لأنه ظن أن أبا جعفر لم يخدعه .

وكأنى بأبى مسلم كاد أن ينسى عنفه الأول ، لأنه كان على تلك الحال النفسية التى وصفتها لك ، وكاد أن ينسى غدر الملوك ، لأنه وجد صديقه أبا حميد قد نسى غدرهم ، وأخذ ينصح له أولا .

ثم وجده قد ابتدع حقا ، كان فيه جادا فيما يظهر ، وكان فيه مخلصاً ، وكانت له فيه حجة على الناس وعلى أبى مسلم .

وأبو مسلم ، وغير أبى مسلم ، أحرصُ الناس على أن يكونوا مع الحق ،

يراؤون به إن كانوا لايؤمنون به ، ويجدّون فيه إن كانوا به مؤمنين ، فهم على الحالين لايخالفون عن الاستماع إليه إن كانوا من المرائين ، ثم عن العمل به إن كانوا من المؤمنين .

وماوجد أبو مسلم فى هذا الحق الذى قد ابتدعه أبو حميد ليحاجه به قولا ، لأنه أحس فيه أنه مدين إن خالف عنه ، وأحس فيه أنه غير مؤيد إن خرج عليه ، ثم أحس أنه مهدد تهديد المارقين . وكثيراًماابتدع أبو مسلم قبل اليوم هذا الحق ، وكثيراً ماجعل أبو مسلم الناس مارقين ، وكثيراً ماقتل أبو مسلم من هؤلاء المارقين جملا كثيرة .

لقد حضر هذا كله فى ذهن أبى مسلم فرعاه وخشيه ، ووجد نفسه عاجزة عن أن تجيب ، وأكاد أقول خائفة من أن تجيب ، جواباً يمليه الصلف ويعقبه التلف . وليس أفزع من السافكين ، ولاأخوف من القاتلين ، فهم قد هونوا على أنفسهم قتل الناس ، وسفك الدماء . وكذلك هونوا أنفسهم على الناس ، وأباحوها لهم قتلا وسفكاً .

وهم على حيطتهم غير آمنين ، وفى حذرهم جد مروعين ، لأنهم عرفوا كيف يدخلون على الناس فى حيطتهم وفى حذرهم ، فهانت تلك الحيطة كما هان ذلك الحذر عندهم .

وحين خشى أبو مسلم لان ، وحين لان لم يجب ، وحين لم يجب التفت إلى زميل له يستشيره .

– ١٩ –

وماأشك فى أن أبا مسلم كان يطمع فى أن يجد زميله على خشيته فيجيب عن خشية ، ويستجيب أبو مسلم عن خشية ، ويخرج أبو مسلم من تلك المعضلة برأى زميله لابرأيه ، لأنه أحس أن فى الاستسلام مذلة ، فلم

يشأ أن يذل القائد الأكبر بلسانه ، ولكنه أراد أن يذل بلسان الناس ، ليقال إنه استشار فأشير عليه ، وكان الرجل الصالح .

فالتفت إلى مالك بن الهيثم يقول له : أما تسمع مايقول لى هذا ، ماكان بكلامه يامالك ؟

ولكن الذى رجاه أبو مسلم فوته عليه زميله مالك بن الهيثم ، والذى أمّله منه .. خيّبه فيه .

لقد كان أبو مسلم صاحب الأمر كله ، يعرف جانبى حياته ، ماكان أولا وماكان ثانياً ، ولكن مالك بن الهيثم كان يعرف جانباً واحداً من حياة أبى مسلم ، وهو جانبها الأول ذلك الجانب الملىء بالزهو والكبر والعنف ، ولم يعرف جانبها الثانى المشرف على الذلة والانهيار والتداعى ، من أجل ذلك أجابه يرضى هذا الجانب الذى عرفه ، فقال له : لاتسمع قوله ، ولا يهولنك هذا ، فلعمرى ماهذا كلامه ، ولمابعد هذا أشد منه ، فامض لأمرك ولاترجع ، فوالله لئن أتيته ليقتلنك ، ولقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك أبداً .

ولقد كان أبو مسلم حين استمع إلى ابن حميد بين طامع وخائف ، وحين يجتمع إلى الخوف الطمع فى نفس الإنسان .. يغلب الطمع الخوف وينقاد المرء لطمعه ناسياً خوفه .

وهكذا غلب طمع أبى مسلم خوفه ، حين استمع الى ابن حميد وكاد يستجيب ، وطمع فى أن يعينه على ذلك مالك بن الهيثم .

وحين استمع أبو مسلم لمالك بن الهيثم اختفى طمعه وبقى خوفه ، والنفس إذا لم يملكها إلا الخوف استجابت لما يؤمنها ، وإن هى استجابت لهذا استيقظت فيها أسباب العزة والامتناع ، وصورت لها على غير ماهى

عليه ، فإن تكن قد وهت استحالت غير واهية ، وان لم يكن فيها شيء اجتمع فيها كل شيء .

وهكذا ثارت نفس أبى مسلم على قول ابن الهيثم ، وذكر أنه شيء ، وأنسى أنه غير شيء ، فالتفت أبو مسلم إلى من معه يقول : قوموا ، ونهض ونهضوا معه .

غير أن تلك الثورة المصنوعة .. قلقة دائماً ، مترددة دائماً ، تفور وتسكن ، وتضطرب وتخمد ، إن ضمنت المعين لها لم تسكن ثورتها ، ولم يخمد اضطرابها ، وإن وجدت المعين عليها سكنت ثورتها وخمد اضطرابها .

وهى لذلك القلق وذاك التردد مغلوبة بالتفكير الطويل ، مدفوعة إلى طلب المشورة ، من أجل هذا أرسل أبو مسلم إلى زميل له آخر اسمه نيزك ، يعرض عليه ماكان يطمع فيما طمع فيه من ابن الهيثم أولا ، ويطمع فى أن يجعل الناس معه حتى يكثر جنده ، إن هم بشيء .

وجاء رأى نيزك لايخرج عن رأى ابن الهيثم ، وإذا هو يقول له : ماأرى أن تأتيه ، وأرى أن تأتى الرى فتقيم بها مابين خراسان ، والرأى لك ، وهم جندك لايخالفك أحد ، فإن استقام لك استقمت له ، وإن أبى كنت فى جندك ، وكانت خراسان وراءك ، ورأيت رأيك .

وهكذا استيقظت الثورة فى نفس أبى مسلم ثانية بعد أن كادت تهجع ، وعاد أبو مسلم يعرف الطمع ولايعرف الخوف ، واستقامت أمامه الطريق إلى الجرأة ، فدعا إليه أبا حميد ليقول له : ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه .

ولكن فى جعبة أبى حميد شيئاً آخر قد ادخره إلى حين اليأس ، زوده به أبو جعفر حين أرسله .

وأبو حميد حريص على أن ينجح فى مهمته ، حريص على ألا يكون بين المسلمين خلاف ، وقد جرب هو وأمثاله هذا الخلاف ، حريص على ألا يعرض أبو مسلم نفسه للتلف فيما خال ، ثم هو حريص آخر الأمر على ألا يفرط فى رسالة الخليفة ، وعلى أن يؤديها كاملة ، وفى هذا الأداء وفاء للمُرسِل وأمن من غضبه ، ثم قد يكون فيه أمن لأبى مسلم أيضاً ، وهو حريص على هذا كله .

وفى ظل هذا كله بدأ أبو حميد يحاور أبا مسلم ويداوره فقال له : عزمت على خلافه ؟

وهو يعنى أن يهدد ، فقال أبو مسلم : نعم ، فيقول له أبو حميد : لا تفعل ، وهو يعنى أن يهدده أيضاً ، فيقول له أبو مسلم : لا أعود إليه أبداً .

وكأنى بأبى مسلم قد عاد يعلم أن هذا التلويح هو كل ما عند أبى حميد فاستشرى ، ونجد أبا حميد قد أحس هذا من أبى مسلم فتهيأ يصرّح ، والتفت إلى أبى مسلم يقول له كل ما حمّله إياه أبو جعفر ، مما مر بك .

عندها علم أبو مسلم شيئاً جديداً ، ودخل إلى نفسه خوف جديد غير ذلك الخوف الأول ، الذى أثاره فى نفسه ابن الهثيم ونيزك .

فلقد خوفه ابن الهيثم ، كما خوفه نيزك ، ليثيراه وليحركا فيه الحرص على حياته دفاعاً وحرباً . ولقد خوفه أبو حميد ليكسره ، وليحرك فى نفسه رعباً يرده إلى جزع واستكانة .

وهكذا اضطربت نفس أبى مسلم بلونين من الخوف يتناقضان كل التناقض .

والنفس حين تخاف فتثور تكون مؤمنة بشىء وهما أو حقا ، ثم هى حين تخاف فتخنع تكون قد فقدت إيمانها بهذا الشىء وهما أو حقا .

وكانت نفس أبى مسلم قد انتهت إلى الثانية وخلعت عنها الأولى ، فقد بدا لها أن أبا جعفر جاد ، ولقد بدا لها أن أبا جعفر يملك ، ولقد بدا لها أنها نفس واحدة تلقاء أنفس كثيرة .

عندها اختفى من نفس أبى مسلم وهمه الخادع المثير ليحل محله حق يمحو هذا الوهم محواً ، من أجل ذلك انخزل أبو مسلم لقول أبى حميد ، ومن أجل ذلك فزع أبو مسلم لقول أبى حميد .

وكان أبو جعفر المنصور قد كتب إلى أبى داود ، خليفة أبى مسلم ، بخراسان ، حين اتهم أبا مسلم : إن لك إمرة خراسان ما بقيت .

فكتب أبو داود إلى أبى مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه .

دنيا تغرى الناس ولا تزال تغريهم لا يفكرون إلا فيما تمليه عليهم من نفع ، ولكنهم على ذلك قادرون على أن يلبسوا الباطل بالحق ، ويزيفوا على الناس أمورهم . وما بنا أن ننعى على أبى داود فعله ، ولا أن نناقشه الحساب ، ولكن الشيء الذى أحب أن أقوله لك لأصلك بحديث أبى مسلم ، هو أن كتاب أبى داود هذا وصل أبا مسلم على تلك الحال التى مرت به ، وكأنه كان شيئاً مرسوماً .

فازداد أبو مسلم هما ورعباً وفزعاً ، ولم تبق فى نفسه ذرة من خوفه الأول الذى معه الثورة والحرص ، وامتلأت نفسه بخوفه الثانى الذى معه الهلع والاستكانة والخضوع ، فإذا هو يرسل لأبى حميد يقول له : إنى كنت عازماً على المضى إلى خراسان ، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق - يعنى صديقاً يثق به - إلى أمير المؤمنين ، فيأتينى برأيه ، فإنه ممن أثق بهم وفى مثل هذه كان يطمع أبو حميد وإلى مثله يسعى . لا يعينه أن يتم على يديه أو على يدى غيره .

وما أراد أبو حميد أن يستذل الرجل فوق هذا فيصر على أن يكون الأمر له لا لأبن إسحاق ، ولكنه وجد الرجل - أعنى أبا مسلم - يريد أن يعطى عن يد غير صاغر ، فأباح له أن يفعل ما أراد ، فوجه أبو مسلم صديقه أبا إسحاق إلى أبى جعفر ، ومضى أبو إسحاق إلى أبى جعفر ، فتلقاه رجال المنصور بكل ما يحب عن أمر المنصور لا عن أمرهم ، فيما يبدو لى . فما أظن الناس ، من قرب منهم من المنصور ومن بعد كانوا يجرؤون على أن يصلوا حبلهم بحبل رجل موصول بأبى مسلم ، والفتنة بين أبى مسلم وبين المنصور على أشدها .

ولقى أبو إسحاق أبا جعفر ، وكما لقى رجال المنصور أبا إسحاق لقيه المنصور .

ولكن أبا جعفركان مفزعاً هو الآخر فزع أبى مسلم ، ولكن فرق بين فزع وفزع ، فلقد كان فزع أبى مسلم فزع الرجل الضعيف ، فكان فزعاً لا يستره شيء ، وكان فزع أبى جعفر فزع الرجل القوى فكان يستره شيء ، ولكن الفزع على كل حال شيء يغلب الستر ويتخطى الحواجز ، فينكشف منه ما يدل عليه .

- ٢٠ -

ولقد انكشف من فزع أبى جعفر من أبى مسلم هذا الشيء الذى دل عليه ، فلقد وجدنا أبا جعفر يقول لأبى إسحاق : اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان ، ثم أجازه .

اثنتان لايدلان على خداع أبى جعفر بقدر ما يدلان على جزعه وفزعه ، فلقد أنسى أبو جعفر أنه ولى خراسان من قبل ذلك بقليل أبا داود ، وما نظنه كان يكذب حين كتب إلى أبى داود بذلك .

ثم هو إن كان فعل الذى يعرض ليخدع ، وكان لا يريد لخراسان هذا ولا ذاك ، وإنما كان يريد الإطماع ، فلقد دل عرْضه على فزعه .

فما نظن أبا جعفر أنسى أن القادم عليه لم يكن بعيداً عما كان من أبى داود مع أبى مسلم ، ومانظنه كان بعيداً عن الثمن الذى دفع لأبى داود ليكتب كتابه لأبى مسلم ، وهبه كان بعيداً فما هكذا تكون حيطة القادة ، وإذا جاز لك أن تشك فى حيطتهم .. جاز لك أن تشك فى أن الفزع قد دخل عليهم فأفسد عليهم حيطتهم .

بهذا نفسر ماعرضه أبو جعفر على أبى إسحاق تفسيراً بين اليقين والشك ، فإذا ماعرفنا أن أبا جعفر زاد فأجازه نفسر ماعرضه أبو جعفر على أبى إسحاق تفسيراً كله اليقين ، وليس فيه شك ،

فما هذا الإغراء الآجل والعاجل لرجل مثل أبى إسحاق ، ليس إلا رسول رجل يطلب الأمن وينشد الوفاء ، وماكان هذا ليغيب على فطنة أبى جعفر ، ولكنه كان فزعاً هو الآخر - كما حدثتك - فوعد وأجاز ، يضطرب فى الأولى اضطراب فزع ، ويهون فى الثانية هوان فزع .

ولقد رجع أبو إسحاق إلى أبى مسلم طامعاً فيما عند أبى مسلم - إن كان ثمة عنده شيء - فتجرد عن الإخلاص له .

ولكن أبا إسحاق أنسى هو الآخر شيئاً ، أنسى أنه صديق لأبى مسلم ، آثره على غيره من الأصدقاء ، وأنسى أنه رسول ، والرسول مؤتمن .

ولكنها دنيا ، كما قلت لك ، غرت أبا داود ، وكان خليفة لأبى مسلم ، هو الذى استخلفه ورفعه ، وغرت أبا إسحاق ، وكان ثقة عند أبى مسلم ، هو الذى وثقه ووجهه .

ورجع أبو إسحاق يقول لأبى مسلم : ماأنكرت شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك يرون مايرون لأنفسهم .

وقد ننخدع مع المنخدعين بأبى إسحاق فنقول : أن الرجل حدث بما رأى ، وإن أبا جعفر ، زيف الحال ليراها أبو إسحاق كما أرادها أبو جعفر ، وهكذا حدث الرجل بما كان .

ولكنا لاننخدع مع المنخدعين فى أبى إسحاق حين نعلم أن الرجل أعطى - على أن يقول ماقال - شيئان : ولاية خراسان ، ومال أجيز به .

ومانظنه إلا سمع وعيدا لاوعداً ، ومانظنه رأى إلا تهديداً ولم ير ترحيباً . ولكن الرجل قد أطعم بما ملأ حاضره ومستقبله فقال ماقال .

- ٢٠ -

ولم يكن أبو مسلم جاداً فى شىء مما كان منه أخيراً حين أرسل أبا إسحاق . ولكنه كان خائفاً هذا الخوف الذى ملأه رعباً وفزعاً ، وكانت فى الرجل بقية من عزة ، فأراد ألا يسقط سقطة سريعة ، وإنما أخذ يمهد لتلك السقطة ويمد فى عمرها ، فأين حاله مع أبى حميد من حاله تلك ، ومابين الحالين وقت طويل .

ولقد أصبح أبو مسلم لايصيخ إلا لرعبه ، يمنعه رعبه من أن يحتاط لنفسه ، ويمنعه رعبه من أن يستمع لمن استمع إليهم أولا ، هؤلاء الذين أثاروا فى نفسه خوفه الكامن .

فلقد اتصل بنيزك بعد أن حمل إليه أبو إسحاق ماحمل ، ولقد رأى فيه نيزك الخنوع والاستسلام ، فلم يشأ أن يكد نفسه فى غير طائل ، ولكنه كان على ذلك وفياً لرأيه الأول لم يشأ أن يخرج عنه جملة ، فقال لأبى مسلم : قد أجمعت على الرجوع ؟ فقال أبو مسلم : نعم .

ولكن أبا مسلم - كما قلت لك - كان قد هان ، واستسلم ، وألقى حبله فى يد المقادير ، وهو الذى كان حبله فى يده ، يدلك على ذلك قوله متمثلا ، وهو يمضى فى الحديث مع نيزك :

مـــاللرجـــال مـع القضـــاء محـــالـــة　　ذهب القضــــاء بحيلـــــة الأقـــوام

وهكذا وجد نيزك نفسه بين يدى رجل ليس له منة فيشد من منته ، وليس له عزم فينفخ فى عزمه ، بل وجده رجلا قد استسلم للقدر كما تستسلم الصخرة للموج .

ولكن نيزك على هذا .. كان يجد فى أبى مسلم بقية من شر وبقية من غدر ، لو حركتا فيه أثارت سائره ، وكان يجده فى يأسه من الحياة يحرص على الحياة ، فكان فى حاجة إلى من يوقظ فيه هذا الحرص ليغلب به ذلك اليأس .

وهكذا عّن لنيزك أن يعيد الحياة لتلك الصخرة علّها تستطيع شيئاً ، فالتفت إلى أبى مسلم يقول له - بعد أن عرف أنه راجع إلى المنصور - إذا عزمت على هذا فخار الله لك ، احفظ عنى واحدة : إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت ، فإن الناس لايخالفونك .

مشورة غادرة من نيزك ، توائم تلك البيئة الغادرة ، ورأى ماكر كان صورة من تلك الصور الماكرة . وماكانت الحياة إلا هذا الغدر وذاك المكر . بهذا عبد طريقها أبو مسلم للعباسيين ، وبهذا عبد طريقها العباسييون لأنفسهم ، وبهذا أراد نيزك أن يعبد طريقها لأبى مسلم .

ولكن أبا مسلم كان قد استرجع شيئاً ، وامتلأ ندماً على ما فرط منه ، وكان قد مل الحياة شيئاً فلم يعد يحس نشاطاً للحياة ، وكان قد فقد ثقته بالناس لأن الناس عاشروه على خوف ، ولم يعاشروه على حب ، فلما بان ضعفه أو كاد ، بدأ كرههم له أو كاد .

وسكت أبو مسلم ، لم يقل شيئاً لنيزك ، ثم كتب إلى المنصور يخبره أنه منصرف إليه ، وما كان أبو مسلم فى مسيره هذا مطمئنا ، ولكنه كان كما أحس مسوقاً بقضاء الله إلى قضاء الله ، فترك أمره إلى هذا القضاء .

وسار أبو مسلم إلى المنصور ، سيراً لا يمليه تدبر ، ولا يمليه حذر ، ولا يمليه أمل ، ولا تدفع إليه إرادة ، ولكنه كان سيراً عن وحى خفى وإلهام باطل وشعور مستور . وهكذا كان أبو مسلم مسيَّراً لا مخيَّراً ، والمرء إذا امتلأت نفسه بهذا الوحى وذاك الإلهام وذلك الشعور ، لم يعد يغنى مع هذه كلها حذر ولا تدبر .

وتكلم أبو مسلم مع قائد من قواده كلام الحى الميت فقال له ، وهو يستخلفه على جنده : أبا نصر ، أقم حتى يأتيك كتابى ، فإن أتاك مختوماً بنصف خاتمى فأنا كتبته . وإن أتاك بخاتمى كله فلم أختمه .

ولكن ما بال أبى مسلم أوصى أبا نصر بما أوصاه ؟

ترى هل كان يدبر لثورة إن مات مقتولا ؟

ما نبرئه من هذه ، وما نظنه أنه كان لا يعلم أنها ثورة فاشلة إن وقعت ، ولكنها بلبلة على كل حال ، أحب أن يجعلها ثمناً لقتله ، حتى لا يظن المنصور أنه كان غير شىء ، ولا أقل من أن يمضى أبو مسلم بشىء .

غير أن الذى نراه فى هذه الوصية شىء آخر ، كان هو ما يرمى إليه أبو مسلم . وكان هو ما يبغيه ، فلقد كان لأبى مسلم بين يدى أبى نصر مالك بن الهيثم متاع ومال ، ولقد خاف أن يختطف المنصور هذا المتاع وذاك المال بعد أن يختطف روحه ، ولقد رأى أبو مسلم أن يحرم المنصور ماله ومتاعه إن أبيحت له روحه ، ولقد شاء أبو مسلم ألا يعطى المنصور راحتين وحسبه راحة واحدة إن قتله .

من أجل ذلك أوصى أبو مسلم أبا نصر ، ومن أجل ذلك أَسَرَّ أبو مسلم أبا نصر بهذا الرمز ، وسنعلم هذا بعد قليل .

وورد كتاب أبى مسلم على المنصور ، كتابه هذا الذى بعث به إليه يخبره أنه قادم عليه . ودفع المنصور كتاب أبى مسلم إلى وزيره أبى

أيوب ، وكان لأبى مسلم خصما ، يرى حياته فى حياة المنصور ، ويرى فى ظفر المنصور بأبى مسلم ظفراً له ، وما خفى على المنصور ، ما فى نفس أبى أيوب ، من أجل ذلك ألقى إليه كتاب أبى مسلم .

ولو أراد المنصور لأبى مسلم خيراً لاختار غير أبى أيوب رجلا يشير عليه فى أمر أبى مسلم ، ولكنه أراد بأبى مسلم شراً فلم يختر من الناس غير أبى أيوب .

وأخذ أبو مسلم يقطع الطريق إلى المنصور ، وأخذ المنصور وأبو أيوب يعدان العدة لاستقبال أبى مسلم .

ولكن الملوك أقوياء وضعفاء ، تمتلىء أيديهم بالعتاد كله ، وهم على ذلك يظنونها صفراً من هذا العتاد كله ، هذا حين لا يكونون مع الحق ، وحين يغدرون ، ويظلمون ، ويجورون ، فيحسون الخور والجزع ، ويصور لهم الخور والجزع خصمهم شيئاً وقد يكون غير شىء ، فهم لذلك يأخذون فى الحيلة ويأخذون فى المداورة ويأخذون فى الخداع ، يؤثرون هذا الباطل كله على أن يكونوا صرحاء شجعان يبادون خصمهم علانية وفى وضح النهار .

لقد كان أبو مسلم فرداً ، وكان سيقدم على المنصور فرداً ، ولكنه مع ذلك أرهب المنصور وأرهب أبا أيوب ، وخاف المنصور وخاف أبو أيوب هذا الرجل الفرد ، فرجعا يحتالان ويداوران ويخادعان .

ولكن المنصور كان قد ترك هذا كله لأبى أيوب ، فلقد حركه إليه حين أعطاه الخطاب .

وخرج أبو أيوب يلتمس المعينين على الغدر من ذوى الحاجات ، وماأكثرهم حين يفسد الملوك على الناس ضمائرهم وذممهم ونفوسهم بمتاع الحياة .

خرج أبو أيوب يلتمس واحداً من هؤلاء ، فوقع على رجل يدعى سلمة بن سعيد بن جابر ، فقال له : هل عندك شكر ؟ وهو يريد منه أنه سوف يجزى النعمة خدمة ، وأنه سوف يدفع ثمن مايعطى .

ولقد حرص الناس فى تلك الأيام على أن يقبلوا النعمة والعطاء لا يسألون عما سيدفعون ، وكانت النعمة عندهم شيئاً أغلى مما يدفعون ، وأكبر الظن أنهم كانوا يعلمون ماسوف يدفعون ، فما كانت النعم تشترى إلا بغدر أو شيء يفحش عن الغدر ، وكانت نفوسهم أسمح ماتكون بهذا الغدر أو مايفحش على الغدر ، ولكنها كانت تجده شيئاً مستساغاً ، وتجده أسلوب الحياة ، وتجده إرضاء لأولى الأمر ، وتجده آخر الأمر وسيلة لسلامتهم إن أرادوا الحياة .

لهذا كله قال سلمة : نعم . وارتقب من أبى أيوب ماسيعطى ، وارتقب من أبى أيوب ماسيطلب .

وماكان لأبى أيوب أن ينى فى عرض ماسيعطى ، وأن ينى فى عرض مايطلب ، وقد وجد أذُن الرجل واعية ، ونفسه راضية ، وقلبه متفتحاً .

وأخذ أبو أيوب يقول مايريد ، ولكن أبا أيوب كان على هذا ماكراً ، لم يسلك إلى غرضه مسلكاً صريحاً ، وماكان عليه إن سلكه ، فهو قد أمن أن الرجل طيع فى يده مستجيب له .

ولكن الرجل كان على هذا يحرص على ألا يشترى جهراً ويباع علانية ، بقية من خلق ، وإن شئت سميتها بقية من تظاهر بالخلق ، يريد هؤلاء المأجورون أن يظهروا بها .

من أجل هذا ترفع أبو أيوب فى أسلوبه ولم يتدله ، ومن أجل هذا ترفع سلمة بن سعيد فى إجابته ولم يتدن ، وجرى ما بين الاثنين على هذا النحو النبيل .

يعرض أبو أيوب على سلمة ولاية من الولايات غنية بخيراتها ، ويقبل سلمة قبول المرغوب فيه ، وهو يعرف لما اختير من بين عباد الله لهذه الولاية ، ويسأله أبو أيوب أن يجعل لأبى مسلم نصفها تكرماً من سلمة إن آلت إليه ، ويقبل هذا سلمة تكرماً منه ليجازى أبا أيوب على صنعه .

ويعود السائل مجيباً والمجيب سائلا ، فيسأل سلمة أبا أيوب . ولم أردت أن تخص أبا مسلم بهذا ؟ فيقول له أبو أيوب : لأن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ويريح نفسه . ويسأل سلمة : ومن لى بهذا ؟ فيجيب أبو أيوب : سوف أستأذن لك على المنصور لترفع إليه ما تريد .

وكأنى بالقارىء لما ينكشف له ما بين هذا السؤال وذاك الجواب ، وكأنى به لم يعرف مضمره .

والحديث الذى مر بين أبى أيوب وبين سلمة إلى تلك الغاية خير كله جميل كله ، ولكنه لم يكن إلا هذا التمهيد الذى يدخل به الشارى إلى نفس البائع ، والذى يحبه البائع لينزل عما يبيع غير مشين ولا معيب .

وعندما كان أبو أيوب قد انتهى من تمهيده ، واطمأن سلمة إلى أنه لم يشن ، بدأ أبو أيوب يقول : وعليك أن تلقى أبا مسلم فى الطريق وتكلمه أن يجعل هذا فيما يرفع من حوائجه إذا دخل على المنصور .

هنا يبدأ البيع والشراء ، فأبو أيوب يريد أن يطمئن أبا مسلم أن الطريق إلى رضا أبى جعفر عنه معبد ، وأبو أيوب يريد أن يحمل هذا رجل ممن لا يظن أبو مسلم بهم شرا ، وأبو أيوب يريد أن يحمل هذا رجل راغب فى الخير حريص على أن لا يفلت منه ، ثم هو بعد هذا غر ، يظن أن ثمن ما سيأخذ هو حِمْل أبى مسلم على أن يقبل .

فهو من أجل هذا سوف يقول عن إيمان ، وسوف يجهد عن هذا الإيمان ، وسوف يكون طعما سائغا مغريا ما نظن أبا مسلم ينثنى عنه ، أولا يلتفت إليه .

ولقد مهد أبو أيوب لسلمة ليلقى المنصور، فلقيه، وحمله المنصور سلامه وشوقه إلى أبى مسلم، فاستقامت تلك الأمنية فى نفس سلمة ولم يبق إلا أن يفعل ما عليه.

وخرج سلمة جادا فرحاً ليلقى أبا مسلم، ولقد لقى سلمة أبا مسلم بهذه النفس الجادة الفرحة، وكان أبو مسلم ذا نفس أظلمت باليأس، يفعل فيها أى بريق من أمل، فما إن لقيه سلمة وأخبره بما كان، حتى أشرقت نفسه وطابت، إشراقاً لم يقع على غيره فيعرف أهو عن نار أو نور، وطيبا لم يأنس بسواه فيعرف إلى أية الراحتين هو، ولقد كان قبل ذلك كئيباً حزيناً فأصبح مسروراً، ولم يزل مسروراً حتى قدم على المنصور.

- ٢٢ -

أرأيت كيف اشترى أبو أيوب؟ ثم أرأيت كيف باع سلمة؟ ثم أرأيت كيف يكون الملوك فى سلطانهم ضعفاء أمام من لا سلطان لهم، حين يكونون غادرين لا منصفين، وجائرين لا عادلين، ومع الباطل لا مع الحق، يهولهم الشيء الصغير، ويوجسون شراً من الحقير، ويمعنون فى التدبير وكأنهم يدبرون لأمر خطير؟

ولقد مر أبو أيوب بدوره فأعده أحسن إعداد ومثّله خير تمثيل، وبقى للمنصور دوره فلننظر ما هو فاعل.

كان أبو أيوب رعية وكان المنصور خليفة، وكان أبو أيوب يعطى ويأخذ، وكان المنصور يعطى ولا يأخذ، وكان أبو أيوب يطمع فى الخير ويخاف الشر، وكان المنصور لا يطمع ولكن يخاف، وكان أبو أيوب يعرف الغدر ويتقن أساليبه، وكان المنصور يكره الغدر أكثر مما يحبه ويضطرب بين أساليبه.

فما إن وقع له أبو مسلم حتى ذكر أنه خليفة فاعتز، وذكر أنه محنق

فعليه أن يأخذ لنفسه ، وذكر أنه آمن فلم يخف ، وكان الغدر له من كراهيته نصيب ، ومن حبه نصيب ، فجعل هذا الذى من حبه يطغى على ذاك الذى من كراهيته ، وجلس لأبى مسلم يحاكمه ليفحمه وليدمغه بالحجة ، حتى إذا ماأخذه .. أخذه بحق ولم يكن غادراً .

ولقد كان المنصور رفيقاً بخصمه أول الأمر لم يشأ أن يفزعه ، أو أن يأخذه على غرة ، لأنه أحب أن يجلس إليه آمنا فيعاتبه هادئاً ، ويناقشه مطمئناً فيحاسبه ، يجد فى هذا كله راحة وشفاء ، فما قتل أبى مسلم يشفى نفس المنصور ، ولكن الذى يشفيها .. هو أن يفرغ المنصور ما انطوت عليه نفسه من إحن وأحقاد لم يسعفه الزمن يوماً ليواجه بها أبا مسلم ويعلنه بها .

من أجل هذا مهد المنصور لأبى مسلم ليلقاه ، ويجلس إليه آمناً هادئاً مطمئنا ، فما إن دخل عليه وقبّل يديه .. حتى أمره أن ينصرف ، ويروّح نفسه لثلاثة ، ويدخل الحمام .

وانصرف أبو مسلم يفعل ما أمره به المنصور ، وما نظنه أنسى بهذا خوفه كله ، فلقد جرب مثلها من قبل .

وحين خرج أبو مسلم ليتهيأ لشىء يظنه أمناً ، خلا المنصور لنفسه يعدها لدوره الذى سيقوم به .

فدعى إليه أربعة من الحرس وألقى إليهم شيئاً .

ثم أرسل إلى أبى مسلم يستدعيه .

ودخل المسكين على المنصور ، وتهيأ له المنصور يفرغ ما فى نفسه كله لتهدأ ، فما كان أظمأه لهذا المجلس .

أمور كانت من أبى مسلم لم يرضها المنصور ، وأمور كانت من أبى

مسلم للسفاح سكت عنها السفاح ولم تهدأ بها نفس المنصور ، وأمور كانت من أبى مسلم إلى المنصور ، انطوت عليها نفس المنصور تضطرب بها وتغلى .

فلقد كان أبو مسلم أصاب مرة مع عبد الله بن على نصلين احتفظ بهما لنفسه ، وتعلقت بهما نفس المنصور ، وحين جلس أبو مسلم بين يدى المنصور ، كان هذا أول شىء سأله عنه .

يرى ذلك المؤرخون وأرى معهم شيئاً آخر ، فلقد كان المنصور يعلم أن أبا مسلم يحتفظ بهذين بين طيات ملابسه ، ويعلم أن هذين هما سلاحه الذى يدفع به عن نفسه حين يؤخذ أو حين يأخذ ، ولقد أحب المنصور ألا يترك له شيئا يدفع به أو شيئا يأخذ به ، من أجل هذا لم يبدأ حديثه إلا بهما ، ومن أجل هذا لم يأخذ فى الحديث قبل أن يجرده منهما ، فقال له المنصور : أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عبد الله بن على ؟ فقال أبو مسلم : هذا أحدهما ، فقال المنصور : أرنيه ، فأنضاه أبو مسلم وناوله المنصور ، يريد أن يبالغ فى الأمن ، فأخذه المنصور ووضعه تحت فراشه وقد اطمأن ، ثم أقبل على أبى مسلم يعاتبه .

وكان بين السفاح وبين أبى مسلم أمر مضى ، سكت عنه السفاح ومات به ، لكن المنصور لم ينسه ، وعزاه عند ما وقع إلى تعالِى أبى مسلم وطمعه فى الاستئثار بالأمر دونه ، وكان هذا الأمر أبعد من أن يكون تعالياً من أبى مسلم ، وأبعد من أن يدخل فى هذا الطمع الذى خاله أبو جعفر .

ولكن الملك حين يكون اغتصاباً لا تأمن أن تدخل عليه هذه الظنون ، ولا تأمن أن تستحيل هذه الظنون حقائق ، ولا تأمن أن تصبح هذه الحقائق عقائد ، يستباح من أجلها الدم ، وتستحل من أجلها النفوس .

فلقد كتب يوماً أبو مسلم إلى السفاح برأيه فى الموات : هل يحل

أخذه ؟ وكان مسلماً من المسلمين يرى أن يشير ، إن كان فيما يشير به نصح للمسلمين ، وكان مسلماً من المسلمين يرى أن تبصير الناس بدينهم واجب ، وردهم عن تعدى حدوده واجب .

من أجل ذلك كتب أبو مسلم يشير عليه ألا يأخذ هذا الموات ، إذ أن أخذه لا يحل .

وقال هذا أبو مسلم للسفاح مخلصاً فى بعض الشيء ، مغرضاً فى البعض الآخر ، فلقد كان أبو مسلم يحب أن يصد السفاح عن تملك ينضاف إلى ملكه وسلطانه ، ولقد فعل هذا باسم الدين حين وجد أن الدين يعينه ويسانده .

فهم هذا عنه السفاح فرد عليه بما يبطل حجته ، وما كان على حق ، وفهم عنه أبو مسلم ما يريد أن يصل إليه ولم يكن فى يده ما يمنع به السفاح عن أن يفعل فسكت .

وانتهى السفاح إلى هذه وفى نفسه شيء من أبى مسلم ، ولكنه لم يكن يملك عندها أن يمضى فى غيرها .

ولكنها بقيت فى نفس أبى جعفر ، وها هو ذا قد ملك أن يفعل .

وما أثارها أبو جعفر ليكشف لأبى مسلم عن ذلك الجانب الدنيوى فيصغر هو ويكبر أبو مسلم ، وإنما أثارها ليجهل أبا مسلم فى دينه وليعلمه أنهم أدرى بالدين منه ، فيكبر هو ويصغر أبو مسلم . ثم لينتهى به إلى أنه كان يطمع فى تسفيه رأيهم وتجهيلهم ، لتكون له الكلمة دونهم ، وبهذا تكون له الحجة عليه ، وكلاهما فاهم عن صاحبه ما يراد ، ولكن ليس يملك أحدهما أن يديره على وجهه الصحيح ، فأبو مسلم كان صاحب محاولة يكشف لها وجهاً ويخفى وجها ، والسفاح ومن بعده أبو جعفر كانا يعلمان هذا الوجه الخفى ، فحقدا به على أبى مسلم فبادلاه الرأى فى هذا

الوجه المكشوف ، وكان أمراً قد مر - كما قلت لك - ولكن فيه الدليل على انحراف أبى مسلم ، فلم يشأ أبو جعفر أن ينساه .

من أجل هذا قال أبو جعفر لأبى مسلم : أخبرنى عن كتابك إلى السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟

وما هى بكبيرة على نفس المسلم أن يستمع إلى أخيه المسلم يقول له رأيه ، فإن كان حقا أخذ به ، وإن كان غير حق ردّه عليه بالمعروف والقول الحسن .

ولكنها كانت كبيرة على نفس السفاح ، كما كانت كبيرة على نفس أبى جعفر ، لأن وراءها معنى آخر ، هو ذلك الذى أشرت إليه .

ويجيب أبو مسلم أبا جعفر إجابة لا غبار عليها ، فيها مقنع وفيها حجة ، ولكنها إن برأته من الأولى لا تبرئه من الثانية ، وما أراد أبو جعفر الأولى ولكنه أراد الثانية : واستمع أبو جعفر إلى أبى مسلم يجيب : ظننت أن أخذه لا يحل فلما أتانى كتابه علمت أنه وأهل بيته معدن العلم .

هكذا أجاب أبو مسلم ، وهكذا لم يعط أبو مسلم حجة عليه لأبى جعفر فى هذا ، إن كان أبو جعفر يريد هذا .

وسكت أبو جعفر عن هذه ولم يشأ أن يسترسل ، إذ كان همه هو أن يُذكّر أبا مسلم بما كان له وراء هذه ، وحسبه تلك التذكرة .

ثم انتقل أبو جعفر بأبى مسلم يذكره بما كان منه من مقدمه عليه فى طريق مكة ، فى ذلك الحج الذى مر بك .

وما كان أبو جعفر يريد من أبى مسلم جواباً يزيل ما فى نفسه من غضب وريبة ، ولكنه كان يقصد لا شك فى أن يذكره بماضيه منه .

ولكن أبا مسلم ظن الأمر عتاباً فأخذ يدلى بعذره ، وأخذ يقول لأبى جعفر ، كرهت اجتماعنا على الماء ، فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق .

وسكت أبو مسلم عند هذا ، وهو يظن أنه قال شيئاً ، وسكت أبو جعفر عن هذا ليعرف أبا مسلم أنه لم يقل شيئاً .

وأخذ أبو جعفر فى غيرها ، فقال لأبى مسلم : فقولك لمن أشار عليك بالانصراف إلى طريق مكة ، حين أتاك موت أبى العباس ، فمضيت ، فلا أنت أقمت حتى ألحقك ، ولا أنت رجعت إلى ؟

ويجيب أبو مسلم : منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس ، وقلت : نقدم الكوفة وليس عليك من خلاف .

وكما سكت أبو جعفر فيما سبق سكت فى هذه ، ثم أخذ فى غيرها ، فقال لأبى مسلم : فجارية عبدالله أردت أن تتخذها ؟

ويجيب أبو مسلم : لا ، ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ، ووكلت بها من يحفظها .

وسكت أبو جعفر وأخذ فى غيرها ، وقال : فمراغمتك وخروجك إلى خراسان .

ويجيب أبو مسلم فيقول : خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقلت : آتى خراسان فأكتب إليك بعذرى فأذهب بما فى نفسك .

وسكت أبو جعفر عن هذه وأخذ فى غيرها ، فقال : فالمال الذى جمعته بخراسان ؟ ويجيب أبو مسلم فيقول : أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحاً .

وسكت أبو جعفر عن هذه وأخذ فى غيرها : ألست الكاتب إلى تبدأ بنفسك وتخطب عمتى آمنة بنت على ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله بن عباس ، فلقد ارتقيت – لا أم لك – مرتقى صعبا .

وهكذا أراد أبو جعفر أن يفصح عما فى نفسه ، وإن كان قد أفصح عنها بصمته ، فعقب به بتلك الكلمة الحاكمة فى أمر أبى مسلم ، وما ترك له أن يجيب ، لأنه لم يكن يريد استصلاح ما بينه وما بين أبى مسلم ، وما ألقى عليه ما ألقى من أسئلة ليدلى أبو مسلم بعذره ، ولكنه كان قاصداً أن يذكره بسيئاته ليشفى نفسه ، وليعرف أبا مسلم أنه لم ينس شيئاً .

من أجل هذا لم يترك أبا مسلم ليجيب كما أجاب أولاً ، بل مضى يفرغ ما عنده من أسئلة ليفرغ ما فى نفسه من غل ، فمضى يقول : وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا ، وهو أحد فتياننا ، قبل أن ندخلك فى شىء من هذا الأمر ؟

وكأنى بأبى جعفر قد أراد أن يستريح شيئاً ، وكأنى بأبى مسلم قد ظن أن أبا جعفر يريد أن يستمع إليه ، أو كأنى بأبى مسلم قد أراد أن يقول شيئاً ، فقال : أراد الخلاف وعصانى فقتلته .

- ٢٣ -

على هذا النحو جرى الحديث بين أبى جعفر وبين أبى مسلم ، يريد أولهما شيئاً ويظن الثانى منه شيئاً ، وكأنى بأبى مسلم قد فطن آخر الأمر إلى ما يريد أبو جعفر بحديثه ، فملكته ثورة وملكته عزة ، واندفع يقول فى يأس : لا يقال هذا بعد بلائى وما كان منى .

قال هذا أبو مسلم بعد ما عيل صبره ، وبعد ما تبين له أن أبا جعفر لا يريد غير أن يؤلمه ويشفى نفسه ، ولقد عجل أبو مسلم بنفسه ، واستعجل أبا جعفر فى أمره ، ووجد أبو جعفر الفرصة مواتية إلى أن يقضى فى أمر خصمه ويحمل عليه ، فقال له : يابن الخبيثة ، والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت ، إنما عملت فى دولتنا وبريحنا ، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا .

تلك الكلمة التى ملأت نفس أبى جعفر من قبل ، وصرح بها للسفاح ، فيما مر بك ، وها هو ذا يصرح بها لأبى مسلم ، وما كان أحرصه على أن يقولها له .

وعرف أبو مسلم ما وراء هذه الكلمة من أمر مُبَيّت ، وعرف أنه مقتول فاستخزى ، ولان وضعف وهان ، وأخذ بيد أبى جعفر يقبلها ويعتذر إليه .

ولكن ما بال أبى مسلم لا يحب أن يموت كريماً ، وما باله يخشى الموت وقد نشأ على الموت ، وما باله لا يكون القائد الشجاع على فراش الموت كما عهدنا القواد الشجعان على فراش الموت . وكأنه قد عز عليه أن يقضى بيد أبى جعفر ، وكان يحب أن يقضى أبو جعفر بيده هو ، وعز عليه أن يفقد الحيلة وهو الذى كان يحتال ، وعز عليه أن يضيق عليه وهو الذى كان يضيق على الناس ، وعز عليه أن يخرج من هذا الملك الذى بناه خروج من لا يد له فيه .

ولكنه كان على كل حال ضعيفا ذليلا لاتعطى آخرته ما أعطته سابقته ، ولقد كان أبو مسلم يعلم - وما نظنه كان يجهل - أن أبا جعفر لن يلين له ، ولن يغنيه عنده تذلله ، فما باله لم يخرج من الدنيا كبيراً كما دخلها كبيراً .

وما رأينا أبا جعفر لان لخضوع أبى مسلم واستكانته ، بل رأيناه أمعن فى كبريائه وغطرسته ، فزاد المهموم الضعيف الذليل هَمّا ، وزاده ضعفاً ، وزاده ذلّة ، فقال له : ما رأيت كاليوم والله ، فما زدتنى إلا غضباً .

هنا صحا أبو مسلم إلى نفسه ، أو صحت فيه نفسه . وكنا نحب أن يصحو أبو مسلم إلى نفسه ، أو تصحو فيه نفسه قبل هذا ، ولكن تلك الصحوة لم تلم بأبى مسلم إلا متأخرة ، فإذا هو يقول للمنصور : دع هذا ، فقد أصبحت ما أخاف إلا الله تعالى .

عندها غضب المنصور غضبته الصريحة ، وكانت من قبل غضبة مكتومة ، فشتم وسب وصفق بيده على الأخرى ، فخرج الحرس على أبى مسلم من وراء الستر ، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، أعنى حمائل سيف أبى مسلم .

وحين رأى أبو مسلم الموت هلع ثانية ، ولان ثانية ، وضعف ثانية ، وأنسى أنه كان شجاعاً منذ حين قريب ، فالتفت إلى أبى جعفر يقول له : استبقنى لعدوك يا أمير المؤمنين .

كلمة جرت على لسان أبى مسلم لا تعطى لصاحبها إلا الخزى ولا تضعه إلا فى سلك المهينين .

ولقد شاء المنصور أن تكون آخر كلمة يخرج بها أبو مسلم من دنياه فى مسمعيه هى تلك الكلمة التى رد بها أبو جعفر عليه : لا أبقانى الله إذن ، وهل لى أعدى منك !

رددها أبو جعفر مرة ومرة لتملأ سمع أبى مسلم ، وليخرج من الدنيا منكوباً فى نفسه ومنكوباً فى كرامته ومنكوباً فى جاهه ، وليمض وكل جارحة فيه تحمل هماً .

وكان كلما اعتورت السيوف أبا مسلم صاح : العفو ! العفو ! وأبو جعفر يصيح به ساخراً متهمكا : يا ابن اللخناء ، العفو والسيوف قد اعتورنك !

وهكذا مضى أبو مسلم ذليلا على فراش الموت ، وقضى عليه أبو جعفر مشتفياً ، قد بلغ نفسه ما أرادت ، منتقماً لا يرده عن انتقامه راد ، مغتبطاً ينشد على جثة أبى مسلم .

زعمتَ أن الـــدَّين لا يُقتضى ... فــاستـوف بــالكيــل آبــا مجرم
سُقيت كـــأســاً كنت تَسقى بهـــا ... أمرَّ فى الحلـــــــق من العَلقم

وما صدق أبو جعفر نفسه حين أخذ أبا مسلم بجرائم لم ترتكب إلا باسمهم ، ولم تفعل إلا من أجلهم ، ولو أنه أراد أن يصدق نفسه لقال : إنه أخذه بجرائره معه لا بجرائره مع الناس .

ولكنه عدل الله وقصاصه يقع بالمسىء ، لا يعنينا كيف وقع وعلى أى صورة كان ، فيسلط الله الظالمين بعضهم على بعض ليبوءوا جميعاً بالإثم .

ولقد قَتل أبو مسلم من عباد الله فأسرف . يروى الرواة أنه قتل فى أيامه نحواً من ستمائة ألف صبرا . كان هذا كله فى إقامة دولة وفى تمكين نفر من السلطان ، وما قتله الناس ولكن قتله من أراد أن يفرضهم هو على الناس .

وما لقى المنصور عناء كثيراً بعد قتل أبى مسلم ، ولقد صرف الناس عن التفكير فى مقتله بأيسر حيلة .

كان صحب أبى مسلم ، وهم نفر كانوا فى انتظاره بالباب ، فخرج إليهم رجل من رجال المنصور يخبرهم أن الأمير - يعنى أبا مسلم - يريد القائلة عند أمير المؤمنين ، ورأوا المتاع ينقل ، فظنوه صادقاً وانصرفوا .

وكان لأبى مسلم صحب آخرون ، يريدون أن يكسبوا من مقتل أبى مسلم ، فأعطاهم المنصور جوائزهم فسكتوا ،

أما هذا الذى استخلفه أبو مسلم على ثقله - أعنى أبا نصر مالك بن الهيثم - فلم يكلف هو الآخر المنصور عسيراً ، فكان له معه حديث طريف سأحدثك به بعد قليل .

- ٢٤ -

وقبل أن يفرض أبو مسلم العباسيين على الناس فرض هو سلطانه على الناس ، ملأهم منه خشية ، وملأهم منه رعباً ، وملأهم منه خوفاً ، لا يعرف

حكومة يخضع هو لها مع الناس ، ولا يعرف ثمناً لأرواح الناس ، ولا يعرف وزناً لحقوق الناس ، فاجتمع الناس حوله يظنهم معه بقلوبهم وعقولهم ، وإذا هم معه بخوفهم وفزعهم ، ولما قتل أبو مسلم واطمأن الناس إلى أنه قتل .. ذهب عن الناس خوفهم وفزعهم ، واستقامت لهم قلوبهم وعقولهم .

دخل عيسى بن موسى على المنصور بعد أن فرغ المنصور من قتل أبى مسلم ، وكان عيسى من كان .. صلة بالمنصور وجاهاً . وكان يومها يتغذى عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أين أبو مسلم ؟ فقال المنصور : قد كان ها هنا .

فقال عيسى : قد عرفت نصيحته وطاعته ورأى الإمام إبراهيم فيه .

وما قال عيسى ما قال إلا وهو يظن أن أبا مسلم لا يزال حياً ، ولربما ظن أنه غير بعيد منهما يسمع .

فلقد كان لعيسى فى أبى مسلم رأى غير هذا سارّ به المنصور وجاهره به ، حين كان أبو مسلم بعيداً عنهما ، ولقد عرف المنصور لعيسى رأيه فى أبى مسلم ، سمعه منه سرا وجهراً .

وما كان يسمع المنصور من عيسى ما سمع حتى علم ما عند الرجل من فزع ، على جلالة قدره وقربه منه ، وحتى علم ما عند الرجل من خوف وهو فى ظله ، يخاف أبا مسلم ولا يخافه ، ويحذر أبا مسلم ولا يحذره ، عندها أراد المنصور أن يرد على الرجل نفسه ولكن فى عنف ، وعندها أراد المنصور أن يرد على الرجل عقله ولكن فى تأنيب ، وعندها أراد المنصور أن يرد على الرجل خلقه ولكن فى تهكم ، فقال له : يا أحمق ، والله ما أعلم فى الأرض عدوا أعدى لك منه ، ها هو ذا فى البساط . عندها استخزى عيسى من نفسه ، ولكنه على هذا ملك أن يحمد الله ويشكره على ذهاب أبى مسلم مقتولا ، وذهاب رهبته وخشيته وفزعه وخوفه من قلبه .

وأراد المنصور بعد هذا أن يخبَر ما عند الناس ، فدعا إليه أبا إسحاق ، وكان قد بلغ المنصور أن أبا إسحاق هذا أشار على أبى مسلم أن يأتى خراسان ، فقال له : أنت المانع عدو الله على ما أجمع عليه ؟ فكف أبو إسحاق عن الكلام وجعل يلتفت يميناً وشمالا خوفاً من أبى مسلم .

وأحس المنصور بالخوف يملأ قلب الرجل فقال له : تكلم بما أردت فقد قتل الله الفاسق ، وأمر بإخراجه . وما إن رآه أبو إسحاق حتى خر ساجداً لله فأطال ، ورفع رأسه فقال : الحمد لله أمننى بك اليوم ، والله ما أمنته يوماً واحداً منذ صحبته ، وما جئته يوماً قط إلا وقد أوصيت وتكفنت . ثم رفع ثيابه الظاهرة فإذاتحتها ثياب أكفان جدد وقد تحنط .

وكان فى هذا عذر لأبى إسحاق ، استقدمه المنصور ليخبر ما عنده ثم ليقتله ، فإذا هو يرى ضعفه فيرحمه ، والتفت إليه يقول : استقبل طاعة خليفتك ، وأحمد الله الذى أراحك من هذا الفاسق .

عرف المنصور بهذين ما عند الخائفين ، وأراد أن يعرف ما عند غيرهم ممن يملكون شيئاً من شجاعة ، وممن ملكوا شيئاً من خلاف قديم على أبى مسلم ، ليطمئن على ما فعل ، فما أحوج كل ذى صنع إلى قائل يقول له : أصبت ، لتهدأ نفسه ويطمئن قلبه .

وهكذا كان أبو جعفر متعطشاً إلى هذه الكلمة متلهفاً ليسكن ويطمئن .

من أجل هذا دعا إليه جعفر بن حنظلة يسأله رأيه ، فقال له : ما تقول فى أمر أبى مسلم ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل .

فقال له المنصور ، وقد استراح : وفقك الله .

فلما نظر جعفر بن حنظلة إلى أبى مسلم مقتولا قال : يا أمير المؤمنين ، عُدَّ من هذا اليوم خلافتك .

وكأن جعفر بن حنظلة كان يعرف ما عند المنصور ، وكأنه كان يستملى عن رأيه وعما فى نفسه ، فلقد كان هذا حقا ما يشغل المنصور ، وكان هذا حقا ما يحس به المنصور .

وهكذا مرّ مقتل أبى مسلم يسيراً سهلا ، وفرغ المنصور ممن حوله وأخذ يمد بصره إلى غيرهم .

فذكر أبا نصر مالك بن الهيثم ، هذا الذى كان أبو مسلم استخلفه وترك عنده ثقله ومتاعه ، لا يعنيه أبو نصر ، ولكن يعنيه ما عنده حتى يحوزه دونه ، وحتى لا يكون له به قوة ، فكتب إليه كتاباً على لسان أبى مسلم يأمره بحمل ثقله وما خلف عنده وأن يقدم .

وختم المنصور الكتاب بخاتم أبى مسلم ، لا يعلم ماأوصى به أبو مسلم أبا نصر ، حين ودّعه الوداع الأخير .

وما إن رأى أبو نصر الخاتم تاما حتى علم أن أبا مسلم لم يكتب ، وحتى علم أن أبا مسلم قد قُتل ، فقال : فعلتموها ! وانحدر إلى همذان ، وهو يريد خراسان .

وكما لم يستعص أبو مسلم على المنصور لم يستعص أبو نصر ، وكما احتال المنصور فى أمر أبى مسلم احتال فى أمر أبى نصر ، وهكذا كان العصر عصر حيلة ، وكان الحكم يقوم نصفه على الخداع ونصفه على القوة ، يسبق الخداع القوة ، وقد تسبق القوة الخداع ، وكان أمر أبى نصر كأمر أبى مسلم تسبق الحيلة فيه القوة .

فلقد كتب المنصور لأبى نصر يعهد إليه بولاية شهر زور ، ثم كتب فى الوقت نفسه إلى واليه على همذان - وهو زهير بن التركى - يقول له : إن مر بك أبو نصر فاحبسه .

وكانت نادرة طريفة ، فقد سبق كتاب زهير إليه وأبو نصر عنده بهمذان ، وما كان لزهير أن يبطىء فى تنفيذ أمر المنصور ، فما إن قرأ الكتاب حتى قال لأبى نصر : قد صنعت لك طعاماً فلو أكرمتنى بدخول منزلى ؟

وما كان لأبى نصر أن يرد دعوة صديق لم يسبق منه إليه غدر ، ولم يك فى شك منه ، فلبى دعوته وحضر عنده ، فاحتجزه زهير وحبسه .

– ٢٥ –

تم قدم صاحب العهد على أبى نصر بولايته على شهر زور ، ورأى زهير الكتاب كما رآه أبو نصر ، فما كان من زهير إلا أن خلّى سبيل أبى نصر فخرج .

وكان المنصور قد كتب كتاباً ثانياً لزهير بعد كتابه الأول يأمره فيه بقتل أبى نصر ، ووصل هذا الكتاب بعد خروج أبى نصر بيوم واحد ، فقال زهير للرسول : جاءنى كتاب بعهده فخليت سبيله .

وهكذا نجا أبو نصر من موت محقق ، لأن الحيلة لم تكن قد أحكمت ، ولكن أبا نصر هذا الذى فر ولم يع ، وعى حين فر ، فرأى أنه مضيق عليه ، ورأى أنه إن أمعن فى الفرار زاد من سخط المنصور عليه ولم يغن عن نفسه شيئاً .

من أجل ذلك عرج أبو نصر على المنصور يريد أن يعالج الأمر قبل استفحاله ، ورأى إن هو أدلى بعذر نجا ، لاسيما والخلاف بينه وبين المنصور ليس قديماً قدم الخلاف بين المنصور وأبى مسلم .

وتلقى المنصور أبا نصر غاضباً لا شك ، فقال له : أشرت على أبى مسلم بالمضى إلى خراسان .

وكان أبو نصر صريحاً جريئاً ، أراد أن يقول الحق فينجو به أو يهلك ، عزيزاً على الحالين ، فقال للمنصور ، نعم ، كانت له عندى أياد فنصحت له ، وإن اصطفانى أمير المؤمنين نصحت له وشكرته .

وهذا صنف من الناس لا يؤمن شره ، يُؤجر فيعمل على خير وجه ، وهو يظن أن هذا إخلاص ، يقبله المستأجرون على علاّته ، ليفيْدوا على يديه شيئاً وليفوتوا على خصومهم الإفادة منه ، ولكنهم يعيشون معه على حذر ، ولكن يكلفهم هذا كثيراً ، لأنه ليس من ذوى الرأى وإنما من ذوى الأجر ، والفرق بين الاثنين أن أولهما لا يرضى إلا إذا حققت له رأيه ، وثانيهما ترضيه إن حققت له أجره ، والأجر تعطيه غير مضار ، والرأى هو ما تعيش له وتعطى الأجر من أجله .

من أجل هذا .. عفا المنصور عن أبى نصر ، ومن أجل هذا الأجر .. عاش أبو نصر على باب المنصور ، ومن أجل هذا .. كان المنصور منه حذراً يريد أن يعرف ما عنده .

ولكن أبا نصر لم يجد شارياً يغلى فى الأجر ، فكفى المنصور هذا الحذر ، وكان عاملا بأجره ، ولا أقول مخلصاً .

فلقد خرج الراوندية على المنصور عام أربعين ومائة ، والراوندية من أهل خراسان ، كانوا على رأى أبى مسلم صاحب الدعوة ، ودخلوا عليه مدينته وأحاطوا به ، وكادوا يقتلونه ، وكان هذا يوما ينفع أبا نصر لو كان صاحب رأى ، ولكنه كان صاحب أجر ، وليس بين الراوندية من يدفع له ما يدفعه المنصور ، من أجل ذلك وقف على باب المنصور وهو يقول : أنا اليوم بواب لا يدخل أحد وأنا حى .

وما غابت هذه عن المنصور فنسى حذره ، وعلم أن المأجور لا رأى له ، وأنه قد وفّى له .

ولقد تلقى المنصور بعد هذا اليوم مقاليد الحكم مطمئناً ، لم يسلم من خارجين ومناوئين ، ولكنهم كانوا قلة وكانوا دون أبى مسلم شهرة وحيلة وقوة ، من أجل ذلك لم يجهد المنصور بالخلاص منهم كثيراً ، وإنما كان أمرهم عليه يسيراً ، واستقامت الأحوال للمنصور ليحكم .

وكان المنصور رجلا آخر غير السفاح ، أو قل : إن السفاح كان رجلا خلق فى الفتنة ، واستقبل الفتنة ، وعاش بين الفتنة ، فلم يكن بد من أن يكون قاسياً ، وأن يكون غادراً ، فما تعرف الفتن غير هذه الأخلاق وما تكتب الغلبة للمنتصرين فى الفتن إلا بهذه الأخلاق .

من أجل هذا عنف السفاح وقسا وغدر ، وكان المنصور فى إثره ، مضى السفاح وخلف له ذيولا من الفتنة ، فكان لا بد للمنصور من أن يكون عنيفاً قاسياً غادراً هو الآخر .

ولكن هذه الذيول سرعأن ما انقطعت ، وسرعان ما عادت الحياة أمناً .

من أجل هذا عنف المنصور وقسا وغدر صدر حياته ، ثم عاد رحيما شفوقاً أميناً سائر حياته .

ولكن المنصور كان ذا طبع ، وكان السفاح ذا طبع آخر ، وما نظنك غاب عنك موقف المنصور بين ابن هبيرة والسفاح ، حين حمل أمانه ، وغدر السفاح بأمانه ، وكادت تكون بين السفاح والمنصور خصومة ، وما نظنك غاب عنك سعيه لتأمين بعض أنصار ابن هبيرة ، وما كان من السفاح معه ، فالمنصور لا شك كانت فيه رقة ، وكانت فيه استجابة للوفاء ، وما حمل غيرهما إلا مع تلك الضرورات التى تبيح المحظورات ، كما يقولون .

– ٣٦ –

وما سلم المنصور من أهله وما سلم من بقية للهاشميين ، فلقد شق عليه

عصا الطاعة سليمان بن على ، وأخوه عبد الله بن على ، وكان خطبهما يسيراً .

فلقد زعم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أن المنصور بايعه ليلة تشاور بنو هاشم بمكة ، حين اضطرب أمر مروان بن محمد .

فلما ولى المنصور لم يكن همه إلا أمر محمد والمسألة عنه ، فذلك شيء ينقض عليه الملك من أساسه .

ولقد جد المنصور فى طلب محمد ، نشر فى المدن عيونه ، ونشر فى المدن رجاله ، كلهم يجدّ فى إثر محمد ، ومحمد يسعى سعيه خفية ، والمنصور يسعى سعيه علانية ، كل يريد أن ينال من أخيه ، يشتط المنصور مع قرابة محمد حيناً ويلين حيناً ، ولكنه على كل حال قتل منهم نفراً فأفظع فى القتل ، وحبس منهم نفراً فأغلظ فى الحبس ، وهكذا ارتد المنصور إلى الفتنة التى استقبلت السفاح ، فكاد أن يبلغ فيها مبلغ السفاح .

وفى عام خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة ، ظهر فى وقته الذى واعد أخاه إبراهيم على الخروج معه ، والتف حوله نفر من أهله بالمدينة ونفر من شيعته ، وقصدوا السجن فأخرجوا من فيه ، وأتوا دار الإمارة فغلبوا عليها ، ثم أتى محمد المسجد فصعد المنبر فخطب الناس خطبة أحب لك أن تعيها ، إذ فيها بيان عما يريده محمد بالمنصور والبيت العباسى ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد ، فإنه قد كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها - يعنى مدينته - معاندة لله فى ملكه وتصغيراً للكعبة ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار والمؤمنين ،

اللهم إنهم أحلوا حرامك ، وحرموا حلالك ، وأمنوا من أخفت ، وأخافوا من أمنت ، اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .

أيها الناس ، إنى والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ، ولكنى اخترتكم لنفسى .

والله ما جئت هذا وفى الأرض مصر يعبد الله فيه ، إلا وقد أخذ لى فيه البيعة .

وهكذا ظهر محمد هذا الظهور ، وهكذا أعلن محمد دعوته ، وهكذا بدا الخلاف القديم الذى كان بين الأمويين والهاشميين يأخذ شكلا جديداً ، فأصبح بين الهاشميين وبنى عمومتهم من العباسيين ، وهكذا انفتح على الناس باب جديد من أبواب الجهاد ، سوف يدخلونه باسم الدين مرة ثانية ، ويقتلون ويشردون .

واستولى محمد على المدينة وأصبحت له ، فولى عليها من اختار ، وعلى قضائها من اختار ، وعلى شرطتها من اختار ، وعلى بيت السلاح من اختار ، وعلى ديوان العطاء من اختار .

وكان أهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس ، وقالوا له : إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر ، فقال لهم : إنما بايعتم مكرَهين وليس على مكرَه يمين .

فأسرع الناس إلى محمد يبايعونه ويخلعون بيعة أبى جعفر ، لم يتخلف منهم إلا قليل .

وكان فى الهاشميين رجل له بقية من عقل ، يزن الأمور بميزانها ، لا يغويه حقه على المطالبة بمحال معه سفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، وتحميل الناس مالا يطيقون .

ولكنها كانت ثورة لا يستجاب فيها لمثل هذا الهاشمى إسماعيل بن عبد

الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان شيخاً كبيراً ، دعاه محمد إلى بيعته فقال : يابن أخى ، أنت والله مقتول فكيف أبايعك !

وكان إسماعيل يعرف ما عند محمد وما عند المنصور ، لا يعنيه أن محمدا على حق ولكن يعنيه أن المنصور على قوة ، ولا يعنيه أن يتخلف عن بيعة ابن أخيه ، ولكن يعنيه ما سينصبُّ على ابن أخيه والناس ، من أجل ذلك لم يعطه بيعته ، ومن أجل ذلك كشف له عما سيناله ، وهو يعنى ما سينال الناس معه .

وكانت لكلمة إسماعيل هذه فعلها فى نفر من الناس ، فانصرفوا عن محمد ، ولكنهم كانوا قلة ولقد ثار الناس مع محمد حبًّا فى الهاشميين ، ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر يصدرون عن هذا الضيق القار فى نفوسهم ، فلقد شهدوا للعباسيين عنفاً وعسفاً ، وشهدوا للعباسيين ظلماً وجوراً ، وما خلق الناس للعنف والعسف والظلم والجور ، وإنما خلقوا يبغون الأمن والطمأنينة والعدل والرفق ، هكذا علمهم الإسلام ، وهكذا أراد لهم الإسلام هذه الحياة .

فما إن وجد الناس محمداً يثور ، حتى ثاروا يؤيدونه لهاشميته فى ظاهر الأمر ، ويؤيدونه لتلك المعانى التى ينشدونها فى باطن الأمر .

ولكن الهاشميين غير إسماعيل كانوا يبغون ملكاً ، وكانوا يبغون ثأراً ، وكانوا يبغون انتصاراً ، فكانت ثورتهم غير ثورة الناس ، من أجل هذا كان إسماعيل بما قال غريباً عليهم ، فتسعى إليه حمّادة بنت معاوية منكرة عليه ماقال ، فتقول له : ياعم ، إن إخوتى قد أسرعوا إلى ابن خالهم ، وإنك إن قلت هذه المقالة ثبط الناس عنه ، فيقتل ابن خالى وإخوتى .

– ٢٧ –

ولكن إسماعيل كان ذا رأى ، وليس ذا غرض ، فيأبى إلا ماقال أولا ، فتعدو عليه حمادة فتقتله .

وطير خبر ظهور محمد بالمدينة وماكان منه إلى المنصور ، فأرسل المنصور إلى عمه عبد الله بن على وهو فى الحبس ، وكان ذا رأى ، يستشيره . فأبى عبد الله أن يشيره ، وقال : إن المحبوس محبوس الرأى ، فأخرجنى حتى يخرج رأيى .

فانظر إلى ماكان من المنصور لتعلم أن الأمر كان ملكاً يحرص عليه المنصور لنفسه ، ويحرص عليه المنصور لأهل بيته ، فلقد قال المنصور لعمه : لو جاءنى هذا الرجل حتى يضرب بابى ماأخرجتك .

ثم قال : وأنا خير لك منه . ثم قال : وهو ملك أهل بيتّك .

وماسمع عبدالله هذه الأخيرة حتى لان ونسى كل شيء ، فإذا هو يشير على المنصور ، وإذا المنصور يسمع له ، وإذا المنصور يمضى ماأشار به عليه عمه .

ولقد أشار عبد الله على المنصور أن يجثم على أكباد أهل الكوفة ، وهم شيعة أهل هذا البيت وأنصاره ، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه ، أو أتاها من وجه من الوجوه ، فليضرب عنقه ، كما أشار عليه أن يستعين بأهل الشام ، وأن يجعل عليهم مسلم بن قتيبة .

وقبل هذا جرت بين المنصور وبين محمد كتب ، أشبه بتلك التى كانت بين يزيد والحسين .

وكما رغب يزيد الحسين فى المال والجاه والمناصب .. رغب المنصور محمداً فى المال والجاه والمناصب ، وكما أبى الحسين على يزيد المال والجاه والمناصب .. أبى محمد على المنصور المال والجاه والمناصب ، وكما أصر الحسين على أن تكون الحرب بينه وبين يزيد ، أصر محمد على أن تكون الحرب بينه وبين المنصور ، وكما أخذت الحرب بين يزيد والحسين وأعطت ، أخذت الحرب بين المنصور ومحمد وأعطت ، وكما غدر

بالحسين رجال وانفض عنه رجال ، غدر بمحمد رجال وانفض عنه رجال ، وكما قتل دون الحسين رجال ، قتل دون محمد رجال ، وكما قتل الحسين ونكل به ، قتل محمد ونكل به ، وكما قطع رأس الحسين وأرسل إلى يزيد ، كذلك قطع رأس محمد وأرسل إلى المنصور ، وكما قتل مع الحسين ناس قتل مع محمد ناس ، لكن المنصور زاد فأخذ أصحاب محمد الباقين فصلبهم صفين ، وبعد ثلاث ألقوا على مقابر اليهود ، ثم ألقوا بعد ذلك فى خندق .

وبقى إبراهيم أخو محمد لاتقره أرض ، مرة بفارس ، ومرة بكرمان ، ومرة بالجبل ، ومرة بالحجاز ، ومرة باليمن ، ومرة بالشام ، والمنصور جاد فى إثره يطلبه ، يظن إبراهيم أنه غالب بمن اجتمع حوله ، ويشغل المنصور بأمره فلا ينتفع بلحظة من دنياه ، ويقول : لاسبيل إلى هذا حتى أنظر رأس إبراهيم .

وكما نال المنصور من محمد نال من إبراهيم ، وكما ظفر برأس محمد ظفر برأس إبراهيم ، وكما قتل دون محمد ناس كثيرون ، قتل دون إبراهيم ناس كثيرون .

وبقتل إبراهيم خمدت ريح الهاشميين ، وصفا الملك خالصاً للعباسيين ، ومات هذا الخلاف الذى بذرت الجاهلية بذرته ، واحتضن الإسلام شجرته فترة من الزمن ، فسد فيها مابين الناس ، وحمل بعضهم على بعض ، يساقون مرة يميناً ، ومرة شمالا ، وهم على المرتين مقتولون مشردون معذبون .

مات هذا الخلاف حرباً ليعيش رأياً ، تجتمع عليه بعض القلوب وبعض الرؤوس ، ليثير جدلا أو شيئاً شبيهاً بالجدل ، ولكنه لم يعد يقوى أن يثير تلك الحروب .

ومضت الدولة العباسية قدماً على أيدى خلفائها ، تبسط سلطانها ،

وتمد رقعتها ، فإذا الدولة الإسلامية على امتدادها أمة واحدة ، يجمعها ملك واحد ، ويظلها سلطان واحد ، تهب فيها خلافات ، ولكن وحدتها كانت أقوى من تلك الخلافات ، وتثور فيها فتن ، ولكن وحدتها كانت أقوى من تلك الفتن .

لكنها كما اجتمعت تفرقت ، وكما تضامت تشتت ، اجتمعت على أيدى العباسيين ، وتفرقت على أيدى العباسيين ، وتضامت باسم العباسيين ، وتشتت باسم العباسيين ، وكان مرد ذلك كله إلى غياب الرأى ، وفقدان المشورة . وكان لذلك حديث طويل سوف أطالعك به فى كتب تتلو ، إن شاء الله تعالى .

الحقبة الرابعة :

قيام الدولة الفاطمية

- ١ -

أحب أن أصلك بأول الحديث حتى لايلتوى عليك آخره ، وأحب أن أقدم لك هذا الشطر الأول من الحديث محملا بعد أن قدمته لك مفصلا فى كتب ثلاثة - تضم حقبا ثلاثا ، وأحب من هذا الحديث المجمل وذاك الحديث المفصل أن تكون بين يديك صفحة يمهد أولها المجمل لآخرها المفصل ، فإذا أنت متهيىء بهذا التمهيد لما سيطالعك به ذاك التعقيب ، موصول بالأسباب والنتائج ، تملى معى عن علم وتستقرىء عن علم ، مستحضر الأحدث الرئيسة تباعا لا يضل عنك منها شىء .

فهذا الشق الذى أنا آخذ معك فيه على صفحات هذا الكتيب لم يبدأ مقطوعا عما قبله ، بل هو امتداد لما سبقه ، وكأن ما سبقه هو الذى أملاه . وكم من أحداث تملى ولكن الزمن يقطع عليها مسارها ، فإذا هى عند النقطة التى بدأت منها ، لا ينضاف إليها جديد ولا يكتب لها اتصال ، يجمد بها هوانها عن أن تخمل الدوافع فى طياتها ، ويهون معها أصحابها فلا يدفعونها لتمضى موصولة . ولكن هذا الحادث الذى أملى هذا التاريخ لم يقو الزمن على أن يقطع مساره ، لأنه كان جللا ، ولأن أصحابه كانوا أجلاء ، فغلب الزمن بقوته وبإيمان أصحابه به ، إن خفى شيئاً حركه أصحابه لينتعش ، وإن فتر أصحابه شيئا حركهم هو لينشطوا ، فلقد عاشوا به موصولين وعاش هو بهم موصولا ، حيا بهم وهم أحياء به ، وكان قضية لابد أن يتوجها حكم ، ولابد أن يكون ذلك الحكم كما أراد أصحابه أن يملوه ، لأنهم كانوا يرون الحق معهم .

ويئين لك أن تعرف كيف بدأت تلك القضية ، أو تلك القصة التى أملت تلك القضية ، تعرفها فى ذلك الإجمال الذى تراضيناه معا ، حتى لا أثقل على نفسى بتفصيل ما قد فصلته من قبل ، وحتى لا أثقل عليك فأشغلك بأول الحديث - الذى هو تمهيد - عن آخره الذى هيأت هذا الكتيب له .

والقصة التى أملت هذه القضية قديمة كانت حدسا من الحدس حين بدأت لا يعدو أن يكون رجما بالغيب ، ثم إذا هو حق كله يمكّن آخره لأوله ويغرى أوّله بآخره .

فلقد كانت الأمور فى الجاهلية العربية لعبد مناف تجرى صفوا بين يديه ، الى أن ولد له ولداه : هاشم وعبد شمس ، توأمين ، وعقب هذا موصولة بعقب ذاك .

وما كان للولدين أن يعيشا موصولين على هذا النحو المعوق ، وما كان للأب أن يتركهما لينشآ جامدين معا ساعيين معا ، فعهد إلى طبيب الحى أن يقطع تلك اللحمة الهينة الواصلة ، فإذا المبضع حين يفصل يسيل دما ، وإذا هذا الدم يؤوله العرافون شرا مستطيرا يثور بين أعقاب هاشم وأعقاب عبد شمس .

ولقد آمن بهذا عبد مناف ، لأنه كان يؤمن بما يقول به العرافون وآمن به الوليدان حين شبا لأنهما كان يؤمنان بما يقول به العرافون ، وآمن به الناس من حول الأب ومن حول الوليدين ، لأنهم كانوا يؤمنون بما يقول به العرافون ، فإذا هذا الإيمان يملى بعضه على بعض ، ويساند بعضه بعضا تمتلىء به نفس الأب فيضفيه عن وعى وعن غير وعى على ولديه ، وتمتلىء به نفسا الوليدين فيمكنان له فى قلبيهما عن وعى وعن غير وعى ، وتمتلىء به نفوس الناس فيهيئون له فى قلب الأخوين عن وعى وعن غير وعى . وتمضى الأيام تعطى أخا وتحرم أخا ، فإذا الذى أعطى

من متاع الحياة وجاهها ، حريص على ما نال . يخاف أخاه عليه ، الذى حرم متاع الحياة نافس على أخيه ، يريد أن يزحزحه من مكانه لينال ما فى يده ، وكلاهما على غير الرضا بمكان أخيه منه .

فلقد حظى هاشم بما لم يحظ به عبد شمس من شئون قريش ، وكما حظى بهذا الجاه هاشم دون أخيه عبد شمس ، حظى به ابنه عبد المطلب دون ابن عمه أمية ، وإذا بعثة الرسول ﷺ من ب هاشم تضيف إلى هذا البيت الهاشمى عزا لم يبلغه البيت العبشمى ، و د البيت الهاشمى مذكور ، والبيت العبشمى خامل .

ولو أن القلوب لم تتفتح لما تفتحت له ، ولم يدخل عليها العرافون بما دخلوا عليها به ، ولم يملأها عليهم الناس بما ملئوها به ، لاستقبل الأخوان الحياة استقبالا آخر - لا نحسبه يكون صفاء كله ، فما تجردت القلوب عن أن تنفس وعن أن تحقد - استقبالا لا يعتمد على هذا الأساس من الشر الذى صبغ كل شىء بصبغته .

وإذا العداء بين الأعقاب الذى بدأ ظنا يستحيل فكرة تدور فى الرءوس ، ثم كلاما تتحرك به الألسنة ، حتى إذا ما قبض الله إليه رسوله أطل الأمويون يريدون الدنيا فى تردد أولا ، يخافون بنى هاشم ويخافون على رأسهم عليا . لهذا لم يقدموا ، وظلوا يرقبون الأمور وهى تجرى ، كلما مرت بهم فرصة غنموها ، وإن فقدوا الفرصة أوجدوها . كانوا متطلعين إلى الحياة التى حرموها ، فكانوا جادين ساعين ، وكان الهاشميون يرون الحياة لهم فكانوا غارين غافلين .

ولقد سكن الأمويون خلافة أبى بكر وعمر يترقبون ، حتى إذا ما ولى الخلافة عثمان التفوا به ، لأنه كان رجلهم ، والتفوا بالحياة لأنهم رأوها أقبلت عليهم ، فكانوا لا يحبون أن يمضى شىء فيها إلا وعلمهم به موصول . يعينون عثمان على أمره ، وهم يعينون أنفسهم ، ويفتاتون على الهاشميين

وهم يريدون أن يباعدوا بين الهاشميين وبين عثمان ، ليقربوا هم إلى الحكم خطوة ويبتعد الهاشميون عن الحكم خطوة ، حتى اذا ما كانت الفتنة على عثمان - وكانت حظوتهم عنده من أسبابها الأولى - دخلوا فيها دخول المحب لشيء فيها الكاره لشيء فيها ، يحبون فى أعماق نفوسهم أن تمضى الفتنة ليدفع الهاشميون ثمنها متهمين ، ويكرهون فى ظاهر أمرهم أن تمضى الفتنة ، ليقبضوا هم ثمنها غير متهمين ، وتنتهى الفتنة بمقتل عثمان فإذا الهاشميون خاسرون ، والأمويون كاسبون ، فلقد غدا الأمويون أصحاب دم عثمان المراق ظلما ، وغدا الهاشميون ، وعلى رأسهم على ، المطالبين بدم عثمان .

ويلى علىّ الخلافة فى هذا الجو الثائر الصاخب ، يمتنع عليه معاوية - وكان واليا على الشام - ويمتنع على علىّ غير معاوية ، من لهم أطماع فى الحياة ، يرون معاوية سخيا بها عليهم دون على ، ومن ليست لهم أطماع فى الحياة ، ولكنهم على غير حب لعلى ، ومن هو غير طامع ولا كاره ولكنه كان على غير رأى علىّ ، فإذا الإجماع على اختيار على ينقلب غير اجماع ، وإذا على يخرج للقاء عائشة بمن انضم اليها يوم الجمل ، وإذا المسلمون يلقى بعضهم بعضا محاربين بعد أن كانوا يلقون معا عدوهم محاربين ، ويقتل مسلمون هنا كما يقتل مسلمون هناك ، ويخرج على من هذه المعركة منتصرا شبه مهزوم ، فلقد حقق كسبا له ، ولكنه لم يحقق وحدة للأمة .

وما يكاد على يفرغ من هذه حتى يخرج للقاء معاوية فى صفين . ولئن كانت الأولى حربا هينة لأنها لم يحركها الطمع فى الملك . فلقد كانت الثانية حربا عنيفة لأن الطمع فى الحكم كان الباعث لها ، ولئن كانت الأولى هينة ، لأن كفة على كانت الراجحة ، فلقد كانت الثانية قاسية .. لأن الكفتين كانتا أقرب إلى التعادل ، من أجل هذا خسر على وخسر معاوية ، ولم يخسر على نفسه وإنما خسر جملة من أصحابه

المسلمين ذوى الخطر فى الاسلام ، ولم يخسر معاوية نفسه وإنما خسر جملة من المسلمين ذوى الخطر فى الإسلام . وتنتهى الحرب إلى مهادنة ، ثم إلى تحكيم أريد به غير وجه الحق ، فإذا معاوية قد مكن لأمره ، وإذا على قد فسد عليه أمره ، وإذا خلافه على التى أرادها أمنا وأرادها معه من اختاروه أمنا ، تمتلىء اضطرابا وبلبلة ، وإذا أمر المسلمين كلهم الذى أرادوه أمنا يعود فوضى ، أوشيئا قريبا من الفوضى ، وإذا خارجون ثلاثة - هم : ابن ملجم ، والبرك بن عبدالله التميمى وعمرو بن بكر السعدى - يجمعون على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، ويرون أن قتلهم انقاذ للأمة من هذه الورطة . ويفلح ابن ملجم فى قتله عليا ، ويخفق البرك وعمرو فى قتلهما معاوية وعمرو بن العاص .

وهكذا أعانت الحياة معاوية ، ولم تعن عليا ، ومكنت له ، ولم تمكن لعلى . وخلا الطريق أمام معاوية إلى هذا الحكم الذى دبر هو له ، وأعانه الدهر عليه .

ووجد معاوية الحسن بن على دونه على أول هذا الطريق .. فتهيأ له يدفعه عنه ، وما كلفه ذلك حربا ولكن كلفه شيئاً دون الحرب ، شيئاً يسيرا كل اليسر . فلقد اشترى معاوية هذا الحق الباقى للحسن بدراهم معدودات وبأعراض يسيرة ، وما إن أرضى الحسن ورضى الحسن فباع ، حتى نكث معاوية فيما شرط على نفسه . وإذا الحسن قد خرج من دنياه وأخرج معه الهاشميين من دنياهم بتلك الصفقة الغابنة ، وإذا معاوية قد دخل دنياه وأدخل معه الأمويين دنياهم التي كانوا يطمعون فيها معه بهذا الثمن الذى دفعه من حرب ومال منقوص وعهد منكوث .

- ٢ -

واستقامت الحياة لمعاوية كما استقامت للأمويين ، وأقاموا دولة ، هى وإن كانت للمسلمين فى معناها العام ، فلقد كانت للأمويين فى معناها

الخاص ، فهى لهذا حملت اسمهم الخاص ولم تحمل الاسم العام . وما استقبل المسلمون بهم حكومة على نمط الحكومة الأولى أيام الخلفاء الراشدين ، يختارون من بينهم خليفتهم من هذا البيت ومن ذاك البيت ، يجعلون الخلافة لخيرهم من المسلمين ويختارون الخليفة كما يشاءون ، بل استقبل المسلمون أمرهم ، لتكون الخلافة فى هذا البيت الأموى ، وليكون الخليفة من هذا البيت الأموى ، وهكذا رد الأمويون أمور المسلمين إلى جاهليتهم الأولى ، على صورة أخرى ، وحققوا بهذا النصر ما حرموه أولا ، وما غلبهم عليه الهاشميون .

بهذا دخل معاوية الحكم يريده لنفسه ويريده لولده ، فما مضت الأيام غير قليل حتى شمر يدعو لابنه يزيد . وكان غريبا على المسلمين - وهم الذين ألفوا الحياة إلفا ، آخر حياة الخلفاء - أن ترضى نفوسهم بما رضيت به نفس معاوية ، فامتنعوا عليه شيئا ، لم يظهر هذا الامتناع الناس كلهم ، لأن الناس كلهم كانوا لا يملكون أمرهم فى ظل إغراء معاوية وعنفه ، وكان الذين امتنعوا على معاوية نفرا من أولى الرأى ، فاحتال معاوية ما وسعته الحيلة ، حتى إذا ما أعيته الحيلة مع نفر منهم حملهم على ما يريد قسرا ، فإذا يزيد ولى عهد ، وإذا يزيد خليفة على المسلمين بعد معاوية

ولكن الهاشميين الذين استكانوا شيئا بعد مقتل على ، ثم استكانوا شيئا بعد نزول الحسن عن حقه . كانوا لما يذوب فى نفوسهم استمساكهم بحقهم ، وكانوا لم يذب فى نفوسهم خلافهم على الأمويين ، فانتعشوا شيئاً خلافة يزيد ، يرونه دون أبيه قوة ويرونه دون أبيه حزما . والناس الذين خافوا معاوية مع الهاشميين لم يخافوا يزيد مع الهاشمين ، فإذا هم يحركون الحسين للأمر .

وما كان الحسين فاترا عن حقه ولكنه كان فاترا بفتور الناس . وحين أحس فى الناس نشاطا إلى هذا الحق ، نشط بنشاطهم ، فإذا هو ثائر بهم على يزيد ، خارج عليه .

ولكن يزيد كان ملكا ذا دولة ، وكان الحسين ثائرا قد التف به الثائرون . وكان يزيد ذا حشد كثير ، وكان الحسين ذا حشد قليل . وكان يزيد ذا مال يجتمع إليه من الخراج المفروض ، وكان الحسين لا مال له غير المال الذى يجود به الواهبون . وكان يزيد ذا ملك قائم يرغب إليه الناس ويرهبونه ، وكان الحسين يسعى إلى ملك قد يحققه وقد لا يحققه ، فلم يجد راغبا ولا راهبا ، اللهم إلا هؤلاء الذين جمعهم إليه الايمان بحقه وحق بيته ، ولقد كان هؤلاء المؤمنون بحقه على حرف ، يخافون أكثر مما يرغبون .

لهذا كله لم يقو الحسين على حرب يزيد . وانفض الناس عن الحسين ليلتفوا حول يزيد . وإذا الحسين مقتول شر قتلة ، وإذا جملة كبيرة من أهله الذين ثبتوا معه ، مقتولون هم الآخرون شر قتلة ، وإذا الأمر يخلص ليزيد بعد مقتل الحسين ، كما خلص لمعاوية بعد مقتل عليّ .. على يد ابن ملجم .

– ٣ –

وماكان هذا الخلاف بين الهاشميين والأمويين خلافا يقوم حول فرد . وحول حق لهذا الفرد ، إذا ماولّى هذا الفرد .. ولّى هذا الخلاف حوله وحول حقه . ولكنه كان خلافا يقوم حول بيت ويقوم حول حق لهذا البيت ، فكان مُضِىّ هذا الفرد مدفوعا عن هذا الحق يمكن لهذا الخلاف ويحييه ، وكان مايناله هؤلاء الماضون مدفوعين عن هذا الحق ، من قتل وإسفاف فى هذا القتل ، مما يهيج هذا الخلاف ويقويه .

ولقد قتل على بيد غير يد الأمويين فأحزن ذلك الهاشميين ، وكاد أن يفت فى عضدهم ، إذ رأوا فيه غضبة من غضبات الرأى العام . وحين قتل الحسين بيد الأمويين أحزن ذلك الهاشميين ولم يفت فى عضدهم ، لأنهم رأوا فيه الناس غاضبين معهم على الأمويين .

ومافات الهاشميين مع مقتل علىّ بيد ابن ملجم ، بلغوه مع مقتل الحسين فى كربلاء بيد الأمويين ، ولقد قتل على مطعونا لم يمثل به ، وقتل الحسين بسيوف الأمويين ثم مثل به ، ولقد طعن على ومضى موفور الجسم لم يفصل منه عضو ، وقتل الحسين فإذا رأسه يفصل عن جسمه ، وإذا هذا الرأس يحمل إلى يزيد ليشفى بمرآه نفسه .

من أجل هذا أنسى الهاشميون مقتل على وذكروا مقتل الحسين ، فإذا هم حانقون وإذا هم متألبون ، وإذا الراغبون فيهم المؤمنون بحقهم يملكون الأسباب لينشروا دعوة ، وليجمعوا الناس حول هذه الدعوة .

وماقتل الأمويون مع الحسين كل آل الحسين ، وماكان فى مقدورهم أن يفعلوا هذا إلا اذا قووا على أن يخلصوا من خلق كثير ، وإلا إذا قووا على أن يلحقوا الصغار بالكبار ، وإلا إذا قووا على أن يشقوا بطون الأمهات عن أجنتها . ومانظن الأمويين كان فى ملكهم أن يفعلوا هذا كله ، وأن كانوا قد فعلوا شيئا قريبا من هذا كله .

وكان محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب فيمن نجوا من بطش الأمويين ، ولعل الذى مد فى حياته أنه كان فيمن بايعوا يزيد ، ولقد أكرمه يزيد حين ولِىَ ودعاه إليه فى دمشق وأعطاه الكثير .

ولكن الذى لاشك فيه أن ابن الحنفية أعطى يزيد حين أعطى عن رهبة لمعاوية أولا ، كما فعل أخوه الحسين من قبل ، حين نزل لمعاوية عن حقه فى ظروف ربما كانت أطيب مواتاة من تلك الظروف التى بايع فيها ابن الحنفية ليزيد ، وحين دعا يزيد إليه ابن الحنفية أول ماولى ، ولبى ابن الحنفية وقبل عطاءه ، لم يكن الحسين قد تهيأ للثورة بيزيد ، وكان يريد الأمور تجرى على حال من الملاينة بين الهاشميين والأمويين ، فلم يجد ابن الحنفية غضاضة فى أن يخرج إلى دمشق ، ولم يجد غضاضة فى أن يقبل عطاء يزيد .

لعل هذا كله ، ولعل شيئا من هذا كله ، هو الذى مال بابن الحنفية ميلته هذه . ولكنا نراه حين هب عبد الله بن الزبير يدعو لنفسه بعد مقتل الحسين أبى عليه ابن الحنفية ماأراد ، قد يكون ذلك برًّا منه بعهده ليزيد ، ولكنه على كل حال فتح بهذا الإباء الباب أمام الشيعة ، ليلتفوا حوله ويبدءوا دعوتهم ، وينظموا الصفوف لهذه الدعوة .

فلقد خرج من بين الصفوف المختار بن أبى عبيد الثقفى يدعو لمحمد ابن الحنفية ، ولكن ابن الحنفية على هذا لم يلق بالا لهذه الدعوة ، لأنه كان قليل الثقة بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه عليا ، ثم خذلوا أخاه الحسين ، ولكن الدعوة على الرغم من هذا مضت على صورة من صورها لتؤكد لك أن هذا الخلاف حين وجد وحين امتد لف حوله آله ، ولف حول آله غيرهم ، إن ونى الأهل لم ين غير الأهل ، وإن ونى غير الأهل حركهم له الأهل ،خلاف اعتمد على سببين وكان هذا السبب الثانى - نعنى هؤلاء المؤمنين بهذا الحق من غير أهله - أقوى السببين ، وهو الذى مد فى أجل هذا الخلاف ، وهو الذى مكن لهذا الخلاف ، لينصر بيتا على بيت . ولو أن هذا السبب الثانى فتر أو وهن لما تهيأ للسبب الأول أن يمتد ويبقى ، ولاقدّر له أن يعيش ليبقى فاترا ضعيفا لايعدو أن يتمثل فى كلمات لاأفعال .

ولكن بقاء آل هذا الحق على حقهم لايحيدون عنه أعطى المؤمنين به البقاء عليه وأعطاهم القوة ، فلو استكان أصحاب الحق ورضوا غير حقهم لفتوا فى عضد الداعين ، ولما وجد الداعون لدعوتهم سبيلا ولاتأييدا .

وهكذا تميزت هذه الدعوة بالصفات التى كتبت لها البقاء ، فلقد استحالت عقيدة لها قدسيتها فى نفوس الداعين ، ولها قدسيتها فى نفوس أصحابها . من أجل ذلك عبرت على هامات الأيام لايردّها إرهاب ، ولا يثنيها عنف ، ولا يهّون منها إغراء ، ولا يصرفها وعد أو وعيد .

ويموت ابن الحنفية بعد أن أقامه المؤمنون به إماما عليهم ، ماكان يعنيهم أنه أيد دعوتهم أو لم يؤيدها ، وماكان يعنيهم أنه حامل معهم رايتها أو غير حامل ، بل لقد قنعوا بأن يجدوا من يلتفون حلوه ، ومن ينادون باسمه ، ومن يفيدون من شخصه ، وهكذا كانت تلك الفترة ، التى كان فيها ابن الحنفية إماما ، من الفترات التى حمل فيها المؤمنون بالدعوة أكثر مما حمل أهلها . وماستوت فترات الدعوة بل كان منها شيء لهذا الذى كان فى حياة ابن الحنفية ، وكان منها شيء يخالف الذى كان فى حياة ابن الحنفية . حمل منه أهل الحق أكثر مما حمل الداعون إليه ، وكان منها شيء استوى فيه نصيب هؤلاء ونصيب هؤلاء .

ومابنا أن نرمى ابن الحنفية بأنه كان حربا على الدعوة وكان لايريدها ، فما من شك فى أن ابن الحنفية كان على رضا بها ، وكان على حذر من عواقبها ، فوقف منها موقف الراغب الحذر يملى عليه حذره ، ولقد كان حذره فوق رغبته ، من أجل ذلك ترك المختار لابن الزبير يحاربه ، كما ترك عبد الملك بن مروان هذين الخارجين عليه يقتتلان . ولكن عبد الملك حين فعل مافعل .. كان يبغى أن يضعف هذا ويضعف ذاك ، فإذا ماقضى أحدهما على صاحبه انفرد له عبد الملك يقضى عليه ، من أجل ذلك ماكاد يفتك ابن الزبير بالمختار حتى فتك عبد الملك بابن الزبير وعاد إليه سلطانه كاملا .

وكأنى بابن الحنفية كان قد أملى عليه حذره أن يفعل فعل عبد الملك على صورة أخرى ، فترك هو الآخر عبد الله بن الزبير للمختار يقاتله ، وكأنى به كان يقدر ظفر المختار بابن الزبير ، وكأنى به كان يقدر حين يظفر المختار .. أن يجاهر بما يخفى ، إذ عندها يكون أملك لأمره وأقوى بهذا الجيش . جيش المختار الذى كتب له النصر .

وهو لاشك حذر أملاه هذا الدرس القاسى الذى تلقاه ابن الحنفية من مقتل الحسين ، فلقد ظهر الكوفيون معه أولا ، ثم نكصوا على أعقابهم ثانيا ، وماأراد ابن الحنفية أن يدخل التجربة التى دخلها الحسين من أولها ، ولكنه أراد أن يدخلها من آخرها .

من أجل هذا تلبث . ولقد حفظ عليه تلبثه حياته ، ولم يعرضه لمحنة ، كما قد حفظ تلبثه هذا للدعوة بقاءها ، فما كان قتل المختار - كما قلت لك - إلا اضعافا لسبب من سببى الدعوة ، وهى باقية مابقى لها السببان ، أو بقى لها سبب منهما ، ولعل ابن الحنفية لو ظهر فقتل لجر ذلك إلى إضعاف السببين معا ، وجر ذلك عبد الملك إلى قتل ابن الحنفية وقتل جملة معه من آله ، فتكون النكبة نكبتين . نكبة فى آل الحق ونكبة فى المؤمنين بالحق ، قد تجاوز المدى فتسىء إساءة تعوق الدعوة . وحين تجتمع هاتان النكبتان على الدعوة قد تئدانها فى مهدها ، وقد تدفنانها عمرا طويلا .

بهذا نفسر ماكان من ابن الحنفية لانؤوله تأويلا يسىء إليه . فما من شك فى أنه كان يملك مع الهاشميين إيمانا بحقه وحقهم ، ولكنه كان يملك مع هذا الإيمان هذا الحذر الكثير الذى جعل نفرا يؤولونه تأويلا آخر لا يرضى .

هذا إلى أن المختار حمل الدعوة أغراضا تبعد بها عن المنهج الدينى السليم ، وكان دخول ابن الحنفية معه تصديقا منه بهذا الذى يقولة المختار . ومانظن ابن الحنفية إن كسب الحرب كان سيكسب الناس فى ظل مايقوله المختار عنه ، بل كان سرعان ماسيخسر الناس ، ويخسر ثمرة النصر ، وتعود الدعوة باطلا من البطلان ، ويعود هذا البيت الهاشمى وليس له حق يجمع الناس عليه .

ولقد صدق ابن الحنفية حدسه ، إن كان هذا حدسه ، فلقد تنكر الناس لدعوة المختار ، ولكنهم لم يتنكروا لهذا البيت ، فما إن ظهر ابنه أبو هاشم حتى التفوا حوله واتخذوه إماما يدعون له ، غير مبالين بغلوّ المختار فى الدعوة لأبيه ابن الحنفية ، حين ادعى له ماليس لإنسان .

وحمل أبو هاشم الدعوة وكان الإمام ، يلقاه الشيعة ويلقاهم هو ، يخفى الدعوة ويخفونها ، ويدعو معهم سرا ويدعون هم معه سرا ، وفى رءوسهم جميعا هذا الماضى كله بعبره وعظاته ودروسه ، يفيدون مما لهم من سابقات فى القرابة والجهاد ، ويفيدون مما كان لخصمهم ضدهم من تنكيل بهم ، لاينسون به كربلاء بوحشيتها وقسوتها ، فلقد كانت لهم نعم العون ونعم السبب ، ولكنهم على هذا كانوا حذرين يسعون على حذر ، ويدعون على حذر .

وينزل أبو هاشم على سليمان بن عبد الملك ضيفا فى دمشق ، ومانزل أبو هاشم بسليمان عن إرادة منه لذلك النزول ، ولكنه نزل به عن دعوة كانت من سليمان إليه ، ولم يشأ أبو هاشم أن يرفض دعوة سليمان فيتغير عليه سليمان . ولكنه قبلها ليؤنس بها سليمان ويزيل الوحشة من قلبه . هكذا ظن أبو هاشم فقبل الدعوة ، ولغير ماظن أبو هاشم كان يدبر سليمان . فلقد كان أبو هاشم يدبر لأمره على صورة ، وكان سليمان يدبر لأمره على صورة أخرى . كان أبو هاشم يريد أن يصرف عنه سليمان بملاينته له ، وكان سليمان يريد أن يتمكن من أبى هاشم بملاينته له . وكما احتاط أبو هاشم احتاط سليمان ، وكانت حيطة سليمان أبعد من حيطة أبى هاشم . ولقد خرج أبو هاشم عن سليمان لم يلق كيدا ، فظن أنه غلب بحيطته حيطة سليمان ، وماظن أبو هاشم أن سليمان كان أبلغ منه حيطة حين لم ينل منه فى حضرته فيضم إلى مايؤخذ على الأمويين نكرا جديدا ينضم إلى

هذا النكر الباقى لهم فى رءوس الناس وفى قلوبهم عن كربلاء . بل لقد خلى سليمان أبا هاشم ليخرج مطمئنا كما دخل مطمئنا ، حتى إذا ماكان أبو هاشم ببعض الطريق عرض له رجل من الرجال لم يثر فى نفس أبى هاشم شكا ، فأنس به أبو هاشم ونزل عليه يقبل قِراه ، فإذا هذا القرى يحمل السم ، وإذا السم يقر فى جوف أبى هاشم ، وإذا أبو هاشم يحس ألم السم فى جوفه مخرجه من عند هذا الرجل ويحس أنه ميت ، ويحس أن حيلة سليمان قد غلبت حيلته .

وحين عزت على أبى هاشم نفسه عزت عليه الدعوة التى يحملها ، وحين أحس أبو هاشم أنه ميت ، لم يرد لهذه الدعوة أن تموت ، وحين أحس أنه ذاهب ، لم يرد لهذه الدعوة أن تذهب ، وحين أحس أنه لم يحتط لنفسه ، أراد أن يحتاط لهذه الأمانة التى يحملها .

وهكذا كان هؤلاء الناس كبارا تهون عليهم نفوسهم ولاتهون عليهم أماناتهم ، فإن خسروا حياتهم لم يحبوا أن يخسروا أمانتهم ، من أجل ذلك عرج أبو هاشم إلى الحميمة - قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة - وكان بها منزل محمد بن عبد الله بن العباس .

فقد رأى أبو هاشم أن أولى الناس بحمل هذه الدعوة عنه محمد بن على ، وكان أقرب الناس إليه فى طريقه هذا الذى يسلك ، لاندرى أللأولى نزل أبو هاشم عن دعوته لمحمد بن على ، لأنه رآه أقدر عليها من غيره من بنى أعمامه ، أم للثانية ؟ وأن أبا هاشم وجد الشُّقة بينه وبين بنى عمه بعيدة وخاف أن يدركه الموت دون أن يوصى ، وخاف إن مات دون أن يوصى اختلف بنو عمه عليها من بعده ، ولهذا آثر بها أقرب الناس إليه مكانا لاقرابة ، فعرج على محمد يوصى بها إليه .

ولعل سببا آخر ينضاف إلى هذين السببين هو ذلك الخلاف فى الرأى بين الشيعة الكيسانية ، شيعة ابن الحنفية وابنه أبى هاشم ، وبين شيعة بنى

عمه من أولاد فاطمة . وعلى أية حال .. فما منع نزول أبى هاشم عن حقه فى هذا الأمر بنى عمه من أولاد فاطمة عن أن يهبوا مطالبين به من بعده ، وأن يخرجوا على العباسيين بعد أن استقام لهم الأمر مطالبين بهذا الحق ، وأن يُظلَموا على أيدى العباسيين كما ظُلِموا من قبل على أيدى الأمويين .

- ٦ -

وهكذا تحولت الإمامة من بيت إلى بيت . ولكن البيتين على هذا كانا على نسب يقرّب بينهما ، فهما ينتهيان إلى هاشم ، وهاشم لهما جد ، أعقب هاشم : عبد المطلب ، وأعقب عبد المطلب ، العباس وأبا طالب وعبد الله ، وعن العباس انحدر محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، الذى نزل له أبو هاشم عن الإمامة ، ومن صلب أبى طالب كان على الإمام الأول الذى اجتمعت عليه كلمة الهاشميين ، ومضى أبناؤه يحملونها من بعده - كما مر بك - إلى أن انتهت إلى أبى هاشم . وأنجب عبد الله أكرم البشر على الله ، ورسوله إليهم ، وبه اجتمع العز للهاشميين .

وكان على قد أصهر إلى رسول الله ﷺ فتزوج فاطمة ، وكان له منها ولداه الحسن والحسين ، وكان لعلى من خولة بنت جعفر الحنفية : محمد الذى نسب إلى أمه الحنفية .. ولقد انتهى نسل أبى هاشم بموته ، ولكن نسل الحسن لم يكن قد انتهى عند موت أبى هاشم .. فلقد امتد شيئا ، إذ أعقب الحسن ولدين هما محمد والحسين ، ومات محمد دون أن يعقب ، وأعقب الحسن بن الحسن : عبد الله ، وأعقب عبد الله أولادا أربعة هم : محمد ، وإبراهيم ، ويحيى ، وإدريس .

وكذلك لم يكن نسل الحسين قد انتهى عند موت أبى هاشم ، فلقد أعقب الحسين ولدا هو على زين العابدين ، وعن زين العابدين انحدر محمد الباقر (١١٣ هـ) وزيد (١٢٢ هـ) ، وعن محمد الباقر انحدر جعفر الصادق (١٤٨ هـ) وعن زيد انحدر يحيى ، وأعقب جعفر الصادق ولدين

هما موسى الكاظم (١٨٣ هـ) وإسماعيل . وعن موسى الكاظم انحدر على الرضا (٢٠٢ هـ) وعنه انحدر محمد الجواد (٢٢٠ هـ) وعنه انحدر على الهادى (٢٥٤ هـ) وعنه انحدر الحسن العسكرى (٢٦٠ هـ) وعنه انحدر محمد المنتظر ، وقد اختفى سنة (٢٦٠ هـ) .

هؤلاء هم عقب جعفر من ولده موسى الكاظم ، وأما عقبه من ولده إسماعيل فهم : محمد ، وعن محمد انحدر عبيد الله المهدى (٣٢٢ هـ) .

فانتقال الدعوة إلى ولد العباس حين أسلمها أبو هاشم إلى محمد بن على ابن عبيد الله بن العباس ، لم يكن عن جدب فى بنى أبيه ، نعنى أب أبى هاشم علي بن أبى طالب ، وإنما كان – فيما يظن – لهذا الخلاف بين رأى أبى هاشم ورأى بنى أبيه . ولعل أبا هاشم حين بعد بأمه عن بنى أبيه لم يرضه إلا أن ينزل عنها – أى عن الإمامة – لبنى عمه ، ولعل هذا البعد بالأم كان هو السبب فى هذا النزول ولاسبب غيره ، فبنو على من فاطمة كانوا يملكون الدعوة من طريق هذا الطرف الذى يصلهم بأبيهم على ، وهو هاشمى وله سابقته وفضله ، وذاك الطرف الذى يصلهم برسول الله ﷺ ، وإليه ينتهى هذا الحق كله ، على حين كان يملك أبو هاشم هذه الدعوة من طرف واحد فحسب ، وهو هذا الطرف الذى يصله بجده على بن أبى طالب ، ولقد كان الناس مع أولاد فاطمة من على غيرهم مع ولد الحنفية من على .

من أجل هذا التف الناس بالحسين بعد أن خرج من الدعوة الحسن أول الأمر ، وحين قتل الحسين التف نفر بابن الحنفية على تلك الصورة التى مرت بك ، وعاش ابن الحنفية لايعطى الدعوة إلا بقدر ، يمنعه الحذر من أن يستمر .

ولكن ثمة شيء يجب أن نذكره من قبل أن ننساه ، هو أن مقتل الحسين مع جملة من آله .. كان قد فت فى عضد شيعة الحسين ، فالتفتوا

عن الدنيا إلى الدين ، وأرادوا الزعامة الدينية بعد أن أعجزتهم الزعامة الدنيوية ، ولعل الذى قعد بشيعة الحسين عن الدنيا هو الذى جعل ابن الحنفية على هذا الحذر الكبير ، لايدفع بنفسه إلى الموت كما دفع إليه بنفسه الحسين ، ولولا أن ابن الحنفية رزق رجلا ذا أطماع ماكان إماما ، وماكانت حوله دعوة دنيوية إلى جانب الدعوة الدينية .

فلقد كان المختار بن أبى عبيد الثقفى رجل حياة قبل أن يكون رجل دين ، سلك إلى السلطان كل سبيل ، وخطب ود كثير من ذوى الجاه ، لايعرف الثبات على رأى ، ولقد وصل حبله بحبل الأمويين فلم ينل مايحب ، ثم وصل حبله بحبل ابن الزبير حين أراد ابن الزبير الأمر لنفسه يبغى أن يكون وزيره ، ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما عرفه عنه من تقلبه ، وحين خسر المختار هذا الميدان وذاك .. قصد إلى الكوفة ، وكانت الكوفة عندها قد اجتمع فيها قوم على الندم لخذلانهم الحسين وفتورهم عن نصرته . وتمكن هذا الندم من نفوسهم حتى ملأها حسرة وملأها حمية ، وإذا هم بعد هذا .. يجمعون على الأخذ بثأر الحسين وأهل بيته ، وإذا هم يتحالفون فيما بينهم على بذل الأموال والأنفس ، وكانت معهم جماعة سموا أنفسهم بالتوابين .

وحين قصد المختار الكوفة .. قصدها ليفيد من اجتماع التوابين على رأيهم هذا . يريد أن يتخذ منهم أعوانا على مايريد وماتصبوا إليه نفسه ، فينال من الأمويين بعد أن أخفق معهم ، وينال من ابن الزبير بعد أن أبى عليه ابن الزبير مايطمع هو فيه .

وكان لابد لهؤلاء الذين اجتمعوا ليثأروا للحسين وأهل بيته من إمام يجتمعون عليه ويلتفون حوله . وشيعة الحسين كانت قد صدفت عن الزعامة الدنيوية شيئا بعد مقتل الحسين ، واجتزأت بالزعامة الدينية إلى أن يقضى الله أمرا ، فلم يجد المختار فى الانحياز إليهم مايغنيه ، ولعله حين أراد أن

يصل حبله بحبلهم لم يجد عندهم السخاء بما يطمع فيه ، ولعله وجدهم لا يثقون به كما لم يثق به ابن الزبير . من أجل ذلك التفت إلى ابن الحنفية يريد أن يجعله على رأس هذه الدعوة . وعلى رأس هذه الجماعة ، يظهر أنه أمينه ويظهر أنه وزيره .

ومأأنسى المختار هذا الإحساس المتباين للناس ، إحساسهم للحسين وآله ، وإحساسهم لابن الحنفية وولده . فهو من غير شك استغل عزلة ابن الحنفية شيئا .. ليكون معه صاحب فضل وصاحب أثر .

ولقد أفلح المختار بما كسب أولا .. حين طرد عامل ابن الزبير عن الكوفة . وحين انتصر على عبيد الله بن زياد عامل الأمويين على الكوفة . فرغبت الشيعة فيه والتفّت حوله . وما من شك فى أن هذا أغرى ابن الحنفية شيئا بالمختار فتركه يدعو له ، ولبث هو على تلك الحال من الحذر ينتظر . وكان أن قتل المختار – كما مر بك – فخسر ابن الحنفية النتيجة التى كان يرقبها ، ولكنه لم يخسر الدعوة التى أنشأها المختار له ، والتى ورثها عنه ابنه أبو هاشم .

ولكن شيعة الحسين قد خسرت شيئا بدعوة المختار . فقد أخرجها المختار من أيديهم ، أخرجها عن قصد حين دعا لابن الحنفية ، وأخرجها عن غير قصد حين نزل عنها أبو هاشم لمحمد بن عبدالله بن العباس ، فلو لم تنته هذه الدعوة إلى ابن الحنفية .. ما انتهت إلى أبى هاشم . ولا ملك أبو هاشم أن ينزل عنها لمحمد بن على .

– ٧ –

وحين أوصى أبو هاشم إلى محمد بن على .. لم يرده وحده بهذا الأمر ، بل أراد هذا الأمر له ولولده منّ بعده ، يبغى أن ينقله كله إلى بنى العباس . فكان مما قال له : هذا أمر أنت أول من يقوم به ولولدك آخره .

وكان أبو هاشم يعلم أن الأمر ليس أوله كسبا . بل أوله جهاد ، وكان يعلم أن الأمويين لم ينتهوا . وأن لابد للداعين من صبر على الكفاح . من أجل ذلك .. أغرى محمد بن على بهذا الكفاح ، بعد أن إغراه بضمان ثمرة هذا الكفاح لولده .

ومن أجل ذلك طلب أبو هاشم من محمد بن على أن يبدأ بنشر الدعوة على رأس السنة المتمة للمائة . ولقد كان موت أبى هاشم فى سنة ٩٨ هـ . من أجل ذلك أوصى أبو هاشم بأن تكون الإمامة لإبراهيم بن محمد بعد محمد .

فعل هذا أبو هاشم ليضمن للدعوة فرصة للتمهيد ، وفعل ذلك ليضمن للدعوة الاستمرار ، وفعل هذا ليقيم بيتا على الكفاح لم تنل منه الأحداث ما نالت من بنى أبيه ، وفعل ذلك ليثأر من الأمويين على غدرهم به على يد سليمان . وكان لايريد أن يفوته هذا الثأر ، فاختار هذا البيت الذى رآه قويا . لا يجعل الأمر لمحمد وحده فينى محمد ولا يجدّ ، بل جعله له ولولده من بعده ليمضوا على الطريق كلهم .

وكأنى بأبى هاشم هو الآخر بعد ما أحس المنوت ، وبعد ما أحسّ الحقد على سليمان وعلى الأمويين مع سليمان - أو بعدما أحس أن بنى أبيه قد رغبوا عن الزعامة الدنيوية إلى الزعامة الدينية - قد رأى رأى المختار حين اختار أباه ، فاختار هو هذا البيت العباسى يجعل الأمر لمحمد بن على ثم لولده من بعده ، يستملى من هذا كله .

غير أن أعقاب الحسين الذين خالهم أبو هاشم قد استكانوا شيئا .. أخذوا يظهرون من بعده شيئا . فلقد تهيأ زيد بن على زين العابدين للدعوة لنفسه . أخذ يدعو سرا حتى إذا ما نذر به هشام بن عبد الملك أظهر ما كان يسر وبادى هشاما بالعداوة . والتف حول زيد نفر من أهل الكوفة وخرج بهم زيد لحرب هشام . ولكنهم سرعان ما انخزلوا عنه كما انخزلوا

عن جده الحسين . وإذا زيد يلقى جيش هشام فى نفر قليل بقوا معه . وقاتل زيد إلى أن قتل . وكان ما فعل به بعد مقتله أشنع مما فعل بجده الحسين بعد مقتله . فإذا هو يحرق ، وتضرب جثته بالعصى حتى تصير رمادا ، وإذا هذا الرماد يذرى فى الهواء ويلقى به فى الماء .

وبعد مقتل زيد هب ابنه يحيى ، وبايع له نفر قاتلوا معه ، غير أن نصيبه لم يكن خيرا من نصيب أبيه . فلقد قتل هو الآخر ثم قطع رأسه ، ثم صلب ثم أحرق ، ثم كانت جثته رمادا تذروه الرياح .

ولكنا لا ننسى أن تحرك أعقاب الحسين للثورة ، وعدولهم عن الانكماش ، كان بعد أن تهيأ العباسيون للأمر ، وخرجوا إليه . وكأنى بأعقاب الحسين قد أحسوا خطر ما مالوا إليه حين رغبوا عن الدنيا إلى الدين . وكأنى بهم قد أحسوا أن العباسيين على وشك أن يظفروا بالدنيا دونهم . من أجل ذلك .. التفتوا عما رأوه إلى شىء آخر يرونه . فتحرك زيد ثم تحرك من بعده ابنه يحيى ، مدفوعين إلى الأمر فى عجلة ، حرصا على أن ينالاه دون العباسيين ، وخوفا من أن يستأثر به العباسيون دونهم ، لا يعنيهم أن أبا هاشم قد نزل عنه للعباسيين ، ولكن يعنيهم أنهم أصحابه ، وأنهم أولى به . ويعنيهم أنهم لو تلبثوا عنه شيئا أفلت من أيديهم إلى أيدى العباسيين .

وفى ظل [illegible]ه العجلة الملحة خرج زيد وخرج يحيى .. لايجد زيد كما لم يجد يح[illegible] فسحة من الوقت ليدبرا لأمرهما ، كما أخذ العباسيون يدبرون له . مغرورين بمن التف حولهما من قلة قليلة ، مخدوعين عما يملك خصمهما من كثرة كثيرة وعتاد كبير ، من أجل ذلك أخفق زيد كما أخفق ابنه يحيى ، ولكنهما على كل حال قد أضافا بمقتليهما سببين جديدين فى أيدى العباسيين ينتفعون بهما ويفيدون منهما ، ثم هما قد شغلا بهما الأمويين عن تعقب العباسيين ، وهكذا أبى هذا البيت إلا أن يحمل عبء التضحية كله ، ويترك العباسيين ينالون عنه الغنم كله .

وعلى العكس مما كان العلويون كان العباسيون ، فلقد رأى محمد بن على أن الأمر تعوزه الحيطة ، ويعوزه الحذر ، ولم ينس محمد أنه أخذ الحق من آله ، وما كانت النفوس قد تهيأت لقبول هذا البيت الجديد على الدعوة . فزاده ذلك حيطة وزاده حذرا ، ولم ينس محمد أن المفاجأة خسران ، فانضافت إلى حيطته ، حيطة وانضم إلى حذره حذر .

من أجل هذا وذاك .. بدأ محمد دعوته لآل البيت لا يسمى أحدا حتى لا يتفرق الناس عليه ، ومن أجل ذلك حاط محمد دعوته بالإسرار لابالإعلان ليأمن شر الأمويين عليها .

ولقد قصد محمد أول ما قصد بدعوته أهل الكوفة ، يرى الكوفة مهدا للشيعة ، ويرى أهلها أسرع إلى التشيع ، نحسُّ ذلك فى كلمته إلى دعاته حين قال لهم :

أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية – يريد الخوارج الذين خرجوا على على فيها فنسبوا إليها – وأما أهل الشام فلا يعرفون غير طاعة معاوية ، وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العِدد الكثير والجلد الظاهر .

لالهذا وحده اختار محمد بن على الكوفة ، ولكنه اختارها أيضا لسبب آخر لايقل عن هذا السبب الأول خطرا ، فلقد كانت الكوفة تبغض الأمويين لقسوتهم عليهم واستبدادهم بهم . فلقد كان الأمويون يعرفون الكوفيين أنصارا للعلويين ، وكانوا معهم على وجل ، من أجل ذلك قسوا عليهم واستبد ولاتهم بهم .

فلهذا وذاك قصد محمد بن على بدعوته الكوفة لايعدل عنها إلى

غيرها ،- وخرج -دعاته من الحميمة إلى خراسان سرا يظهرون غير ماخرجوا إليه ، منهم من خرج خروج التجار ، ومنهم من خرج خروج الحجاج يبغى مكة .

وما كانت مثل هذه الدعوة بالأمر الهين ، لذلك اختير لها رجال لهم دهاء ولهم حيلة . ولكن شيئا آخر انتفعت به الدعوة غير هذا .. هو أنها بدأت فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان عمر عادلا لايرى العنف بالناس ، متسامحا لايجيز أن يستمر الأمويون على لعن على فى خطبهم من فوق المنابر فأفسح عدله وتسامحه للدعاة أن يقولوا شبه آمنين ، وأفسح عدله وتسامحه للناس أن يسمعوا مطمئنين .

وماأدركت المنية محمد بن على فى السنة الخامسة والعشرين بعد المائة إلا بعد أن قطعت الدعوة أشواطا بعيدة ، فحمل ابنه إبراهيم من بعده العبء صادقا ، يعينه على أمره كثرة ممن انضموا إليه ، ويعينه على أمره تفرق كلمة الأمويين وانحلال قواهم .

وحين أوشكت السنة الثانية والثلاثون بعد المائة أن تنتهى .. كان ملك الأمويين هو الآخر يوشك أن ينتهى ، وإذا العلم الأسود وهو شعار العباسيين يرفرف على ربوع دمشق ، وتدول دولة لتحل مكانها دولة . وكانت تلك الدولة الدائلة .. هى دولة الأمويين ، وكانت هذه الدولة الجديدة .. هى دولة العباسيين .

كان ذلك بعد موت أبى هاشم بما يقرب من خمسة وثلاثين عاما ، مرت تلك الأعوام كلها للتمهيد للدعوة والتمكين لها . ولكنها مرت أيضا توهن من سلطان الأمويين ، وتهز من كيانهم . فلقد اختلفوا على أنفسهم مع هذه الأعوام التى اتحدت فيها كلمة الدعوة وانتظمت ، وكانت الأعوام تعطى لفريق وتمنع عن فريق ، ولو أن الأعوام مضت تعطى الفريقين معا لطال الأمد على ظهور الدعوة ، ولجر طول الأمد إلى إخفاقها ، فالدعوات أقتل

الأشياء لها أن يطول أمد انطوائها . وماانطوت الدعوة العباسية هذه الفترة كلها منذ مات أبو هاشم سنة ٩٨ هـ إلى حين كتب لها النصر الحاسم سنة ١٣٢ هـ . لكنها كانت مع مرور الأعوام تخرج من طور إلى طور ، ومن سر إلى مايقرب من جهر ، ومما يقرب من جهر إلى جهر ، فكانت هذه الأطوار المختلفة سببا هوّن على الداعين طول الأمد ، وهون على الناس طول الانتظار .

وماذاق حلاوة النصر محمد بن على ولاذاقه ابنه إبراهيم من بعده ، ولكن فاز بعقبى هذا الكفاح الطويل ابن آخر لمحمد بن على .. هو أبو العباس السفاح ، وكان مولده سنة ١٠٤ من الهجرة ، وكان يراه أبوه صاحب الأمر ، بهذا أوهم نفسه وأوهم الشيعة من حوله ، أوهم نفسه ليعود نفسه الصبر وهو يأمل ، وأوهم الناس ليحملهم معه على الصبر دون أن يملوا ، إذ كان على الناس أن يصبروا للدعوة ومرارتها إلى أن يشب الوليد ، وإلى أن يبلغ مبلغ الرجال . أعواما أراد محمد أن يقطعها على الناس مملوءة أملا ومملوءة رجاء ، فيكسبهم على الجهاد الطويل الشاق . وماانظر [illegible] كان يؤمن بما قال للناس ، ولاكان يعلم الغيب ، ولكنه كان ذكيا وكان لبقا وكان جد خبير بتحريك النفوس وكسب القلوب وإدارة دفة الأمور .

— ٩ —

ويلى أبو العباس الخلافة الأولى لتلك الدولة الجديدة ، يليها وفى نفسه مافيها من ترات كثيرة خلفها الأمويون حين استأثروا بالملك ، وحين كان الملك فى أيديهم ، لايمحوها من صدره أن الملك صار إليه . وبالكأس التى سقى بها الهاشميون سقى أبو العباس الأمويين فأسرف فى القتل ، وسفح دماء كثيرة ، فسموه السفاح لذلك .

أراد أبو العباس السفاح أن يؤمن لنفسه فتجاوز الحد فى ذلك التأمين ،

ولقد فعل الأمويون شيئا كان من ورائه من يتلقفه ليفيد منه كي يزحزحهم عن مكانهم ويسترد ماسلبوه . ولكن الأمويين بعد هذه الدولة ، وبعد هذه النكبة التى أودت بهذه الدولة ، ماكان لهم حق يجتمعون عليه مثل ذلك الحق الذى اجتمع عليه الهاشميون ، فلقد دخلوا إلى الحكم عن طريق اصطنعوها ، وواتتهم الظروف كما مر بك . فما إن دخلوا إلى الحكم حتى شفوا أنفسهم شيئا ، وكانوا على أن يصانعوا الهاشميين لينالوا مع الحكم خضوع أصحابه لهم ، ليشفوا أنفسهم شفاء ثانيا بهذا الخضوع ، وحين عز عليهم الهاشميون ، واستعصوا ، قتلوهم ليسلم لهم أمرهم ، ورأوا نار الهاشميين كلما أخمدوها اتقدت فهلعوا ، وخافوا على ملكهم فأسرفوا فى العذاب ، ومالوا إلى الغدر .

فللخوف من الهاشميين نال الأمويون من الهاشميين ، وللانتقام من الأمويين نال الهاشميون من الأمويين ، ولرد العدوان عن النفس قتل الأمويون الهاشميين ، ولشفاء النفس قتل الهاشميون الأمويين . ثم زاد الهاشميون فقتلوا الأمويين لالشىء من هذا ولالشىء من ذاك .

و حسب أبو العباس أنه أرضى العلويين حين أرضى نفسه بقتل خصومهم وخصومه ، رضا يمحوا ما فى نفس العلويين من تطلع إلى الحكم . ولكنه أنسى أن الحكم شهوة من شهوات النفس مثل الجوع والظمأ لا يسدها الا أن تطعمه وتسقيه ، فكما لا يغنى الجائع والظامىء عن الطعام والماء إلا بما يملأ البطن فيشبع ويروى اللسان فيندى ، كذلك لايغنى طالب الحكم إلا أن يحكم ليشبع . ولقد حاول الأمويون مثل هذه مع الهاشميين فما أقنعوهم ولا صرفوهم عن حقهم . بذلوا لهم المال فوجدوا المال لا يشبع تلك الشهوة ، وأفسحوا لهم فى الإكرام فوجدوا الإكرام وإن غلا لا يشبع تلك الشهوة . وحين فقدوا أسباب السلم أخذوا فى حربهم وقتلهم وتشريدهم وتعذيبهم . فوجدوا الإرهاب كالترغيب لا يطفىء تلك الشهوة .

ولكن الحكم كما هو عزيز على من يطمع فيه .. عزيز على من هو فيه . من أجل ذلك حرص عليه الأمويون حين بات فى أيديهم .. حرص الهاشميين عليه حين فاتهم وخرج من أيديهم .

وكما وقف الهاشميون جميعا من الأمويين وقف العلويون وحدهم من العباسيين ، وكما تطلع الهاشميون جميعا إلى الحكم ينتزعونه من أيدى الأمويين ، تطلع العلويون وحدهم إلى الحكم ينتزعونه من أيدى العباسيين .

وهكذا كتب على العلويين من بين الهاشميين أن يذوقوا العذاب مرة ثانية ، وأن تمتد بهم المحنة إلى أمد جديد . يتلقف منهم الحكم فى المرة الأولى الأمويون بأسباب هينة ، ويتلقف منهم الحكم فى المرة الثانية العباسيون بأسباب هينة ، وكما لم يقصروا فى الأولى لم يقصروا فى الثانية ، لكنهم فى الأولى كانوا كثرة ، إذ كانوا هاشميين ، وهم فى هذه قلة ، وكانوا فى الأولى على أول الطريق ، فكان شغل الناس بهم كبيرا ، وهم فى الثانية قد قطعوا من الطريق أميالا فشقوا على أنفسهم وشقوا على الناس ، ولم يبت شغل الناس بهم كبيرا .

ولكنهم على هذا كله ولم يملوا ، ولم يمل الناس معهم ، وأخذوا يدبرون لزحزحة بنى عمهم ، واسترداد حقهم منهم .

ولكن العباسيين ما آمنوا بأن الذى صار فى أيديهم ليس حقا لهم ، ومن قبلهم ما آمن الأمويون بأن الذى صار فى أيديهم ليس حقا لهم . وكما .. حرص الأمويون على هذا الذى عدوه حقا حرص العباسيون على هذا الذى عدوه حقا ، وكما عادى الأمويون الهاشميين لخروجهم عليهم .. عادى العباسيون العلويين لخروجهم عليهم . وكانت الخصومة هنا كما كنت هناك لا ترحم ، كما لم ترحم سابقتها ، وأنسيت القرابات هنا كما أنسيت هناك ، لا يذكر إلا الحكم .. فهو أقرب إلى النفس من كل قريب وأعز على النفس من كل عزيز .

فلقد أخذ محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على يدعو لنفسه سرا ، فالتف حوله ناس ، حتى إذا ما كثر أنصاره .. ظهر يريد الأمر لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين ، ولقد دان له أهل مكة ، ودان له أهل المدينة .

وما انتفع النفس الزكية بخروجه ، ولا انتفع بإمارته ، فسرعان ما وقعت عليه يد عيسى بن موسى بن على بن عبدالله بن عباس وقتله .

فتلقف الدعوة من بعد النفس الزكية أخوه إبراهيم . وكما لم يهب إبراهيم لم يهب الناس من حوله . فلقد كانت عقيدة كما قلت لك ، يؤمن بها أهلها الإيمان كله ، يؤمنون بها دينا ودنيا : دينا يقيم الدنيا ، ودنيا تمهد السبيل لقيام الدين : ويؤمن بها أصحاب أهلها الإيمان كله ، يؤمنون بها هم الآخرون دينا ودنيا : دينا يرونه قد تعطل حق من حقوقه ، وقد يغلو بعضهم ويقول : ركن من أركانه ، ودنيا ، لأنهم كانوا طامعين يحبون الحياة بمتاعها ولا يحبونها مجردة عن متاعها .

من أجل ذلك هان على هؤلاء وهؤلاء الموت . هان على أهل الدعوة لأنهم رأوها رسالة وهم حاملوها ، وهان على أصحابهم لأنهم عدّوا أنفسهم حفظة لهذه الرسالة ، حريصين عليها حرصهم على نعيم الدارين .

وسرعان ما انضم إلى إبراهيم كثيرون من ذوى الرأى والجاه فى البصرة . وكما أعان الإمام مالك أخاه محمدا من قبل على المنصور فأفتى بنقض البيعة التى انعقدت للمنصور - لأنها أخذت اغتصابا وأكره الناس عليها ، ففتح القلوب للشك فى أمره ، وحرك الألسنة بالنيل منه ، وعبّد السبيل بذلك لمحمد كى ينادى بنفسه أميرا للمؤمنين ، وأتاح لنفر من الناس أن يلتفوا به عن حجة - كما أعان الإمام مالك محمدا هذا العون .. أعان الإمام أبو حنيفة إبراهيم أخاه ، ولكن الإمام مالكا ملك أن يفتى وتذيع عنه فتواه فيفيد منها الناس ، ويفيد منها محمد ، ولكن الإمام أبا حنيفة لم يملك غير أن يعين سرا ويؤيد سرا . ولكن هذا الذى كان يعد سرا كان أقرب إلى

الجهر ، فما كان أحرص الداعين على تأييد إمام كأبى حنيفة ، لا يقول إلا قالوا عنه ، ولا يشير إلا أشاروا عنه ، وكأنه هو القائل وهو المشير ، لا يعدون هذا التكتم الذى بغاه غير إلا يسمعه الناس متكلما ، وغير ألا يراه الناس مشيرا .

لهذا كان جهرا ما أراده الإمام أبو حنيفة سرا . لم يسمع الناس أبا حنيفة يقول ولا رأوه يشير . ولكنهم سمعوا الناس يروون عنه ، ورأوا الناس يشيرون بإشارته . وما كذب أبو حنيفة من رووا عنه ، ولا من أشاروا ، فلم يكذب الناس الراوين عنه ، ولا المشيرين بما أشار .

وهكذا أفاد أبو حنيفة إبراهيم بعونه ، وهيأ أهل واسط والأهواز وفارس لأن يستجيبوا له ، والتف حول إبراهيم مؤيدون ومستجيبون وناصرون .

غير أن ما أصاب محمدا أصاب ابراهيم ، لم يختلف القاتل ولم يختلف القتلة ، فلقد كان عيس بن موسى هو الذى قتل محمدا ، وكان عيس بن موسى أيضا هو الذى قتل إبراهيم أخا محمد ، قتل إبراهيم وقتل محمدا فى عام واحد سنة ١٤٥ هـ ، وقتل إبراهيم كما قتل محمد قتلة نكراء .

وتهدأ الدعوة قليلا لتظهر مرة أخرى على يد الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بالمدينة سنه ١٦٩ هـ . وكان الهادى عندها خليفة للعباسيين ، فيرسل الجيوش لحرب الحسين ، وتلقى جيوش الهادى الحسين قريبا من مكة ، وكان الحسين قد خرج من المدينة إلى مكة يدعو لنفسه ويهيىء لأمره . وكان قد التف به ناس كثيرون ، منهم جملة كبيرة من أهله .

وكأنى بتلك الستين التى جاوزت العشرين - أى منذ قتل إبراهيم سنة ١٤٥هـ إلى أن ظهر الحسين .. سنة ١٦٩ هـ - قد مكنت للحسين فزادت من ناصريه ، وأكثرت من جنده ، فإذا هو يلقى جيش الهادى غير ضعيف ولاقليل عدده ، وإذا الجيشان يقتتلان أشد قتال وأمرّه ، وإذا المعركة

تشتد .. لتشتد على الحسين ومن معه ، وإذا من معه كمن كانوا مع غيره بالأمس ينكصون حين يلتقى الجمعان ، وإذا الحسين فى أهله بعد أن فر عنه أصحابه ، وإذا كربلاء التى قتل فيها الحسين الأكبر تتمثل فى فخ - مكان يبعد عن مكة بستة أميال - الذى قتل فيه الحسين الأصغر ، وإذا قتلى فخ يبلغون عدد قتلى كربلاء ، وإذا محنة فخ تحكى محنة كربلاء ، وإذا الناس الذين هالتهم كربلاء تهولهم فخ ، وإذا الشيعة مع فخ يكسبون سببا له قوة ذلك السبب الذى كسبوه فى كربلاء . إثارة للنفوس ، وهزا للقلوب ، وإشعالا للأفئدة .

وماكان أحوج الشيعة إلى كربلاء أخرى يقيمون عليها ويقيمون الناس معهم عليها . ولقد أعطت كربلاء الأولى فائدتها ، ولكن تلك الفائدة وقعت للعباسيين ولم تقع للعلويين ، فكان لابد للعلويين من كربلاء ثانية ليقيموا بها الدنيا معهم كما أقاموها من قبل ، على أن تكون لهم هم فائدتها .

وكأنى بالعلويين ، رموا بأنفسهم فى أتون الثورات لاإحجام ولاخوف ولاانثناء .. على الرغم من تلك النذر التى كانت تسبق الإقدام ، يريدون بذلك أن يحمّلوا خصوم اليوم - أعنى العباسيين - كما حملوا خصوم الأمس - أعنى الأمويين - تبعات يفيد منها العلويون ويخسر خصومهم .

وكأنى بالحسين بن على بن الحسن أرادها على هذا الوجه الكئيب المفزع . أراد أن يجعل التشابه فى الاسم يتبعه تشابه فى الفعل ، وأراد أن يجعل التشابه فى الفعل يتبعه تشابه فى الأمر .

وقد تحقق للحسين بن على بن الحسن ماأراد ، فإذا فخ بما وقع فيها قد أنست الناس كربلاء ، وإذا الشعراء يقولون عن فخ كما قال سابقوهم عن كربلاء ، وإذا شعر فخ ينسخ شعر كربلاء ، وإذا فخ تذكر ، وإذا كربلاء تنسى .

وكما فات الأمويين نفر من العلويين يوم كربلاء ، عاشوا ليحملوا العبء من بعد آبائهم ، فات العباسيين يوم فخ نفر من العلويين ، فرّوا ليحملوا العبء عن إخوانهم الذين سبقوهم .

فلقد نجا يحيى بن عبد الله ونجا معه أخوه إدريس ، ليحملا العبء وليكونا شجى فى حلوق العباسيين .

ولقد كانت فخ كما كانت كربلاء شيئا مذكورا ، من أجل ذلك كان يحيى بن عبد الله شيئا مذكورا ، وكان إدريس من بعده شيئا أشد ذكرا .

ففى أيام الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ) ثار يحيى ، وثارت معه الديلم وإذا اليمنيون بعدها فى إثر الديلميين ينضمون إلى يحيى ، وإذا يحيى بالديلم وباليمنيين قوة يخشى بأسها ، ويخاف ضرها ، وإذا الرشيد فى قوته وفى بأسه يخشى ويخاف ، وإذ الرشيد يجمع للفضل بن يحيى البرمكى جيشا قوامه خمسون ألفا ، يريد أن يدفع به لحرب يحيى بن عبد الله .

وكان الفضل بن يحيى البرمكى يعرف الحرب ويعرف شيئا آخر إلى جانب الحرب أنفع له ولجنده ، وأجدى على الخليفة ، كان يعرف الحيلة ويعرف أنه إن أفلح فيها .. وفر عليه وعلى الناس عناء ثقيلا ، قد يمعن فى الثقل فيودى به هو ، ويودى بالناس ، كما يوفر على الخليفة ماهو فوق هذا كله ، فقد يمعن هذا العناء فى الثقل فيخرج بالخليفة عن خلافته ، ويقلب الأمور رأسا على عقب .

كان الفضل يعرف الحيلة كما يعرف الحرب ، وكان بالحيلة أعرف ، من أجل ذلك .. خرج على رأس جيشه هذا الكبير يمهد به للحيلة لايمهد به للحرب ، خرج يستتر به حيلته حتى لايقال عنه إنه يحتال عن ضعف ،

وصاحب الحيلة إن لم يبد فوق حيلته ، لم يبلغ بحيلته مايريد ، وإن بدا دون حيلته سقط وسقطت حيلته ، وعاد وقد خسر فوق مايريد .

وهكذا لقى الفضل يحيى .. قبل أن يلقى جيش الفضل جيش يحيى ، وكان أسلوب الفضل مع يحيى هو ذلك الأسلوب الذى انتهجه الناس من قبل ، ولا يزال الناس ينتهجونه إلى اليوم حين يريدون أن يحتالوا ، وحين يريدون أنْ يصرفوا غيرهم عن شىء أو يضموهم إلى شىء ، أسلوب ليس فيه غير بسط الأمانى فساحا ، وبسط الترغيب واسعا ، فإن لم يسعف هذا ولا ذاك جاء الإرهاب مكان الأمانى ، وجاء التخويف مكان الترغيب ، يساق هذا ويساق ذاك ، سوقا لا يثير النفس فتغضب ولا يغضب القلب فيأبى ، وعلى هذا كانت الحيلة شيئا سهلا حين نسمعها ، ولكنها شىء صعب حين نعملها ، وهى سلاح إن أحسنت استخدامه كسبت به فوق ما تكسب بالحرب ، وإن أسأت استعماله خسرت به فوق ما تخسر فى الحرب .

ولقد كان الفضل بن يحيى رجل حيلة ، كما ذكرت لك ، وحسبه أنه غرر برجل فى قدر يحيى فصرفه عما خرج له ، صرفه بتلك الوعود وتلك الأمانى التى صُرف بها كثير غيره من قبل .

قد تقول : إن يحيى حين فر من فخ .. فر عنها بنفس فيها الجزع وفيها الهلع ، من أجل ذلك لم تقع يده على خيط الأمانى حتى استمسك به .

ولكننا نقول : إن يحيى لو كان الجزِع الهلِع .. لاستكان بعد أن فر ، ولقبع بعد أن نجا ، ولكنه حين ثار دل على أن فراره كان ليعود ، وأن نجاءه حين نجا .. كان لينتقم .

وقد تقول : إن يحيى أحس ضعفه عن أن ينال من خصمه ، بعد ما رأى من تجمع خصمه له ، فى ذلك العدد الكبير والعتاد العظيم .

ولكنا نقول : إن الشيعة ما نظروا إلى تكافؤ قواهم مع قوى خصمهم ،

ولا ألقوا بالا إلى أنهم قليل ، وعدوّهم كثير ، ولو أنهم نظروا إلى تلك ، وألقوا بالا إلى هذه ما تحركوا ولا ثاروا .

ولقد كان جيش يحيى جيشا كبيرا قويا ، اجتمع به ليخرج ، وما جمعه هو لنزهة أو رحلة .

ولكن الفضل كان داهية ، وكان يحيى عاقلا ، ولكن دهاء الفضل غلب عقل يحيى ، ولو أن بين أيدينا ما قال الفضل وما قال يحيى لملكنا الأسباب حين نحكم ، ولكن هذا لن يعفينا من أن نذهب بعيدا فنقول : نكاد نتهم الفضل بأنه ادعى ليحيى شيئا ، ونكاد نتهم الفضل بأنه أقسم أو حاول أن يقسم للفضل على ما ادعى ، من أجل ذلك صدقه يحيى واستجاب له .

ولكنا نذهب بعيدا فى اتهام يحيى فنقول : وهل يفعل المحتال المتداهى غير ما فعل الفضل ، إن صح أن الفضل فعل ما قذفناه به ، ثم نقول : كيف غاب هذا عن يحيى ؟

ولكنا نعود فنقول : لقد كان الأمر أجل من أن يرده يحيى ، ولقد كانت الحيلة أدق من أن ينكث نسجها يحيى ، فلقد شارك فيها الرشيد فكتب على نفسه أمانا ليحيى ، ثم شارك فيها غير الرشيد من القضاة والفقهاء ، ثم شارك فيها نفر من كبار بنى هاشم ، أمضى الرشيد وشهد عليه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم .

ولقد أجاب الرشيد يحيى إلى ما طلب ، وماذا يعنى يحيى غير هذا ، وما أغناه عن الحرب إن نال بالسلم وإلا كان أخرق .

وقبل أن يُقبل يحيى على الرشيد ، وقبل أن يجنح يحيى إلى السلم ، جاءه كُتاب الرشيد بهذا الأمان وبهذه الإجابة وبهذه التزكية من القضاة والفقهاء ، وكبار بنى هاشم .

وتحرك يحيى للقاء الرشيد ، وما نشك فى أنه تحرك إليه حذرا يحتاط ، وحين لقى يحيى الرشيد زال عنه حذره ، وزالت عنه حيطته . فلقد لقيه الرشيد مرحبا به مبجلا له مكرما إياه . وما كان الرشيد رجلا من الرجال ، ولكنه كان رجلا فوق الرجال . هكذا رآه يحيى ولهذا أطرح يحيى شكه كله ، وحذره كله ، وحيطته كلها ، وعاد إلى اطمئنانه كله ، وحين يعود المرء إلى اطمئنانه كله يفقد البصر ، ويفقد الوعى ويفقد التدبير .

ولهذا أنسى يحيى أن الفقهاء رعية الرشيد . قد أنسوا هم الآخرون صلتهم بأوامر الفقه ونواهيه ، وذكروا صلتهم بأوامر الرشيد ونواهيه ، يؤثرون أن يجعلوا فقههم يستجيب للرشيد ، ولا يجعلون الرشيد يستجيب لفقههم ، وأن كبار الهاشميين حياتهم موصولة بغضب الرشيد ورضاه ، أن أرضوه بقوا وإن أغضبوه لم يبقوا .. وما أحرصهم على أن يبقوا ، وأن الرشيد يملى عن طبيعتين : طبيعته مَلكا وطبيعته انسانا ، وهو ما دام فى الملك تغلب طبيعته الأولى طبيعته الثانية ، فلا يصدر إلا عن أثرة ، والأثرة تجر الملوك إلى نسيان كثير من الحق ، ونسيان كثير من الذمم والعهود .

لقد أنسى يحيى هذا كله حين اطمأن ، فإذا هو يلقى الرشيد دون أن يحتاط لشىء ، وإذا الرشيد بعد أن يضع يده عليه يقتله ، لا ندرى على أية صورة قتله ، ولكننا نعلم علم اليقين أنه حرمه الحياة ، وحرم هذا الميدان الشيعى منه ، وظن الرشيد أنه أراح نفسه من يحيى ومن الشيعة .

– ١١ –

وكانت تلك المحن المتتالية كفيلة بأن تهيىء العلويين لتفكير جديد ، ولقد كاد الشرق أن يسأم هذا النزاع ويمله ، ولقد أحاطه بتأييده كله حين كان نزاعا له صورة واضحة تكاد تكون عقيدة ، ثم أخذ يتراخى فى حياطته بتأييده حين رآه نزاعا لا صورة له واضحة تبلغ أن تكون عقيدة ، فلقد آلت

الحق للعباسيين وهم هاشميون ، ومن قبل اغتصب الأمويون هذا الحق وهم غير هاشميين ، من أجل ذلك هاج الشرق يناصر الهاشميين مناصرة قوية ، حين كان الأمر فى يد الأمويين ، ثم مناصرة فاترة حين كان الأمر فى يد العباسيين .

ولقد أحس العلويون الأمر بينهم وبين العباسيين على صورة غير التى أحسوها حين كان الأمر بينهم وبين الأمويين : فلقد كانوا فى الثانية يحاربون خصوما ، وهم فى الأولى يحاربون أقرباء ، وكانوا فى الثانية يملون عن عداء قديم له أصله ، وهم فى الأولى يستملون عن خصومة ناشئة لها عذرها ، ولقد كان الناس معهم على نفس الحال ، يحسونها حارة فى الثانية .. فاترة فى الأولى ، وما على الناس إذا اختلف الأقرباء أن يختلفوا هم على أنفسهم .

أحس ذلك إدريس من بعد يحى ، فنظر يفتش عن ميدان جديد يضم قلوبا جديدة . ميدان لم يشهد هذه المعارك ، ولكن كان على علم بها ، ميدان لم يشغل بهذه المعركة يده إلى رأسه ، ولكنه شغل بها رأسه دون يده . واليد حين تكلف فوق طاقتها تكل ، إذا كلَّت .. جرت الرأس إلى أن يتدبر ليخفف عنها ويريحها ، ولقد كلت الأيدى فى الشرق .. فجرت الرءوس إلى هذا التدبر . من أجل ذلك فتر الناس وأسترخوا . وكان غير الشآم وغير العراق ذلك الميدان الذى شغل رأسا ولم يشغل يداً ، والرأس إذا شغل ولم تشغل معه اليد ، كان أرخى له وأودع ، فيبيت ويصحو على ما شغل به .. متعلقا به يود لو شارك فيه ، حين يقنع به .

وما نظن هذا الأمر الذى جعله الناس فى ذاك الميدان الأول عقيدة .. إلا سوف يجعله الناس فى هذا الميدان الجديد عقيدة ، وما نظن الداعين لهذا الحق سوف يلقاهم الناس فى هذا الميدان الجديد إلا بالترحيب والقبول .

لقد فكر فى هذا وذاك إدريس ، فكر فى الميدانين معا ، فإذا هو يعدل عن الميدان الأول إلى الميدان الثانى ، يحب أن يلقى الناس لم تشغل أيديهم رءوسهم فيفتحوا له قلوبهم . بعد أن أغلقها دونه رجال الميدان الأول الذى عوقت أيديهم رءوسهم .

إلى هذا الميدان الجديد رنا إدريس ، فإذا هو يقصد المغرب ، وإذا هو يحل شمال إفريقيا يدعو ، وإذا الناس حوله يستجيبون مؤيدين .

وكما رجا إدريس هذا الميدان الجديد .. خاف الرشيد من هذا الميدان الجديد ، خافه الرشيد بقدر ما رجاه إدريس ، ورآه الرشيد كما رآه إدريس ميدانا بكرا قد يجر عليه مالا قبل له به .

من أجل ذلك فكر الرشيد ينعم الفكرة ، وما كان الرشيد فى حاجة إلى أن يجهد فكره ، فكما خلص من يحيى يستطيع أن يخلص من إدريس ، ولكن يحيى كان منه قريبا ، وإدريس منه بعيدا . ولعل الفرق بين الحالين .. يسر هذا ، وعسر ذاك ، ولعل هذا هو ما أجهد فكر الرشيد .

ولكن الرشيد لن يعدم قاتلا يأجره فى الثانية . كما لم يعدم فى الأولى ، وما على الرشيد إلا أن يضاعف الأجر ويزيد .

لم يبد هذا للرشيد جليا أول الأمر ، لأن الملوك حين يحزبهم شىء – وإن هان – يضيقون ، وحين يضيقون تلتوى عليهم الأمور ، وحين تلتوى عليهم الأمور يجدون صعبا ما هو سهل .

وأخص الملوك دون الناس لأنهم يخالون حين يملكون أنهم قد ملكوا الأمور كلها من حولهم ، فإذا استعصى عليهم منها شىء صدموا فى هذا الخيال ، فاستحال ظلاما فى أعينهم ما كان نورا ، واستحال ضيقا فى أنفسهم ما كان فرجا ، لا يعرفون حالا وسطا ، فإذا هم ثائرون الثورة كلها ، وإذا هم لا يملكون عقلا ولا رأيا ولا فطنة ، فى ظل هذه الثورة كلها .

فلا عجب أن يضيق الرشيد أول الأمر حين فكر فى إدريس وفى الخلاص من إدريس ، ولا عجب أن ارتاح الرشيد آخر الأمر حين خلص من إدريس كما خلص من يحيى ، فلقد وقع الرشيد على من يقتل إدريس ، ولقد أفلح هذا الرجل حين اتصل بإدريس ، ثم أفلح حين جعل إدريس يثق به ، وأفلح حين جعل إدريس يستخلصه لنفسه ، ثم أفلح أخيرا - إن صح أن هذا إفلاح - حين دس السم لهذا الرجل الذى وثق به .

وهكذا دخل هذا الرجل على إدريس كما دخل الرشيد على يحيى ، ولكن إدريس كان له شىء من العذر ، على حين لم يكن ليحيى عذر . فمن اليسير على المرء أن يخدع بصديق كما خدع إدريس . ومن اليسير على المرء أن يثق بصديق كما وثق إدريس ، ولكن من العسير أن يفعل الناس كلهم مما فعل هذا الرجل بإدريس ، أو أن يخسر الناس خلقهم كما خسر هذا الرجل خلقه .

ولكن هذا الرجل حين خسر خلقه .. كان له فيمن هم فوقه أسوة ، وإن اختلفت الصورة بينه وبينهم ، ولكنها على الرغم من هذا الاختلاف صورة واحدة ، فليس من فرق بين أن يأمر الكبير بالغدر ليأتيه غيره ، وبين أن يفكر هو فيه ويأتيه ، فهو على الحالين إثم .. أشرك فيه غيره فى الأولى ، وانفرد هو بالإثم كله فى الثانية ، وهو فى الأول أعظم جرما منه فى الثانية .

وعلى أية حال فقد قتل الرشيد إدريس كما قتل يحيى ، قتل يحيى فخلا له الجو حيث هو فى الشرق فى بغداد وما حول بغداد ، وقتل إدريس يريد أن يخلو له الجو فى شمالى إفريقيا ، فإذا هو يمهد للعلويين بهذا القتل فى هذا الإقليم الجديد لإنشاء خلافة جديدة .

وهذا الميدان الجديد ، كما قلت لك ، ميدان ضم فئات من الناس لم تثقل عليها شئون هذه الدعوة منذ أن نشأت ، ولم يشاركوا فيها برؤوسهم

وأيديهم ، وإنما شاركوا فيها برؤوسهم دون أيديهم ، فوفروا تلك الأيدى لهذا العراك الجديد ، الذى استقبلوا به الرشيد لينشئوا حول تلك الدعوة خلافة ، وليلتفوا حول هذه الخلافة يمكنون لها .

فلقد مات إدريس عن غير ولد ، ولكنه مات عن زوجة حامل ما لبثت بعد موته بقليل أن وضعت ولدا أنس به أهل المغرب أنسا يعوضهم حزنهم على أبيه ، لذلك سموه إدريس باسم أبيه ، وبايعوا له بالخلافة قبل أن يشب ، وإليه نسبت دولة الأدارسة بالمغرب .

– ١٢ –

وهكذا رأى إدريس فصدق وأفلح ، حين اختار ذلك الميدان الجديد . ولعلنا نضيف جديدا إذا قلنا : إن بُعد هذا الميدان عن مقر الخليفة كان له أثر فى نجاح الدعوة ، وكان له أثر فى جذب إدريس إليه . وإيثاره له دون غيره .

وما أبعدت الأرض الرشيد عن أن يكون موصولا بالدعوة ، لا يريد لها الكمال ولا يريد لها الخروج إلى الحياة على صورة دولة إسلامية إلى جانب دولته الإسلامية ، ولقد قتل إدريس حين أوشك أن يكون خليفة ، وأن يكون صاحب دولة ، ولكننا لا نراه يكرر المحاولة مع ابنه الوليد : إدريس بن إدريس ، بل نراه يعدل عما حاول أولا إلى شىء آخر يحاوله يختلف عن الأول . فقد حاول فى الأولى أن يواجه فردا بفرد ، لأن الأمر لم يكن قد استقام استقامته الأخيرة ، بل كان لا يزال كما رأى الرشيد داعيا ومستجيبين ، فإذا ذهب الداعى انفض المستجيبون . من أجل ذلك عزم الرشيد على أن يذهب بالداعى على ذلك الأسلوب الغادر ، ليفض جمع المستجبين بذلك الأسلوب الماكر .

هكذا قدر الرشيد ، فإذا الأمر غير ما قدر ، فلقد ذهب الداعى وبقى المستجيبون ، بل لقد تحول المستجيبون إلى دعاة .

وإذا الرشيد يرى الأمر غير ما رآه أولا ، لا يراه فردا لفرد ، بل يراه جماعة لجماعة ، من أجل ذلك أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب تونس ، ليجعل منه ومن دولته التى فى يديه سدا منيعا فى وجه الأدارسة إن همّوا أن يغيروا ، أوهمّوا أن يخرجوا من أرضهم إلى أرضه ، أو همّوا بأن يطووا سلطانه إلى سلطانهم .

فأنت ترى أن الرشيد بدأ ينظر إلى الأمر نظرة أخرى ، لم ينظر إليه كما كان ينظر إليه من قبل ، ولا كما كان ينظر إليه سلفه من قبل ، حين كانوا جميعا ينظرون إلى هؤلاء المطالبين بحقهم نظرتهم إلى العصاة ، ونظرتهم إلى الخارجين ، ونظرتهم إلى المتمردين .

وظاهر أن نجاح الأدراسة فى مكانهم هذا النائى عن مقر الخلافة شجع غيرهم أن يحذوا حذوهم من العلويين .

فلقد فر محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق إلى الرى ، ومنها إلى دنياوند – جبل قرب الرى – ثم استقر بمكان هناك نسب إليه فكان اسمه محمد أباد . ومضى أبناء محمد إلى خراسان ، ثم إلى قندهار ، ثم إلى السند داعين مبشرين .

كما اتخذوا سلمية – من أعمال حماة بالشام – مركزا لنشر هذه الدعوة يبعثون الدعاة منها إلى سائر البلاد .

غير أن هذا التفرق كله لم يغن شيئا ، فإذا العلويون متبوعون ، وإذا هم مضيق عليهم ، وإذا هم آخر الأمر ملجئون إلى حيث لجأ إخوانهم من قبل الأدارسة ، وإذا هم قاصدون شمال إفريقيا .

وعند هذه كان سلطان العباسيين قد أخذ ينكمش ، وأخذ سلطان العلويين ينبسط ، وأصبح العباسيون يضعفون ، وأصبح العلويون يقوون ، يأخذ الزمان من أولئك ويعطى هؤلاء .

يهدد الزنج الدولة العباسية من طرف ، وتغير العصابات عليها من طرف . ولقد مهد هذا كله إلى قيام دولة فى مكان بعيد عن مقر الخلافة من الشمال على الساحل الإفريقى ، أعنى تونس . ذلك الإقليم الذى كان فى يد ابن الأغلب حين أقطعه إياه الرشيد ، ثم استقل ليستقبل خلافة علوية .. هى الخلافة الفاطمية .

- ١٣ -

وهكذا كانت فخ بمآسيها أبلغ أثرا من كربلاء بمآسيها ، فلقد كانت كربلاء والعداوة فى أول سنيها ، تحمى لها النفوس وتشرئب الأعناق وتتطلع الأعين ، وكانت فخ والعداوة قد طال عليها الزمن فألفتها النفوس ، وانحنت لها الأعناق ، واسترخت لها الأعين ، فكان الخصم فى الأولى عنيفا ، يقظا مترقبا فى حماس ، وكان الخصم فى الثانية عنيفا يقظا مترقبا ولكن فى فتور ، من أجل ذلك .. وجدت الدعوة فرصتها مع الثانية ، ولم تجدها مع الأولى ، وما كانت كربلاء دون فخ ، وما كانت فخ تفوق كربلاء ، فلقد قُتل فى كربلاء الحسين بن على ، أكثر الناس قربى من رسول الله ﷺ ، وقُتل فى الثانية الحسين .. رابع حفيد للحسن بن على ، وبينه وبين الرسول أمد .

وهكذا كان اختيار ذلك المكان من شمال إفريقية ، حيث مدينة فاس ، أبلغ أثرا من سلمية فى الشام ، ففى ذلك المهد الثانى - أعنى فاس - كتب للأدارسة أن يتجمعوا ، وكتب لهم أن يقيموا دولة ، وكتب لهذه الدولة أن تبقى نحوا من مائتى سنة ، أى منذ بويع لإدريس بن إدريس (سنة ١٧٧ هـ) إلى أن آل أمر البلاد إلى الفاطميين (سنة ٣٧٥ هـ) ، وكتب لهذه الدولة أن تجر إليها الدعاة من الشرق ليحتموا بها ، ولينشروا الدعوة فى ظلها ، وما استطاع المهد الأول سلمية بالشام أن يؤمن الدعاة ، ولا أن يحفظ لهم دعوتهم ، فخرجوا عنه إلى المغرب .

وهكذا كان هذا النصر الذى كسبه الأدارسة ، حين أقاموا لهم دولة بالمغرب ، بدء التمكين للعلويين ، وبدء دخول هؤلاء المكافحين إلى الحكم ، وبدءا لاستقرار فئة مكافحة مجاهدة ركبت الصعب الأشق ، فلم تهن ولم تفتر ، وحملت على مالا يقوى على حمله بشر ، فصبرت ولم تفتر وضيقت عليها السبل فلم تيأس ولم تقصر ، دفعت ثمن هذا الاستقرار دما سال على البقاع ، كلما جف دم أسالت غيره ، لم تبخل ولم تقتر .

وكما حمل أبو مسلم الخراسانى دعوة العباسيين ينشرها فى ربوع الشرق ، حمل أبو عبد الله الشيعى دعوة العلويين - الفاطميين - ينشرها فى المغرب ، وكما مهد أبو مسلم لأبى العباس السفاح يحكم باسم العباسيين ، مهد ابو عبد الله الشيعى للمهدى عبيد الله يحكم باسم الفاطميين .

وكان أبو عبد الله الشيعى الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، رجلا من أهل صنعاء ، وكان أول العهد به على رأس الاثنى عشرية ، التى كانت تغلو فى إجلال على بن أبى طالب ، يدين بهذا الرأى ، ويقوم بتعليمه للناس ، حتى عرف باسم المعلم ، وكان صوفيا يعرف الناس له زهده ، ويعرفون له تقشفه ، فجل فى نفوسهم ، ثم جنح إلى الإسماعيلية الداعين إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق والممهدين للدولة الفاطمية .

واتصل أبو عبد الله بالمهدى محمد أبى عبيد الله ، فأنس به المهدى حين رآه ذا كفاية وذا ذكاء ، والدعاة حين يقفون على من فى مثل أبى عبد الله كفاية وذكاء لا يدعونه يفلت من أيديهم ، إذ ما أحوج الداعين إلى كفاية تملى الصبر ، وذكاء يملى النفاذ ، هذا وأبو عبد الله لم يكلف شيئا غير ما يعتقد ، ولم يوجه إلى غير الوجه الذى يحب .

وكانت الاسماعيلية قد جعلت من مدينة سلمية مركزا لها تنشر منه الدعوة ، وعن سلمية كان يخرج الدعاة إلى جميع البلاد يبشرون ويدعون ،

يحتال هؤلاء الدعاة ألوانا من الاحتيال ، تصرف عنهم العيون ، وتجعلهم بمنأى عن كيد العباسيين .

فكان لهم فى كل قطر إسلامى نائب يلى أمر الدعوة ، ويهيىء لها ، وكان إمامهم فى اليمن ابن حوشب ، وكان شيخا من شيوخ الإسماعيلية ، له بأساليب الدعوة بصر ، وعلى يديه تخرج كثيرون .

وحين أنس المهدى بأبى عبد الله رأى أن يرسله إلى اليمن أولا ليعيش فى ظل ابن حوشب فترة يلقن عنه ويفيد . وألمّ أبو عبد الله بابن حوشب يلقن عنه ويفيد ، حتى إذا ما فكر الإسماعيليون فى هذا الميدان الجديد ، ميدان المغرب ، بعد أن ضاقوا بسلمية ، وضاقت بهم سلمية ، وجدوا فى أبى عبد الله رجلهم الذى يعتمد عليه فى هذا الميدان ، ووجدوه لهذه المهمة ذا كفاية وذا ذكاء . ووجد أبو عبيد الله البربر - أهل تونس والمغرب - ذوى حمية ، على استعداد لأن يدفعوا بأنفسهم فى أتون الحرب ، لا يبالون وطيسها ، لم يلتووا عليه بما فى جبلتهم من خشونة واستعصاء ، فلقد كان أبو عبد الله أعلم الناس بما يساس به الناس ، فألان من عريكتهم ، ورقق من طباعهم ، وإذا هم فى يده يحركهم كيف شاء فخلق فى نفوسهم عقيدة ، وخلق منهم بعد هذه العقيدة جيشا ، وخلق من هذا الجيش أنصارا يعيشون ويموتون على الطاعة ، وإذا أبو عبد الله بحزمه وعزمه قد مهد البلاد لاستقبال الخليفة الفاطمى المهدى .

ويحكون أن أبا عبد الله حين انفصل عن اليمن ، تاركا ابن حوشب ، يحفظ فى رأسه عنه ما زوده به ، قصد إلى مكة ، وفى مكة سأل عن حجاج كتامة ، سكان إفريقية ، ولقى أبو عبد الله من كتامة نفرا فوجد عندهم تعلقا بآل البيت ، فدخل إلى نفوسهم من هذا الباب الذى فتحوه له ، فإذا هو يتكلم ويفيد ، وإذا هو على استيعاب كبير لنوادر كثيرة ومآثر جليلة ، وإذا الكتاميون بعد ما أستمعوا إليه قد تعلقوا به يستزيدونه ، وأبو

عبد الله لا يرد لهم طلبا ، وإذا هو والكتاميون بعد حديث طويل تجمعهم صداقة ، وتجمعهم أخوة ، وإذا هم يدعونه ويلحون فى أن يتيح لهم الإلمام به مدة إقامتهم بالحج ، ليسمعوا عنه ويعوا . وما رد أبو عبد الله لكتامة طلبهم هذا ، بل لقد سر به . وكان داهية فأخفى هذا السرور فى نفسه ، وزاره الكتاميون مرة ومرة ، لم ينقطعوا يوما عن زيارته .

وحين أخذ أبو عبد الله يعد العدة للرحيل صحبوه إلى مصر ، يحدثهم أبو عبد الله ويسمعون هم عنه ، كل ذلك وأبو عبد الله لا يفصح عن غرضه ، ولقد استمعوا إليه محدثا فأحبّوه ، ورأوه تقيا فأجلوه ، وعرفوه ورعا فهابوه ، وأحسّوا فيه الزهد فأكبروه .

وهكذا استحوذ أبو عبد الله على ما فى قلوب كتامة كله ، لم يترك شيئا فى تلك القلوب من المعانى الطيبة إلا حازه .

غير أن أبا عبدالله لم يفته - شأن الداعية السياسى الماهر - أن يسائلهم عن بلادهم وأحوالهم ، دون أن يحسوا منه شيئا يدعو إلى الشك أو يدعو إلى الريبة ، فاستخلص منهم أبو عبدالله ما يريد أن يعرف . وعندما انتهوا إلى مصر هَمّ بأن يودعهم ، وهو يظهر أنه يريد الإقامة فى مصر طلبا لمجالس العلم ، وما من شك فى أنه كان يريد غير مصر ، كان يريد المغرب ، ولكنه أظهر غير ما يخفى يستر بذلك غرضه . وكان واثقا كل الثقة أن المغاربة من كتامة - بعد الذى كان منه إليهم ، وبعد الذى كان منهم إليه - لن يتركوه يقيم فى مصر ، فألحوا عليه فى أن يصحبهم إلى بلادهم : الجزائر .

وتمنع عليهم أبو عبدالله بادىء الأمر ، تمنع الراغب المدل ، يظهر هذه الرغبة فى ظل هذا التمنع . ولكنهم على هذا لم يتبينوا منه إلا أنه متمنع غير راغب ، فزادوه رجاء ، وزادهم هو ادلالا ، حتى إذا ما أحس أنهم كادوا

يضيقون بإدلاله ، وخاف أن يتركوه ويمضوا أظهر الرضا على استحياء ، ومضى معهم على الطريق إلى الجزائر .

وتسامعت به القبائل ، فقصدت إليه البربر من كل مكان ، حتى إذا ما أنسوا به وأنس به .. أخذ يبشرهم برسالته ، فإذا هم قد زاد به التفافهم ، وإذا هم قد أولوه ثقتهم ، وإذا الجزائر تصبح مركزا للدعوة الإسماعلية .

ومن قبل أبى عبدالله جاء إلى الجزائر إسماعيليان ، وحاولا أن يمكنا للمذهب الإسماعيلى فى الجزائر ، فأفلحا فى شيء ، وأخفقا فى شيء ، وكان ما أخفقا فيه أكثر مما حاولاه ، ولكنهما على كل حال كانا قد تركا أثرا ما إن ذكر به أبو عبدالله الناس حتى ذكروه .

وما منع ذلك أن يكون لأبى عبدالله فى الجزائر خصوم . فلقد عاداه خلق كثير . مىهم الزعماء ومنهم الفقهاء . غير أن هؤلاء وهؤلاء لم ينالوا منه شيئا ، فلقد كان الرجل قوى الحجة مفلجا ، لا يثبت له خصم إذا حاجه . وكان إذا خضع له الفقهاء خضع له بعد الفقهاء الزعماء . فلقد كان أبو عبدالله عالما على حظ كبير من العلم ، صاحب حجة وصاحب برهان ودليل . استطاع بهذا كله أن يقهر أنداده من الفقهاء ، كما قلنا ، وما كان يملك أن يقهر هؤلاء الزعماء بعلمه ، ولكن هذا العلم الذى قهر به الفقهاء قهر به أبو عبدالله الزعماء أيضا ، فإلى عهد أبى عبدالله لم تكن الزعامة إلا للعلم ، فإذا قال العالم نعم .. ردد الناس من بعده هذه الكلمة دون أن يتساءلوا ، وإذا أجاب العالم بالرفض .. رفضوا كلهم معه دون أن يسألوا ، وهكذا أخضع أبو عبدالله المغرب بعلمه ، وضمه إليه على رأيه ، لم يخض معركة غير تلك المعركة الكلامية التى احتدمت أول الأمر بينه وبين الفقهاء ، ثم انتهت آخر الأمر سلما بينه وبين الفقهاء والزعماء ، وإذا حول أبى عبدالله البربر وعامة كتامة .

ومضت الظروف تساعد أبا عبدالله ، فلقد مات عدو له قوى ، كان على

تونس حاكما ، وكان يعنيه ألا تقوم للفاطميين قائمة ، وكان يعنيه أن يختفى من بين يديه هذا الداعية الخطير أبو عبدالله .

وكان الملك على تونس حين ذاك .. إبراهيم الثانى الأغلبى ، من نسل إبراهيم الأول الأغلبى ، الذى أقطعه الرشيد تونس ليقضى على الأدارسة ، وكما لم يفلح إبراهيم الأول فى القضاء على الأدارسة ، لم يفلح إبراهيم الثانى فى القضاء على الإسماعيلية ، مع اختلاف يسير . فلقد انتهى الأول عن الأدارسة عن عجز ، وانتهى الثانى عن الإسماعيلية عن موت ، وهكذا ذهب الموت بإبراهيم الثانى دون أن ينال من أبى عبدالله شيئا ، كما ذهب بابنه العباس دون أن ينال هو الآخر من أبى عبدالله شيئا ، وإذا أبو عبدالله بين يدى خليفة من بنى الأغلب ، هو زيادة الله ، منغمس فى الترف غارق فى اللهو إلى أذنيه ، لا يعنى بأبى عبدالله ، ولا يعنى بأمر أبى عبدالله ، ووجد أبو عبدالله الفرصة سانحة ، فأذل الأغالبة وبسط نفوذه على البلاد ، وأخذ يجهر فى الناس بظهور المهدى ، وأن أوانه قد آن .

— ١٤ —

وأنفذ أبو عبدالله الرسل إلى المهدى فى سلمية ، يدعونه إلى المجىء إلى إفريقية ، غير أن أبا عبدالله كان قبل أن يرسل إلى المهدى قد مهد له النفوس فملأها بحبه ، ومهد له فى العقول فشغلها به ، وكذلك الدعاة يعرفون كيف يستميلون الناس وكيف يجذبونهم إلى رأيهم فى هوادة ولين .

عرف أبو عبدالله أن أثقل شىء على الناس أن ينزلوا عن شىء مما يكسبون ، فحاول أن يرد عليهم هذا الشىء القليل الذى يدفعونه ، يرد هذا القليل عليهم ، وهو حق مفروض للدولة عليهم ، لينال أضعافه منهم يدفعونه مختارين ، ويكون أبو عبدالله قد كسب القلوب فى الثانية مع مزيد من

المال الذى يريد ، على حين هو فى الأولى إن قبل هذا القليل المفروض خسر القلوب ، وقد يخسر بعدها فوق هذا القليل من المال الذى قبله .

يحكون أن أبا عبدالله لما أصبحت مدينة طبنة فى يديه .. أتاه والى هذه المدينة مع نفر من عمال الجباية ، يقدمون لأبى عبدالله الأموال التى جمعوها من الأهلين ، وأبو عبدالله لبق .. يعرف من أين جاءت هذه الأموال ، ما كان ذلك ليخفى عليه بعد ما أقام فى الجزائر من أعوام ، ولكنه التفت إلى الوالى يسأله : من أين جمعت هذا ؟ .

فيقول له الوالى : من العشور ، ويقول أبو عبدالله فى خبث : إنما العشور حبوب وهذا عين . وكأن عبدالله كان يريد من ذلك الوالى أن يحمل إليه أكداسا مكدسة من الحبوب على ظهور قوافل من الإبل لا تعد ، وأن يعد لهذا كله أهراء واسعة بين يدى أبى عبدالله لتصب فيها ، ولكن أبا عبدالله كان ماكرا وكان خبيثا ، فأراد أن يلفت إليه قلوب الناس ، لاسيما العامة ، يشعرهم أنه معهم ، ويشعرهم أنهم مغبونون ، ويشعرهم أن رسالته أو رسالة الخليفة الذى يدعو باسمه تبغى إنصافهم ، من أجل ذلك التفت إلى رجال من ثقاته يقول لهم : اذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما أخذ منه .

مثل هذا وغيره واجه به أبو عبدالله أهل المغرب ، وأحس أهل المغرب أنه قد أعان فقيرهم ، وخفف عن عاجزهم ، ورعى كَلَّهم ، فأحبوه كلهم ، وهل الناس إن أحصوا إلا بين ضعيف وعاجز ، وكل ما بعد ذلك فهم قلة مستغلة ونزر طامعون فيما فى أيدى هؤلاء الكثيرين . وما كان أبو عبدالله يعنيه إلا أن يرضى كثرة الناس ، وهم جديرون بهذا الإرضاء ، وما كان يعنيه أن تغضب هذه القلة من الناس ، إذ كان يرى الحق معه عليهم .

على هذا النحو مضى أبو عبد الله فى مهمته ، وبهذا النحو جمع أبو عبد الله الناس حوله ، وبهذا وذاك أراد أبو عبد الله ، أن يتلقى المهدى لينادى

به خليفة فى ذلك المقر الجديد ، بعد أن عجز أبو عبد الله ، وبعد أن عجز الدعاة معه عن أن يقيموا المهدى خليفة فى مقره الأول ، حين اختاروا الشرق ميدانا لدعوتهم .

وما كاد رسل أبى عبد الله يبلغون ما أرسلوا به إلى المهدى فى سلمية حتى راحت نفسه ، وحتى بدأ البشر فى وجهه ، وجرى الشكر على لسانه ، عندما أصبح علنا ما كان سرا ، وذاع الخبر حتى بلغ أسماع المقتفى ، الخليفة العباسى .

وبقدر ما راحت نفس المهدى .. تقبضت نفس المقتفى ، وبقدر ما استبشر المهدى .. عبس المقتفى ، وكاد النكر يجرى على لسانه .

وحين يبلغ هذا كله من نفس الخليفة يلحق به غيره ، فإذا هو أمر ، وإذا هذا الأمر ظاهره القبض ، وما ندرى ما بعد القبض .

ولكن المهدى كان أسرع من أمر المقتفى ، فما كاد أمر المقتفى يبلغ المهدى فى سلمية .. حتى كان المهدى قد بلغ سجلماسة .

ولقد ظن المهدى أنه نجا حين غادر الشرق ووقع فى الغرب ، غير أنه حين وقع فى الغرب ونزل بسجلماسة .. وقع فى قبضة أميرها اليسع بن مدرار ، وإذا هو قد وقع فيما فر منه ، وإذا هو مقبوض عليه محبوس .

وما نظن المهدى جاز الطريق من سلمية إلى سجلماسة أمنا كله ، وما نظنه لم يلق كيدا ، بل لقد تعرض لمشاق وتعرض لمحن ، واختفى مرة ليظهر أخرى ، إلى أن وصل سجلماسة ، وكان ما كان من القبض عليه على يد هذا الأمير الذى كان لا يزال على صلة بالخلافة العباسية ، يخافها ويرغب فيما عندها .

وحين كان المهدى فى سجنه كان أبو عبد الله فى فتوحه ، فلقد أراد أن يسلم البلاد إلى المهدى خالصة ، وكانت لا تزال بين أبى عبد الله وزيادة

الله أشياء ، فمضى أبو عبد الله فى حربه مع زيادة الله يرغب فى أن يخلص منها ومنه . ولقد كتب لأبى عبد الله أن يظفر بزيادة الله ، فاستولى على ما عنده كله من مال وسلاح .

وما إن تم له ذلك .. حتى منع من أن يذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة ، فمحا بهذا كل ما للعباسيين من سلطان على هذه البلاد . ثم أمر فسُكّت النقود ، وعلى وجهيها كلمتان اختارهما تحملان التفاؤل ، كما نقش على السلاح شيئا مثل هذا . وحين كتب لأبى عبد الله النصر كله وآل الأمر كله إلى يديه قصد سجلماسة ، ثم قصد إلى السجن فأطلق أبا عبيد الله المهدى .

وحين خرج المهدى من سجنه خرجت معه دولة ، هى الدولة الفاطمية لتظل هذا الساحل الإفريقى وليكون لها الأمر عليه .

— ١٥ —

وجلس المهدى على العرش أميرا للمؤمنين ، يفد عليه الناس داعين مؤيدين . وأخذ يقضى فى شئون الدولة ويدبر أمورها ،يسانده رجلان ، أولهما ذلك الرجل الذى حمل العبء كاملا وسعى فيه مخلصا أبو عبد الله الشيعى ، وثانيهما أخ للمهدى .. دخل إلى الأمر بقرابته أكثر مما دخل إليه بجهده .

ولكنهما على كل حال كانا الرجلين الذين يليان مع المهدى الأمور ، يقضيان فى شىء ويتركان للمهدى شيئا ، وعرفهما الناس مع المهدى ، والملوك يحبون أن يعرفهم الناس وحدهم ، ولا يحبون أن يشرك الناس معهم غيرهم . فإذا ما أحسوا هذه الشركة أحسوا النقيصة تدخل عليهم ، وإذا أحسوا النقيصة فزعوا ، وإذا فزعوا استبدوا ، وإذا استبدوا استأثروا ، يجعلون الأمر كله لهم دون غيرهم .

وهكذا حين أحس المهدى النقيصة تدخل عليه من باب المشاركة فى الأمر .. فزع فاستبد واستأثر بالأمر دون أخيه أبى العباس ، ودون داعيته الذى مهد له أبى عبد الله ، فإذا هو يسلبهما الكثير مما فى أيديهما .

وكما غضب المهدى حين أحس أنه مسلوب ، غضب أبو العباس وأبو عبد الله حين أحسا أنهما مسلوبان ، وإذا هما ينطويان على شىء ، وينطوى المهدى هو الآخر على شىء ، وإذا هما حزب والمهدى حزب ، وإذا الحزبان يتنكر أحدهما للآخر ، ويعيب أحدهما الآخر ، وإذا دب مثل هذا بين الملوك وبين من يحيط بالملوك .. انتقل الأمر من ميدان الكلام إلى ميدان العمل ؛ إما أن يملك الملوك عملا يحسمون به الموقف ، وإما أن يملك المحيطون بالملوك عملا يحسمون به الموقف . ولقد كان المهدى أسرع إلى هذا العمل من أخيه أبى العباس ، ومن داعيته أبى عبد الله فهو يدفع عن شىء فى يده يخاف أن يسلبه ، وهما يدفعان هما الآخران عن شىء فى يديهما يخافان أن يسلباه ، ولكن ما فى يد المهدى كان أكبر مما كان فى يدى أبى العباس وأبى عبد الله ، من أجل ذلك كان إسراع المهدى وكان إبطاء أبى العباس وأبى عبد الله .

وثمة شىء آخر ينضاف إلى ذلك السبب الذى أسرع بالمهدى ، هو أن المهدى كان ملكا يملك الأمر كله ، فلم يتلبث ليحتاط ويتدبر ، وكان أبو العباس وأبو عبد الله لا يملكان من الأمر إلا قليلا ، فكان عليهما أن يتلبثا قليلا ليحتاطا لأمرهما ويتدبرا . وهما لهذا أخذا يثيران النفوس سرا على المهدى ، وتبلغ هذه المهدى ، فيضيف إلى إسراعه إسراعا ، فإذا هو يقع على أبى غبد الله ، ويقع على أخيه ، ويأمر بقتلهما معا .

وما سكت الناس لقتل أبى العباس فثاروا ، وكانوا أكثر ثورة لقتل أبى عبد الله ، فلقد كانت فى أنفسهم جميعا لأبى عبد الله مكانة .

ولكن أبا عبد الله كان قد لقنهم الطاعة لأميره ، وأصبحت الطاعة فى

نفوسهم عقيدة ، حتى ليقال أن الذى تصدى لأبى عبد الله ليقتله ، حين وقف من أبى عبد الله هذا الموقف الأخير وسيفه فى يده ، التفت إليه أبو عبد الله يقول : لا تفعل . فقال له الرجل : إن الذى أمرتنا بطاعته .. أمرنا بقتلك . ثم أجهز عليه .

هكذا كانت طاعة الناس للمهدى ، لم يعرفوا الطاعة لأبى عبد الله بعد أن عرفوا الطاعة للمهدى ، لهذا ما كاد الناس يثورون لمقتل أبى عبد الله حتى هدءوا ، حين خرج إليهم المهدى يأمرهم بالهدوء .

وهكذا مضى أبو عبدالله مجزيا هذا الجزاء الذى لا يتفق وما أداه ، ويذكرنا مقتله بداعية آخر قبله مهد مثل ما مهد ، وفعل مثل ما فعل ، ولكنه هو الآخر مضى مقتولا ، لم تشفع للأول أياديه .. كما لم تشفع لأبى عبدالله أياديه .

فلقد مهد أبو مسلم الخراسانى للدولة العباسية ، وحمل فى ذلك عبئا كبيرا ، وجهدا متصلا . وحين أحس أبو العباس السفاح أن لأبى مسلم شأنا ، وأن شأنه هذا كاد يخالط شأنه ، خافه وفزع منه ، وسعى إلى قتله .. فقتله ، ومضى أبو مسلم مجزيا بهذا النكر لا الشكر .

وكما مضى أبو مسلم مضى أبو عبدالله ، كلاهما دعا للدولة التى نشأ فى ظلها وآمن بها . وكلاهما أخاف مولاه ، وكلاهما شك فيه مولاه ، فإذا الجزاء هنا يشبه الجزاء هناك ، وإذا المهدى مثل أبى العباس السفاح ، هذا يقتل داعية ، وذاك يقتل داعية ، يقسى الملك قلب هذا كما قسى الملك قلب ذاك ، وتنزع الدنيا الرحمة من قلب المهدى ، كما نزعتها من قلب أبى العباس ، لا يلتفت أحدهما لماض طويل ممتد ، كله جهد وكله تضحية .

ولكنا على هذا لا نريد أن نهون من ثورة الناس بالمهدى لقتله أبا

عبدالله ، فما نرى أن المهدى أخضع الناس بهذا اليسر اليسير ، ولكنه لقى شدائد كثيرة ، ولقى أهوالا متصلة يخرج من شدة إلى شدة ، ومن هول إلى هول .

يحكون .. أن كتامة انتقضت على المهدى حين قتل أبا عبدالله الشيعى ، ونصبوا طفلا لقبوه المهدى ، يزعمون أنه هو . ونشأ لهم فى ظل هذا زعم آخر ، فزعموا أن أبا عبدالله الشيعى لم يمت . فخف المهدى لحربهم ، وسرعان ما قضى على الفتنة بينهم بعد أن قتل ذلك الطفل الذى لقبوه المهدى .

وكما انتفضت كتامة انتفض أهل طرابلس ، يثيرون على المهدى الفتنة ، وكما أخضع المهدى كتامة .. أخضع أهل طرابلس .

وبين هذا وذاك .. ثارت فتن وحدثت قلاقل ، كلفت المهدى وجيشه شيئا كثيرا ، وما كاد المهدى يخلص من هذه الفتن كلها ، وتستقيم له الحياة ، حتى ودع تلك الحياة ليلقى ربه بصفحته كلها . خيرها وشرها ، تاركا إمارة المؤمنين من بعده لابنه أبى القاسم .

وما من شك فى أن الحياة لم تصف كلها لأبى القاسم ، فلقد كانت الدولة لا تزال تحمل فى طياتها بقايا من فتن قديمة ، خلفها مقتل أبى عبدالله ، ثم فتن جديدة .. أثارها أبو القاسم نفسه ، فلقد كانت له حروب شنها هنا وشنها هناك ، ليفسح لملكه أن يمتد ، يعنينا منها نظرته إلى مصر وإرساله حملة صغيرة إليها ، وما إن أشرفت هذه الحملة على الاسكندرية وتملكتها ، حتى ردهم عنها الإخشيد ، فقفلوا راجعين إلى المغرب .

ويموت أبو القاسم ، ويليه ابنه المنصور إسماعيل . وما صفت للمنصور حياته كلها ، كما لم تصف لأبويه من قبله ، إلى أن توفى سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، بعد أن قضى فى الخلافة ما يقرب من سبع سنين ، فخلفه ابنه المعز لدين الله .

ولقد استقامت الأمور للمعز فى إفريقية والمغرب ، يناصره على أمره كله قائد له قوى .. عرف بالبطش وسعة الحيلة ، وكان إلى تلك القدرة العسكرية كاتبا من الكتاب ، وكان على وزارة المعز .

فلقد جرب المعز قائده جوهرا الصقلى فى غير موقعة ، فأبلى ، إلى أن انتهى إلى المعز أن الأحوال فى مصر قد اضطربت بعد وفاة كافور الإخشيدى ، وأن الغلاء فيها زاد وعم ، وأن الفتن انتشرت ، وأن بغداد فى شغل عن مصر بفتنتها هى ، عند هذه وجد المعز الفرصة سانحة لأن يثب إلى مصر . وحين يفكر المعز فى الوثوب ببلد ما .. يفكر فى قائده جوهر الصقلى . فسيّره إلى مصر وخرج يودعه ، وسار جوهر يقصد مصر . وهناك على حدودها يلْقى الإخشيد فى جند مبعثرة غير متماسكة ، ما يكادون يلقونه حتى يتفرقوا أيدىسبا . ودخل جوهر مسجد ابن طولون فصلى فيه ، وكان مما استحدث أنه زاد على الآذان فيما يقولون هذه العبارة : « حى على خير العمل » فكان أول آذان من لونه أذن به فى مصر .

وحين استقر الأمر لجوهر بعث إلى المعز يبشره ، وبعث مع البشير بالهدايا ، وبعث مع الهدايا الأعيان من دولة الإخشيديين ، وبعث مع الأعيان نفرا من القضاة ونفرا من العلماء . واستقبل المعز هذا كله . سره خبر الفتح سرورا ألهاه عن أن ينظر إلى الهدايا .. ولكنه لم يلفته عن أن ينظر إلى الأعيان ، فأمر بحبسهم ، وكاد أن يفعل مثلها بالقضاة والعلماء ، غير أنه ارتد إلى نفسه ، فرأى أنه بعد قليل داخل مصر . وأنه لابد له من أن يمهد لهذا الدخول فى قلوب مصر ، من القضاة والعلماء ، فردهم إلى مصر مبجلين مكرمين .

والتفت جوهر يعد لمقدم المعز ، لا يرى الفسطاط القديمة ولا القطائع من بعدها تغنيان حاضرتين فى استقبال الخليفة شيئا ، وكان هم جوهر أن يضفى على ذلك القدوم ألوانا من المهابة والإجلال ، ليغرس فى قلوب

المصريين الطاعة ، ويغرس فى قلوبهم الإعظام للخليفة ، من أجل ذلك ، أخذ يعد له حاضرة جديدة تليق بمقدمه ، فكانت القاهرة التى بدأ جوهر فى بنائها استعدادا لمقدم المعز .

ويقدم المعز إلى مصر ، فيدخلها فى الخامس من رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة . وهو يحمل معه جثث آبائه الثلاثة : المنصور ، وأبى القاسم ، والمهدى ، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على ما كان ينويه المعز ، وأنه يريد أن يستبدل وطنا بوطن ، ويجعل القاهرة مقرا للدعوة الشيعية .

وقديما كانت القاهرة محط أنظار الجميع ، كانوا كلهم يتطلعون إليها ، وكانوا كلهم فيها راغبين ، وإذا كان المغرب الميدان الصالح لبدء الدعوة لبعده عن مقر الخلافة ، فلقد كانت مصر فى نظر الفاطميين المكان الصالح للتمكين للدعوة ونشرها هنا وهناك ، لتوسطها بين الأقاليم الإسلامية شرقا وغربا ، هذا إلى ما تمتاز به مصر من ثروة تفيض على أهلها ، والقادمين اليها ، ولما كانت تمتاز به مصر من جنوح إلى الهدوء ، يملى على أهلها فكر يستملى من تلك الأحداث التى مرت به عجلة متغيرة ، تحمل فى طيات تلك العجلة وذاك التغير ألوانا مختلفة ، لا يكاد يكتب لبعضها الاستقرار يوما أو بعض يوم حتى يزحزحه من مكانه لون آخر ، لا ليدوم ويبقى ، ولكن ليتغير هو الآخر ، يصحب ذلك كله عنف وتظله قسوة ، وفيما بين العنف والقسوة دماء تسيل ونفوس تزهق أبرياء يعذبون . تقوم عروش وتثل عروش ، لا نعرف كيف قامت ، ولا نعرف كيف ثلت ، ولكنها كانت حياة تمر تحت تدبر هذا الفكر المصرى ووعيه . ولقد أفادت الأحداث هذا الشعب أن يلقاها آخر الأمر هادئا ساكنا . لا يلقى إليها بالا ، لأنها كانت أعجل من أن تجعله يتحرك لها أو يلقى إليها بالا ، ولأنها كانت تمضى لا تسبقها أسباب تلفته إليها وتشغله بها ، فزاد ذلك فكره هدوءا إلى هدوء .

ولقد ظن الفاتحون هذا الهدوء فى الفكر المصرى خمودا ، وكذا ظنه الفاطميون الفاتحون ، فطمعوا فى مصر جاعلين هذا الهدوء من بين الأسباب الأولى التى حملتهم على دخول مصر .

ولقد أساءوا بمصر الظن إن كان هذا تقديرهم ، وما هدأ المصريون بدخول الفاطميين وغير الفاطميين قبلهم ، إلا لأنهم رأوا الأحداث أكثر من أن يشغلوا بها ، وأسرع من أن يلحقوها ، وأبعد من أن تخضع لفكر أو تمليها أسباب ، فتركوها على هذا النحو تمضى ووقفوا هم يتطلعون إليها وهى تمر عجلة تحت أبصارهم ، وما نظنهم استطاعوا حتى مع هذه الحال أن يلاحقوا الأحداث بأبصارهم حتى لا يفلت منها شىء .

وما نحسب المصريين هدءوا شيئا حين دخل الفاطميون إلا لهذا الذى قدمناه ، ثم لشىء آخر نريد أن نضمه إلى ما قدمنا ، وهو أن المصريين كانت قلوبهم أميل إلى العلويين منها إلى أى بيت آخر ، من أجل ذلك نراهم خرجوا عن هدوئهم الذى استقبلوا به الفاتحين من قبل إلى شىء غير الهدوء . لم يكن غضبا ولا ثورة ، وإنما كان شيئا أقرب إلى البشر والأنس ، لأنهم – كما قلت لك – كانوا يحبون هذا البيت العلوى ويميلون إليه . ولقد استقبل الفاطميين حين دخلوا مصر كثيرون من المصريين الذين كانوا يعتنقون هذا المذهب الشيعى ويؤيدونه ، هذا إلى أن البلاد – أعنى مصر – كانت كما قدمت لك – قد انتهت بعد موت كافور إلى حال من الفوضى والجوع والقحط شديدة ، وتبع هذه الفوضى وهذا الجوع وذاك القحط وباء حصد الأرواح حصدا ، حتى أصبح الناس عاجزين عن تكفين موتاهم وعن أن يدفنوهم ، وحتى اضطروا إلى القاء جثث موتاهم فى النيل ، لذلك السبب .. ولسببين آخرين قدمتهما لك ، وقفت مصر هذا الموقف الهادىء الساكن تستقبل الفاطميين .

وما من شك فى أن هذا الفتح – أعنى فتح مصر – كان له أثر أى أثر

فى بغداد ودمشق ، وبدأ الفاطميون يتحولون بأبصارهم بعد فتح مصر إلى ما وراء مصر .

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأضحت هذه البلاد فاطمية تنافس بغداد حاضرة الدولة العباسية ، التى أخذت الشيخوخة تدب فيها وتوهن عظامها ، وأصبحت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، تابعة للدولة الفاطمية فى المغرب .

— ١٧ —

وتحول المصريون من ولاء إلى ولاء ، تحولوا من ولاء كانوا يدينون به دينونة المحكوم للحاكم ، إلى ولاء تدين به قلوبهم وتمتلىء به عواطفهم ، تحولوا من ولاء العباسيين إلى ولاء الفاطميين .

ولقد نجح الفاطميون حين جعلوا القاهرة مقرهم ، وحين أخذوا ينشرون الدعوة هنا وهناك ، لا يألون جهدا ولا يدّخرون وسعا .

وكما كان للفاطميين هذا الطموح المذهبى كان لهم إلى جانبه طموح سياسى ، فلقد جربوا الحياة وعرفوا أنه لا انتعاش لرأى إلا إذا حمته الدولة وحماه السلطان ، وكم عانوا من قبل حين فقدوا هذا السلطان وحين أرادوا نشر رأيهم ومعتقدهم ولا سلطان لهم ، فلقد طال بهم الزمن وتعثرت بهم الخطا حين فقدوا هذا السلطان ، وكان هذا السلطان فى أيدى خصمهم كلما أقاموا صرحا .. هدمه عليهم خصمهم ، وكلما مكنوا لمعتقدهم .. نقض عليهم ذلك خصمهم ، يفرق جماعتهم ، ويقضى على آحادهم .

وما قدر لهؤلاء العلويين أن يخرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها ، وأن يجاهروا الناس بما يؤمنون به بعد أن كانوا يساروهم ، إلا حين استقامت لهم هذه الدولة فى المغرب وحاطها السلطان ، ومكن لها هذا السلطان برهبته ، ودفع عنها هذا السلطان بقوته .

والدعوات أحوج ما تكون إلى أن يساند حجتها ، ويساند أدلتها سلطان يدفع عنها الكيد أولا ، ويجمع إليها الناس ثانيا . وهى إذا ما توفر لها هذان الشرطان مضت تسوق حجتها ، ومضت تكشف عن أدلتها ، لا تنفر منها العقول لتتدبرها ، ولا تتحول عنها القلوب لتتفهمها ، إذ أصحاب العقول أنفر من أن يفتحوا قلوبهم لجديد لأول وهلة ، وأصحاب القلوب أبعد من أن يقبلوا على جديد لأول وهلة ، ولا بد للعقول وللقلوب من هذا السلطان الهيّن أول الأمر يجمعها حول الرأى حينا لتسمع ، وأمدا قصيرا لتفقه ، حتى إذا ما وعت وفقهت .. كان لها الخيار بعد هذا أمام الحجة وأمام الرأى ، ولم يكن للسلطان عليها سبيل ، إذ السلطان الذى يفلح أولا فى جمع أصحاب العقول وإعداد أصحاب القلوب - لا يفلح بعد هذا وذاك فى حمل العقول ولا حمل القلوب على أن تؤمن بالرأى وتعتقده إلا بعد أن تتبين صلاحه وفساده ، فهذا السلطان - كما أحب لك أن تفهمه - أشبه بسلطان الأب .. الذى عليه أن يضع صغيره على أول الطريق إلى الكتاب ليصله به .. والصبى بعدها أمر المضى فيه ، أو التحول عنه .. بيديه .

وهؤلاء الشيعة كان لهم رأى يؤمنون به ويؤمن به معهم الناس ، ويؤمن به مع الأيام أناس آخرون ، ولكنهم كانوا قليلين إذا كانوا على رهبة من سلطان الخصم ، فلا ينفتح لهم عقل ، ولا ينفتح لهم قلب لسماع الدعوة ، ولم يكن العلويون يملكون هذا السلطان الذى فى أيدى خصمهم ليجمعوا الناس حولهم اجتماعا قصيرا ليلقوا إليهم ما يحبون ، وإنما كان العلويون ودعاة العلويين يلمون بالناس لماما لا يتلبثون ، والناس يتلقفون عنهم لماما عجلين ، من أجل ذلك امتد بالعلويين الزمن ، وعانى الدعاة المحن ، ولم يصل العلويون إلى ما وصلوا إليه إلا بعد دورة طويلة دارتها عجلة الأيام على أجساد وأجساد ، وأزهقت أرواح وأرواح ، وطوحت فى السجون بأناس وأناس ، وإذا هم آخر الأمر أصحاب الأمر ، وإذا السلطان فى أيديهم ، وإذا هم يملكون أن يجمعوا الناس إليهم ، وأن يسخروا ذلك السلطان فى خدمة هذا الرأى ، بعد أن كانوا يسخرون الرأى لكسب هذا السلطان .

وما إن ضمن العلويون السلطان حتى اتجهوا بعيونهم صوب الشام يريدون أن يضموها إلى ملكهم الذى أصبح لهم فى مصر ، ولقد كانت الشام فى ظل مصر يوم أن كان الإخشيديون على مصر . ولقد أصبحت مصر إلى الفاطميين ، إذن فما بال الشام لا يكون إلى الفاطميين أيضا ، ثم ما بال دمشق فيما بعد لا تكون مركزا لنشر الدعوة إلى العراق وما بعد العراق .

وهكذا أخذ الفاطميون يستغلون السلطان أوسع استغلال ، كلما وقع فى أيديهم مركز للدعوة طمعوا فى غيره ، وأغلب الظن أنهم حين استولوا على مصر كانوا قانعين بها مركزا وسطا لنشر دعوتهم ، فإذا هم حين ينزلون مصر وتصبح مصرفى أيديهم ، تنفتح أنفسهم لأمل أوسع ، ويجدون مصر لا يصل اشعاعها إلى البلاد النائية ، ويرجون أن يكون لهم مركز آخر يبلغ إشعاعه إلى ما يريدون . ولا ضير عليهم بعد هذا أن يتلمسوا لذلك الفتح حججه ، وأن يقولوا إن الشام كانت للإخشيديين فى مصر ، ولقد آلت مصر إلى الفاطميين فيجب أن تئول الشام إلى الفاطميين .

وهكذا أخذوا يصورون قضاياهم هذا التصوير السياسى ، لا يريدون أن يصوروها تصويرا مذهبيا ، إذ السياسة قضية عامة .. من اليسير أن يجتمع الناس عليها كلهم ، والمذاهب قضايا خاصة .. ليس من السهل أن يجتمع الناس عليها كلهم ، وما أحب الفاطميون أن يعدلوا عما لا خلاف عليه إلى ما الخلاف عليه واقع . فاختاروا أن يصوروا أعمالهم وفتوحهم ذلك التصوير السياسى ليأمنوا الخلاف عليها .

وبعد حياة حافلة بالأعمال الكثيرة ما بين فتح الشام وفلسطين ، وما بين تشييد وتعمير ، وما بين ابتداع مواسم وحفلات ، مات المعز بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة . قضى فى مصر منها نحوا من أربعة أعوام ، وخلفه على الملك ابنه العزيز بالله ، فقضى فى الملك نحوا من عشرين عاما ، تزيد عليها قليلا ، قضى أكثرها فى حرب القرامطة الذين هالهم أن تخرج الشام من أيديهم ، وكانت لهم عليها إتاوة .

وفى رمضان من عام ست وثمانين وثلثمائة - وهو العام الذى توفى فيه العزيز بالله - بويع الحاكم بأمر الله بالخلافة . ومن قبل هذا بأعوام ثلاثة كان العزيز أبو الحاكم قد عهد إليه ، وكان عمر الحاكم عندما عهد إليه أبوه لا يجاوز الثامنة ، كما كان عمر الحاكم عندما ولى الخلافة لا يجاوز الحادية عشرة إلا بأشهر تكاد تبلغ الستة .

من أجل ذلك قام إلى جانبه وصى ، هو أستاذه ومربيه « برجوان » ولقد ظل « برجوان » صاحب الأمر دون الحاكم إلى أن بلغ الحاكم الخامسة عشرة من عمره .

والحاكم بأمر الله بين الخلفاء الفاطميين حاكم ملحوظ ، وعهده من عهود الفاطميين عهد ملحوظ ، يكاد ينسى الناس كلهم الخلفاء الفاطميين كلهم ، ويذكرون الحاكم . ويكاد الناس كلهم ينسون عهود الخلفاء الفاطميين كلها ويذكرون عهد الحاكم ، لا لأن الحاكم شغل بالفتح وشغل ببسط السلطان ، ولكن لأنه شغل بأشياء داخلية ، فلقد عاش الحاكم لرأيه ومعتقده أكثر مما عاش للسياسة .

وكأن انبساط السلطان الفاطمى واستقرار الدولة كان لهما أثر أى أثر فى لفت الحاكم عن أن يسخر السياسة فى خدمة العقيدة والمذهب ، ولفتاه إلى أن يعيش للعقيدة والمذهب ، وهكذا قضى الحاكم حياته واليا مشغولا بأمر العقيدة وأمر المذهب ، يعنف على النصارى واليهود ، ثم يقرب إليه النصارى واليهود ، يهدم الكنائس ثم يعود فيترك هدمها .

وهكذا بدا الحاكم مترددا كل التردد ، يضفى على نفسه لونا منْ ألوان الالهام والاستيحاء ، وإذا هو على أثر هذا النزاع الذى أثاره بينه وبين السنيين يخلق بين يديه طائفة من الناس تغلو فى إكباره ، واذا هى تكاد تؤلمه . وهذه الطائفة هى طائفة الدروز الذين شغلوا الحاكم بما ابتدعوه

حوله ، وشغلوا الناس بهذا الذى ابتدعوه حول الحاكم ، وفتحوا على الناس بابا من الفتنة فى الرأى جديدا .

لهذا عاش الحاكم ثقيلا على الناس لا يكاد يثق به الناس حتى تتبدل ثقتهم به بعد حين شكا ، ولا يثق هو بالناس إذ سرعان ما تتبدل ثقته بهم شكا .

وفى ظل هذا تعب الناس وتعب الحاكم ، وكان تعب الناس أشد من تعب الحاكم ، فلقد كان تعبه لهوا من اللهو ، وكان تعب الناس جدا من الجد ، يتبدل الحاكم من حال .. إلى حال ليسرّى عن نفسه ويأنس بما يفعل ، ويتبدل الناس مع الحاكم من حال إلى حال .. يحملون الجهد ويعانون المشقة .

ولقد أطمع هذا التقلب من الحاكم ، كما أُطمعت هذه المحنة التى امتحن بها الناس من الحاكم ، أن يغير على مصر مغيرون ، لم يفلح الحاكم فى صدهم و القضاء عليهم إلا بعد جهد ومشقة .

وقضى الحاكم نحوا من خمسة وعشرين عاما يشقى بالناس ويشقى به الناس ، وإذا هو مقتول ، بعد هذه الأعوام الخمسة والعشرين .

ويعزو نفر من المؤرخين قتله إلى تدبير أخته ست الملك ، فلقد دبرت لقتله خوفا على نفسها من شره ، ثم لما بدا عليه من ميله إلى الدروز الذين ألّهوه . كما يعزو نفر آخرون قتله إلى رجل مصرى من الصعيد .. قتله غيرة للدين .

فإن كانت الأولى فهى تدلك على ما كانت تعتمد عليه ست الملك أخته من غيرة على الدين فى الظاهر .

وإن كانت الثانية .. فهى تدلك على ما كان يحمله أهل مصر - وما

قتله إلا واحد من عامتهم - من حمية للدين الذى وجدوا الحاكم يكاد يعدو عليه .

والاثنتان معا .. تكشفان لك عن أن الحاكم كان على خلاف ما يرضاه الناس للخليفة دينا وعقيدة ، وأن الناس كانوا ضيقين به ، يستوى فى ذلك أكبرهم وأصغرهم ، والمحيطون به والبعيدون عنه ، يمثل لك الجانب القريب « أخته » ، ويمثل لك الجانب البعيد هذا الرجل الذى قيل عنه إنه قتله .

وهكذا مضى الحاكم دون أن ينفع نفسه ، ودون أن ينفع الفاطميين ، ودون أن ينفع العقيدة الفاطمية ، بل لعله كان نقطة التحول التى عندها بدأت العقيدة فى الفاطميين ترجع القهقرى ، وبدأ الناس لا تجذبهم إلى تأييدهم أسباب ، وبدأت تلك الدولة التى وجدت لتمضى إلى الأمام .. تقف لتعود إلى الوراء ، وبدأ هذا الملك الذى ناله أصحابه بعد جهاد طويل لا يبشر بأنه سيبقى إلى أمد طويل . وبدأت الدولة التى دخلت إلى الحياة أحرص ما تكون عليها .. تخرج من الحياة آسف ما تكون عليها .

وهكذا يبنى البانون .. أعنى ما يكونون بأن يشيدوا ، لا يقدرون أن سيرثهم أغفل الناس عما بذلوا ، وأبعدهم عما ضحوا . ولو أحس البانون أن جهدهم للعابثين .. لكفوا ، ولو أدركوا أنهم أراقوا الدم ليهدره مَن بعدهم لأحجموا ، ولو علموا أنهم بذلوا الأرواح ليستروح بها من بعدهم .. لضنوا بأرواحهم ، ولكنها سنة الحياة لا ندرى كيف تمضى ، يؤسس جاد لعابث ، ويجمع قاصد لمسرف ، ويبنى بان لهادم ، ويسعى ساع لقاعد ، فإذا ما كسبته الحياة على أيدى الجادين القاصدين البانين الساعين تفقده على أيدى العابثين المسرفين الهادمين القاعدين ، وما كان عمل الجادين ومن إليهم لهم نفعه ، كما لم يكن عمل العابثين ومن إليهم عليهم شره ، بل إن المفيدين من هذا الخير وذاك الشر .. أمم وشعوب بين هؤلاء وهؤلاء تعطى

ثمن هذا الخير عن بذل من دماء وأرواح ، وتنال غرم هذا الشر مسرفا عليها فيما هو أكثر من الدماء والأرواح .

- ١٩ -

ولقد قامت الدولة الفاطمية حين قامت يرى أصحابها - ويرى الناس الذين ساندوها معهم - أنهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم من آل بيت الرسول ﷺ ، فهم نسله من فاطمة رضى الله عنها ، ثم هم من نسل على بن أبى طالب الهاشمى كرم الله وجهه ، فهم هاشميون أولا .. ظلمهم الأمويون حين اغتصبوا هذا الحق منهم ، وهم فاطميون .. ثانيا حين استأثر بهذا الحق العباسيون دونهم .

بهذه الحجة السياسية ذات الصفة الدينية .. دعا الفاطميون لأنفسهم ودعا معهم الناس ، تغلب الصفة الدينية الصفة السياسية ، فتستحيل الحجة السياسية عقيدة دينية ، والناس فى ظل ما يمت إلى الدين بسبب غيرهم فى ظل مالا يمت إليه بسبب ، وما كان المسلمون مع تلك الأدوار التى مرت قد استقامت لهم الصفات السياسية المستقلة فى الحكم ، بل عاشوا تلك الأدوار لا انفصال لسياستهم فى إقامة الحاكم عليهم عن هذه النزعة التى أثيرت منذ بدأ الخلاف بين الأمويين والهاشميين على الحكم ، فما نظروا إلى هذا الحكم كما نظروا إليه حين اختاروا أبا بكر ، ولا نظروا إلى هذا الحكم كما نظروا إليه حين ولى عمر ، ولا نظروا إلى هذا الحكم نظرتهم حين شغلوا باختيار عثمان ، ولكنهم حين اختاروا عثمان بدأوا يرجعون شيئا عما كسبوا ، وحين أختلفوا على علّى أخذوا ينزلون شيئا عما بقى فى أيديهم مما كسبوا ، وحين مكنوا لمعاوية .. استعدوا ليفقدوا كل ما كسبوا ، وحين ورث البيت الأموى الحكم ، كانوا قد فقدوا كل ما كسبوا ، فأشقوا أنفسهم وأرخوا لحكامهم لينعموا .. وينعم فى ظلهم نفر معدودون .

وبقى هذا الخلاف على الحكم قضية كبرى .. شغل بها الذين نالوه يدافعون عنه ، وشغل بها الذين حُرموه يسعون إليه ، وشغلت الأمة مع هؤلاء وهؤلاء تدفع الثمن غاليا من دماء وأرواح وراحة للذين نالوه تدفع عنهم ، وتدفع الثمن غاليا للذين حرموه من دماء وأرواح وراحة ، وهم ينشدونه تسعى معهم إليه ، وعبرت هذه الأمة التى أوتيت أسباب الخير من دين قويم ، يقيم لها حياتها ، ملفوتة عما تمكن به لتلك الحياة القويمة . لا يلفتنا عن ذلك أنها كسبت مجدا وكسبت فتوحا ، ولكن يردنا إليه تلك الويلات التى ذاقتها الأمة ، ثم ذلك الانهيار السريع الذى منيت به ، ثم ذلك التراخى الذى مكن منها خصومها فقطع عليها البقاء الطويل الممتد ، وحال بينها وبين أن تكسب أكثر مما كسبت ، وبين أن تكون الأمة الخالدة ، وأسباب الخلود فى يديها .

ثم إذا تلك الأسباب السياسية ذات الصفة الدينية التى دخل بها الفاطميون إلى الحكم .. تفقد صفتها الدينية التى حمت تلك الأسباب السياسية ، فإذا الناس يتنكرون لتلك الأسباب السياسية حين أنكروا على الفاطميين الصفات الدينية ، وإذا الناس يرون تلك الصفات الدينية – التى خرج عليها الفاطميون حجتهم فى الخروج عليهم ، وإذا الفاطميون يفقدون الأسباب التى جمعوا الناس حولهم بها ، وإذا هم فى واد والناس فى واد ، ولقد خسر الفاطميون ، ولكن الناس كانوا أكثر خسرا ، فلقد ذهب ضر الفاطميين بأنفسهم بذهابهم ، وبقى للأمة ضرها الذى نالها ، ولقد جنى على الفاطميين ، خلف لم يرعوا للسلف عهدهم ، وكما جنى هذا الخلف على الفاطميين .. جنى على الأمة مع هذا السلف .

ولأمر ما أراده نفر من المتسللين إلى القومية العربية فألقوا فى روع الضعفاء من الخلفاء الفاطميين أنهم غير بشر ، وأنهم فوق البشر فلقد أخذوا على المهدى عبيد الله شيئا من ذلك الخروج ، ولا يعنينا أن المهدى أراده ، ولا يعنينا أن غير المهدى من المحيطين به المغرضين أرادوه ، ولكن يعنينا

ان المهدى سكت عنه ولم يبطله ، فلقد أحاطه الناس بهالة من التقديس ، يزعم بعضهم أنه المهدى ، ابن رسول الله ﷺ ، ويزعم بعضهم أنه حجة الله على خلقه ، ويسر بعضهم إلى بعض أنه رسول الله ، ويغلو بعضهم فى الحديث إلى بعض فيقولون : هو الله الخالق الرازق .

ومانشك فى أن كثيرا من هذا كله كان لغوا من اللغو ، ومانشك فى أن المهدى لم يكن يرى هذا ، ولكنا حين ننفى هذا .. لايجب أن ننفى أن المهدى كان يميل إلى أن يضفى على نفسه شيئا آخر غير هذا ، يريد به أن يكون غير الخلفاء السابقين ، ليغرس فى القلوب محبة لاتنفك ، ويغرس فى النفوس تعليقا لايزول ، فأتاح للناس أن يَحمّلوا ما أراد غير ماأراد ، فإذا هذا الذى شاع يتأكد ، وإذا هو مع هذا الذى شاع وتأكد لايحب أن يدفعه ، يحسبه شيئا من الكسب ، يذهب مافيه من غلو ويبقى له مافيه من قصد ، فإذا مافى الأمر من غلو يبقى ليفسد عليه شأنه ، وإذا مافى الأمر من قصد لاينتفع هو به .

وعلى أية حال فلقد كان المدى يؤمن على صورة ما بمذهب أقام عليه الدعوة ، هو هذا المذهب الإسماعيلى الذى مر بك ، لم يشأ أن يجعل الأمر سياسة تتصف بتلك الصفة الدينية ، التى مهدت له أن يدخل إلى الحكم ، وإنما أراد أن يجعل من تلك الصفة الدينية عقيدة جديدة تجعل الحكم له ولآله ، لايخرج عنهم .

من أجل ذلك جد المهدى فى نشر الدعوة لمذهبه لالسياسته ، ولقد كان من الخير له أن يجمع الناس حوّل سياسته التى يمليها الدين ، والتى دخل بها إلى الحكم ، لاأن يقيم بين يدى سياسته عقيدة لايعرفها الناس ليجعل منها وسيلة للبقاء فى الحكم .

ولكن الفاطميين وصلوا إلى الحكم بتلك الصفة الدينية ، عرفوا قدرها ،

وعرفوا أنهم لو لم يكونوا لها مالكين مادخلوا إلى الحكم ، فالتفتوا إلى تلك الصفة الدينية يريدون أن يجعلوا منها شيئا آخر ، ليضمنوا الحكم الذى دخلوا إليه ، فإذا هذا الحرص يجرهم إلى غير ماأحبوا ، وإذا هم يخرجون من الحكم بما أرادوا أن يمكنوا لأنفسهم به .

— ٢٠ —

ولقد خلّف الفاطميون المغرب بعد أن أمضوا به نحوا من ستين عاما ، وحين خلفوه تركوا من خلفهم دعاتهم يدعون لهم الناس ليدخل من لم يكن قد دخل فى مذهبهم على الدينونة لآل البيت ، وكان السنيون يقفون لهم بالمرصاد هناك ، من أذعن منهم نال من عطاياهم ، ومن أنكر عليهم أنكروا عليه ، ونال من عذابهم واضطهادهم ، وإذا المغرب فى فتنة شاملة يشارك فيها العامة الخاصة ، وإذا الدعوة الفاطمية تضعف لتزول ، وإذا المغرب الذى بدأ فاطميا يعود غير فاطمى ، وإذا هو فى سنة (٤٣٣ هـ) قد قطع كل ماكان بينه وبين الدعوة الفاطمية من صلة .

ولقد دخل الفاطميون إلى مصر بهذا السبب الأول الذى دخلوا به المغرب ، فلقد وجدوا فى مصر كما وجدوا فى المغرب قلوبا تميل إليهم وتعطف على حقهم ، لقد كان الناس فى مصر كما كانوا فى المغرب لا يعرفون للفاطميين غير هذا السبب الطيب الحلو الذى يجذب الناس نحوهم ، بهذا قنع الفاطميون أولا ، وبهذا اقتنع الناس ثانيا ، ولكن الفاطميين بدءوا يذيعون عن أنفسهم شيئا غير الذى دخلوا به على الناس وأحبهم به الناس ، فإذا هم يحملون دعوة لم يعرفها الناس لهم أولا ، وإذا الناس يعرفون لهم دعوة تردهم إلى تحلل مما أعطوا .

وأحب أن أصور لك تلك الدعوة كيف استحالت من حق يسير إلى حق معقد ، ومن فكرة هينة على العقول والقلوب إلى فكرة مستعصية على العقول والقلوب ، ومن وسيلة إلى اقامة حكومة عادلة قلوب الناس متعلقة

بها ، إلى وسيلة فى اقامة حكومة مستبدة قلوب الناس منصرفة عنها ، ومن سبب رَغب الناس فيه يستملون فيه عن إيثارهم لآل البيت ، إلى سبب رغب الناس عنه يستملون فيه عن إيثارهم لدين سيد هذا البيت ، رسول الله إلى الناس كافة .

فلقد بدأت الدعوة الإسماعيلية التى دعت إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ترسم لنفسها نظاما ذا صفات ، تعنى أن تجمع الدنيا لها عن طريق ذلك النظام ، لاتعنى أن يكون للدنيا نظامها الذى هيأه لها الدين ، تريد أن تمكن لنفسها بنظامها الذى ابتدعته ، ولاتريد أن تمكن للدنيا بذلك النظام الذى أراده لها الدين ، فهى قد عنت نفسها لتفرض نفسها على الناس ، وعنت الناس لتخضعهم لها ، من أجل ذلك دبرت لنفسها ذلك النظام الذى ألخصه لك فى هذه الأسطر :

فكان الدعاة يبدءون الناس أول مايبدءونهم به باليسير الذى يتفق وعقل المدعو ودينه ومذهبه ، ثم يثيرون شكوك الناس حول المشكل من المسائل الدينية ، فإذا ماأنسوا من الناس ميلا إلى استكناه هذا المشكل .. انتقلوا بهم إلى أن علم هذا عند الأئمة السبعة من ولد إسماعيل ، وأنه لامناص من اتباعهم للنجاة من عذاب الله على أيديهم .

وبهذا يخلعون المدعو عما يعتقد إلى مايعتقدون ، ويؤمن معهم بالأئمة السبعة : على ثم الحسن ثم الحسين ثم على زين العابدين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم إسماعيل ابنه ، مؤيدين دعواهم تلك بأن الله قد جعل الكواكب السيارة سبعة ، وكذلك جعل السموات سبعا والأرضين سبعا ، لذلك كان هؤلاء الأئمة سبعا ، يسقط بعضهم إسماعيل ويجعل الإمام السابع ابنه محمدا ، ويجعلون هذا الإمام السابع هو صاحب الزمان ، وأن عنده علم الباطن وعلم التأويل ، وأنه يعرف الأسرار ، وأن دعاته هم الوارثون .

وكما كان الرسل الذين جاءوا بالشرائع سبعة .. كان الأئمة سبعة ، لكل

رسول صاحب يأخذ عنه ، ويكون ظهيرا له فى حياته ، وخليفة له بعد وفاته . وهؤلاء الأئمة السبعة هم المساعدون . هم الأساس .. والصامتون .. يعنون بالأساس أولهم وهو على ، ويعنون بالصامتين الستة من بعده . إلى أن يصلوا بالمدعو إلى أن هذا الإمام السابع فى مكان النبى وأن طاعته واجبة .

وفى ثنايا هذا النظام كثير من الحشو الفلسفى المضلل ، الصارف للناس عن المنهج الدينى السليم ، أراد به المتسللون إلى العرب أن يزلزلوا عقائدهم ، وأن يصرفوهم عن دينهم أولا ، ثم عن دنياهم ثانيا ، التى دخلوها بفضل هذا الدين أقوياء ، وكانوا على وشك أن يجعلوا الدنيا كلها لهم دينا وسياسة .

ولقد اشترك الفاطميون فى هذه الدعوة وحاطوها بالكثير من عنايتهم ، وجعلوا لداعى الدعاة - أيامهم - شأنا أى شأن ، وجعلوا مقره دار الخلافة ، وعنه يأخذ الداعون وينتشرون فى الأرض ، كما أضفوا على داعى الدعاة هذا صفات لها قدسية مستمدة من قدسية الخليفة ، فكان بعد أن يحاضر داعى الدعاة الناس ، يقبل عليه الناس فيقبّلون يديه ثم ، يمسح على رؤوسهم برقعة فيها إمضاء الخليفة .

وهكذا رضى الخلفاء الفاطميون من الناس أن ينظروا إليهم على أن لهم قوة إلهية ، ويقال إن نفرا من المغرضين الذين كانوا يحرصون على أن يشيع هذا بين الناس كان ينصح المعز بأن يقضى يوما - عيّنه له - محتجبا عن الناس ، غير أن المعز أغراه ذلك فاحتجب عن الناس أشهرا وقيل عاما ، حتى ألقى فى روع الناس أنه صعد إلى السماء ، ويتمكن هذا فى قلوب الأغرار ، فكان إذا رأى أحدهم سحابة تمر فوق رأسه ، وكان راكبا ترجل ورفع إليها بصره فى خضوع وهو يقول : السلام عليك ياأمير المؤمنين .

وفى هذا الشعر الذى مدح به ابن هانىء المعز ، مايكشف لك شيئا عن

ارتياح المعز لما أضفاه الناس عليه ، فلقد أنشد ابن هانىء المعز ، والمعز يسمع :

هو علة الدنيا وقد خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

فلم يقل المعز شيئا ، وقد نقول إن المعز رأى ذلك غلوا من غلو الشعراء . ولكنا نرى ابن هانىء يخطو من هذا إلى غيره فيقول للمعز :

أقسمت لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمفخرك السموات العلى وتنزل القرآن فيك مسيحا

فما ينكر عليه المعز . وقد نقول إن المعز عدّه أيضا غلوا آخر من غلو الشعراء ، ولكن ابن هانىء يعدو هذا وذاك إلى غيره فيقول للمعز :

هذا الذى ترجى شفاعته غدا حقا وتخمد أن تراه النار

ويسكت المعز فلا يقول شيئا ، ومانظنه عد هذا غلوا من غلو الشعراء . فلقد كان ابن هانىء من هؤلاء الدعاة للدعوة الفاطمية بشعرهم ، وحسبك أن تقرأ له هذين البيتين اللذين بعث بهما إلى المعز ورضيهما المعز :

وروح هدى فى جسم نور يمده شعاع من الأعلى الذى لم يجسم
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه عن الله لم يعقل ولم يتوهم

— ٢١ —

وهكذا توسط الفاطميون الأمر مع الناس بغير مااستقبلوهم به ، وإذا المصريون بعد المغاربة لم يرضوا أن يؤله الفاطميون أنفسهم فسخطوا ، وخسر الفاطميون الوسيلة التى دخلوا بها إلى قلوب الناس ، أو دخلوا بها إلى الحكم بعد أن كسبوا قلوب الناس ، وخسر الناس الفاطميين بعد أن لفوا حبلهم بحبلهم ، وبعد أن عقدوا الأمل على تلك التجربة التى رجوا فى ظلها الخير ، وبعد أن بذلوا فى سبيلها مابذلوا ، وإذ الناس خاصتهم وعامتهم

يتنكرون لعقيدة الفاطميين أولا .. ليتنكروا لحكمهم ثانيا ، فعلى سلم العقيدة رقى الفاطميون للحكم ، وعلى سلم العقيدة نزل الفاطميون عن الحكم .

تحس ضيق المصريين بالفاطميين وتنكرهم لهم عقيدة وحكما فى هذين البيتين اللذين كتب بهما شاعر مصرى فى ورقة وضعها على المنبر ، ويرقى الخليفة العزيز أبو الحاكم المنبر فتقع له الورقة ، فإذا فيها :

بـــالظلم والجـــور قـــد رضينـــا وليس بـــالكفر والحمـــاقـــه
إن كنت أعطيت علم غيب فقـل لنـا كـاتب البطـاقـه

كانت هذه حال العزيز وحال الناس منه ، وماكان العزيز يسرف فى الإفصاح عن نفسه إفصاحا كثيرا ، وكانت حال الناس مع الحاكم ابنه أشد تنكرا وأشد سخطا ، لأن الحاكم أفصح عن نفسه إفصاحا كثيرا ، لم يرده عن غيه ماوقع لأبيه وماوقع لمن قبل أبيه من أجداده ، لأن هؤلاء الحكام كما قلت لك كانوا يريدون الدنيا لهم لاللناس ، وهم حين فعلوا الأولى خسروا أنفسهم بعد أن خسروا الناس ، ولو فعلوا الثانية لكسبوا أنفسهم بعد أن يكسبوا الناس .

ولقد دخل الحاكم الحياة يؤمن بما يقول الغلاة : إن روح الإله حلت فيه ، ويقر ماقاله غال من الغلاة فى المسجد العتيق ، وبحضرة قاضى القضاة : باسم الحاكم الرحمن الرحيم . ويرتاح إلى ماكان يفعله بعض الغلاة حين يرونه فى الطريق فيركعون ويصيحون : أنت الواحد الأحد والمحيى المميت .

ولو كان الحاكم ذا فطنة لرد هذا على الغلاة . وهم قلة ، لتخلص له قلوب الناس ، وهم كثرة ، ولكن الناس إذا خدعوا ضلوا ، وإذا ضلوا فقدوا الأسباب الصحيحة ، وأبعد الناس عن أن يَضل هو أبعدهم عن أن يخدع ،

فليس شيء شرا من الخديعة على عقول الناس ، إذا دخلت على عقول الناس أفسدت كل مالهم ، فلا يعودون يصدرون عن حكمة ، ولا يعودون يصدرون عن رويّة ، ولا يعودون يصدرون عن تدبير .

وهكذا دخلت الخديعة على عقل الحاكم كما دخلت على عقول غيره من قبله ، ولكن حين دخلت على عقل الحاكم .. صادفت منه هوى كثيرا وميلا كبيرا ، فإذا هو مع الغلاة ، وإذا هو يمعن إمعان الغلاة ، لايدعهم وحدهم يحملون العبء فيجد له عند الناس شبه عذر ، بل يمضى مع الغلاة يحمل فوق عبئهم ، فإذا هو لايجد عند الناس عذرا ، أو شبه عذر .

فلقد رووا عن الحاكم أنه كان يحتفظ عنده بتمثال يسميه أبا الهول ، وكان إذا سُرق من تاجر شيء ذهب إلى الحاكم يشكو إليه ماسرق منه . وكان الحاكم يوقف الشاكى بين يدى التمثال يقص عليه ماضاع منه ، ويصفه له . وكان الحاكم قد أقام فى جوف التمثال رجلا يسمع ويجيب . وكأنى بالحاكم كان على علم بما يُسرق من الناس .. ينقله إليه عيونه ، ويلقيه هو على هذا الرجل الذى أقامه فى جوف التمثال . أو لعل الحاكم – وهذا ظن – هيأ لتلك السرقات أن تقع بعلمه حتى لاتفوته ، وحتى يتمكن من أن يقول رجله قولا غير كاذب ، وسواء أكانت هذه أم تلك ، فلقد عرف الناس أن تمثال الحاكم يخبر بالغيب ، وأن تمثال الحاكم يعرف السرائر ، وأن تمثال الحاكم سر من الحاكم ، فصدق به المغروررون المخدوعون . وأضاف هذه الغلاة الداعون إلى الحاكم ، فإذا هم يجمعون إلى حججهم حجة أخرى .

وكان الحاكم يقسو على السارق حين يخبره رَجله به ، فينكل به نكالا شديدا ، ثم يقتله . فألقى بهذه الحيلة درسا قاسيا على السارقين . فإذا هم يكفون عن السرقة ، وإذا التجار يتركون حوانيتهم فى أمن لايكادون يغلقونها .

يحسب الحاكم أنه علام الغيوب ، ويحسب الناس قد آمنوا به علاما للغيوب ، فتطمئن نفسه ، وماطمأنت نفوس الناس .. فلقد عرفها الناس حيلة وعرفوا أنهم يجهلون أمرها ، وعرفها الحاكم أولا حيلة ثم اغتر فحسبها حقيقة ، وحسب الناس معه على هذه الحقيقة .

وهكذا يخدع المخدعون أول مايخدعون أنفسهم ، يخالون بادىء ذى بدء إنهم قد خدعوا الناس ، وماخدعوهم ، وإذا هم قد خدعوا أنفسهم ، وسلم الناس ، ولقد مضى الحاكم فى حيلة لم يبرأ منها ولم يبرىء نفسه منها ، يريد أن يملأ نفسه غروراً ويريد ألا يفقد فى قلوب الناس ماأحب أن يكون له فى قلوب الناس ، فإذا هو يصطنع عيونا له من النساء ، يدسهن على الناس فى دروهم لينقلن له مايرجى فى البيوت من شئون خاصة ، فإذا هو على علم كثير بما يدور هناك ، علم مرده إلى هذه الحيلة الدنيئة ، يحيله هو إلى علم بالغيب ، ليضفى على نفسه تلك الصفة العليا ، التى هى من صفات الله .

يروى ابن خلكان فيما يرويه عن الحاكم أنه كان جالسا فى مجلسه العام وهو حافل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) والقارىء فى أثناء ذلك يشير إلى الحاكم . وحين فرغ القارىء من قراءته ، وحين فرغ من إشارته انبرى رجل صالح فى المجلس فقرأ : (ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) .

ويقول ابن خلكان : إن هذا الرجل الصالح عندما انتهى من قراءته تغير وجه الحاكم ، وأراد أن يكشف عما فى نفسه ، فوهب للأول مائة دينار ، ولم يهب للثانى شيئا .

وبهذه دلك الحاكم على مافى نفسه . دلك على أن ميله هنا لاهناك . وكان الناس يعرفون هذا له . وعرفوا أنه لابد واقع على هذا الرجل الصالح فمعاقبه أشد العقاب ، وخاف الناس على هذا الرجل الصالح أن يناله عقاب الحاكم ، فنصحوا له أن يغيب عنه وأن يختفى ، وخرج هذا الرجل للحج لينجو من الحاكم ، غير أنه لسوء حظه وحسن حظ الحاكم غرق فى البحر ، فإذا الحاكم يضيف إلى نفسه شيئا ، وإذا الغالون يضيفون إلى الحاكم ماأضاف هو إلى نفسه ، وإذا هو بعد هذا .. يدعى الألوهية . وتبدأ الدعوة القائلة بأن الله قد تجسم فيه ، وأخذ أتباعه يعلنون عبادته وتوحيده وتنزيهه .

فثار المصريون الوادعون وأسرفوا فى الثورة ، واغتالوا كثيرا من الدعاة وكثيرا من أنصار المذهب الفاطمى ، وثار الحاكم هو نفسه .. فأسرف فى النيل من المصريين الوادعين ، وأطلق العنان للسوادنيين ، وكانوا جنده ، فإذا هم يبطشون بالمصريين الوادعين بطشا لارحمة فيه ولاهوادة .

وعلى أية حال فلقد كان سخط الأهلين ذا أثر ، إذ نستطيع أن نقول : أنه كاد يرد الحاكم شيئاما إلى عقله ، فلقد كانت كتب الأمان التى أعطاها الحاكم رعاياه من النصارى عام وفاته مفتتحة بما افتتح به الخلفاء كتبهم ، فيها ورع وفيها خضوع . إذ يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله .

لاندرى أكان هذا لثورة الناس به ، وأن تلك الثورة ردته إلى هذا العقل بعد التورط الطويل ، أم أنه الموت حين سعت إليه سواعيه رده إلى عجزه الإنسانى .. فانقلب يؤمن بأنه لاحول له ولاقوة .

— ٢٢ —

وماأظن هذه الأخيرة التى جاءت للحاكم فى كتب أمانة شفعت له

ولاحوّلت الناس عن رأيهم فيه وفى هذا البيت ، فلقد ظل الناس يعرفون الحاكم بصورته الأولى الطويلة ، ولم يعرفوه بصورته الأخيرة القصيرة ، ولو أن الدعوة إلى الرأى الفاطمى انقطعت بعد موت الحاكم لأعطت الناس الفرصة فى أن يقولوا : إن الحاكم تاب وثاب ، ولأعطتهم الفرصة فى أن يعرفوه بآخره .. لابأوله ، ولكن الدعوة الفاطمية بقيت ثم اشتدت ، فلم يشأ الناس أن يعدلوا عن رأيهم الأول فى الحاكم ، بل ضموا إليه ماجاء على يد خلفه ، فإذا هو منهم وإذا هم منه على رأى ، وإذا رأى الناس هو هو فى هذه الأسرة ، لاينظرون إلى ماكسبوا على أيديها من مظاهر فى الحياة ، فلقد عزوا هذا إلى تطور الحياة ، وعزوا غيره إلى الفاطميين ، فلم يذكروا الفاطميين إلا بما ابتدعوا من آراء أفسدت عليهم الحياة ، ولم يذكروهم بما كان فى عهدهم من وثبات لمعت بها الحياة شيئا .

وماأظن نصيب الفاطميين بدعوتهم فى مصر .. كان خيرا من نصيبهم بدعوتهم فى غير مصر بعد هذه الهزيمة الفكرية ، وماكان يعنى الفاطميين غير مصر بقدر ماكانت تعنيهم مصر ، فلقد كانت مركزا للدعوة والخلافة ، وكان غير مصر نواحى للدعوة لامركزا للدعوة والخلافة ، وكانت الدعوة فى غير مصر تضم إلى الفاطميين مؤيدين أكثر مما تضم رعية ، لذلك لم يحم المؤيدون الدولة الفاطمية فى تلك الأطراف من أن تسقط حين خذلتها الرعية ، ولقد كان المؤيدون فى تلك الأطراف يلفتهم إلى الدعوة أن لها دولة ، فحين ذهبت الدولة لم يعد يلفتهم إليها مايغريهم بها ، ولقد فقد الداعون أنفسهم الحمية حين فقدوا السلطان الذى حموا الدعوة به ، ولقد كان همهم الأول ذاك السلطان ليظلوا به الدعوة ويمكنوا لها ، فحين فقدوه .. فترت نفوسهم ، وباتوا يحمونها ويحمون أنفسهم بسلطانهم هم أنفسهم ، وماكان أضعف سلطانهم ، ثم ماكان أضعف دعوتهم ، ثم ماأكثر ماأضعفوها هم به من غلو مفسد ، ورأى مضلل .

وبعد أن قتل الحاكم .. ظهرت أخته ست الملك وأجلست ابنا للحاكم صبيا لم يبلغ الحلم على كرسى الخلافة . وبايع له الناس ببقية فى قلوبهم من الخوف ، وبقية فى نفوسهم من المحبة ، فما كان الناس قد قووا القوة كلها على أن يخلعوا عن نفوسهم الخوف ، وما كان الناس قد قووا القوة كلها على أن ينزعوا من قلوبهم المحبة القديمة المتوارثة ، ثم ما وجد الناس من بينهم رجلا ذا بأس وذا حزم يلتفون حوله ويولونه .

ىن أجل ذلك .. مضى الناس يبايعون لهذا الصبى ، يسكتهم أمل ، ويغريهم طمع ، فى أن يجدوا على يد الابن ما لم يجدوا على يد الأب ، ثم هم قد وجدوا أخت الحاكم شاركت فى قتله ، فما بالهم لا يزدادون أملا ولا يزدادون رجاء فى هذا الفاطمى الجديد . ثم إن الحاكم قد مضى مقتولا فما بالهم لا يزدادون أملا ولا يزدادون رجاء بهذا الدرس الذى لُقنه الحاكم ليرعاه من بعده .

وهكذا كانت هذه الأسباب كلها مما أغرت الناس بالسكوت ، ومما أغرتهم بالصبر ، ومما أغرتهم بأن يبايعوا . والمصريون أميل الناس إلى الأمن .. إلا أن يفقدوا أسبابه كلها ، وأحرصهم على الطاعة .. إلا أن يدفعوا إلى غير الطاعة ، وأوفاهم قلبا بالمحبة .. إلا أن تنمحى من قلوبهم أسباب المحبة ، وأحب الناس فى أن تمضى أمورهم رخاء لا يجنحون إلى الاضطراب إلا إذا حملوا عليه حملا ، هذا خلقهم لا عن ضعف واستكانة أو ذلة ، ولكنهم يحبون ألا يستعجلوا التجربة ، وألا يقطعوا عليها سبيلها ، وألا يثيروا حولها ما يفسدها إلى أن تسقط التجربة نفسها . من أجل ذلك عاشوا يعون التجارب كاملة .. لا يحسون لوما فى دخيلتهم على محاولة منهم كانت ضد هذه التجارب التى مرت بهم ، وهم على ذلك مفيدون ، والخاسر غيرهم ، وهم أمة والخاسر فرد أو أسرة ، والأمم ذات تاريخ ممدود ، والأسر ذات تاريخ محدود ، وما تخسره الأسر ينضم إلى تاريخ الأمم عظة تنتفع بها ، ودرسا تستملى منه تاريخها .

وخلا الأمر لست الملك دون الخليفة الصغير تدبره هى سنين أربع ، وخلفت الحياة ، وخلفت الخليفة الصغير فى رعاية خادم له ، إلى أن شب ، وحين شب شغلته الحروب بينه وبين الخارجين عليه بالشام إلى أن مات سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

فولى الأمر من بعده ابنه المستنصر ، فيلقى محنة كانت فى الحسبان ، فلقد انتقضت إفريقية عليه ، وقطعوا الخطبة له ، وخطبوا للقائم العباسى .

وما إن مرت هذه المحنة حتى تلتها محنة أخرى ، كانت هى الأخرى فى الحسبان ، فلقد كان للمستنصر أمٌّ ، وكادت هذه الأم أن تستأثر بالحكم دونه ، هى التى تصطنع الوزراء وهى التى توليهم . فإذا ساء ظنها بأحدهم أوغرت صدر ابنها الخليفة عليه فقتله ، فكان عدد من ولت من الوزراء ثلاثة ، وكان عدد من قتلت من الوزراء ثلاثة ، يذكر المؤرخون لها هؤلاء الذين ولتهم وأوعزت بقتلهم . كما يذكرون لها ولابنها الاستعانة بموال من الأتراك ليمكنوا لهما ، وما يفعل مثلها الحكام إلا حين يفقدون ثقتهم برعيتهم ، وكان إلى جانب الأتراك عبيد ، كانوا هم الآخرون ليمكنوا لهما .

وتقع الفتنة بين الأتراك وبين العبيد ، يثور هؤلاء بهؤلاء ، ويثور هؤلاء بهؤلاء ، وإذا الأمور مضطربة ، وإذا الناس فى هلع وفزع ، يصطلونها نارا أنى توجهوا ، ويقوى أمر الأتراك وإذا هم يخرجون عن القاهرة إلى الاسكندرية ودمياط فيستولون عليهما ، ويقطعون الخطبة للخليفة الفاطمى فى الاسكندرية ودمياط ، وفيما حول الإسكندرية ودمياط ، وإذا زعيمهم يرسل إلى الخليفةالعباسى ببغداد يريد أن يجعل أمر مصر إليه مرة ثانية ، غير أن المستنصر صالحه .

وكما تعرض المستنصر لهاتين .. تعرض لغيرهما من حروب جرت عليه ويلات وكلفته أموالا ، حتى ليقال أنه غدا لا يملك غير بساطه الذى يجلس عليه .

وإذا كانت حال الخليفة قد انتهت إلى هذا الذى يحكونه عنه . ترى إلى أية حال انتهى الشعب ، ما نظنه هو الآخر إلا بات خاوى الوفاض ، لا يملك ما يقتات به ، بل ما يجلس عليه .

وما ساند المستنصر شعب مصر ، ولكن سانده جند من هنا وجند من هناك ، فلقد استقدم بدرا الجمالى من الشام .. خوفا من أن يثور به الأتراك أخرى ، فحضر إليه بدر الجمالى فى جند من الأرمن وغيرهم من المأجورين ، ليمكن له فى الحكم ، وليثبت له عرشه المتداعى ، وهكذا أحس المستنصر أنه غريب حيث يحكم ، ليس من ورائه أمة تشاركه الحكم ، ولكن من ورائه أمة ترخى له ليمضى فى تجربته . ولقد كان فى هذا درس يعيه المستنصر لو كان له أن يعى ، وما أظنه كان يفيد بعد من وعيه شيئا ، فلقد مهد له سلفه إلى هذا السقوط ، ومهدت له أمه إلى هذا السقوط ، ومهد هو نفسه لنفسه إلى هذا السقوط ، وما أظن الدعوة أفادت الفاطميين فى ظل هذا الاضطراب المستمر ، وما أظن الفاطميين أفادوا شيئا حين أفسحوا للدعوة أن تأخذ صورتها المنفرة ، وما أظنهم إلا ضيعوا على أجدادهم سعيهم المضنى ، وما أظنهم إلا ضيعوا هم على أنفسهم ثمرة هذا الجهاد المضنى . ولقد كانت أمامهم الفرصة مواتية ليكسبوا شعبا إلى جانبهم ، فإذا هم قد أبعدوا هذا الشعب عن جانبهم .

– ٢٣ –

ويموت المستنصر عن أولاد ثلاثة : أحمد ونزار وأبى القاسم . وكان المستنصر قد عهد لولده نزار . ويلجأ أبو القاسم إلى عمته .. ليكون له الأمر دون أخيه الذى عهد إليه أبوه . وتعين العمة أبا القاسم على أن يكون الأمر لها ، وتشهد العمة أن أخاها المستنصر عهد لأبى القاسم ولم يعهد لنزار . وتثور الفتنة بين الأخوين نزار وأبى القاسم ، ويقتل نزار ، وينفرد بالأمر أبو القاسم .

وكما خرج أبو القاسم على أخيه خرج عليه الناس فكلفوه حربهم ، وحين خرج الناس على أبى القاسم طمع فيه عدوه من الفرنج فكلفوه حربهم ، ولئن خرج أبو القاسم من حربه مع الناس منتصرا فلقد خرج من حربه مع الفرنج منهزما ، فلقد أغاروا على بيت المقدس .. فقتلوا كثيرا وسلبوا كثيرا .

ويترك المستعلى أبو القاسم الملك ليليه من بعده ابنه أبو على الآمر بأحكام الله ، وكان عندها صغيرا لا يقوى على أن يركب جوادا ، إلا إذا أعانه غيره على ركوبه . وهكذا يخرج هذا النظام الإرثى فى الحكم بالناس من ورطة إلى ورطة ، يجعل الأمر له يليها خلف عن سلف ، وليس للناس رأى فيمن يلى أمرهم ، وما كان أمرهم إلا لهم .

وكان أمر هذا الخليفة إلى أمير الجيوش الأفضل ، وما أن شب هذا الخليفة الصغير حتى تنكر للأفضل ، وقتله ونهب أمواله ، وكانت شيئا كثيرا ، وحين ولى الآمر على جيوشه أميرا غير الأفضل ، لم يلبث أن تنكر الآمر لهذا القائد الجديد فقتله .

وكما عبث الآمر بحياة الناس عبث بحياته ، فلقد كان يؤثر لذته ويؤثر لهوه ، فضاق به أتباعه فوثبوا عليه وقتلوه .

وكان الأمر لا يزال لأتباع الدعوة دون أن يكون للمصريين أصحاب البلد ، وكان أتباع الدعوة لا يزالون بين يدى تجربتهم يخرجون بها من ورطة إلى ورطة ، وكان المصريون لا يزالون ناظرين إلى تلك التجربة ، يخرجون هم الآخرون من ورطة إلى ورطة ، وكان أتباع الدعوة يرجون أن يرتقوا الفتق جاهدين ، وكان المصريون يرخون لضيوفهم ليبلغوا غايتهم التى يريدون ، وكانت ثورة الأتباع بزعميهم كفيلة بأن ترد المصريين إلى سكون ، فسكنوا ينتظرون .

ولم يجد الأتباع الذين ثاروا بالآمر فقتلوه بين أيديهم ابنا للوالى يصلح لأن يولوه . ولم يريدوا أن يخرجوا بالأمر إلى غير من يكون له بهذا البيت صلة أو شبه ، فهم يؤمنون بدعوة .. وهم يؤمنون أن هذه الدعوة متصلة بهذا البيت عن قرب أو عن بعد ، إن لم تكن عن نسب .. فلتكن عن شبه نسب ، فابتدعوا بدعة جديدة ظنوا أنها تصلهم بهذا النسب . فإذاهم يبتدعون أن الآمر رأى امرأة حاملا .. أوحت إليه الرؤيا أنها سوف تلد ذكرا ، وأوحت إليه الرؤيا بعد هذا أن يكون هذا الولد هو الخليفة من بعده ، كما أوحت إليه الرؤيا أن تكون كفالة هذا الولد إلى رجل له قرابة بهذا البيت ، هو عبد الحميد بن أبى القاسم بن المستضىء .

وحين ابتدعوا هذا أقاموا عبد الحميد كافلا ، ولقبوه الحافظ لدين الله .

يجرى هذا كله والناس ينظرون ، يرخون لهذه التجربة كى تبلغ غايتها ، والدعاة غارون ، يخالون أنهم قد خدعوا الناس ، وما خدعوا غير أنفسهم ، ويخالون أنهم قد أقنعوا الناس وما أقنعوا غير أنفسهم ، إن صح أنهم قد اقتنعوا .

ويمضى الحافظ يولى ، ويقتل من يولى ، ويستبد بالحافظ وزير من وزرائه فيحذف اسمه من الخطبة ، ويدعو لغيره ، ويحبس الحافظ ، ثم يثور بالوزير نفر من الأتباع يقتلونه ، ويخرجون الحافظ من سجنه .

ويضيق الحافظ بأمره وأمر الناس .. فيجعل الأمر لابنه ليستريح هو ويريح الناس ، ولكن هذا الابن الذى آراد والده أن يحمل العبء عنه يختطفه الموت بعد شهرين ، وما للحافظ لأن يعود للأمر ثانية فيقيم له ابنا ثانيا .

ويطمع هذا الابن الثانى فى الأمر كله ، لا يريد أن يظل هو يحمل العبء ويظل أبوه خليفة له الغنم .. وحين عزم على أن يفعل نذر به أبوه ففتك بمن اجتمع إلى ابنه كما فتك بابنه .

وما صفت الحياة للحافظ ولا أخلص له وزارؤه ، فلقد عاش بينهم يقتل ويشرد ، حتى إذا ما ضاق بالقتل وضاق بالتشريد ، قنع بأن يحكم وحده ، وقنع بألا يجعل إلى جانبه وزيرا .

ثم يموت الحافظ بعد عمر طويل حافل بالمتاعب ، ويترك هذا الحكم المضطرب لولده من بعده : الظافر بأمر الله .

وما نظن الحياة مضت صفوا للظافر ، كما لم تمض صفوا لأبيه ، وكما شقى الحافظ بوزرائه وأشقاهم معه .. شقى الظافر بوزرائه وأشقاهم معه . ولكن الحافظ خرج من ذلك الشقاء بعد أن قتل من وزرائه دون أن يقتل ، وخرج الظافر من هذا الشقاء بعد أن قتل من وزرائه وبعد أن قتل . وما قُتل الظافر عن خلاف فى السياسة كما قُتل سلف له من قبل ، ولكنه قُتل عن عبث ذميم لا يليق بخليفة .

فلقد حكوا عنه أنه عشق ابنا لوزيره عباس بن أبى الفتوح ، وشاع ذلك بين الناس ، حتى ضج به عباس ، وضج به المخلصون لعباس . فأشار الأصدقاء على عباس أن يقطع الألسنة بقتل الظافر ، وأراد عباس أن يكون هذا لابنه نصير .. الذى تحدث الناس بهوى الظافر له ، ليكون ذلك أفظع للأحدوثة وأبلغ حجة على صلاحه .

وما قصر نصير فى أن يفعل ليمحو عن نفسه عارا كاد أن يلصقه به الظافر ، وهو البرىء ، مما أراد الظافر بعبثه الفاضح أن يحمله إياه ، وسأل نصير الظافر أن يزوره فى بيته ، فخف الظافر إلى هذه الزيارة ، ومعه نفر من خاصته . وما كاد نصير يقع على الظافر حتى قتله ، وحتى قتل من معه ثم دفنهم جميعا فى داره .

ويثور أخوان للظافر يتهمان نصيرا بقتله ، ويثور عباس أبو نصير فيتهم الأخوين بقتله ، وتغلب ثورة عباس ثورة الأخوين ، ويريد أن يجعل له

على الأخوين حجة فيقتلهما ثأرا للظافر . ويزيد ليؤكد الحجة له فيخرج ابنا للظافر ، كان لما يبلغ الخامسة ، يحمله على كتفه وينادى به خليفة ويلقبه الفائز بالله . ولكنه يحس الحرج فيستولى على ما فى القصر من مال وعتاد ، ويخرج به هاربا ، يصحبه ابنه ويصحبه أسامة بن منقذ ، وكان أول من أشار عليه بأن يقتل الظافر .

– ٢٤ –

ويفزع النساء فى القصر لمقتل الظافر ومقتل أخويه معه ، ويلتفتن يمينا وشمالا إلى من يكون لهن فى محنتهن ، فإذا هن يخترن الصالح بن رزيك ، وكان واليا على الأشمونين ، فيكتبن إليه ، ويسرع إليهن الصالح بن رزيك .

ولكن الصالح بن رزيك ما كاد يرد على هذا البيت أمنه حتى نفس عليه من دعونه من نساء البيت ، وإذا عمة للفائز تدبر لقتله ، ويعلم الصالح فيسرع إلى قتلها قبل أن تقتله ، ويجعل كفالة الفائز إلى عمة له صغرى .

ويموت الفائز بعد حياة ساكنة ، فرغ فيها للشعر وللأدب ، والأمر لا يزال لصالح بن رزيك ، فيخف إلى القصر ، ويحضر بين يديه أبناء الخلفاء ، لا يريد أبناء الفائز ، ولكن يريد أبناءه وأبناء غيره ، ليختار من بينهم واحدا . وكان الصالح يريد الأمر له لا يريد عليه مزاحما ، فلم يختر أكبر الأبناء وإنما اختار أصغرهم ، وكان أصغرهم عند ذلك ابن رجل من البيت ، كان عباس أبو نصير قد قتله ، فبايع له الصالح وهو غلام ، ولقبه العاضد لدين الله ، ثم زوجه ابنته ، ليضمن الأمر له كله .

وما فعل هذا الصالح إلا ليستبد بالأمر كما علمت ، وحين استبد الصالح بالأمر أثار نساء القصر ، وكانت أكثرهن ثورة على الصالح تلك العمة

الصغرى التى كان الصالح عهد إليها بكفالة الفائز . فدبرت لقتله ، فاجتمع له السودان فأثخنوه جراحا ، وحمل إلى بيته وهو يجود بنفسه .

ويحكون أنه بقى يوما يعالج سكرة الموت ، وأنه أفاق هنيهة ، فإذا هم يسمعونه يترحم على عباس ، الذى دبر لقتل الظافر .

وكأنى بالصالح حين ترحم قد ندم على أنه لم يفعل مثله ، وندم على أنه أعان من غدر به .

وما نظن العاضد أرضى الصالح فى قبره حين ولى الوزارة ابنه رزيك بعده .

وما نظن العاضد أرضى الصالح فى قبره حين مكن لابنه من الأخذ بثأر أبيه ، فقتل العمة التى دبرت لقتل أبيه ، وقتل معها غيرها ممن اشترك فى قتله ، وما نظن الصالح مضى دون أن يحمل العاضد تبعة دمه ودون أن يمضى وفى نفسه غصة منه ، ودون أن يترك أمر مقتله إلى الله ينتقم له ، ولقد انتقم الله للصالح عجلا ، ومد للعاضد فى حياته ليلقى مصرعا أشد من مصرعه ، مصرع الدولة التى مهد لها أسلاف له سابقون ، وفرط فيها خلف لاحقون ، كان هو آخرهم ، وكان ذلك المصرع على يديه .

فلقد أشار العاضد على رزيك بن الصالح بأن يصرف عاملا له على قوص ، وكان ذلك العامل على قوص هو شاور ، وحين عزل شاور جمع حوله من جمع وقصد القاهرة ، ويشاء القدر أن يقع رزيك أسيرا ، قبض عليه رجل من رجال شاور ، وما إن وقعت عليه يد شاور حتى قتله .. ويستقبل العاضد شاور غير ملق بالا لموت رزيك ، وإذا هو يولى شاور الوزارة ، وكأنه قد أشار بما أشار لذلك ، وإذا هو يطلق يد شاور فى أموال بنى رزيك فينهبها نهبا ، لايبقى لأهلها منها شيئا ، وكأن القدر أراد أن يضم إلى سيئات بنى رزيك سيئة أخرى ليضاعف له النكال ، ولكن

شاور الذى نال ما نال ، إذا هو يخرج عما نال ، لتتم القصة ، فيغلب شاور على أمره رجل كان من أصفياء الصالح بن رزيك .

ويخرج شاور عن الوزارة كما خرج من قبل عن قوص ، وكما أخرجه عن قوص ابن لصالح أخرج عن الوزارة صفى لصالح ، ولكن شارور حين خرج عن قوص ، جمع جموعه يقصد القاهرة ، وهو حين خرج عن الوزارة قصد إلى الشام وحيدا .

ولقد دبر شاور لأمره حين خرج عن قوص ، ثم دبر لأمره حين خرج عن القاهرة إلى الشام ، فإذا هو ينزل على الملك العادل نورالدين بدمشق مستصرخا ، وإذا هو يفرض على نفسه ثلث جباية مصر ، إن جهزه العادل بجيش .

وعاد شاور إلى مصر ، ولكنه لم يعد وحيدا ، عاد يصحبه جيش لنورالدين ، وعلى رأسه أسد الدين شيركوه ، ودخل أسدالدين شيركوه مصر بعد أن انتقم له من مخرجه عنها ، وعاد شاور وزيرا كما كان من قبل .

يجرى هذا والعاضد على كرسيه ، يخرج عنه وزيره على تلك الصورة التى مرت بك ، ويعود إليه على تلك الصورة التى تقرؤها ، وليس له فى الأمر شىء ، وكأن الدولة ضيعة متنازعة .. من فاز فيها بشىء غلب عليه ، والعاضد فى كرسيه يعنيه أن يجنى من الرزق ما يخلص إليه .

ولكن للقصة بقية .. فهى إلى هنا لم تبلغ تلك النهاية التى انتهت بالدولة ليشهدها العاضد وليبلغ الانتقام مداه .

فلقد نكث شاور بعهده لأسد الدين وسلطانه العادل نور الدين ، فخرج أسدالدين إلى الشام يحمل ، - تلك الصحيفة الغادرة .

ورجع أسدالدين من الشام ليعود منها أكثر عدة وأكثر عددا ، ويدخل

أسد الدين مصر .. ويقتل شاور .. ويلى أسد الدين الوزارة . وهكذا يهب العاضد الوزارة لكل طارىء عليه ذى قوة ، لا يعنيه كيف دخل عليه هذا ، ولا يعنيه كيف خرج عنه ذاك ، حال من الضعف تدعو إلى الرثاء ، ولكن الأجل لا يطول بأسدالدين ، فإذا هو يموت بعد شهرين ، وما نعم بالوزارة غير أيام ، ويميل العاضد إلى ابن أخ لأسدالدين .. وهو صلاح الدين ، رآه العاضد صغيرا .. فظن أنه غالبه على أمره ، ورآه دون رجال أسدالدين فخال أنه يملى عليه .

ولكن الظن الذى ظنه العاضد لم يقع منه شىء . فإذا صلاح الدين يغلب العاضد قوة ، وإذا هو يستبد بالأمر دونه ، وإذا هو يقضى على العاضد ، ويقضى على أسباب دعوته ، وإذا هو يهدم دار الحكمة بالقاهرة التى كانت مدرسة للعقيدة الفاطمية .. ليبنى مكانها دار للشافعية .. ودارا للمالكية ، وإذا هو يعزل قضاة الشيعة ليولى مكانهم قضاة من الشافعية .

وكأنى بالعاضد حين قبل أن يدخل عليه الوزارة رجل من رجال العادل نورالدين ، كان قد قبل أن يدخل عليه العادل مملكته ، وكأنى بالعاضد حين ضعف للأولى .. كان فى خلده الضعف للثانية .

– ٢٥ –

وبات نورالدين حين أحس ضعف العاضد وهوانه يفكر فى شىء ، وحين رأى صلاح الدين .. كاد أن يكون له الأمر دون العاضد .. أنعم يفكر فى هذا الشىء .

وحين ضعف العاضد وهان فكر نورالدين فى فض هذه الدولة التى خرج أهلها على العباسيين ، وهم ملوك لينشئوا دولة ، وخرج أهلها عن الملك والعباسيون ملوك .. مارعوا هذه الدولة ، وحين وجد صلاح الدين مستأثرا بالأمر دون العاضد أنعم الفكر فى هذا الشىء .. يرى أن يكون خروج هؤلاء الأهل عن هذه الدولة على يديه .

ولقد أرسل نورالدين إلى صلاح‌الدين يغريه بأن يدعو للمستضىء ، ويقطع الدعوة للعاضد .

وكان صلاح‌الدين يريد شيئا ويخشى شيئا ، كان يريد أن يفعل ذلك ليجنى هو الغنم ، وكان يخشى أن يفعل ذلك عن أمر نورالدين فيشركه نورالدين فى الغنم ، فأخذ يمطل نورالدين متعللا بما يحذره من مخالفة أهل مصر ، وما أساغ نورالدين تلك التعلة .. فكتب إليه يستحثه أن يفعل .

وجلس صلاح الدين إلى أصفيائه يستشيرهم فإذا هم كلهم مجمعون على ما أراد نورالدين ، غير مجمعين على ما رآه صلاح الدين .

ولقد كان صلاح‌الدين يستملى من حرصه على هذا الملك الذى كان يطمع فيه ، فغشى ذلك على عينيه أن تنظرا بعيدا ، وكان أصفياؤه يستملون من حرصهم على حياة صلاح‌الدين .. ففتحت أعينهم لتنظر بعيدا .

وغلب حرص أصفياء صلاح‌الدين حرص صلاح‌الدين ، ويعلو أحدهم المنبر مع أول جمعة من المحرم قبل الخطيب .. فيدعو للمستنصر فلا ينكر أحد عليه شيئا .

وأنى للناس أن يقولوا شيئا ، وقد أرخوا للتجربة لتبلغ مداها ، وهاهم هؤلاء رأوا التجربة قد بلغت مداها فسكتوا عند نهايتها لم يقولوا شيئا يطيل فى عمرها ، كما سكتوا عند بدئها لم يفعلوا شيئا يقف فى سبيلها .

وحين أحس صلاح‌الدين سكون الراحة فى نفوس الناس .. شجع على أن يخطو إلى الأمام خطوة أخرى ، فما أن أظلّت الجمعة الثالثة .. حتى كان الخطباء أنفسهم على المنابر يحذفون اسم العاضد ويخطبون للمستضىء ، أمرهم بذلك صلاح‌الدين .. فما قالوا شيئا ، وسمعهم الناس فلم يقولوا شيئا .

وإن القدر الذى أصاب العاضد بهذه .. أصابه قبلها بمرض حجبه عن

الناس رحمة به أن يسمع ، ورحمة به أن يرى .. حتى لا يثقل عليه العذاب ، وحتى لا يعجزَ عن حمل العذاب .

ومضى العاضد بمرضه لم نعلم على أية صورة مات ، أخليفة أم غير خليفة . ومع الموت يستوى من عظم ومن صغر فى شىء ، ويختلفون فى شىء ، يستوون فى أنهم ماتوا ويختلفون فى أن من مات عظيما يبقى ذكره عظيما ، وأن من مات صغيرا يبقى ذكره صغيرا .

وصلاح الدين الذى أساء إلى العاضد حيا لم يرد أن يسىء إليه ميتا ، والذى هون من العاضد موجودا ، لم يرد أن يهون منه غير موجود ، فلقد جلس صلاح الدين إلى الناس يتلقى العزاء فى العاضد يرى ذلك واجبا عليه لخليفة راحل ، ويرى ذلك واجبا عليه ليكسب عطف الناس عليه فلا يقال شامت .

ويضع صلاح الدين يده على ما ضم العاضد ، فإذا هو قد وضع يده على كنوز لا تحصى من حلى وجواهر ، وألوان غير هذا وذاك من كل نفيس وغال ، وأخرج جميع من فى القصر من أمة وعبد ، فباع شيئا ووهب شيئا وخلا القصر من سكانه وأصبح كأن لم يغن بالأمس .

— ٢٦ —

ومضت الدولة الفاطمية عن أربعة عشر خليفة ، حكم منهم بإفريقية : المهدى والقائم والمنصور ثم المعز إلى أن صار إلى مصر ، والعزيز والحاكم والطاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد .

لقد حكمت هذه الدولة منذ ظهر المهدى بسجلماسة فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ، إلى أن مات العاضد ، نحوا من مائتين واثنتين وسبعين سنة .

وحين انتهى إلى بغداد انتهاؤها .. عمّتها البشرى وازينت وتعالت فيها صيحات الفرح ، وخلع الخليفة العباسى على نورالدين ، كما خلع على صلاح‌الدين ، وإذا الأعلام السود تعود فترفرف على مصر ، كما رفرفت عليها من قبل .

غير أن صلاح‌الدين لم يخلص له الأمر كله صفوا ، فلقد خرج عليه قوم من الشيعة بمصر وبايعوا لداود بن العاضد ، فخرج إليهم صلاح‌الدين ، وقتلهم عن آخرهم ، وبعد حين قليل .. خرج ابنٌ لداود ، وهو سليمان ، واختار الصعيد مكانا له ، فقبض عليه صلاح‌الدين وحبسه إلى أن هلك .

كان هذا فى مصر .. وكان شىء مثله فى المغرب ، ففى فاس .. خرج محمد بن عبدالله بن العاضد ، يدعو هناك لنفسه ، وتسمى بالمهدى ، فإذا هو يقتل ، وإذا هو يصلب بعد أن يقتل .

وما وجد المقتولون منهم آخرا ما وجدوه أولا ، فلقد أثار المقتولون أولا ، يوم أن كان هذا البيت على أبواب الحياة : النفوس . وحرك القلوب ، وهلع لها القاتلون على الرغم من أنهم كانوا يدافعون به عن أنفسهم فيما يخافون ، ولقد مضى المقتولون ثانيا يوم أن ودع هذا البيت الحياة ، وما أثاروا رحمة عليهم فى القلوب حين ودعوا ، ولكن أثاروا أسى ، وأثاروا عبرة حين فارقوا .

ولقد انطوت بانطوائهم صفحة ذلك الجهاد المرير الذى بدأ جاهليا وانتهى إسلاميا ، والذى صدق نبوءة كاهن كما تنبأ بها وفوق ما تنبأ بها ، فما نظن الدماء التى أريقت كانت قليلة ، وما نظن الأرواح التى أزهقت كانت قليلة ، وما نظن الذين شردوا أو عذبوا أو اضطهدوا كانوا قليلين . وما شغل هذا الخلاف بيتين أو ثلاثة ولكنه شغل الأمة الإسلامية كلها ، شغلها به فتنة فرقت عليها كلمتها ، وشغلها به حربا أرهقتها ، وشغلها به رأيا بلبل

عليها عقيدتها ، فإذا هى قد ذاقت الحياة التى ذاقتها هذه البيوت مُرّةً قاسية مبلبلة .

ولقد مضت هذه البيوت لم يبعد منها غير أسمائها ، وبقى بعد أسمائها خيط موصول لهذا البيت العلوى ثم الفاطمى ، ولقد دخل هذا البيت الحياة يهيىء له الناس عن عقيدة ، ومضى فى الحياة يؤسس له الناس هذه العقيدة ، وخرج عن الحياة وقد بقيت له هذه العقيدة .

ولكن هذه العقيدة ما خلقت حتى تفرقت، وما تفرقت حتى فرقت الناس معها ، وما فرقت الناس معها حتى فرقتهم عن الأمة . وما نظن مثل هذه الفرقة دخلت بسلام ، ولا عاشت فى سلام ، وما أحرصنا علىٰ أن تنتهى بسلام .

وما دخلت هذه العقائد المفرقة إلا على ألسنة النافسين على الأمة العربية وجودها ، وما نظن حاضر الأمة العربية خلا مما خلا منه ماضيها ، وكما بدت الفرقة فى الماضى تحمل أسبابها ، كذلك هى فى الحاضر تحمل أسبابها .

غير أن السعيد من وعظه تاريخه ، وأفادته عبره ، يعرفه صريحا ليفيد منه صراحة لا تعرف المواربة ، ويعرفه على حاليه من مرارة وحلاوة .. ليفرق بين قسوة المرارة ولذة الحلاوة ، ويعرفه غير ضجر بعيوبه .. ليطهر هو من عيبوبه ، وغير مغرور بحسناته ليزيد هو على حسناته .

بهذا يتصل التاريخ ، يقيم آخره معوج أوله ، ويتم آخره ما قام فى أوله ، وبغير هذا ينقطع التاريخ فلا يتصل آخره بأوله .

رقم الإيداع ٨٧/٣٩٦٩

مطبعة نهضة مصر